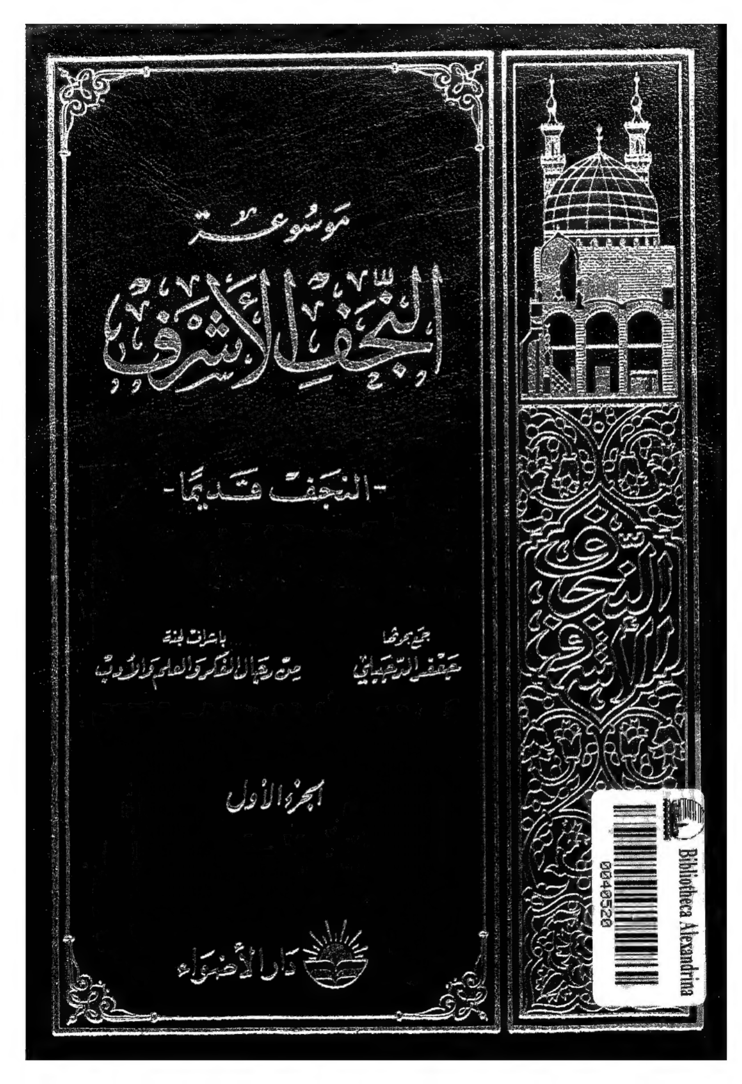
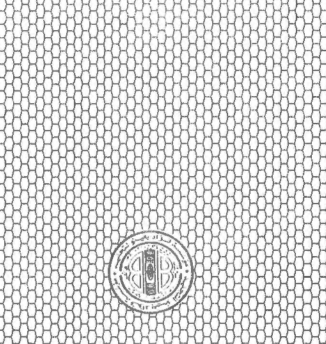
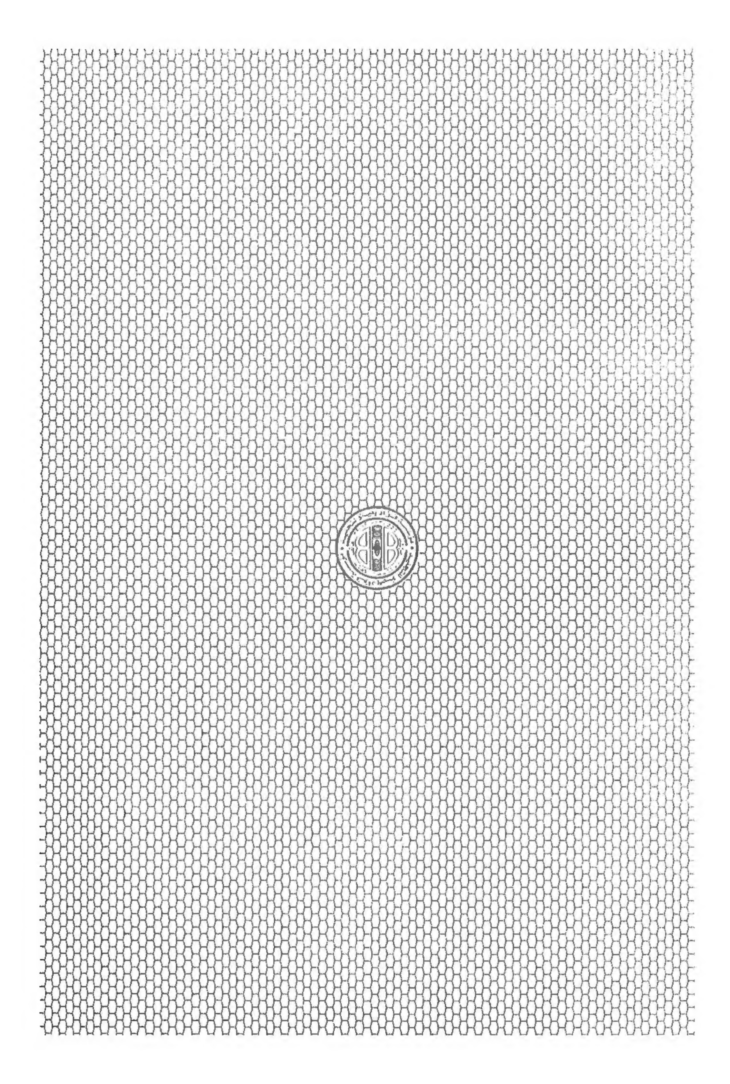

موسوعة
النجف الأشرف
- النجف قديما -
جمع بحوثها
جعفر الدجيلي
باشراف لجنة
من رجال الفكر والعلم والأدب
الجزء الأول
دار الأضواء
النجف الأشرف
Bibliotheca Alexandrina
0040520






موسوعة
النجف الأشرف

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الأضواء

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ٢٥/٤٠ غبيري - أو ١١٣/٦٦٤١ الحمرا.
تلكس ٢٣٧١٧ بيرت - أو ٢٣٤٠٧ هادي - بيروت - لبنان



إشراف

لجنة من رجال الفكر والعلم والأدب

جمع بحوثها

جعفر الدجيلي



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونستعين بك، ونصلي ونسلم على نبيك المرسل بالهدى محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الحمد لله الذي وفقنا لإنجاز هذا السفر المبارك الميمون (موسوعة النجف الأشرف) والذي باكورته هذا الجزء الذي بين يديك.

وإننا نتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم في بحوثها ومواضيعها أو في إخراجها وتنظيمها، ونخص بالذكر منهم:

آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الفقيه.

الدكتور السيد محمد كاظم مكي.

الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني.

العلامة السيد محمد الغروي.

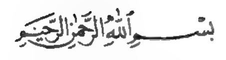
الدكتور السيد محمد بحر العلوم.

العلامة السيد عباس الموسوي. (ابو علي)

العلامة الشيخ محمد جواد الفقيه.

الأستاذ البحاثة الكبير السيد حسن الأمين.

دار الأضواء



كلمة المؤسس

والحمد لله رب العالمين على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد رسول الله وآله خير الورى وبعد:

فلقد عشت ردحاً طويلاً من حياتي في مدينة علم وعلماء، وأدب وأدباء.. مدينة تنتشر فيها المدارس الدينية هنا وهناك حتى ليقول الإنسان إنها كلها مدرسة جامعة وجدت منذ وجدت لتستقبل طلاب العلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، يؤمونها ليتلقوا في مدارسها ومساجدها علومهم.

وكنت في كل يوم أشاهد الطلاب يتجهون إلى الجوامع والمدارس، والصحن العلوي الشريف، فتمتلىء نفسي سروراً بهذه النعمة التي منحها الله سبحانه لبلدي وأهله، وأمضي مع هؤلاء الطلاب لأجدهم وقد اجتمعوا حلقات على الأرض يتلقون دروسهم، فهنا حلقة تدرس الفقه وهناك حلقة تتلقى درساً في الأصول، وفي تلك الزاوية شيخ يعطي طلابه درساً في الحديث. وهكذا تكثر الحلقات ويغزر العطاء.

ولعل أقوى ما يملأ القلب سروراً والنفس راحة معرفة هؤلاء الطلاب الذين أتوا من أقطار شتى، ولا همَّ لهم إلا تلقي العلم، ففي حلقة واحدة يجتمع العربي مع الفارسي والهندي والأفغاني والتيبتي والقوقاسي على كتاب واحد ويتلقون من أستاذ

واحد، فتجمع بينهم الدراسة وتؤتي ثمارها اليانعة وأهمها التآخي والتحابب بين أولئك الطلاب إضافة إلى تلقي العلوم والمعارف.

لقد امتازت هذه المدينة عن غيرها من المدن بخصائص عديدة وكثيرة، وأهمها أنها مأوى الزائرين لمرقد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب(ع) ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله حيث تهوي إليها الأفئدة، وتشد نحوها الرحال.

وإن أنسَ لا أنسى وأنا في شبابي أولئك الزوّار الذين يقطعون ما ينيف على ألفي كلم على البغال، ويبذلون الأموال، ويتحملون المشقة والجهد والنصب غير مبالين بكل ذلك، وكيف يبالون وما يطلبونه يهون في سبيله بذل الغالي والنفيس، ألا وهو التبرك بزيارة مرقد الإمام عليّ(ع) ولثم عتباته المقدسة.

ولا غرابة إذا طارت أفئدة المؤمنين هوىً إليها، وامتلأت قلوبهم حبّاً لها، فقد شهد لها التاريخ على مدى حقبة على أهميتها الدينية والتاريخية الكبرى، وأعرب عن ذلك حب المؤمنين القوي والمتزايد لها، وما مجاورة المؤمنين فيها انتظاراً للقاء ربهم وأمنيتهم بأن يدفنوا بجوار أمير المؤمنين إلا شاهد قوي على حب المسلمين العميق لها.

ومن هذه البيئة المباركة وهذه الحياة انطلق حبي لهذه المدينة عميقاً قوياً متأججاً، ورأيت فيها درّة ثمينة في تاج هذه الكرة الأرضية. وأخذ يدور في خلدي أنني إذا لم أقم بخدمة لهذه المدينة فلا بد أن أدان بالتقصير، ولكن ماذا أقدم والباع قصير والإمكانات متواضعة؟!.

وأخيراً هداني الله إلى ما أصبو إليه وأتوق، فألقى في روعي أن أقوم بإعداد موسوعة كبرى لهذه المدينة، وانبثقت هذه الفكرة سنة ١٩٨٤ وأخذت تحتل في فكري وقلبي مكاناً واسعاً، ولما عرضت هذه الفكرة على من عرفت من أهل العلم والمعرفة ممن عرفتهم وعشت معهم قبل خمسين سنة في النجف الأشرف لقيت منهم التشجيع والإصرار على متابعة الجهد.

ومضى على انبثاق الفكرة ما يزيد على الثماني سنوات، حين بدأت أعدّ العدّة لتناول هذا الموضوع بدقة وعناية وجدية وسرعة، فتداولت مع الدكتور السيد محمد كاظم مكي العاملي الحبوشي، فتفضل مشكوراً بوضع القواعد والنماذج حتى بلغت ١٧

نموذجاً. وسرنا حسب تعليماته المفيدة بجمع كل موضوع يخص النجف، وبخاصة ما ورد في التاريخ، وصرنا نتجول في العراق ولبنان وسوريا وإيران باحثين عن الوثائق حتى كان لنا منها ما يسع مجلدات كبيرة في التاريخ والأدب والفكر والتراجم.

ولا بد من الإشارة إلى أنني بتاريخ ٢٦ رمضان ١٤٠٩ هـ تشرفت بخدمة المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي في مدينة قم فتفضل مشكوراً بإرشاداته وتوجيهاته.

ثم طلبت من الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني (حفظه الله) الإشراف على إخراج هذه الموسوعة فاستجاب مشكوراً.

وأخيراً لا بد من الاعتراف بأني لم آت بجديد، وإذا كانت لي من يدٍ في هذا العمل فإنما هي جمع ما كتبه الأعلام في كل مجال، ولقد كنت أرغب أن أقوم بصياغة جديدة لهذا التاريخ إلا أن هذه الرغبة تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل فاكتفيت بنقل هذه المعلومات كما أوردها أصحابها، راجياً من الله عزّ وجلّ أن يوفق أولادي للأخذ بوصيتي لإكمال النواقص وسدّ الثغرات في طبعات أخرى إن شاء الله وصياغتها بشكل جديد.

وأرجو من كل من يجد شيئاً يخدم فيه هذه الموسوعة أن يرشدنا إليه، وله من الله خير جزاء المحسنين.

والحمد لله رب العالمين.

جعفر هادي الدجيلي

الجمعة ٧ شوال ١٤١٢ / ١٠ نيسان ١٩٩٢

موسوعة النجف الأشرف
والحاج جعفر الدجيلي

بقلم
المرجع الديني آية الله الشيخ محمد تقي الفقيه

بسم الله الرحمن الرحيم

ولله الحمد والمنة

رجل يعيش في موسوعة خالدة وموسوعة لم تولد لولا ذلك الرجل.
أمّا الموسوعة فطلائعها بين يديك وهي تحدّثك عن نفسها.

وأمّا الحاج جعفر، فقد عرفته منذ زمن طويل يزيد عن نصف قرن، ثمّ التقيت به فكريًا بعد ذلك في الربع الثالث من هذا القرن. ثمّ اصطفيته لنفسي وعدد من اصطفيهم من الرجال قليل.

كثيرون هم الأذكياء وكثيرون هم المفكّرون من العلماء الباحثين والمنقّبين، وكثيرٌ هم الأثرياء المتوسطون، ولكن الأثرياء المفكرين الذين تطمح نفوسهم إلى المعنويات قليلون، بل هم أقل من القليل.

هذا، ولكن الحاج جعفر النجفي الذي لمع إسمه في الربع الثالث من هذا القرن في التجارة والإدارة والتفكير، هو من آل الدجيلي، بيت من بيوتات النجف المتوسطة، فيها علماء، وأدباء، وتجّار وأرباب مناصب صغيرة في الدولة فيما أعلم.

والحاج جعفر، استطاع أن يعيش مع المراجع من العلماء، كما يعيش معهم أهل العلم من الطبقة الثانية، واستطاع أيضاً أن يعيش مع الساسة وأرباب الدولة كما تعيش معهم الطبقة الثانية من رجال الدولة والسياسة.

فقد كان يشترك مع هذين الصنفين جميعاً في الرأي والتخطيط وكأنه واحد منهم. وليس هذا بكثير على مثله، فإن النجفيين بجميع طبقاتهم يتمتّعون بالتفوق والذكاء والفطنة والقوة والشهامة والطموح، ويستطيعون أن يعيشوا مع من هو أكثر منهم ثقافة وأعلى منهم مكانة في المجتمع وأكثر منهم ثراء، يعيشون مع هؤلاء وكأنهم منهم ولا يستكثر ذلك عليهم.

النجفيون ـ كما عرفتهم في المدة التي عشتها بينهم، وهي نحو أربعين سنة ـ يعيشون في صميم الدولة العراقية على اختلاف التقلبات التي مرت على حكامها، ومع ذلك فإن التقلبات تحدث وتموت وتأكل أربابها، ولكن النجفيين على ما لهم نصيبهم السلامة.

وهم يهمهم أمر النجف قبل كل شيء ويعيشون مع الدولة كأنهم في معزل عن الحركات المعارضة، وهم في صميمها ويعيشون في شبه معزل عن الزعامة الدينية، مع أنهم يهتمون في صيانتها والمحافظة عليها ما وجدوا لذلك سبيلاً.

ويدلك على ذلك أنك تجد مدينة النجف في هذه الساعة التي نعيش فيها من أعظم حاضرات العراق تخطيطاً وعمراناً ونشاطاً، وهي في ازدياد على الدوام كما يحدثنا بذلك من زارها من قبل ومن بعد، هذا في الوقت الذي تعاني منه المدن العراقية ما تعاني منذ نشأة الحرب.

فإننا إذا قارنا بين نجف اليوم والنجف قبل عشر سنوات مثلاً، نجدها أنها كانت قضاء وأصبحت لواء، وكانت تعد بمئات الألوف ولعلها الآن أكثر من ذلك، وأنها في سعتها تعادل ضعفي ما كانت عليه.

هكذا النجف اليوم..

«النجف قديماً»

أما قديماً، فيمكننا «أن نرسم للنجف» صورة، هي التالية:

النجف، الخورنق والسدير، الكوفة.

حاضرات ثلاث تبعد كل واحدة منها عن الأخرى نحو عشرة أميال تقريباً، ولو أراد المهندس أن يضع خطاً مستقيماً ويصل كل واحدة بالأخرى لشكّل ذلك مثلثاً. أما الخورنق، والسدير، فهما قصران كان المناذرة يقيمون فيها قبل الإسلام ولم يبق منهما إلّا أثار غمرتها الرمول، فأصبحت بشكل ربوة من الأرض، والناس يتحدثون عنهما.

وأما الكوفة فهي بقعة اختيرت لتكون مقراً لجيوش الإسلام بعد حرب القادسية ثم توسّعت حتّى أصبحت مساحتها ٤٠ كلم تقريباً، لأنّها كانت تبدأ بالحيرة المسماة عند العامة «أبو صخير» وتنتهي بالمدينة المسماة بـ «الكفل».

وكانت الكوفة في الصدر الأول دار علم بحدوده الضيّقة، كما هو شأن كل ناشيء، وكانت مصدراً للثورات الإصلاحية المتعاقبة عدّة قرون. فإن مفكري الإسلام المخلصين حين رأوا خلفاء الأمويين والعباسيين منحرفين عن نهج الإسلام الأصيل، أخذوا ينشرون ملاحظاتهم في أرجاء الكوفة. ومنها تتسرّب إلى سائر الحواضر في العراق، ثم تلتهب الثورة، ولم يزل الأمر على هذا الحال حتّى أيام صاحب الزنج الذي بدأت ثورته من الكوفة عام ١٥٥ حين انتهت بالسيطرة على البصرة ونواحيها وانتهى أمره بعد ثمانية عشر عاماً، وقبل أنها أتت على ألف ألف نسمة أي «مليونا» وهل كان هذا العدد في البصرة أو لا؟ ذلك أمر لا أستطيع الجزم به فعلاً.

وقد تحدّث أئمة أهل البيت في أخبار الملاحم والفتن عن خراب الكوفة وزوالها بعد العمران والسعة، ثم عودتها في آخر الزمان، وليس من الغريب إذن أن تعود الكوفة إلى مدنيتها في أيامنا هذه إلى العمران والإزدهار والسعة. والانتشار، والتخطيط المتميز.

فقد اتّصلت النجف بالكوفة حتّى أصبحتا بعد اتصالها بالعمران مدينتين واسعتين، تزيد كل واحدة منهما في خط الاتصال عدة كيلومترات.

وأمّا مدينة النجف التي تأسست في القرن الثالث الهجري ٣٧٠ هـ لأسباب تتعلق بالسياسة المحليّة في بغداد، فقد تبنّاها ملوك البويهيين، فجمع عضد الدولة المهندسين والبنّائيين وامدّهم بالمال والعمّال.

وكانت في ذلك الوقت تعد حديثة التخطيط، من حيث الشوارع، والأسواق، والمدارس وبعد، إتمام بنائها، افتتحها باحتفال ملوكي مهيب حضره بنفسه وبالطبع كان القواد ومقدار من الجيش في خدمته، وحضرها في ذلك الوقت علماء الشيعة، وعظماؤهم، والشعراء، ثم أسكنها العلماء وأتباعهم وعيّن خداماً وسدنة للحرم الشريف، واحضر الأطباء وأمدهم بالأدوية، والأعوان، وعيّن الرواتب لكل من مِن شأنه أن يأخذ الراتب، وصنّف الأسواق. فأصبحت النجف منذ ذلك الوقت مقرّاً للعلم والعلماء وسوقاً للتجارة والتجّار وبالطبع فإن جماهير زوار المرقد الشريف قد تضاعفت أعدادهم أضعافاً كثيرة بسبب الأمن والرفاه، ولم تزل على ازدياد منذ أكثر من ألف سنة، ويمكنني أن أقدّر مجموع من يزورها كل سنة في منتصف هذا القرن - أيام وجودي في النجف - بثلاث ملايين أو أكثر. كما بلغ عدد طلاب العلم في ذلك العهد ما بين ١٢و ١٤ ألف طالب.

ولا غرابة في ذلك فإن هذه البقعة المقدّسة قد اختارها الله وميّزها على بقاع الأرض، فكانت مرقداً ومقرّاً لجسد أبينا آدم، وأبي البشر الثاني نوح، ثم هود وصالح، عليهم صلوات الله أجمعين، ثم تشرّفت فأصبحت مرقداً لولي الله ووصي رسوله محمد (ص) مولانا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين.

وأوّل من بنى بناه وجعل في أعلاه شبه قبة ليتميز عن قبور المسلمين هو الخليفة العباسي هارون الرشيد، ولا يزال هذا البناء حوله وعليه يتعاظم جيلاً بعد جيل حتّى أصبحت النجف في وقتنا هذا من أمهات الحواضر الإسلامية وأقدمها في التاريخ.

وأمّا من تخرّج منها من العلماء ورجال الفكر، وانتجته أقلامهم في أنواع العلوم أكثر من أن يحصيه جمهور من المتخصصين في الأحصاء.

والكتاب الذي بين يديك لا أقول أنه يعطيك صورة كاملة عنها ولكنني أقول سوف يحلّق بك في عالم التفكير وستراه أعظم من ذلك وأعظم.

هذا، وإذا كان الوزير العلقمي من وزراء الدولة العباسية، قد لمع إسمه في التاريخ وأصبح في قمّة الخالدين، وعرفه بعض العامة وجميع الخاصة، لأنّ ابن أبي الحديد المعتزلي ألّف له شرح النهج عندما طلب منه ذلك، وأمر له بالكتب وبكل ما يحتاج إليه.

فإن الحاج جعفر الدجيلي الذي هو دون العلقمي في المجد والمال والسلطان سيكون ثانياً له في التاريخ، لأنّه استطاع أن يقوم بشيء لا يقوم به إلاّ مثل العلقمي، ولأن كلا من شرح النهج وموسوعة النجف الأشرف يهدفان إلى أمر واحد ويرتبط أحدهما بالآخر كما يرتبط العضد بالساعد.

وإذا تهيّء لابن أبي الحديد من المصادر ما تهيء، فسيتهيء للحاج جعفر وأعوانه في عصرنا هذا نظير ما تهيء لابن أبي الحديد بل أكثر لأن عصرنا هذا عصر الطباعة والكتابة ولأنّ الذين استعان بهم ليسوا من قطر واحد، ولا من دولة واحدة، وإنما من دول إسلامية كثيرة.

وفقه الله وإياهم لكل خير.

محمد تقي الفقيه
٧ صفر الخير ١٤١٣هـ
٦ آب ١٩٩٢ م

تقـــديم

بقلم البحاثة الكبير
الأستاذ السيد حسن الأمين

تعني كلمة النجف شيئين اثنين: مدينة قائمة بذاتها ومعهداً دراسياً عالياً للعلوم الإسلامية.

أما المدينة فما كان لها أن تقوم لولا أن الأقدار شاءت أن يدفن في تلك الصحراء القاحلة جثمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

فما من إنسان يمكن أن يختار إقامة مدينـة في الرمـال الصحراويـة، حيث لا ماء ولا كـلأ ولا شجر ولا زرع وحيث لا مكـان للظل الـوريف والجـو اللطيف والخـريـر والحفيف.

ولكن الظروف القاسية المشجية التي اقتضت أن يوارى الرجل العظيم في ذلـك المنتأى القصي حيث يمكن تعمية أمر الدفن عـلى من قدر لهم أن يسـودوا المسلمين من الظلمة السفاحين وعلى من أعمى الله بصائرهم من (الخوارج) على الدين وحكم أمـير المؤمنين، إن تلك الظروف وحدها هي التي حكمت بـين أحباب عـلي (عليه السـلام) أن يبنوا حول قـبره منازلهم، وأن يـأنسوا في جـوار جدثـه بما تفيض عليهم ذكـراه من فيض روحاني وقبس نوراني ينسيهم وحشة المكان وجشوبة العيش وخشونة الحياة.

وهكذا قامت مدينة النجف التي تدرجت من قلة من البيوت والنفوس إلى تكاثر ظل يتعاظم ويمتد حتى أصبح مدينة عامرة تزخر بالسكان وتحفل بالعمران.

أمّا المعهد الدراسي العالي فلن ندخل الآن في تفاصيل تكوينه، وما قيل عن أن ذلك كان قبل حلول الشيخ الطوسي في النجف وما قيل خلاف ذلك، فإن البحث في الأمر ليس من شأن هذه المقدمة الوجيزة، ومهما يكن من شيء فإن صيرورة النجف معهداً علمياً عالياً يتوافد إليه الطلاب من شتى الأقطار الإسلامية، ثم يعودون إلى بلادهم علماء، فقهاء، شعراء، خطباء، محدثين، مفسرين، دعاة للإسلام وحماة للإيمان. إن ذلك لم يبدأ إلا منذ حلول الشيخ الطوسي في النجف بعد اضطراره لنقل مدرسته من بغداد أثر ما تعرّضت له تلك المدرسة من اعتداءات وحشية بلغت شخص الطوسي نفسه، على أثر سيطرة السلاجقة على بغداد وما عرفوا به من تعصّب مذهبي وجهل وفظاظة وظلم.

لقد حلّ الشيخ الطوسي النجف بعلمه الجم وعقله الكبير وفكره المنظّم وإخلاصه الصافي فأقام في جوار قبر (باب مدينة العلم) معهداً للعلم ظلّ ينمو ويتعالى حتّى بلغ عدد رواده في يوم من الأيام ستة عشر ألف طالب قادمين إليه من بلاد العرب والترك والهند والأفغان والتبت ومن كل قطر إسلامي شعّ فيه نور (أهل البيت) وضاع شذاهم وتألّق حبهم.

وكان أولئك الوافدين ينقطعون للعلم وحده فينكبون عليه زاويين عن بهارج الدنيا وزخارفها، وهل أدل على ذلك من أنهم كانوا يجيئون من ظلال الأشجار وتدفّق الأنهار وتغريد الأطيار ومن الورد والنوّار والخصب والإزدهار - يجيئون من كل ذلك إلى حيث يندر الماء وينعدم الشجر وتجف الأرض وتضطرم الدنيا بالحرور وتتأجّج كالتنور فيلجؤون في النهار إلى سراديب في جوف الأرض هي أشبه بالقبور.

يجيئون لا ليقوموا أياماً أو شهوراً أو بضع سنين، بل ليقوموا سنين وسنين وسنين قد تبلغ أحياناً من العشر إلى العشرين، لا لشيء إلا لينهلوا من معبد العلم العشر في تلك الأرض الجدباء.

هذا هو الانقطاع للعلم الذي تفردابه طلاب العلوم في النجف، وهذا هو الإخلاص له إخلاصاً أي إخلاص.

النجف: مدينة ومعهداً لم يكتب تاريخها حتى اليوم ولم تسجل الأقلام مآثرها ولم

يعرفها الناس على ما يجب أن يعرفوها به. وكل ما كتب كان نتفاً متفرّقة لا تدل إلّا على القليل القليل لا يعطي شيئاً من الحقيقة التاريخية التي حفلت بها النجف طوال عصورها العلمية التي زادت على الألف سنة.

وتاريخ النجف لم يكن تاريخ العلم فقط بل كان إلى ذلك تاريخ الشعر العربي الأصيل الذي لم ينحط فيها في كل العصور عن أعلى المستويات الشعرية، ولم يدركه ما أدرك غيره من الإنحطاط في العصور التي عرفت في تاريخ الفكر العربي بعصور الإنحطاط.

وكان تاريخ النجف كذلك تاريخ الثورات على الاستعمار، فمنها تخرّج السيد محمد حسن الشيرازي قائد الثورة البيضاء على الإنكليز. ومنها تخرّج الشيخ محمد تقي الشيرازي قائد الثورة الحمراء على الإنكليز أنفسهم ومنها تخرّج السيد محمد سعيد الحبوبي والسيد مهدي الحيدري والشيخ مهدي الخالصي الذين قادوا جحافل المجاهدين في ميادين القتال. وفيها تربى قادة ثورة العشرين ومن معينها استقى جنود تلك الثورة، ومن منابرها إستمدت جحافلها المتواثبة، وفي حلقاتها نشأ أبو الأحرار الشيخ عبد الكريم الجزائري، وشيخ الثوار أخوه الشيخ محمد جواد إلى عشرات من أمثالهم في كل عصر وزمان.

النجف هذه أم العلوم وأم التقوى وأم الشعر وأم الجهاد لم يكتب شيء من تاريخها الصحيح حتى اليوم.

وهذا ما دعا الرجل الأريحي الشيخ جعفر الدجيلي، وهو ابن بار من أبناء النجف، فيها ولد وفي مجالسها نشأ وعلى ترابها استوى عوده ـ هذا ما دعاه إلى التفكير في سد هذه الثغرة في تاريخ العرب والمسلمين فعمل جاهداً على جمع شتات الأصول التي إليها يمكن أن يستند شداة الحقيقة ورواد الصواب في شؤون التاريخ، فعزم على إصدار ما سماه (موسوعة النجف).

والحاج جعفر حين عزم على ذلك لم يعزم عليه وهو آمن من السرب، ومطمئن الدار، قرير العين. بل عزم عليه وهو نائي الوطن، شريد عن الأهل، غريب المنازل.

إنه عزم على ذلك وقد أقصته عوادي الدهر عن وطنه، وحالت بينه وبين العودة إليه حوارف الزمان. فكان وفاؤه لوطنه أنبل وفاء واعتزازه به أسمى اعتزاز.

بين يدي القارئ موسوعة النجف، ولا ندعي لمعدها الحاج جعفر إن بلغ بها ما يجب أن يبلغ إليه ناشدو الكمال، بل نقول: أنه حاول أن يمهد الطريق لمن يريدون أن يعملوا، ويبعث الهمم الفاترة والعزائم الخامدة وحسب ذلك في هذا العمل الجدي الشريف.

حسن الأمين
١٣ صفر ١٤١٣هـ
١٢ آب ١٩٩٢م



كلمة:

مدينة النجف الأشرف... المقدسة العريقة القديمة... وبعبارة أخرى شخصية النجف، ذات علاقة ورابطة جد وثيقة، وعميقة بالحضارة والثقافة الإسلامية والعربية، ومنذ القدم كانت مهداً للحركات العلمية والأدبية، وفي كافة المجالات بوجه عام، فقد ظهرت شخصيتها خلال القرون المتمادية السالفة على صعيد العلم والأدب، وبرهنت على حيويتها الفكرية، ومناعتها الثقافية، وقوتها لا في عصر ودور ما، وإنما منذ تأسيسها ليومنا هذا، لما اختزنت من المخطوطات الأثرية، والروائع الأدبية طوال العصور المظلمة، إذ لولاها لما وصل وانتهى إلينا اليوم، من معالم تلكم الكنوز والآثار إلا النزر اليسير.

إن كفاح الجامعة النجفية العلمية... وجهادها الفكري، من دون أي تعصب وانحياز معجزة فكرية منبثقة من حقيقة شخصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام... والتي تفاعلت في إخراج الآلاف من الفقهاء، وأئمة الحديث، والفقه والأدب والشعر، والعلوم الإسلامية الذين اندفعوا إلى إحياء مختلف التراث الإسلامي والآثار العربية، فيما قدموا من بحوث وتصانيف، فحفظوا بخطواتهم في هذا المجال كنوزاً ذات قيمة كبرى في تاريخ الفكر الإنساني، فضلاً عن الفكر الإسلامي والعربي، بالرغم من الظروف العصيبة، والشدائد القاسية التي اجتاحت النجف، ولم تدع لأهلها من المواطنين والمهاجرين في أكثر الأحايين فرصة التمتع بشيء من الإستقرار والهدوء والطمأنينة.

أجل... إن شخصية النجف وكيانها رغم تلك الظروف القاهرة التي مرت بها

وهجمات القبائل عليها من كل حدب وصوب، للنهب والقتل والسلب والتهديم والتدمير، لم يكن يسمح لها بالإستقرار والأمن، في الوقت الذي كانت تتمتع بهما بقية المدن المجاورة. . . لم تفقد حيويتها، ونضالها، ونشاطها، ومثابرتها، وإنما كانت لها أشواط وفعاليات مثمرة في حقل الثقافة، بالإضافة إلى أثرها البالغ في تكييف الحركة الفكرية:

والواقع أن كل عاصمة من عواصم الدنيا الكبرى، إذا امتازت بما فيها من جمال، وحسن، وأناقة، وأبهة، وزينة، وجلال، وكمال، فميزة النجف الأشرف، أنها مدينة باب علم النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وعاصمة فقه، وعلوم آل البيت الطاهر، ومصدر المرجعية والتقليد، إليها يولي المسلمون وجوههم شطرها، من كافة الأقطار الإسلامية، ويتوجهون لها من كل صوب وجهة، بعد أن ثوى في تربتها وليد الكعبة. . . وشهيد المحراب الإمام علي بن أبي طالب (ع) بحر العلم الزاخر، وينبوع الحكمة، وفخر الأوائل والأواخر، فقصدها العلماء وهاجر إليها الفقهاء، وعم شطرها الأفاضل والأجلاء والعباد والزهاد، بحيث أصبحت مأوى أئمة الفقه والأصول،ومعقل رجال التشريع، وزعماء الدين، ومراجع التقليد، ومربض أصحاب الفكر والأدب، ومصدر الأنوار الإلهية، ومصباح الهداية الربانية، وأخذوا على أنفسهم الإقامة فيها مدى الحياة، ومن ثم الدفن في تربتها حين الوفاة.

ولهذه العوامل اكتظت النجف بالعلماء المجاورين والمهاجرين، وشيدت المباني والبيوتات، وأقيمت المدارس وتطورت المدينة واتسعت بشكل هائل، وخرّجت آلاف المجتهدين والوعاظ والعلماء، وتفرقوا في البلاد والأرجاء المعمورة، بحيث ليس في البلاد الإسلامية والعربية على تباعد أرجائها، وتشتيت أنحائها مدينة، أو قرية، أو بلد إلّا وفيه عالم ديني وزعيم روحي ينتمي إلى النجف، لذلك كان فضل النجف على الأمصار كثيراً، لأنها منذ البداية تعهدت بحمل أمانة العلم والأدب، ورسالتها برغبة وشجاعة، ومثابرة ومقاومة، ولولا تقدمها وظهورها لكبا الجواد، وخبا الزناد، وانقطعت سلسلة العلوم والآداب الإسلامية، وذهبت معالم ومآثر الشريعة السمحة، وتوارت عن الأنظار.

وقد هيأ الله تعالى. . . للشخصية النجفية من الأسباب والعوامل والبواعث، ما

عاونها على بلوغ غايتها ومواصلة ركبها الفكري، وأداء رسالتها الفكرية، والتاريخ يعلم متى حدث التطور الفكري في بقية الجامعات والحوزات العلمية... حدث وقت أن تعبدت الطرق وساد الهدوء والأمن في الأقطار، وفتحت جامعة النجف أبوابها للوافدين والمهاجرين من علماء التاريخ، والجغرافية، والآثار، والاجتماع، والعلم، فدخلوها ووجدوها بحراً لا ساحل له... ومحيطاً عميقاً لا نهاية لغوره، ولا سبيل لغايته... وبهذا وذاك برهنت ونجحت بالفعل، وكانت الجامعة الفذة، والشخصية العلمية الكبرى التي تستطيع أن توصل بين الحضارات الفكرية القديمة، والحديثة، في كافة نواحيها من الحضارات المتنوعة، والثقافات المختلفة.

إن جامعة النجف الكبرى... أقوى عاصمة علمية ودينية بما حوت من فقهاء، وأساتذة، وعلماء، وقادة، وزعماء أحسوا أن عليهم واجب حماية الدين والعلم والأدب، فعملوا في تنشيطه وتقدمه وتطوره، وبذلوا النفس والنفيس والجهود منذ عصر الشيخ الطوسي[1] إلى يومنا هذا، وأصبحت ذات قوة علمية لها تأثيرها الروحي في نشاط الحركة العلمية الإسلامية.

والذي ينبغي القول هنا، أن جامعة النجف الكبرى (أو مدينة النجف الأشرف بكاملها) مع هذه القيم والخصائص والمعالم، لا تستطيع أن تتخلى عن واجبها الرسالي في يوم ما... وهو تكييف الحركات الفكرية، والنضالات الوطنية، ودعمها بكل صدق وإيمان، ولذلك نجدها في كل دور وعصر مزدهرة بالمكتبات، وزاخرة بالنشاطات الثقافية، والنهضات العلمية، والنتاج العلمي والأدبي والروحي، تفد إليها الوفود الفكرية من الخارج في آناء الليل وأطراف النهار.

لقد كانت هذه الظاهرة العلمية توقظ الهمة، وتشحذ العزيمة، وتهيء السبيل، وتدفع بالطالب إلى الاشتغال الجدي المجدي بالعلم، فراحوا بكل قواهم، وأبرأوا الذمة أمام الله والتأريخ، وبرهنوا على أنهم حملوا العبء، وساروا وراء العلم، والتحقوا بركب الحركة الفكرية، بقلب ثابت ونفس راضية صادقة.

وقد كان لهذه الحركة مظاهر متعددة خارجية، فقد انتعشت الحركات

(١) ستوافيك ترجمته بصورة مفصلة في مجلد خاص.

والحوزات الدراسية والتدريسية والتأليفية، فقام ملوك، وأمراء الشيعة ووزرائهم، والعلماء أنفسهم، ورجال الخير والإحسان بتشييد الكثير من المدارس سيما في عصر الجلاريين، والايلخانيين، والصفويين، ولكنها ضاعت واندرست عـ مرّ السنين والأحقاب، ولم يبق منها في صفحات التأريخ إلا إسمها. . . وبنيت أيضـ في القرون الأخيرة عدة مدارس أخرى، وما برحت قائمة ويدرس فيها كافة العلـ الإسلامية الهامة، وخاصة الفقه، والأصول، ومقدماتها من النحو والصرف والمعـا والبيان، وبعض العلوم الأخرى أمثال اللغة مع عدم وجود صفوف منظمة فيهـ وفقدان مدارس خاصة بها، وكتب خاصة مقررة، ولا أساتذة معنيون لها، بل للطالـ أن يقرأ أي كتاب يختاره عند أي معلم ينتخبه لنفسه، وفي أي مكان ووقت شاء مـ مسجد أو دار أو مدرسة[1].

وعلى هذه الوتيرة كان سير الدراسة في النجف الأشرف. . . منذ الزمن الأو حتى يأتي أمر الله. . . وقد تخرج منها جمع غفير من فطاحل العلماء والفقهاء الـذ كانوا ولم يزالوا غرة في جبين الدهر، ومفخرة للمسلمين في شرق الأرض وغربها، بالر من فقدان التنظيم الدراسي السائد لدى الجامعات الأخرى.

لقد امتلأت المدارس بطلاب العلم على اختلاف ألسنتهم، واختلاف بلاده وتغاير قومياتهم، ممن وفدوا على النجف يستظلون بظلها، ويستمدون رفدهـ وينهلون من مواردها، ولم يزل الكثير منهم في طريقهم لبلوغ مرتبة الإجتهاد والإمامة الفقه وقد قام الكثير منهم بحركة تأليفية مباركة، في شتى المجالات الثقافية الفكر والفقهية والأدبية لحياة العلم والأدب من وجودها.

ومهما يكن من أمر فإن الجوانب التأريخية، والعلمية والأدبية، طال التحد عنها في موسوعات ومقالات وكراريس ورسائل كتبت بأقلام مختلفة، وطبعت خلا السنين السالفة، ولا طائل في تكرارها بوحدها غير أن الذي نحن بصدده الآن ولم يز موضوعه شاغراً في المكتبة الإسلامية، هو إظهار النجف من كافة جوانبها العـا والخاصة، لأن الذي كتب في الماضي كان ناقصاً من نواح مختلفة، ومبتورة من جهـا

(١) ماضي النجف وحاضرها ١/٩٨. معجم رجال الفكر والأدب في النجف ١/ ١٦.

متعـددة، لذلـك لم يكن بأيـدينا مـوسوعـة جمعت بين دفتيهـا وضـع النجف الأشرف وأحوالها بوجه عام، لأن التاريخ وتدوينه يجب أن يكون بعيداً كل البعد عن الميول والاتجاهات والعواطف الشخصية... والمصالح والأغراض الفردية التي لا طائل تحتها.

لذلك ارتـأت (دار الأضواء) إصـدار موسـوعة مفصلة تضم بـين دفتيها تـاريخ النجف الأشرف، منذ العصر الجاهلي، ثم العصر الإسلامي بجميـع أدواره وأطواره، ثم إظهار الشخصية النجفية في مراحلها العلمية، والأدبية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية، وفي شؤونها، وما تكتنف حياتها من الظروف، والعـادات، والتقاليـد في المـواسم والمناسبـات، وأخيراً إعـطاء صـورة كـاملة عما يخص النجف الأشرف بقـدر الإمكان وحسب الطاقة والاستطاعـة، والاستفادة من بعض المؤلفـات التي صدرت في الأونة الأخيرة عن بعض جوانب النجف الأشرف.

هـذا وقبل الـدخول في صميم البحث، لابـد لنا من مقـدمة في تعـريف كلمـة (الموسوعة) وعن ظهورهـا، وكيفيتها، ومـوازينها، ومنـاهجها، واصـطلاحها اللفـظي والمعنوي... والمؤلفات التي تطلق عليها كلمة (الموسوعة)... ولما كان الفقيد الأستاذ جعفر الخليلي[1]... قد وفى الموضوع حقه من الشرح والتوضيح في مقدمة (موسوعـة العتبات المقدسة) لذلك رأينا ـ تحاشياً للتكرار ـ أن نكتفي بإيراد ما كتبه وأن نقتطف منها ما يخص الموسوعة بالذات...

(١) أبو فريدة جعفر بن الشيخ أسد الله بن الشيخ ملا علي بن الميرزا خليل الطهراني ١٩٠٢ ـ ١٩٨٥م ترجمنا له في عدة مواضع من الموسوعة منها فصل (شعراء النجف).

بحث
حول الموسوعات
الحديثة منها والقديمة



وأحب هنا القول أن لبعض الباحثين والمؤلفين كتابات تخص (كلمة الموسوعة) إلّا أن بحث الأستاذ الخليلي. . . كان له كيان خاص جامع يمتاز بالتثبيت والتوضيح، وهذا ما دفعنا إلى تقديمه. . . فقال:

الموسوعة إصطلاح حديث، أطلق على البحوث المستفيضة الواسعة، تقابلها كلمة: (الأنسكلوبيديا) وهي كلمة يونانية تعني مجموعة العلوم والفنون، وقد عرّبت باسم (دائرة المعارف)، واسم الموسوعة أعم وأكثر شمولاً من اسم دائرة المعارف، سواء كانت الموسوعة أوسع في حقيقتها مدى من (المعاجم) ومن (دوائر المعارف) أم أقل منها، إحاطة بالمواد والمواضيع، فكل دائرة معارف، وكل معجم، موسوعة في الاصطلاح، ولكن ليس كل موسوعة ـ عند الكثيرين ـ معجماً أو دائرة للمعارف، والفرق بين الموسوعة، والمعجم، أو دائرة المعارف، فيما جرى عليه الاصطلاح الحديث، هو أن نظام التأليف في المعجم وفي دائرة المعارف قائم على الحروف الهجائية، مبتدئاً بحرف الألف ومنتهياً بحرف الياء، كمعاجم الرجال، ومعاجم المواد، ودوائر معارف العلوم والفنون والآداب ومعاجم اللغة.

أما الموسوعة فلا تلتزم بحوثها بأي نظام في طريقة التأليف غير نظام المواضيع التي تفرض سليقة المؤلف وذوقه، ومقتضيات بحثه تقديم أي موضوع منها أو تأخيره في العرض، على أن تكون واسعة الغرض، كثيرة الإحاطة، ليكون إطلاق اسم (الموسوعة) المصطلح عليها مطابقاً للواقع، وهنالك نوع من الموسوعات ما يسمّى (بالتذكرة) وقد دأب العلماء العرب وغيرهم من الذين شملهم اسم (المسلمين) على تأليف هذا النوع من الموسوعات يجمعون فيها جهرة من العلوم كتذكرة (الصفدي) وتذكرة (ابن حمدون).

أول دائرة معارف في التأريخ

هنالك اختلاف في أول دائرة معارف كتبت في التأريخ ،وقد ذهب أكثر المؤرخين على أن (سيوسبيوس) اليوناني وهو ابن أخ أفلاطون وتلميذه كان أول من قام بجمع البحوث العامة ووضع الأنسكلوبيديا، ولكن هذه المجموعة من الأنسكلوبيديا قد فقدت، ويرى البعض: أن مجموعة (ستو بينوس) (وسويداس) و (كابلا) سنة ٤٨٠ م هي من أهم الموسوعات التي كتبت في ذلك الزمان، وهناك من يورد اسم الموسوعة الصينية المسماة (كوكين سي فون لوي تسي) تأليف (شو هو فو) سنة ٢٤٦ ضمن الموضوعات العامة القديمة[1] ومهما كان من أمر تلك الموسوعات وقيمتها العلمية وقدمها فإن (غايوس بلينوس) pliny المسمى بالكبير (٢٣ ـ ٧٩ م) هو أول كاتب موسوعي في التأريخ، كان رومانياً ولد في إيطالية الشمالية ومضى إلى روما صغيراً ومارس المحاماة حقبة من الزمن ثم حارب في ألمانية وإسبانية وبلاد الغال. فقد زار إفريقية وشغل ببعض المناصب الإدارية ثم كان قائداً للأسطول في أحد الموانىء البحرية حين استعر بركان فيزوف فمات حرقاً بشواظ ناره، ولقد أهّلته تلك الحياة المتشعبة النواحي، الغنية بالتجارب والرحلات، لوضع موسوعته «التأريخ الطبيعي» التي رفعها إلى الامبراطور تيطش (تيتوس)، وهي في ٣٧ كتاباً. ويتناول الكتاب الأول المقدمة والفهارس والمراجع، والثاني وصف الأرض، والشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والثالث إلى السادس في الجغرافية، والسابع إلى الحادي عشر في علم

(١) دائرة المعارف الإسلامية الإيرانية تأليف عبد العزيز الجواهري.

الحيوان، والثاني عشر إلى التاسع عشر في النبات، والعشرون إلى السابع والعشرين في الطب النباتي، والثامن والعشرون إلى الثاني والثلاثين في سائر الأدوية. أما الكتب الباقية فتبحث في المعادن ثم النحت والتصوير والبناء الخ[١].

وعلى أن أول دائرة معارف شاملة في (التأريخ الطبيعي) المذكور الذي تناول كتابه كل العلوم المعروفة في العالم القديم والمحتوي على نحو ٢٥٠٠ فصل فإن صفة الموسوعية قد لازمت الكتب العربية الإسلامية قبل أن تلازم أية مجموعة من الكتب عند أية أمة من الأمم، وذلك منذ صدر التأريخ الإسلامي ومنذ القرون الهجرية الأولى، أي منذ تصدّى الكتاب والمؤلفون لتتبع السيرة النبوية وجمع أخبار الصحابة والغزوات الإسلامية والفتوحات وما كان يحدث ويقع، وما كان يهمّ المسلم من دينه وأصوله وشرح الآيات القرآنية والقصص التي تخص الأنبياء مما أوردها القرآن الكريم على سبيل المثل والاستشهاد، ومنذ أن كانت الحياة تتطلب من المثقف المسلم وغير المسلم من العرب والمستعربين، من الوزير والكاتب والحاجب والرسول والشاعر والأديب الإحاطة والإلمام على قدر الإمكان بأمور الدين وتأريخ الأمم وأخبار المدن والقبائل والعادات والأخلاق، والشعر والأدب والفنون العامة، وما يقتضيه العصر مما يقع تحت النظر، كان لا بد أن يتطرق الكثير من الكتب العربية إلى كثير من هذه الأغراض باتساع أو إيجاز سداً للحاجة، وتنويراً للأذهان التي حث الإسلام في كثير من المناسبات على مثل هذه الثقافة والمعرفة وفضّل أهل العلم على الزهّاد والنسّاك والعبّاد، وتطلبت الشريعة ومقتضيات الحياة أن يعدّ الحكام والأمراء والقضاة أنفسهم لذلك إعداداً وافياً ولهذا قالوا بأفضلية القادة والأمراء والحكام واعتبروا الخلفاء والأئمة أفضل من الرعية، وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم، لأنهم أفقه في الدين، وأقوم بالحقوق، وأردّ على المسلمين، وعملهم بهذا أفضل من عبادة العُبّاد، ولأن نفع أولئك لا يعدو قمم رؤوسهم، ونفع هؤلاء يخص ويعم، والعبادة لا تدله، ولا تورث البله إلا لمن آثر الوحدة، وترك معاملة الناس ومجالسة أهل المعرفة، فمن هناك صاروا بلهاً، حتى صار لا يجيء من أعبدهم حاكم ولا إمام، وما أحسن ما قال أيوب السختياني حيث يقول:

(١) دائرة المعارف البريطانية حرف (p) طبعة ٩٤٠ (مير بصري).

«في أصحابي من أرجو دعوته ولا أقبل شهادته، فإذا لم يجز في الشهادة كان من أن يكون حاكماً أبعد».

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا[1]

صبغة الموسوعة العربية

وكلما خطا الإسلام خطوة وتغلغل بين الأقوام واتسعت رقعته، اشتدت الحاجة إلى ثقافة أوسع وإحاطة أكثر بما انصب في الأقطار الإسلامية من فنون وعلوم ومعارف فاتسعت رقعة التأليف على نمط الموسوعية وتعددت مواضيع الكتب، وتنوعت أهداف الثقافة وأغراضها واشتدت الحاجة إلى التزود بالعلوم والمعارف والآداب جملة حتى صارت الموسوعية صبغة ثابتة لأمهات الكتب العربية والإسلامية، لذلك فضلاً عن كونها من أقدم الموسوعات في تأريخ الثقافة العامة فهي أكثر الموسوعات العالمية شمولاً لمختلف المواضيع من دين وعلم وحكمة وأدب وتأريخ وفن، وحتى الكتب العربية الخاصة المؤلفة لغرض الاختصاص قلّ منها من لم يصطبغ بصبغة الموسوعية العامة، فكتاب الأغاني مثلاً لم يقتصر على الأغنية ومغنيها، وإنما هو موسوعة تأريخية عامة أحاطت بالكثير من أخبار العرب والفرس والرومان في سياق الحديث، وهو موسوعة أدبية شاملة استعرضت الشعر العربي ونثره وتراجم الشعراء والخطباء والكتاب والحكام والأمراء والقادة في أغلب أدوارهم التأريخية والأدبية والفنية، ثم هو بعد ذلك كتاب حكمة وأمثال وأخلاق لما حوى من القصص والأفكار والشواهد.

ولقد رأينا هنا أن نعرض بإيجاز تأريخ الموسوعة العربية الإسلامية وطبيعتها واستعراض المؤلفين الذين اتصفت مؤلفاتهم بصفة الموسوعية فكان لها ولهم قيمة كبيرة في تأريخ الثقافة العامة التي خدمت البشرية جمعاء خدمة مشهودة كبيرة معتمدين في هذا الاستعراض الموجز الشامل على الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد. وعلى المصادر التأريخية، والموسوعات العربية والأجنبية. والدراسات المستفيضة الخاصة الواردة في الصحف والمجلات.

---

(١) البيان والتبيين ـ ج ٢ ص ٢٧٧ الطبعة الثانية.

نشأة الموسوعة

نشأ الفكر العربي في العصور الوسطى موسوعياً، نشأ على أيدي رجال فتح الإسلام لهم أبواب العلم والمعرفة، وبسط الأرض أمامهم ليضربوا في مناكبها، ويتوسعوا في العلم بالأرض وما عليها عن طريق المشاهدة والتجربة، ووضع في أيديهم تراث الماضين ليتمثلوه ويضيفوا خلاصته إلى ثروة الفكر العربي الإسلامي الناهض ثم ينتشوا من ذلك كله أدباً وعلماً زاهرين يتناولان كل ما يرقى بالإنسان ويوسع أفقه ويهذب خلقه، ويزيد حظه من الرقي والرخاء.

هؤلاء الرجال هم الذين أرسوا أسس الفكر العربي بجهدهم الدؤوب المخلص خلال القرن الهجري الثاني (الثامن الميلادي) وهم الذين طوروا مفهوم الأدب من معنى التهذيب والسير على التقليد الخلقي الحميد إلى معنى المعرفة الإنسانية الواسعة «والإلمام من كل شيء بطرف» كما قال عميد الموسوعيين خلال العصر الأول من تأريخنا الفكري أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (توفي ٢٥٥ هـ ٨٦٩ م).

وخلال القرن الهجري الثاني كانت المعرفة في نظر طلابها كلاً واحداً لا يتجزأ يشمل علوم الدين والدنيا، ويعتبر الكون كله مجالاً للبحث والتفكير والتأليف، وكان على طالب الثقافة أن يحفظ القرآن ويحيط بمعانيه، ويلم بما تيسر له من الحديث ويحفظ ما تيسر له من شعر الجاهليين والمعاصرين، ويتمكن من اللغة وتأريخ العرب وأيامهم وعلومهم الأولى كالطب الطبيعي والنبات، والأنواء والقيافة وما إلى ذلك.

ابن المقفع والتراث الهندي الفارسي

وجاء ابن المقفع (توفي ١٤٣ هـ ٧٦٠ م) فوسع الأفق وأضاف إلى ثروة العرب شيئاً عظيماً من تراث الهند وفارس، ونقل إلى العربية كتباً مثل (خداي نامه) أي كتاب السادة، وكليلة ودمنة.

فأما الأول فقد دخل تراثنا تحت اسم (سير ملوك العجم) وأتاح للناس الفرصة للاطلاع على جانب من تأريخ البشر قبل الإسلام، ووضع بين أيدي طلاب التأريخ نموذجاً أفادوا منه في تطوير فكرة التأليف التاريخي.

وأما الثاني ـ كليلة ودمنة ـ فكان نموذجاً جميلاً للقصص الرفيع ذي المغزى البعيد، وثروة من الحكمة وتجارب البشر تلقاها الفكر العربي في أجمل صورة وأكملها[1].

وفتح ابن المقفع للناس بكتابه (الصحابة) أبواب التفكير السياسي، ودعاهم إلى التفكير الموضوعي في شؤون الدول والحكومات والشعوب والسلاطين، هذا إلى ما تضمنته كتبه الأخرى مثل (الدرة اليتيمة) و (الأدب الصغير) من حكم وتأملات يعجب الإنسان من صدورها عن شاب قام بذلك العمل كله قبل أن يبلغ السادسة والثلاثين من عمره.

الجيل الأول من الموسوعيين

في هذا الطريق الواسع سارت الأجيال التالية لجيل ابن المقفع، واطلعت رجالاً ملأوا القرن الهجري الثالث كله علماً وأدباً، وقد تميز أولئك الرجال قبل كل شيء بالموسوعية في الإتجاه والشمول في العلم، قرأوا متوسعين في كل فن، وكتبوا مكثرين في كل باب من أبواب المعرفة.

فهشام بن محمد بن السائب الكلبي (توفي ٢٠٤ أو ٢٠٦هـ ٨١٩ أو ٨٢١م) كتب في علوم القرآن والسيرة النبوية والشعر وعجائب البحر والأصنام والتأريخ العام، بل له كتاب يسمى (منطق الطير).

وأبو عبيدة معمر بن المثنى (توفي ٢١٠ هـ ٨٢٥ م) كتب فيما يقول النديم مائة كتاب وخمسة كتب تتناول كل موضوع تقريباً.

والأصمعي عبد الملك بن قريب بن قيس (توفي ٢١٤ هـ ٨٢٩ م) ألّف بضعة وأربعين كتاباً في الشعر واللغة والطب والنبات.

وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (توفي ٢١٥ هـ ٨٣٠ م) كتب قريباً من

(١) يراجع التفصيل في كتاب (نصيب بغداد من كليلة ودمنة) لجعفر الخليلي، وكتاب (القصة العراقية قديماً وحديثاً) ص ٤٠ للمؤلف نفسه.

هذا العدد من المؤلفات في كل علوم العصر المعروفة، ومن مؤلفاته واحد عن المطر وآخر عن اللبن.

وأبو عبيد القاسم بن سلام (توفي ٢٢٣ هـ ٨٣٨ م) ألف في علوم الإسلام واللغة والتأريخ والشؤون المالية، وكتابه (الأموال) آية في التنسيق والعمق وحسن الفهم والدقة، وكتابه الآخر المسمى (الغريب المصنف) أشبه بموسوعة تكلم فيها عن الإنسان والطعام والشراب والأبنية، والمراكب، والسلاح، والطير، والحشرات، والنار، والشمس والقمر وما إلى ذلك، وقد أنفق في تأليفه أربعين سنة فلا غرابة أن أصبح من غرر الكتب في المكتبة العربية إلى اليوم.

هؤلاء جميعاً كانوا يقرأون في كل موضوع أيضاً، كان يدفعهم إلى العمل ذلك النهم إلى المعرفة الذي يميز الأمم الحية من غيرها من الأمم، وموسوعيتهم كانت مظهراً من مظاهر السيادة العربية، لأن العلم في ذاته سيادة، وطلبه عزة، وعلى طول التأريخ كانت الأمم العالمة هي الأمم السائدة، ولم يجتمع في التأريخ أبداً علم وذلّ.

ولكن موسوعية هذا الجيل كانت موسوعية اتجاه لا منهج، أي أن أولئك الرجال كانوا يقرأون دون نظام، ويكتبون دون نظام أيضاً، وهم يتنقلون في الفقرة الواحدة من علوم القرآن إلى الشعر الجاهلي إلى النبات إلى الحيوان إلى الفلك، وقارئهم يتعب إذا طلب عندهم موضوعاً بعينه.

ولكنهم مهدوا الطريق للطبقة الأولى من الموسوعيين المنهجيين في تأريخنا وأعمدتها خمسة من الأعلام، يعتبر كل واحد منهم دائرة معارف قائمة بذاتها.

١ ـ قدامة بن جعفر الكاتب

أول هؤلاء قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب (٢٣٧هـ ٨٥١م) وهو أول عربي ألف كتاباً شاملاً لكل المعارف التي يحتاج إليها المشتغل بالكتابة الديوانية والإنشائية، وقد أطلق على كتابه الجامع هذا أسم (الخراج) والمراد به الشؤون المالية للدولة، وهي عصب الإدارة وعماد الخلافة، وقد بقيت لنا من موسوعيته تلك قطع تدل على علم مستبحر، واحدة في الخراج بالذات، وثانية عن نقد النثر، وثالثة عن نقد الشعر، وهناك قطع أخرى لا تزال مخطوطة تنتظر من يخرج بها إلى النور.

٢ ـ أبو عثمان الجاحظ

وثاني هؤلاء أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ توفي (٢٥٥ هـ ٨٦٩ م) أمير هذا الطراز من الموسوعيين في تأريخنا، فقد كان يكتب بنفس المستوى من الإجادة والعمق والشمول وخفة الظل في العقائد، وعلوم الإسلام، والأدب، والتأريخ الطبيعي، والطب، والأجناس، والحيوان، وأخلاق البشر، وهو مسهب متدفق، طويل النفس، يصوغ ما يكتب في أسلوب سهل ممتنع، ويخاطب عقل القارىء ويناقش معه الموضوعات والآراء في غير أثقال أو ادعاء أو تكلف، ومن المؤسف أن الجاحظية لم تجد من يرثها ويسير بها في الطريق الذي كان كفيلاً بأن يخرج بالفكر العربي من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة.

٣ ـ ابن قتيبة الدينوري

وثالثهم أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة توفي (٢٧٦ هـ ٨٧٩ م) وهو يكاد يضاهي الجاحظ في سعة العلم، وحرية الفكر، وكثرة التأليف، وتنوع الكتب، وهو يشبهه أيضاً في أن معظم كتبه الرئيسية سلم من عبث الأيام ووصل إلينا، وكتابه (أدب الكاتب) خزانة علم وأدب لو فسرت وبوبت لكانت دائرة معارف، أما كتابه (عيون الأخبار) فنموذج جميل من كتب الأدب بمعناه الواسع عن العرب وهو معنى يقابل ما نسميه نحن اليوم بالأدب أو الإنسانيات[١].

٤ ـ أبو حنيفة الدينوري

ورابعهم أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري توفي (٢٨٢ هـ ٨٩٥ م) وقد ألف في النحو واللغة والتأريخ والهندسة والحساب، ولا يزال كتاباه الرئيسيان (الأخبار الطوال) و (الإمامة والسياسة) من معضلات التأليف في مكتبتنا العربية، لأن الخلاف طويل حول أصول مادتها ونسبة بعض فصولها إليه.

٥ ـ أبو العباس المبرد

وخامسهم أبو العباس محمد بن يزيد المبرد توفي (٢٨٥ هـ ٨٩٨ م) وكتابه

(١) أما كتاب (المعارف) لابن قتيبة فهو أدل على الموسوعية.

(الكامل) موسوعة لعلوم العرب إلى أيامه، تتناول كل فن من أدب إلى تاريخ إلى لغة إلى دين إلى طب، وهو يتنقل بقارئه من فن إلى فن على طريقة كانت تعجب الأقدمين ولكنها تجد الباحث الحديث، فقد كانوا يرون أن الاستطراد من موضوع لموضوع يعين القارىء على القراءة، ويبعد عن نفسه الملل، أما نحن فنرى فيه تقسيماً لوحدة الفكرة والموضوع.

ويلحق بهذه الطبقة من الموسوعيين[1] اثنان من أهل القرن الرابع الهجري هما أبو أحمد بن محمد بن عبد ربّه توفي (٣٢٨ هـ ٩٤٠ م)، وأبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني توفي (٣٥٦ هـ ٩٦٧ م) والأول مشهور بكتابه المسمى (العقد الفريد) وهو من أجمع الكتب عن العرب وأنسابهم وشعرهم ونثرهم وعلومهم، وتلمح فيه محاولة جادة لترتيب المادة الواسعة وتبويبها، والثاني مشهور بكتابه الأغاني، وهو دائرة معارف في الأدب والتأريخ خاصة.

الموسوعية عنوان الثقافة

وهؤلاء الموسوعيون هم الذين أعطوا الفكر العربي طابعه الموسوعي الإنساني الذي أصبح من مميزاته الرئيسية، ونحن لم نذكر منهم هنا إلا أكابرهم الذين حددوا مستوى الثقافة الذي كان لزاماً على كل من يطمح إلى مكان محترم في المجتمع أن يصل إليه أو يقترب منه على الأقل، فبينما كان شرلمان أكبر أباطرة الغرب في العصور الوسطى لا يعرف من الكتابة إلا رسم اسمه، كان المجتمع العربي لا يرضى عن حاكم بلد صغير إلا إذا كان على حظ طيب من المعرفة بالتأريخ والشعر والنثر وعلوم الدين والطب والحكمة وأحوال الدنيا، وقد يكون الرجل قائداً عظيماً، أو خليفة واسع السلطان، أو أميراً عظيم الولاية، أو تاجراً ذا مال عريض، ولكن المجتمع لم يكن يعترف بمكانه إلا إذا تحلى بالثقافة الواسعة، وقرأ شيئاً من الكتب التي أشرنا إليها، وجالس أهل العلم والأدب وشاركهم الحديث وطارحهم الشعر، لأن (الأدب) أي الثقافة الإنسانية

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي المتوفى سنة ٢٤٦هـ ومحمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المتوفى سنة ٣٥٠هـ.

الواسعة كان شرطاً من شروط الظهور والرئاسة في ذلك العالم العربي المثقف[١].

ضعف الاتجاه الموسوعي بعد القرن الرابع

ونحن عندما نقول أن الفكر العربي أخذ في الاضمحلال بعد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) لا نعني بذلك أن البحث والتأليف في هذا العلم أو ذاك قد توقف وانقطع، وإنما معناه أن الفكر فقد طابعه الموسوعي، واقتصر كل باحث أو عالم على علمه وفنه، ذلك لأن التأليف الجيد في شتى العلوم لم يتوقف خلال تأريخنا كله حتى خلال العصر التركي لم يتوقف العلماء عن البحث والدرس والتأليف، ولكن الذي يلاحظ بعد القرن الرابع هو هبوط الهمم عن القراءة الواسعة والتأليف الواسع أي التخلي عن الموسوعية ولكل ثقافة من الثقافات طابعها المميز وعنصرها الدافع المحرك، وبالنسبة للثقافة العربية كانت الموسوعية هي روحها وطابعها المميز وقوتها الدافعة.

الفرق بين الطبري وابن أياس

ونوضح هذه الناحية بمثال:

نحن نقول أن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري توفي (٣١٠ هـ ٩٢٢ م) عميد مؤرخينا قبل ابن خلدون، وأن البون شاسع بينه وبين رجل مثل محمد بن أحمد بن أياس توفي (حوالي ٩٣٢ هـ ١٥٢٨ م) مع أن ابن أياس مؤرخ ممتاز متقن لفنّه، وكتابه (بدائع الزهور) من الأصول التي لا يستغني عنها باحث في تاريخ دول الإسلام، وهو من حيث الطول والاتساع لا يقل عن تاريخ (الرسل والملوك) للطبري، ولكن الطبري لم يكن مجرد مؤرخ، إنما كان بحراً من العلم، وقد كتب قبل أن يكتب التأريخ تفسيره المشهور، وهو دائرة معارف تجمع كل علم وفن، فما تمرّ فيه

(١) يراجع (كتاب النصيحة) المعروف باسم (قابوس نامه) تأليف الأمير عنصر المعالي كيكاوس اسكندر بن قابوس، ترجمة الأستاذ صادق نشأة والدكتور أمين عبد المجيد بدوي فهو علامة ما ينبغي أن تكون عليه ثقافة الملوك والأمراء.

بتفسير آية كريمة إلا وجدناه يفيض في الشرح والتفسير غير مغادر لمحة تاريخية أو أدبية أو علمية إلا ذكرها.

أما ابن أياس فمؤرخ فحسب، وهو يسرد الحوادث دون أن يدل على اتساع وأُفق أو تبحر علم أو نظر إلى ما وراء ما يكتب، والفرق بينه وبين الطبري هي الموسوعية والشمول، وهما في حساب الثقافة العربية المقياس الحقيقي لعلم العالم، وهي الميزة التي تميز العالم العربي عن غيره.

فالطبري مؤرخ من مؤرخي عصر الازدهار لأنه موسوعي، وابن أياس من رجال الاضمحلال لأنه غير موسوعي، والطبري وحده يعدل في تأريخنا الفكري كل مؤرخي القرن السادس الهجري من أمثال بهاء الدين بن شراد المتوفى (٦٣٢ هـ ١٢٣٥ م) وابن ظاهر الأسدي المتوفى (٦١٢ هـ ١٢١٥ م) وسبط ابن الجوزي المتوفى (٦٥٤ هـ ١٢٥٦ م) وشهاب الدين أبي شامة المتوفى (٦٦٥ هـ ١٢٦٧ م) وهو أكبر مؤرخي القرن السادس تنقصه الموسوعية، ويفتقد عنده اتساع الأفق وشمول الثقافة الذي يميز قادة العصور في تاريخنا.

وقد ظل تقليد الموسوعية قائماً على طول تأريخنا ولكن عدد الموسوعيين قلّ في عصور الاضمحلال والقليلون الذين ظهروا منهم خلال القرن الرابع وما بعده هم الذين ساروا في طريق الجاحظية من التوسع في العلم والإحاطة بكل فن مضمنيه كتاباً يضم أطرافاً من علمهم الواسع.

المسعودي

ففي القرن الرابع حمل لواء الموسوعية علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى (٣٤٦ هـ ٩٥٧ م) وهو رجل وعى صدره من العلم ما يدهش له قارئه، فهو مؤرخ رحالة جغرافي متمكن من الرياضيات والفلك، راوية للقصص، حافظ للشعر والنثر، وهو يكتب في أسلوب جزل جميل يعود بالذهن إلى فحولة الجاحظ وملكته في النقد والملاحظة، وهو مثل الجاحظ متوسع في التأليف، وكتبه مترابطة الموضوعات يكمّل بعضها بعضاً، وهو في كل كتاب منها يحيل على ما قاله في كتبه السابقة أو يقول أنه سيستوفيه في كتاب لاحق.

مسكويه

وفي النصف الأول من القرن الخامس نجد أبا علي الخارف أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بمسكويه المتوفى (٤٢١ هـ ١٠٣٠ م) وهو مؤرخ فيلسوف حكيم رياضي كيمائي وأديب كاتب شاعر، وكان معاصراً لأبي حيان التوحيدي وامتاز عليه باتساع مدى العلم والنظرة الإنسانية للأمور، وكتابه (تجارب الأمم) من أحسن ما كتب في العربية في تاريخ الدنيا، وله فيه آراء وملاحظات تصل به إلى مستوى ابن خلدون كمؤرخ للحضارة البشرية ومفلسف للتأريخ، وإلى مكانه كفيلسوف حكيم عارف بطبائع البشر وأصول الحكمة، تتجلى موهبته في كتاب (تهذيب الأخلاق وتعطير الأعراق) وهو يقوم على أساس كتاب فارسي يسمى (جاويدان خرد) أي الحكمة الخالدة[١].

الكندي والفارابي وابن سينا

وهذا يصدق على الظاهرين في بقية ميادين النشاط الفكري الإسلامي، فالكندي، والفارابي، وابن سينا، يتربعون على عرش الفلسفة بسبب تنوع معارفهم وعمقها وشمولها وتوسيع مجال الفلسفة حتى تشمل العلوم الإنسانية كلها، وابن سينا بالذات جعل كتابه (الشفاء) دائرة معارف كاملة.

المتنبي والبيروني

وفي ميدان الشعر يعتبر أبو الطيب المتنبي عميد شعراء العربية لا بالشعر وحده، فإن الكثير من شعرائنا يضاهونه في الشاعرية ولكن أبا الطيب كان موسوعة حافلة، وقارئه يعجب باتساع علمه كما يبهره شعره.

وفي ميدان الرياضيات والفلك يحتل أبو الريحان البيروني مكان الصدارة لأنه ـ إلى جانب تمكنه من الرياضيات أديب فيلسوف ضم صدره التراث الفكري

---

(١) وقد قضى أكثر من عمره في القرن الرابع، ومن علمه كتاب «الهوامل والشوامل» الذي جمعه أبو حيان التوحيدي.

الإسلامي كله وأتقن إلى جانب ذلك الفارسية والأردية واللاتينية واليونانية وفي كتابه (الآثار الباقية) دلائل على ذلك كله.

الغرض الموسوعي الاكبر

ومعنى ذلك أن الموسوعية أصبحت من أيام الجاحظ هي مقياس أهل العلم في تأريخنا، فلا يكفي لكي يكون الرجل علماً من أعلام ذلك التأريخ أن يكون متمكناً من فنه الذي تخصص فيه، بل لا بد أن يلمّ من كل شيء بطرف.

ولا يتصور الإنسان مقدار الجهد الذي كان أولئك الرجال يبذلونه للمحافظة على تقليد الموسوعية فقد كان عليهم أن يحفظوا ألوفاً بعد ألوف من الصفحات التي يحتاج استيعابها إلى ألوف بعد ألوف من الساعات، فعلاوة على ما لا بد منه من القرآن الكريم والحديث الشريف، كان عليهم أن يدرسوا أربعة على الأقل من كتب الأدب الكبرى وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وتاريخاً من تواريخ الإسلام (كالرسل والملوك) للطبري، والسيرة النبوية لابن إسحاق، ودواوين كبار الشعراء إلى أيامهم، وكتاباً على الأقل في كل علم وفن إلى جانب تخصصهم.

وهذا الذي ذكرناه كله كان جانباً من محفوظ رجال مثل[1] وياقوت بن عبد الله الحموي المتوفى (٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م)[2] وجمال الدين بن واصل المتوفى

---

(١) الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة (٤٣٠هـ) صاحب موسوعة حلية الأولياء المشتملة على ٨٠٠ ترجمة في نحو ٤٠٠٠ صفحة بعشرة مجلدات وقد طبع المجلد الأول سنة(١٣٥٠هـ ١٩٣٢م).

ومحمد بن ضياء الدين المعروف بالفخر الرازي المتوفى (٦٠٦هـ ١٢١٠م) صاحب مفاتيح الغيب يقع في ثمانية مجلدات ضخمة توسع في تفسير القرآن حتى كان من تفسيره موسوعة كبيرة.

(٢) وعز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المتوفى (٦٥٦هـ ١٢٥٨م) والذي يتضمن شرحه لنهج البلاغة موسوعة من أهم الموسوعات في عالمها وقد ألفها في عشرين جزءاً جمعتها أربعة مجلدات، ثم أعيد طبعه في مصر في عشرين جزءاً.

(٦٩٧ هـ ١٢٩٨ م)[١] وأبي الفداء إسماعيل بن محمود بن المظفر المتوفى (٧٣٢ هـ ١٣٣٢ م) وشمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م) وإسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى (٧٧٤ هـ ١٣٧٢ م)، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى (٧٧٦ هـ ١٣٧٤ م) وعبد الرحمن بن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ ١٤٠٦ م)[٢] وتقي الدين المقريزي المتوفى (٨٤٥ هـ ١٤٤١ م) وشمس الدين السخاوي المتوفى (٩٠٢ هـ ١٤٩٦ م) وغيرهم ممن يعتبرون عمد تاريخنا الفكري.

وهؤلاء الرجال لم يكونوا يتكلفون هذا الجهد لمطالب العيش، فإن العيش لا يكسب بحفظ المجلدات وإفناء العمر في الدفاتر، وإنما يكسب بالتجارة وعن طريق وظائف الدولة، ولا يعلل اجتهاد أولئك الرجال إلا بأنهم كانوا يشعرون أنهم بعملهم هذا يحافظون على كيان أمة وروح شعب وتقاليد حضارة، والإنسان لا يبذل الجهد العظيم إلا إذا كان دافعه إليه مثل أعلى وأعظم.

السيوطي

ونضرب لذلك مثلاً بالسيوطي، ولا شك أن هذا الحافز العظيم هو الذي حرّك رجلاً مثل جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١هـ ١٥٠٥م) إلى أن يضطلع وحده بتأليف مجموعة من الكتب يعد كل منها دائرة معارف قائمة بذاتها: واحدة في علوم الدين، وأخرى في التاريخ، وثالثة في علوم اللغة وما إلى ذلك.

عاش جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ٦٢ سنة هجرية ألف خلالها نحو ٣٥٠ كتاباً بقي لنا منها ٣١٥ ، فلو قسمنا كتبه على سنين حياته من مولده إلى وفاته

---

(١) وكمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق المعروف بابن الفوطي المتوفى سنة (٧٣٢هـ) فإن معجمه المعروف باسم (معجم الآداب في معجم الألقاب) يعد من أكبر وأفخم الموسوعات العربية في باب التراجم وقد صدر منه لحد الآن جزءآن قام بمراجعتها وشرحها والتعليق عليها الدكتور مصطفى جواد.

(٢) والأبشهي، صاحب كتاب المستطرف في كل فن مستظرف، وهو من رجال القرن التاسع ويعتبر كتابه من أكثر الكتب جمعاً للفنون والآداب والظرافة.

لخص كل منها ٦ كتب، ولو فرضنا أنه بدأ التأليف في سن الخامسة والعشرين لكان نصيب كل سنة ١٠ كتب.

ومعظم كتب السيوطي كأنها مواد لدوائر المعارف مبوبة، منقبة، مختصرة قدر الإمكان، فله كتاب طبقات الحافظ ـ أي تراجمهم ـ وهي مرتبة في طبقات على حسب العصور، وكتاب طبقات المفسرين، وكتاب طبقات النحويين واللغويين، وله كتاب غاية في الاختصار والفائدة في تأريخ الخلفاء، وإذا أردت أن تأخذ فكرة عن الطريقة المنهجية الموسوعية التي سار عليها في التأليف فانظر كتابه (المزهر في علوم اللغة) وهو في رأي الدارسين أوفى وأشمل ما لدينا من علوم لغتنا، وكذلك كتابه (الاتقان في علوم القرآن) وما أظن أن أنساناً استطاع أن يكتب أحسن من هذا في موضوع شاسع مثل علوم القرآن.

ولم يكتف السيوطي بهذا كله، بل أراد أن يكتب دائرة معارف مختصرة كهذه التي نسميها نحن اليوم دائرة معارف (ديسك انسايكلوبيديا) فوضع كتاباً سماه (الأصول المهمة في علوم جمة) ويسمى أيضاً (النقابة) وهو يضم الضروري من المعلومات عن ١٤ علماً منها التفسير وأصول الدين والتشريح والبديع، والبيان، والمعاني، والطب والتصوف والحديث وأصول الفقه.

وإذن فالسيوطي رجل جعل نفسه جامعة كاملة ودار تأليف ونشر، وعاش عمره كله يقرأ ويدرس ويبوب ويرتب ويكتب. وقد خلف تراثاً لا تقوم بمثله جماعات من الرجال.

الموسوعية تخصص وفن

وفي مصر المملوكية أصبحت الموسوعية فناً ومنهجاً وموضوع تخصص وظهرت في ذلك العهد الموسوعات الكبرى التي يعتز بها تاريخنا الفكري وهي (نهاية الإرب) للنويري و (مسالك الأبصار) للعمري، و (صبح الأعشى) للقلقشندي.

وهذه الموسوعات الثلاث الكبرى تتشابه في الفكرة والهدف وربما اختلفت في المناهج التي قامت عليها، فأما من حيث الفكرة فهما شبيهان بما تقوم عليه أي دائرة

معارف في عصرنا هذا، وهو جمع المعلومات كلها في كتاب واحد وترتيبها على أحد أساسين: أساس المواد فترتب على حروف المعجم، أو أساس الموضوعات فترتب على النحو الذي يراه المؤلف.

وقد اختلفت المناهج التي سار عليها المؤلفون الثلاثة بعضها عن بعض، ولكن الحصيلة واحدة تقريباً، ولكل واحدة منهم ميزة على الاثنين الآخرين، فالنويري أكثر إسهاباً في التأريخ، والعمري طويل النفس في الأدب، واسع المعلومات في الجغرافيا والعلوم، والقلقشندي أوسع الثلاثة علماً بشؤون الدولة ونظامها وتأريخ نظمها وإدارتها واختصاص كل منها ومراتب العاملين فيها ونظم الجيوش والأساطيل وأنواع السلاح وملابس الضباط والجنود وصنوف المراكب الحربية والنقود والموازين والمكاييل وما إلى ذلك.

ولا يتسع هنا المجال لتحليل مواد هذه الموسوعات الكبرى فذلك بحث قائم بنفسه، ثم إن اثنتين منها، هما (نهاية الإرب) و (صبح الأعشى) قد طبع معظمها، ونرجو أن يأذن الله بالفراغ منها، أما الثالثة (مسالك الأبصار) فكانت أجزاؤها متفرقة في مكاتب الدنيا حتى قيض الله لها شيخ العروبة أحمد زكي باشا طيب الله ثراه فبذل جهداً مضنياً حتى جمع أجزاءها في دار الكتب المصرية وهي راقدة هناك بأجزائها التي تربو على الخمسين تنتظر من يكمل العمل الذي قام به ذلك العلامة الجليل فقد نشر منها جزءاً واحداً تطاول الزمن عليه وهش ورقه حتى أصبح لا يحتمل التصفح، وأحمد زكي هو آخر من سار على تقليد الموسوعية من أهل الفكر عندنا، ولا غرابة أن سماه الناس بشيخ العروبة.

كان الثلاثة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى (٧٣٢ هـ ١٣٣٢ م) وشهاب الدين أحمد بن فضل الله يحيى العمري المتوفى (٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م) وشهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي المتوفى (٨٢١ هـ ١٤١٨ م) من موظفي الدولة المملوكية، وقد ألفوا موسوعاتهم لخدمة أمثالهم من الموظفين والكتاب ولكن قارئهم يشعر أن هذا لا يمكن أن يكون دافعاً كافياً للجهد الذي بذله كل منهم، فإن رجلاً كالنويري يكتب في التأريخ وحده نحو ثمانية

مجلدات في نحو ١٢٠٠ صفحة من القطع الكبيرة لا يمكن أن يكون قد أضنى نفسه على هذا النحو لمجرد أن يضع بين أيدي الموظفين كتاباً يرجعون إليه، إنما هو عالم متبحر جمع فأوفى، وشعر أن تراث العرب في حاجة إلى من يحفظه، وأن واجبه أن يقوم بذلك، ومن هنا فأنت تشعر وأنت تقرأ أي مجلد من مجلدات موسوعته بأنه عالم تخصص في هذا العلم الذي يدور عليه المجلد وحده، وكذلك تشعر وأنت تتصفح مجلدات العمري عن الجغرافية والأدب، والقلقشندي في نظم الدولة المملوكية، وهم جميعاً يكتبون في أسلوب عربي رصين جميل لا يعرف تلاعب السجع ولا إضاعة الوقت في محسنات البديع، شأن العلماء الجادين الجديرين بهذا الوصف[1].

ومثل هذا يقال في أعظم معجمين في لغتنا: (لسان العرب) لأبي الفضل محمد بن مكرم علي الإفريقي المصري المعروف بابن منظور المتوفى (٧١١ هـ ١٣١١ م)، و (تاج العروس) لمحمد بن محمد عبد الرزاق المعروف بالمرتضى الزبيدي المتوفى (١٢٠٥ هـ ١٧٩٠ م) فهما في الحق دائرتا معارف اضطلع بتأليف كل منهم رجل واحد، ولكن اطلع على مادة واحدة في كل منهما لتشعر بمقدار الجهد الذي بذل في وصفها، وسبحان من يسر لرجل واحد أن يضطلع وحده بما تحار فيه المجامع واللجان.

رسائل إخوان الصفا

ولا بد في هذا المجال من كلمة عن (رسائل إخوان الصفا) أنها دائرة معارف من طراز فريد في بابه في تأريخ الثقافة البشرية، ألفتها جماعة من الأصدقاء، كلهم فلاسفة يدينون برأي واحد في تفسير الكون وحقيقته وظواهره، والعقائد وأصولها، وما إلى هذه من مسائل الفلسفة التي شغلت أذهان الناس في العصور الوسطى.

كانوا جماعة سرية لم يفصحوا عن أسمائهم أو عن حقيقة اتجاههم، واكتفوا بأن

(١) بحار الأنوار ودرر الأخبار، للفقيه المحدث المولى محمد باقر بن المولى محمد تقي المجلسي المتوفى ١١١١هـ، ويعتبر كتابه أوسع دائرة معارف للرواية والحديث والخبر والتأريخ، طبع الكتاب للمرة الأولى في إيران حجر بقطع (الفواسكاب) عام ١٣٠٥هـ، ثم أعيد طبعه مع التحقيق والمقابلة والتصحيح في إيران ولبنان ويقع في ١١٠ مجلداً بالقطع الوزيري. م، هـ، ا

سمُّوا أنفسهم (إخوان الصفاء وخلان الوفاء) وقد عاشوا خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، والغالب أنهم فرغوا من رسائلهم سنة ٣٧٣ هجرية ٩٨٣ ميلادية، وواضح من رسائلهم أنهم كانوا شيعة إسماعيلية، وأن هدفهم من تحرير هذه الرسائل هو الدعوة لمذهبهم هذا عن طريق العلم والفلسفة.

ويبلغ عدد الرسائل إحدى وخمسين كلها مكتوبة بطريقة واحدة تقوم على التأويل والرمز تتناول الكلام عن الموت وغاية النفس في الحياة الدنيا، والعقل، والنور والظلمة، والجوهر والعرض، وتحديد العالم، ومكان الإنسان فيه، والنفس، والقوة الإلهية، والبعث والقيامة، والحكمة، والفلسفة والخالق سبحانه، والعقل وأركانه، وما إلى ذلك من مسائل الفلسفة والإلهيات.

إنها دائرة معارف فلسفية لا تزال إلى الآن مشكلة من مشاكل تأريخ الفلسفة عندنا، ولكنها على أي حال أول دائرة معارف فلسفية ظهرت في التاريخ، ومهما يكن الرأي في نظريات أصحابها فهي شيء طريف في مكتبتنا العربية، وهي مظهر من مظاهر الموسوعية في ثقافتنا[1]

وللدكتور مصطفى جواد ثمانية استدراكات على أشهر أسماء الموسوعيين وأشهر الموسوعات العربية المتقدمة نثبتها هنا إتماماً للفائدة وهي:

١ ـ تذكرة ابن حمدون محمد بن الحسن من رجال القرن السادس للهجرة وهي أوسع موسوعة أدبية في أكثر من خمسين باباً من أبواب الأدب، ومنها أجزاء في خزائن كتب (استانبول) كالمكتبة البايزيدية.

٢ ـ كتاب الفنون لعلي بن عقيل البغدادي المتوفى سنة ٥١٣ وهو في أربعمائة مجلد ومنه مجلد في دار الكتب الوطنية بباريس، وآخر في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية.

٣ ـ ومن كتّاب الموسوعية الكبار الثعالبي عبد الملك مؤلف (اليتيمة) و (فقه اللغة) وعشرات الكتب الأخرى في جميع العلوم تقريباً، وقد توفي سنة ٤٢٨ هجرية.

(١) مجلة العربي ـ العدد ٧٣

٤ ـ ومفاتيح العلوم للخوارزمي من أهل القرن الرابع للهجرة، وهو دائرة معارف على الأسلوب الموسوعي الكامل.

٥ ـ شرح المقامة الخطيبية لابن الزبير علي بن الحسن الغساني في العلوم حتى الموسيقى، منها نسخة بمكتبة الأوقاف ببغداد أرقامها ٩٦٠٦ ونسخة أخرى في مكتبة البلدية بالإسكندرية.

٦ ـ ومن كبار علماء الموسوعية نصير الدين الطوسي وهو مؤسس أول أكاديمية إسلامية في (مراغه) وإن كانت على عهد الملك هولاكو التتري.

٧ ـ وكتاب (شمس العلوم) لنشوان الحميري، وهو دائرة معارف بل موسوعة على الحقيقة.

٨ ـ وكتاب ألف باء البكوي على ذلك الطراز أيضاً.

الموسوعية الأوروبية

وفي الوقت الذي كانت الحركة الفكرية في أوج نشاطها في الأقطار الإسلامية وكانت الموسوعية تطغى على عدد كبير من المؤلفات العربية كانت الأقطار الأوروبية يسودها الخمول بسبب فقدان الأمن والاطمئنان على رغم النشاط الكنسي في علوم اللاهوت والفلسفة والعلوم الإغريقية.

وفي خلال القرن الثاني عشر انصب في أوروبا نهر عظيم من المعرفة الجديدة مصطحباً معه ثورة فكرية مستمدة من العرب الذين كان المسيحيون يتصلون بهم في صقلية وإسبانيا ثم اتسعت مجاري هذا النهر مما خلفته الحروب الصليبية بين القرن الحادي عشر الميلادي والقرن الثالث عشر فكان لهذا الاتصال ـ اتصال الغرب بالشرق ـ أثره العميق في بعث الحركة الفكرية في أوروبا.

واستقرت أوروبا بعض الشيء وأصبح اقتصاد المدن الأوروبية والريف قادراً نوعاً ما على إعالة الناس الذين يهبون أنفسهم للحياة الفكرية وبدأ الأفق الثقافي لأوروبا يتفتح عن نهضة مشرقة فشهد القرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلادي

تأسيس أول جامعة، فقد تأسست جامعة أوكسفورد في سنة ١٢٠٠ ميلادية وتأسست جامعة كمبرج بعدها بقليل، وما كاد ينتهي القرن الثالث عشر حتى أصبح في أوروبا اللاتينية اثنتا عشرة جامعة[١].

وحين تم اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ زاد أفق أوروبا العلمي اتساعاً وكثر عدد الجامعات في المدن الأوروبية وكثرت التآليف وتنوعت المواد التي تناولها العلماء والمكتشفون والفلكيون بالبحث والدراسة فزادت الحاجة إلى الموسوعية أكثر وأكثر، وأصبحت الإحاطة والإلمامة بالمعرفة العامة من مستلزمات العصر فضلاً عن شدة الإحساس بالحاجة إلى مصادر يعول عليها ويستعان بها على فهم المواضيع وكنه الحياة العامة فكان من نتائج ذلك أن اتجهت أنظار المفكرين إلى الموسوعية في تآليفهم والاهتمام بها يوماً بعد يوم حتى تم تأليف (الجمعية الملكية في لندن) سنة ١٦٦٢ وحتى تم تأليف (أكاديمية العلوم الفرنسية) سنة ١٦٦٦ حيث بدأ طبع الدوريات العلمية فتيسر التبادل السريع بين الآراء فطبعت الكتب الواسعة والمقالات في مختلف العلوم والفنون لا في العلوم الطبيعية والرياضيات فحسب بل في فن معرفة الكتابات القديمة وعلم المسكوكات القديمة، وعلم التقاويم، وتأريخ القانون، والقانون الطبيعي إذ لم تكن أعمال العلماء يومذاك تخضع لمبدأ التخصص، فقد شعر الجميع بوجوب مساهمتهم في جميع جهات العلم والمعرفة[٢].

دائرة المعارف البريطانية

(أنسكلوبيديا بريتانيكا)

وتعددت المعاجم والموسوعات العلمية والتأريخية الأوروبية بنسبة تقدم العالم وكثرت المراجع الواسعة في العصور الحديثة، ولكن أول معجم عام للفنون والعلوم

---

(١) تأريخ العالم الحديث لروبرت بالمر - تعريب الدكتور محمود الأمين ومراجعة الدكتور جعفر خصباك ج ١ ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) تأريخ العالم الحديث لروبرت بالمر - تعريب الدكتور حسن علي الذنون ومراجعة الدكتور جعفر خصباك ج ٢ ص ٧٨.

المرتب على الحروف الهجائية لم يصدر قبل (دائرة المعارف البريطانية) ولعل هذه الموسوعة من أشهر وأكمل الموسوعات العالمية، وستحتفل بعد سنوات ثلاث بمرور مائتي سنة على طبعتها الأولى. فلقد صدرت تلك الطبعة في كانون الأول ١٧٦٨ على شكل كراريس ثمن كل منها ٦ بنسات (٢٤) فلساً ثم استمرت على الصدور منذ ذلك الحين في اتساع يتناسب مع تقدم العلم، وتوسع المعرفة، وانتشار الثقافة، وازدهار الآداب والفنون. وقد أصبحت طبعاتها في القرن الأخير دولية يسهم في كتابة مباحثها أدباء وعلماء من مختلف الأقطار، كل في موضوع اختصاصه.

وجدير بالذكر أن الطبعة الأولى لدائرة المعارف البريطانية صدرت في (أدنبره) وكملت في سنة ١٧٧١ في ٣ أجزاء، أما الطبعة الأخيرة فتتألف من ٢٤ جزءاً ضخماً فضلاً عن الملاحق السنوية الضخمة التي تتضمن إضافات تاريخية وعلمية وثقافية وإحصائية لكل عام.

دائرة المعارف الفرنسية

(الأنسكلوبيديا)

وتعتبر هذه الموسوعة من أهم المشاريع الثقافية ولا سيما من ناحية تحرير الأفكار والتمهيد للثورة الفرنسية. وقد عهد بالإشراف عليها إلى المفكر الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤). وقد قام ديدرو بتجنيد نخبة من رجال الفكر والأدب في فرنسا لكتابة البحوث المختلفة وفي مقدمتهم فولتير، وروسو، ودالمبرت. وفي هذه الأثناء سجن ديدرو لكتابته «رسالة في العميان». لكن الجزء الأول من دائرة المعارف صدر في تموز ١٧٥١ وعقبه الجزء الثاني بعد ستة أشهر. لكن قراراً صدر فوراً بحجز الجزئين لمسّها بسلطة الملك والدين ومع ذلك طبعت الأجزاء الأخرى، ثم قررت الحكومة وقف الطبع سنة ١٧٥٩ والجزء الثامن آنذاك رهين المطبعة، واستمر طبع سائر الأجزاء بعد ذلك بين منع الحكومة وتشجيع عدد من كبار رجال الحكم أنفسهم، حتى أن رئيس المحكمة التي قررت مصادرة مسودات الطبع أبلغ الناشرين سلفاً بالقرار ونصحهم بإخفاء المسودات لديه (لأن الشرطة لن يخطر ببالها البحث عنها هناك).

وأخيراً أنجز طبع أجزاء دائرة المعارف الكبرى لكن نسخها حجزت بأمر الملك.

ومضت سنوات حتى جرت مناقشة في قطر الملك ذات مساء حول المواد التي يصنع منها البارود. وقالت (مدام دي بومبادور) صديقة الملك أنها لا تعلم كيف تصنع جواربها الحرير ولا أحمر الشفاه الذي تستعمله في زينتها. فقال أحد النبلاء الحاضرين أن من الأمور المؤسفة حجز دائرة المعارف التي تتضمن الأجوبة الصحيحة لكل تلك الأسئلة. فقال الملك أنه أبلغ أن ذلك المؤلف مضرّ جداً، لكنه أمر بجلب الواحد والعشرين جزءاً للأنسكلوبيديا حيث وجد ضيوفه كل المعلومات التي يتوقون إلى معرفتها. وصدر الأمر الملكي على الأثر برفع الحجز والسماح بتداول دائرة المعارف الممنوعة[١].

الانسكلوبيديا الأميركية

وفي أواخر القرن الثامن عشر صدرت نحو ٢٣ أو ٢٧ دائرة معارف إنكليزية أميركية، ومن أهم وأوسع دوائر المعارف الأميركية المنسوبة «لايلتون» التي صدرت في سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٦ في طبعة أنيقة مزودة بالصور، وغير هذه الأنسكلوبيديا الأميركية صدر بعد ذلك ولم يزل يصدر في أميركا عدد غير قليل في مختلف المواضيع العامة سواء ما يقتصر منها على أميركا وحدها أو ما يشمل العالم كله في مواضيع معينة أو مواضيع عامة[٢]. وكانت آخر دائرة معارف أميركية عامة حديثة هي التي صدرت في هذه السنة.

الأنسكلوبيديا الألمانية

وتعتبر الأنسكلوبيديا الألمانية من أسهل دوائر المعارف وأكثرها تنسيقاً وتيسيراً للمطالعة وهي المسماة (ارش وغروبر) وقد أنيط إخراجها وتكملتها بـ(وختر) وبنفقة (بروكهس) وصدرت في ٦ مجلدات بين سنة ١٧٩٦ و ١٨١٠ وطبعت في (ليبزيك) و (آمستردام) ثم طبعت بعد ذلك عدة طبعات وترجمت إلى عدة لغات أوروبية،

(١) الأنسكلوبيديا البريطانية (E N) تعريب مير بصري.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية الإيرانية تأليف عبد العزيز الجواهري.

ويرجحها الكثير من حيث أسلوبها وسهولة مراجعتها على الكثير من دوائر المعارف الأخرى، وأول مؤلف لهذه الأنسكلوبيديا هو (لويل) وقد أتمّها (بروكهوس) وانتهت طبعتها الأخيرة في ١٥ مجلداً مطبوعاً بـ (ليبزيك) سنة ١٨٦٤ ـ ١٨٦٨ وقد ألحقت بها مستدركات وتتمات في سنة ١٨٧٢ ـ ١٨٧٣ ولا تزال اليوم وهي من أهم دوائر المعارف العالمية[١].

الأنسكلوبيديا الإيطالية

وأشهر دائرة معارف إيطالية عامة هي دائرة المعارف المسماة (بيفاتي) ويذهب البعض إلى أنها أقدم دوائر المعارف الأوروبية، ثم دائرة المعارف الإيطالية التي بدأ طبعها سنة ١٨٨٤.

الأنسكلوبيديا اليابانية والصينية

ويقول المؤرخون أن الصين قد سبقت أوروبا في تأليف الموسوعات فلليابانيين والصينيين عدد من دوائر المعارف ولكن أهم هذه الدوائر هي الأنسكلوبيديا المعروفة بـ (ينغ لوتاتين) وهي من أوسع دوائر المعارف إحاطة، وقد أسهم في تأليفها ٢٢٠٠ كاتب، وإلى سنة ١٤٠٧ كان مجموع مجلداتها ٨٩٢ مجلداً وفي القرن السابع كانت هنالك عدة موسوعات قد صدرت باللغة الصينية أما الأنسكلوبيديا الصينية المعروفة بـ (سان تسان تو فهي) فتقع في ١٣٠ مجلداً، وقد قسمت العالم وقوى الكائنات إلى ثلاثة أقسام، هي السماء، والأرض، والإنسان، وبحثت كل موضوع منها بحثاً موسوعياً شاملاً. وفي أوائل القرن التاسع عشر ترجمت هذه الموسوعة إلى اللغة اليابانية[٢].

ولم يدخل القرن التاسع عشر والقرن العشرون حتى تكاثر عدد المعاجم والموسوعات العالمية وتنوعت أغراضها في العلوم العامة، والتأريخ العام، والتراجم والفنون والآداب والاصطلاحات العلمية وقد سدت هذه الموسوعات إلى جانب

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية الإيرانية لعبد العزيز الجواهري.

(٢) نفس المصدر.

الموسوعة البريطانية والفرنسية كل الفراغ في حاجة الدنيا العامة ولا سيما الموسوعات الأميركية ولا يزال المتتبعون والمؤلفون الموسوعيون يستدركون بين آن وآخر كل ما كان قد فاتهم أو كل حدث جديد في دنيا العلم والفن والأدب فيضيفونه إلى تلك المعاجم.

فتور الموسوعية العربية

وفي الوقت الذي بزغ فجر النهضة الأوروبية بسبب زوال العوارض وبسبب الاكتشافات العلمية والتأريخية وما كان إلتماس الشعوب الأوروبية بالشعوب العربية والحضارة الإسلامية من أثر، أصاب الأقطار الإسلامية شيء من الفتور نتيجة اكتساح المغول للبلدان الإسلامية مما أدى إلى انقسام الشعوب وتضعضع أركان الاستقرار واختلال أحوال الأمم الإسلامية أكثر مما كان مألوفاً فعرا البلدان العربية الإسلامية ما كان قد عرا الأقطار الأوروبية قبل بزوغ شمس الحضارة وقبل القرن العاشر الميلادي لا سيما أيام الحكم العثماني وبعد القرن الخامس عشر الميلادي، فعلى رغم فتور حركة الموسوعية في التأليف فقد كان يعوز تلك الموسوعات الصادرة بعد هذا التأريخ المعرفة العامة والإحاطة التامة بشؤون الدنيا وتقدم العلم وما أصابت أوروبا منه من نصيب.

الموسوعية العربية الحديثة

وكما كان للحروب الصليبية فضل انتقال الأفكار العلمية من الشرق إلى الغرب فقد كان لحملة بونابرت على مصر الفضل الأول في انتقال الأفكار الأوروبية الحديثة إلى الشرق وزاد تبشير المبشرين بالدين والرحالة الذين كانوا يطوفون بالبلدان الشرقية هذه الصلة، ثم زادت الجامعة الأميركية ببيروت من توسيع آفاق المعرفة ونشر العلم[1]، ثم الإكثار من فتح المدارس الجديدة والقيام بترجمة الكتب الفرنسية وانتشار الصحف السيارة حتى وجد القارىء العربي والكاتب والدارس والباحث نفسه بحاجة ماسة إلى موسوعة تأخذ بيده وتساعده على فهم الكليات العامة في حياة العلم والثقافة والمعرفة، ومن هنا، من هذا الإحساس بالحاجة الماسة تيقظت فكرة الموسوعية في الأذهان من

(١) القصة العراقية قديماً وحديثاً ـ لجعفر الخليلي ص ١٣٣.

جديد، وفي هـذه المرة كـان التفكير في سـد الحاجـة من الثقافـة العامـة بأي وجـه من وجوهها العلمية أو التأريخية أو الفنية، وحتى اللغوية من أشق الأمـور وأصعبها، عـلى رغم توفر كل الوسائل المطلوبة من الكتب بمختلف أصنافها وأغراضها وسهولة السفـر والانتقـال ومقابلة الـرجال التي لم تكن متيسرة في القـرون الأولى لمؤلفي الموسـوعات، ذلك لأن ميدان العلم والتأريخ والفن والاكتشاف قد أصبح من السعة بحيث يصعب كل الصعوبة على فرد واحد أو أفراد قليلين دخوله والإحاطة بطرف من أطـرافه فكيف إذا أراد الإحاطة بجميع أطرافه وحدوده ومـع ذلك فقـد كان بـطرس البستاني المتـوفى سنة (١٣٠٠ هـ ١٨٨٣ م) أول من فكر بـإصدار دائـرة معارف حـديثة شـاملة وقد شرع بها فعلاً وأنجـز منها ستـة أجزاء ويـدأ بالسـابع وتـوفي فأكمله ابنـه سليم وأردفه بـالثامن وتعـاون أبناء لـه آخرون مـع ابن عمهم سليمان خـطار البستاني المتـوفى سنـة (١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م) فأصدروا الجزء التاسع والعاشر، والحادي عشر، وشرعوا في الثاني عشر وتوقف العمل[1] أما طبع الجزء الأول من دائرة معارف البستاني فقد تم في سنة ١٨٧٦ م أي قبل وفاة المعلم بطرس بسبع سنين.

وتصدى في السنوات العشر الأخيرة فؤاد أفرام البستاني رئيس الجامعـة اللبنانيـة إلى إعـادة النظر في دائـرة معارف البستـاني والشروع بتكملة أجزائهـا على نفقـة آميـل البستاني وقد صدر منها لحد الآن خمسة مجلدات، ويـوشك أن يصـدر المجلد السادس قريباً.

وصدرت بعد ذلك كتب كثيرة فيها شيء من صفة الموسوعية كما صـدر عدد من معـاجم اللغة ولكن معجـماً عامـاً ودائرة معـارف شاملة لم تصـدر بعد دائـرة معـارف البستاني غير دائرة معارف محمد فريد وجدي المتوفى سنة (١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م) وقـد صدرت في عشرة أجزاء كـاملة باسم (دائـرة معارف القـرن الرابـع عشر ـ العشرين) وتم طبع الجزء الأول منها سنة ١٩٢٣، ثم (دائرة المعارف الإسـلامية) التي نقلهـا إلى العربية محمد ثابت الفندي وأحمد الشنتنـاوي وإبراهيم زكي خـورشيد، وعبـد الحميد يونس، وقد طبع منها أحد عشر مجلداً بمصر بين سنة ١٩٣٣ ـ ١٩٥٧.

(١) الأعلام ـ لخير الدين الزركلي، حرف الباء (البستاني).

موسوعات عربية أخرى

وكلما خطا العالم العربي في ميدان الحضارة الحديثة خطوة أحس بالحاجة الماسة إلى سد النقص الهائل في عالم التأليف ففي الخزانة العربية فراغ وفي أنفس قرائها حاجة، وللعصر اقتضاء يعوز الخزانة العربية كتاب يضم شتات ما فيها من علم ومعرفة من القديم والحديث، ويقتضي العصر الذي نعيش فيه أن تكون لنا كتب يجتزي بها المعجل منا عن مطولات السير وضخام أسفارها كما يقول الزركلي في مقدمة الأعلام.

ولكن النهوض بهذا الحمل ليس شاقاً من حيث تضافر العلماء والأدباء والبحث والتتبع والاستقصاء فقط وإنما النهوض به من حيث التمويل والإنفاق قد لا يقل صعوبة إن لم يكن أكثر صعوبة من التأليف وجمع المواد، ومع ذلك فقد بذلت جهود فردية نجح بعضها نجاحاً منقطع النظير، وجانب بعضها التوفيق كله أو بعضه لما لحق به من نقص في الشمول والإحاطة أو التحقيق العلمي والتثبت من صحة الوقائع، ومع ذلك فلم تخرج تلك الجهود وإن كانت مختصرة ومحدودة وضيقة عن حدود المحاولات المفيدة في عالم الموسوعية.

وكثير أولئك الذين تناولوا التراجم والمواضيع بمختلف أغراضها باسم (الأعلام) أو اسم (المعاجم) أو الأسماء الأخرى الدالة على الموسوعية، ولكن الغالب في تلك الموسوعات كان في منتهى الإيجاز والإختصار وقلة عدد المترجم لهم أو قلة المواضيع التي تحدثوا عنها. وقد كان للمؤلفين العراقيين نصيب مذكور في هذه الموسوعات، وإذا استثنينا معاجم اللغة فمن أهم (الأعلام) و (المعاجم) التي صدرت في الثلث الأول من هذا القرن هي:

(أعلام العراق) لمحمد بهجة الأثري المطبوع سنة ١٣٤٥ هجرية، و (أعلام العرب في السياسة والأدب) لفائز سلامة المطبوع سنة ١٩٣٥ م، و (الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية) لزكي محمد مجاهد طبعت بين سنة ١٣٦٨ - ١٣٧٤ هجرية. و (أعلام النساء) لعمر رضا كحالة وهو في خمسة مجلدات

طبعت في ١٣٥٩ هجرية. و (أعلام المقتطف) و (أعلام من الشرق والغرب) و (أعلام الأدب والفن) وغيرها.

ومن أشهر المعاجم الحديثة (معجم المطبوعات العربية والمعربة) ليوسف اليان سركيس في أحد عشر جزءاً بمجلدين طبع سنة ١٩٢٨، ومعجم (أدباء الأطباء) لمحمد الخليلي في ثلاثة أجزاء طبع الجزء الأول سنة ١٩٤٩ والجزء الثالث هو تحت الطبع اليوم، و (معجم قبائل العرب القديمة والحديثة) لعمر رضا كحالة طبع سنة ١٩٤٩، و (معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التأريخ الإسلامي) للمستشرق زامباور وقد أخرجه جماعة برئاسة زكي محمد حسن طبع في سنة ١٩٥١، و (المعجم) وهو موسوعة لغوية علمية فنية لعبد الله العلايلي طبع المجلد الأول سنة ١٩٥٤ و (معجم العراق) لعبد الرزاق الهلالي صدر منه جزءآن ينتهي الجزء الثاني بحرف الصاد وقد طبع الجزء الأول سنة ١٩٥٣[١] وغيرها.

أما الكتب التي اتصفت بالموسوعية وأطلقت عليها أسماء عامة مختلفة فهي كثيرة ومن أشهرها:

(المسك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر) و (بلوغ الارب في أحوال العرب) والكتابان لمحمود شكري الألوسي المتوفى سنة (١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م) ويقع بلوغ الارب في ثلاثة أجزاء طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٢٤، و (الروائع) وهي سلسلة صدر منها ما يقرب الستين جزءاً لحد الآن ألّفها فؤاد أفرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية، وقد طبع الجزء الأول منها سنة ١٩٣٢ مبتدئاً بعلي بن أبي طالب(ع)، وتعتبر (الروائع) أروع خلاصة لتاريخ الأدب العربي وكنوزه القديمة والحديثة، (ومناهل الأدب العربي) سلسلة أصدرتها مكتبة صادر ببيروت على غرار (الروائع) و (تاريخ العراق بين احتلالين) وهو في ثمانية مجلدات لعباس العزاوي المحامي وقد طبع المجلد الأول سنة ١٩٣٥ و (عشائر العراق) للعزاوي نفسه وهو في أربعة مجلدات، طبع المجلد الأول منها سنة ١٩٣٧ و (الكنى والألقاب) للشيخ عباس

---

(١) الأعلام لخير الدين الزركلي ـ أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ـ الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي ـ دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي ـ الروائع لفؤاد أفرام البستاني.

القمي في ثلاثة أجزاء وقد تم طبعها سنة ١٩٣٩ بمطبعة العرفان و (الغدير في الكتاب والسنة والأدب) للشيخ عبد الحسين الأميني صدر منه أحد عشر مجلداً وقد طبع المجلد الأول في سنة (١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م) و (أدب المقالة الصحفية) للدكتور عبد اللطيف حمزة وقد صدرت منه ثمانية مجلدات لحد الآن وقد تم طبع المجلد الأول سنة ١٩٥٠.

و (البابليات) للشيخ محمد علي اليعقوبي وهي ثلاثة مجلدات وقد طبع المجلد الأول سنة (١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م) و (نفائس المخطوطات) لجامعها ومحققها الشيخ محمد حسن آل ياسين صدر الجزء الأول منها سنة ١٧٣١ هـ ١٩٥١ م، وعدد آخر مما اتصف بالموسوعية (كمعارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء) للشيخ محمد حرز الدين وقد صدرت منه ثلاثة أجزاء، و (كشعراء الغري) و (شعراء الحلة) لعلي الخاقاني وطائفة أخرى من الكتب ذات الصبغة الموسوعية التي اكتفينا بإيراد الأمثلة عليها نظراً لصعوبة التوسع فيها.

الموسوعة الكاملة

أما الكتب الحديثة التي صدرت في النصف الأول من القرن الأخير واتصفت بالموسوعية اتصافاً كاملاً والتي قاربت أكثر من غيرها حدود الموسوعية الكاملة فهي كثيرة منها (المنجد في اللغة والأدب والعلوم) تأليف الأب لويس معلوف اليسوعي وقد صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٠٨ مقتصرة على اللغة ثم خرج أخيراً بمساعي الأب فردينان توتل كموسوعة جامعة للغة والأدب والعلوم.

و(الأعلام) لخير الدين الزركلي الذي قضى في جمع موسوعته وتأليفها أربعين سنة متواصلة بدأها منذ سنة (١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م) وطبع الأجزاء الثلاثة الأولى لأول مرة سنة ١٩٢٧ ثم نقحها وزاد عليها وطبعها في عشرة أجزاء وهي اليوم من أهم بل أهم المصادر لتراجم الرجال المتقدمين والمتأخرين على الإطلاق وينتظر أن يصدر الجزء الحادي عشر من (الأعلام) في المستقبل القريب.

وكتاب (تنقيح المقال في أحوال الرجال) للشيخ عبد الله المامقاني المتوفى سنة (١٣٥١) هـ وهو في ثلاثة أجزاء ويحتوي على ١٣,٣٦٥ ترجمة لرجال الأخبار ورواة

الحديث وأرباب السند ويعتبر (تنقيح المقال) من أوسع علوم الرجال وتراجمهم إحاطة وبحثاً، وقد تم تأليف الجزء الأول سنة (١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م).

وكتاب (تأريخ الوزارات العراقية) للسيد عبد الرزاق الحسني وقد صدر منه عشرة مجلدات وتم طبع الجزء الأول سنة ١٩٣٤ وهو في موضوعه موسوعة تامة كاملة.

وكتاب (أعيان الشيعة) للسيد محسن الأمين العاملي المتوفى سنة (١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م) وهو في ٥٢ مجلداً يحتوي على ما يقرب من ١٢,٠٠٠ ترجمة للعلماء والأدباء من رجال الشيعة ويعتبر أكبر موسوعة صدرت في تأريخ الموسوعة العربية في موضوعها وقد تم طبع الجزء الأول منها في سنة ١٩٣٥ وبوشر اليوم بإعادة طبع هذه الموسوعة وإضافة طائفة من التراجم المستدركة عليها.

وكتاب (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) وهي موسوعة كاملة في بابها لمؤلفها الشيخ آغا بزرك وقد طبع منها سبعة عشر مجلداً وتم طبع المجلد الأول سنة (١٣٥٥ هـ ١٩٤٦ م).

وكتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي وهو في عشرة أجزاء وقد طبع المجلد الأول منه سنة ١٩٥٠ م وهو الأخر أوسع مجموعة صدرت عن العرب وتأريخهم قبل الإسلام. وغير ذلك مما اكتفينا بضرب المثل عنه.

وعلى كثرة المواضيع والنواحي التي تفتقر الثقافة العربية إلى وجود موسوعة ضافية لها فإن حركة الموسوعية الجماعية منها والفردية لا تزال ضيقة وقليلة بل وأقل من القليل إذا جاز هذا التعبير. إلى هنا انتهى ما أورده الخليلي في بحثه حول «الموسوعة»[1].

***

وكتاب (طبقات أعلام الشيعة) لصاحب الذريعة الشيخ آغا بزرك الطهراني (١٢٩٢ ـ ١٣٨٩)، وهي موسوعة كبيرة واسعة، تضم تراجم علماء الشيعة من القرن الرابع الهجري، إلى القرن الرابع عشر الهجري، في عدة مجلدات طبع منها طبقات

(١) موسوعات العتبات المقدسة (المدخل) / ٥ ـ ٤٠.

القرن الرابع، والخامس، والسادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، والثالث عشر، والرابع عشر، ولها مجلدات أخرى ما زالت قيد البحث والتحقيق.

وكتاب (الغدير في الكتاب والسنة والأدب) للشيخ المحقق، العلامة الأميني النجفي ١٣٢٢ - ١٣٩٠ هـ، وهي موسوعة تاريخية وأدبية ١ - ١١ وقد طبع المجلد الأول منها في النجف سنة ١٣٦٤ هـ.

وكتاب (معجم رجال الحديث) لآية الله العظمى الإمام السيد أبو القاسم الخوئي... ويعتبر موسوعة ضخمة تتحدث عن رواة الشيعة، وتقع في ٢٣ مجلداً طبعت في العراق، ولبنان.

وموسوعة (دائرة المعارف الإسلامية الشيعية) للأستاذ الكبير السيد حسن الأمين العاملي نجل السيد محسن الأمين قدس سرّه... مؤلف موسوعة (أعيان الشيعة) وقد رتبها المؤلف الكريم حسب الحروف، ويقع في خمس مجلدات كبيرة بالقطع الرحلي طبعت سنة ١٤١٠/ ١٩٩٠ وأعيدت طباعة بعض مجلداتها، وعدد صفحاتها ٤٧٤+ ٥٣٩+ ٥٥٢ + ٤٧٠+ ٥١٧، والمجلدات تعوزها فهرست المواضيع. والعمل في حد ذاته قيم جدير بالتقدير والإكبار، وحيا الله المؤلف وبياه، وبارك في عمله وعمره...

موسوعة العتبات المقدسة

لم تنل الموسوعة في بعض البلاد الإسلامية والعربية من التقدير، كما نالتها في غيرها من الأمصار، ولم يكن لها شأن في الحياة الفكرية والثقافية بصورة عامة، ولم تنل أية رعاية وعناية، لا من قبل الجهات المسؤولة ولا من طرف الكتاب والمؤلفين والأكاديميات العلمية، ففي إيران مثلاً صدرت قبل ثلاثين عاماً موسوعة (لغت نامهٔ دهخدا) وهي موسوعة فارسية للتأريخ، والجغرافية، والتراجم، والأدب، واللغة وسائر العلوم، وهي من تآليف المحقق المتتبع الميرزا علي أكبر بن خان بابا خان القزويني الملقب (دهخدا) ويعد موسوعة فكرية قد أفنى مؤلفها دون تأليفها نحو خمسين سنة، في جمع موادها وترتيبها وتنسيقها، وهي مرتبة على حروف المعجم، إلّا أن المؤلف مات سنة ١٣٧٤ هـ، وكان قد أنهى منها عشرين حرفاً، فبعد وفاته تسلمتها (جامعة طهران)

واهتمت بإكمالها، فألفت لجنة متكونة من الأساتذة، من ذوي الكفاءة والاختصاص، برئاسة الدكتور محمد المعين، وأعضاء: محمد پروين الكنابادي، والسيد جعفر الشهيدي، ومحمد دبير السياقي، بالإضافة إلى لجنة تحريرية تعمل بإشراف رئيس اللجنة، وأعضائها، وتوجيهاتهم، وواصلوا العمل وأنهوا الموسوعة بكامل حروفها، وتقع في خمسين مجلداً بالقطع الكبير الرحلي، وقد طبعت في إيران، وأخذت مكانها الرفيع في المكتبات العامة، والخاصة.

وهناك في إيران أيضاً بعد هذه الموسوعة (لغت نامه) صدرت موسوعات أخرى بشكل نشرة، ومجلة شهرية، وفصلية، مرتبة حسب الحروف غير أنها بعد أعداد توقفت واحتجبت لقضايا مالية وبقيت ناقصة إلى ما شاء الله.

أما في العراق ففي عام ١٩٦٥ م أصدر الأستاذ الكريم السيد جعفر الخليلي مؤسس (دار التعارف) ببغداد موسوعة (العتبات المقدسة) وتضم: مكة المكرمة. المدينة المنورة. النجف الأشرف. كربلاء. الكاظميين. مشهد الإمام الرضا (ع). وكان نصيب النجف من الموسوعة المجلد السادس، والسابع، تناول فيهما بعض البحوث الخاصة المختصرة عن جوانب النجف، بقلم جمع من المحققين والباحثين، ولم تتناول كافة الجوانب، مع العلم أن مدينة النجف وغيرها من العتبات المقدسة ذات تاريخ قديم عريق له علاقة جد وثيقة بالثقافة والحضارة الإسلامية والعربية.

ومهما يكن من أمر فالمجلدان من الموسوعة (٦، ٧) دراسة تمهيدية وخطوة موفقة تناولت بعض جوانب النجف الأشرف.

وينبغي الإشارة هنا إلى موسوعات الأستاذ علي الخاقاني النجفي، صاحب (مجلة البيان) المشتملة على مجموعة (شعراء الغري) و(شعراء الحلة) و(شعراء بغداد) و(شعراء البصرة) وتعتبر بحق موسوعة كبيرة ضخمة، جمعت شعراء العراق وأشعارهم ومنظوماتهم ونتاجهم العلمي والأدبي... إلاّ أن المؤلف لقضايا هو أعرف بها أهمل ذكر الكثير من شعراء النجف، وقد استدركناه عليه وأدخلناهم في الموسوعة كما ستلاحظه في الموسوعة قسم (شعراء النجف) إن شاء الله.

موسوعة النجف الأشرف

إن هذه العوامل وغيرها التي تدعو إلى إعطاء صورة واضحة متكاملة عن جميع جوانب النجف، دفعت بمؤسس (دار الأضواء) في لبنان الفاضل الوجيه الحاج جعفر الدجيلي لإصدار هذه الموسوعة، فاتصل بطائفة من أرباب الفضل والمعرفة والاختصاصيين وعرض عليهم الفكرة من إخراج موسوعة عامة تتناول جميع نواحي النجف منذ العهد الجاهلي، وتمصير الكوفة إلى يومنا هذا.

لقد كان هذا العمل فريداً في نوعه وفذاً في واقعه، وجديداً في شكله، ويعتبر أول مجهود تقوم به (دار الأضواء) في عام الموسوعات، فبالإضافة إلى البحوث والمواضيع التي تسلمتها الدار من الأساتذة، والكتاب، والمحققين بهذا الشأن أخذ مؤسس الدار منذ ستة أعوام يتجول في البلدان الإسلامية، وينقب في الكتب والمجلات والصحف ليأخذ منها ما يخص النجف، وبالنتيجة كانت مساعيه مثمرة وخطواته منتجة... إذ ولدت منها (موسوعة النجف الأشرف التي هي الآن بين يدي القارىء.

منهج تنظيم الموسوعة:

إنه مهما اختلفت المناهج التي سار عليها المؤلفون في وضع الموسوعات واختلف بعضها عن بعض، فإن النتيجة الحاصلة منها واحدة تقريباً، آلا وهي جمع المعلومات الواسعة عن موضوعٍ ما في إطار خاص، مما يجعل لكل موسوعة كيانها المستقل، ومن هذا المنطلق يسهل النُهوض بها بعد تظافر جهود العلماء والأدباء والمفكرين ـ طبعاً ـ وبذل الوسع في التتبع والاستقراء، وإنما تكمن المشكلة في كيفية دفعها إلى حيز الوجود من ناحية التمويل، فهذه الناحية أكثر صعوبة من جمع المواد، والتأليف.

ومهما يكن من أمر فإننا قد أخذنا على أنفسنا أن تكون الموسوعة هذه... على نظام ومنهج مدروسين بقدر الإمكان، فكان نهجنا في تنسيقها وتنظيمها.

أ ـ المواضيع والبحوث الخاصة بالنجف الواردة في الكتب أو المنشورة في الصحف... رتبناها حسب المواضيع، وصنفت على الأبواب ليسهل على القارىء الكريم... الوقوف بأي جانب من جوانب النجف الأشرف إن شاء.

ب ـ تدوين ونشر ما لدينا من البحوث والمقالات حول واحد من المواضيع، فلا نقتصر بنشر مقال واحد مثلاً عن أحد جوانب النجف، وإنما أدرجنا ما جاء فيه من المقالات والكتابات المتكررة، وعلى سبيل المثال ففي (فصل جغرافية النجف) أو (مكتبات النجف) أو (الحركة الفكرية، والأدبية في النجف) أو (المدرسة والدراسة والتدريس في جامعة النجف) أثبتنا عدة مواضيع، ومقالات بأقلام مختلفة للأساتذة والمحققين، ليكون البحث جامعاً ومتكاملاً فلكل كاتب ومؤلف معلوماته، ومعرفته، وسليقته الخاصة، وقد يودع كاتب في بحثه أو مؤلفه معلومات ونقاطٍ معينة لم يقف عليها مؤلف وكاتب آخر.

ج ـ وضع إسم الكاتب أو المؤلف في أول البحث وآخره، موشحة بترجمة مختصرة في الهامش عنه، مع صورته إن وجدنا إليها سبيلا.

د ـ كافة المواضيع المدرجة في الموسوعة تخص النجف فحسب، ولا علاقة لها بعتبات أخرى خارجة عن نطاق وحدود الموسوعة.

هـ ـ صفحات الموسوعة تتسع لكل بحث تبعاً لمواده، وتدرج المقالات بكاملها دون تحريف ونقصان، وترجيح واستثناء... لأن الغاية هو جمع ما يخص النجف بين دفتي موسوعة واحدة باسم (موسوعة النجف الأشرف).

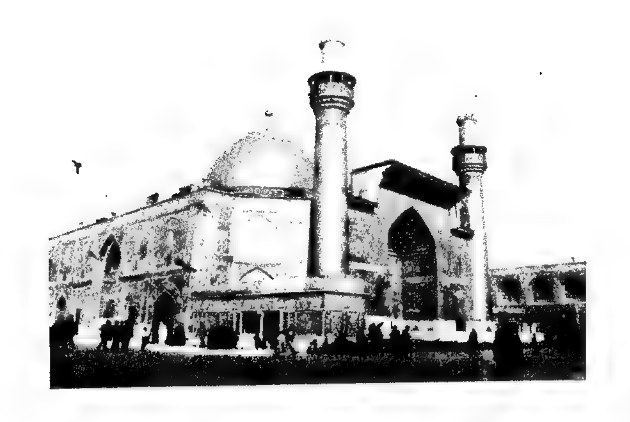
و ـ وضع تعليق أو شرح هامش البحث أو المقال إذا اقتضى ذلك.

هذا وفي الوقت الذي نقدم المجلد الأول، من الموسوعة للمكتبة الإسلامية والعربية، نرجو الله سبحانه... أن يحالفنا التوفيق إلى آخر المطاف من إخراج جميع مجلداتها بصورة متواصلة... وسنسير بحول الله وقوته... دون أن نربط عملاً بعمل آخر أو نقيد عجلة بأخرى... وأننا لنقدم الشكر الجزيل للذين ساهموا في تأليف

الموسوعة، ومدوا إلينا يد التوجيه والمساعدة على اختلاف أنواعها في سبيل تكامل الموسوعة ودفعها إلى حيز الوجود. . . راجين العلي القدير أن يأخذ بعضدهم، ويكثر من مؤازرينا والله من وراء القصد، ومنه التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدكتور الشيخ
محمد هادي الأميني

١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م



منظر عام لمرقد الإمام علي(ع)



موقع النجف الجغرافي

منظر عام لمرقد الإمام علي(ع)

لا بـد لنا قبـل الخـوض في صلب المـوضـوع، والتحـدث عن تـأريـخ النجف الأشرف... منذ البداية، وتبيان تأريخها القديم، وحالاتها وأطوارهـا وأدوارها خـلال القرون المتمادية السالفـة... من إعطاء القـارىء الكريم صـورة عن موقعهـا الجغرافي والطبيعي بشكل عام، ليكون عـلى بصيرة من هـذا الجانب أيضـاً، ولئلا يكتنفـه عدم الوضوح بعد أن أصبح من الثابت تـاريخياً وأركيولوجيـاً، ان ظهر الكـوفة المعـروف اليوم بالنجف... كانت مهد الحضارة والثقافة، ولكن مع الأسف أن المعلومـات عنها لا تتجاوز معرفة إسمها أحياناً، أو بضعة أسطر وصفحات عنها، دون تحـديد مـوقعها بالضبط، والأدوار التاريخية التي اجتازتها خلال خمسـة عشر قرنـاً في العصر الإسلامي، مع غض النظر عن موقعها الحضاري في العصر الجاهلي، كما ستقف عليـه في الفصول الآتية.

ومهما يكن من أمر فالفصل الذي بين يديك... وإن اعتـبرناه مـدخلاً لتـأريخ النجف، إلّا أنه في الواقع يعود إلى صلب الحديث... وله الصلة التامة بـالبحث، مع الإشارة إلى أن في جغرافية النجف آراء شتى، ونظريات مختلفة، وكتابات متفـاوتة من جهـة الأسلوب والبيان والاثبات، فإننا كـما سبق القول منـا في المقدمة، لم نقتصر على ذكر قول واحد من الأقوال، وإنما أدرجنا كافة النظريات والكتابات التي وصلتنـا في هذا الشأن، مع الإشارة إلى المرجع الذي استفدنا منه، وإسم المؤلف، أو الكاتب.

والواقع أن المؤرخين والكتاب لم يعنوا بالنجف من حيث موقعهـا الجغرافي، ولا من نواحيها التاريخية والحضـارية قبـل الإسلام وبعده، بصورة وافيـة وبشكل متكـامـل الجوانب، بحيث يجد القارىء ما يروي ظمأه من شوق لمعرفة تاريخ حضارة، وتراث هذا البلد المقدس.

«تمصير الكوفة وتخطيطها»

وقبل أن ندخل في صلب البحث عن تاريخ وكيفية تمصير الكوفة، وتخطيطها، نشير إلى أهميتها وفضلها كما ورد ذلك على لسان أهل البيت عليهم السلام.

فلقد ورد في فضل هذه البقعة الطيبة من الأرض أحاديث كثيرة تشير إلى قدسيتها، وكرم تربتها، نذكر بدورنا قسماً منها على سبيل المفتتح:

كان علي عليه السلام يقول: نِعمتِ المدرة.. إنه يحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً، وجوههم على صورة القمر.

ويقول: هذه مدينتنا ومحلتنا، ومقر شيعتنا.

وقال (عليه السلام): الكوفةُ كنز الإيمان، وحجة الإسلام، وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء. والذي نفسي بيده، لينتصرّن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز.

وقال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: تربةٌ نحبها وتحبنا.. اللهم إرم من رماها، وعادِ من عادها[1].

إلا أن هذه البقعة الطاهرة، لم يكن لها إسمٌ ـ على ما يبدو ـ مختص بها قبل السنة السابعة للهجرة. أو على الأقل لم تكن معروفة بهذا الإسم قبل ذلك الحين. فالعرب يقولون للرملة الحمراء: كوفة، ويقولون لكل رملٍ وحصباء مختلطين: كوفة. فما هي قصتها؟.

الذي يظهر من مجمل النصوص التأريخية المعتبرة أن المسلمين بعد أن فرغوا من حرب «القادسية والمدائن» وأقاموا فيها، لم تلائم التربة ولا الطقس أجسامهم، فتغيرت ألوانهم ونحلت أبدانهم، فكتب حذيفة ابن اليمان إلى عمر: إن العرب قد رقّت بطونها، وجفّت أعضادها، وتغيرت ألوانها:

---

(١) شرح النهج ٣/ ١٩٨ ومعجم البلدان ٤/ ٤٩٢.

فكتب عمر إلى سعد: أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟

فكتب إليه سعد: إن الذي غيّرهم وخومةُ البلاد، وإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان. فكتب إليه عمر: أن أبعث سلمان وحذيفة رائدين. فليرتادا منزلاً بريّاً بحريّاً، ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر.

فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار، فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضىٰ شيئاً حتى أتى الكوفة: فأعجبتهما البقعة، فنزلا فصليّا ودعوا الله تعالى أن يجعلها منزل الثبات[1]. وجاء في دعائهما: اللهم ربّ السماء وما أظلت، وربّ الأرض وما أقلّت، والريح وما ذرت، والنجوم وما هوَتْ، والبحار وما جرَتْ، والشياطين وما أظلّت، والخصاص وما أجنّتْ، باركْ لنا في هذه الكوفة، واجعله منزل ثبات[2].

ثم رجعا إلى سعدٍ فأخبراه، فارتحل سعد من المدائن حتى نزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة للهجرة وكتب إلى عمر: إني قد نزلت بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والفرات، بريّاً وبحريّاً[3] ينبت الحلفاء والنصي[4] وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن، فمن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمسلحة.

ولما استقروا بها عرفوا أنفسهم، ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم، وأول شيءٍ خُطّ فيها مسجدها.[5]

ويجدر بنا في هذا المجال أن نتناول ما ذكره المؤرخ «أبو الحسين البلاذري» المتوفي سنة ٢٧٩ هـ في كتابه «فتوح البلدان» باعتباره من أوائل المؤرخين وأقدمهم وأقربهم عهداً، مكتفين بذكر الراوي الأول دون إثبات السند كاملاً.

(١) مقتضبة من الكامل في التاريخ ٢/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨ وكذلك جاء في الطبري قريباً من ذلك ٤/ ٤١.

(٢) الطبري ٤/ ٤١ ـ وقيل إن الذي دلّ سعداً عليها هو ابن نفيلة الغساني/ معجم البلدان ٤/ ٤٩١ وغيره.

(٣) كانوا يسمون النهر الكبير بحراً.

(٤) الحلفاء نبت ينبت في الماء، وكذلك النصي.

(٥) الكامل لابن الأثير.

حدثني(١) محمد بن سعد، قال حدثنا محمد بن عمر الواقدي عن عبد الحميد بن جعفر وغيره أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً، فأتى الأنبار وأراد أن يتخذها منزلاً، فكثر على الناس الذباب، فتحول إلى موضع آخر فلم يصلح فتحول إلى الكوفة فاختطها وأقطع الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها وذلك في سنة سبع عشرة.

هشام بن الكلبي عن أبيه ومشايخ الكوفيين قالوا، لما فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة القادسية وجه إلى المدائن، فصالح أهل الرومية وبهر سير، ثم افتتح المدائن وأخذ أسبانبر وكردبنداذ عنوة فأنزلها جنده، فاحتووها، فكتب إلى سعد أن حولهم فحولهم إلى سوق حكمة، وبعضهم يقول: حولهم إلى كويفة دون الكوفة، وقال الأثرم وقد قيل: التكوف الاجتماع، وقيل أيضاً أن المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفاني، وبعضهم يسمى الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفة، قالوا فأصابهم البعوض، فكتب سعد إلى عمر يعلمه أن الناس قد بعضوا وتأذوا بذلك فكتب إليه عمر: أن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل فارتد لهم موضعاً عدناً ولا تجعل بيني وبينهم بحراً، وولى الاختطاط للناس أبا الهياج الأسدي عمرو بن مالك بن جنادة ثم. أن عبد المسيح بن بقيلة أتى سعداً وقال له أدلك على أرض انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المباق؟ فدله على موضع الكوفة اليوم، وكان يقال لها سورستان.

فلما انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلاً فعلا بسهم قِبَلَ مهب القبلة فأعلم على موقعه، ثم علا بسهم آخر قِبَلَ مهب الشمال وأعلم على موقعه، ثم علا بسهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ثم، علا بسهم قبل مهب الصبا فاعلم على موقعه، ثم وضع مسجدها ودار امارتها في مقام العالي وما حوله، وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي

(١) فتوح البلدان من ص ٢٧٠ ـ ٢٨٢ ط بيروت ١٩٨٣.

من وراء تلك العلامات، وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الامـارة، ثم أن المغيرة بن شعبة وسعه. وبناه زياد فأحكمه وبنى دار الامارة.

وكان زياد يقول: انفقت على كـل إسطوانـة من أساطـين مسجد الكـوفة ثـماني عشرة ومائة، وبنى فيها عمرو بن حـريث المخزومي بنـاء، وكان زيـاد يستخلفه عـلى الكـوفة إذا شخص إلى البصرة، ثم بنى العـمال فيها فضيقـوا رحابهـا وأفنيتها، قـال: وصـاحب زقـاق عمـرو بـالكـوفـة بنـو عمـرو بن حـريث بن عمـرو بن عثـمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة.

عن الشعبي، قال: كنا ـ يعني أهل اليمن ـ إثنا عشر ألفاً، وكانت نزاز ثمانية آلاف، ألا ترى أنا أكثر أهل الكوفة وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي.

عن مسلمة بن محارب وغيره، قالوا: زاد المغيرة في مسجد الكوفة وبناه ثم زاد فيه زياد؛ وكان سبب إلقاء الحصى فيه وفي مسجد البصرة أن الناس كانوا يصلون فإذا رفعوا أيديهم وقد تربت نفضوها، فقال زياد: ما أخـوفني أن يظن النـاس على غـابر الأيـام أن نفض الأيدي سنـة في الصـلاة فـزاد في المسجد ووسعه، وأمر بالحصى فجمع وألقى في صحن المسجد وكـان الموكلون بجمعـه يتعنتون الناس، ويقولون لمن وظفوه عليه ايتونا بـه على مـا نريكم وانتقـوا منه ضروبـاً اختـاروها فكـانوا يـطلبون مـا أشبهها فـأصابـوا مالاً، فقيـل: حبذا الامـارة ولو عـلى الحجارة. وقال الأثرم: قال أبو عبيدة: إنما قيل ذلك لأن الحجاج بن عتيك الثقفي أو ابنه تولى قطع حجارة أسـاطين مسجـد البصرة من جبل الأهـواز فظهـر له مـال فقال الناس: حبذا الأمارة ولو على الحجارة. وقال أبو عبيدة: وكان تكويف الكوفة في سنة ثـمان عشرة قال: وكـان زياد اتخـذ في مسجد الكـوفة مقصـورة ثم جددهـا خالـد بن عبد الله القصري.

عن الهيثم بن عدي الطائي، قال: أقام المسلمون بالمدائن واختطوها وبنوا المساجد فيها، ثم إن المسلمين استوخموها واستوبؤها، فكتب بذلك سعد بن أبي وقاص إلى عمر، فكتب إليه عمر أن تنزلهم منزلاً غربياً فارتاد كويفة ابن عمر فنظروا فإذا الماء

محيط بها فخرجوا حتى أتوا موضع الكوفة اليوم فانتهوا إلى الظهر، وكان يدعى خد العذراء ينبت الخزامى والأقحوان والشيح والقيصوم والشقائق فاختطوها.

وحدثني شيخ من الكوفيين. أن ما بين الكوفة والحيرة كان يسمى الملطاط قال: وكانت دار عبد الملك بن عمير للضيفان أمر عمر أن يتخذ لمن يرد من الآفاق داراً فكانوا ينزلونها.

وعن محمد بن إسحاق، قال اتخذ سعد بن أبي وقاص باباً مبوباً من خشب وخص على قصره خصاً من قصب، فبعث عمر بن الخطاب محمد بن مسملة الأنصاري حتى أحرق الباب والخص وأقام سعداً في مساجد الكوفة فلم يقل فيه إلا خيراً.

وعن جابر بن سمرة: أن أهل الكوفة سعوا بسعد بن أبي وقاص إلى عمر، وقالوا: إنه لا يحسن الصلاة فقال سعد: أما أنا فكنت أصلي بهم صلاة، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا أخرم عنها، أركد في الأولين وأحذف في الأخريين، فقال عمر: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل عمر رجالاً يسألون عنه بالكوفة، فجعلوا لا يأتون مسجداً من مساجدها إلا قالوا خيراً وأثنوا معروفاً حتى أتوا مسجداً من مساجد بني عبس، فقال رجل منهم يقال له أبو سعدة: أما إذا سألتمونا عنه فإنه كان لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية قال: فقال سعد: اللهم إن كان كاذباً فأطل عمره، وأدم فقره وأعم بصره، وعرضه للفتن، قال عبد الملك: فأنا رأيته بعد يتعرض للإماء في السكك، فإذا قيل له: كيف أنت يا أبا سعدة، قال كبير مفتون أصابتني دعوة سعد قال العباس النرسي في غير هذا الحديث: أن سعداً قال لأهل الكوفة اللهم لا ترض عنهم أميراً ولا ترضيهم بأمير.

وحدثني العباس النرسي، قال: بلغني أن المختار بن أبي عبيد أو غيره، قال: حب أهل الكوفة شرف وبغضهم تلف.

عن الشعبي، أن عمرو بن معدي كرب الزبيدي وفد على عمر بن الخطاب بعد فتح القادسية فسأله عن سعد وعن رضاء الناس عنه فقال: تركته يجمع لهم جمع الذرة، ويشفق عليهم شفقة الأم البرة، أعرابي في نمرته، نبطي في جبايته، يقسم بالسوية ويعدل في القضية وينفذ بالسوية، فقال عمر: كأنكما تقارضتما إلينا، وقد كان سعد

كتب يثني على عمرو، قال: كلا يا أمير المؤمنين ولكني أنبأت بما أعلم، قال يا عمرو: أخبرني عن الحرب، قال: مرة المذاق، إذا قامت على ساق. من صبر فيها عرف. ومن ضعف عنها تلف، قال: فأخبرني عن السلاح، قال: سل يا أمير المؤمنين عما شئت منه، قال: الرمح، قال: أخوك وربما خانك قال: فالسهام، قال: رسل المنايا تخطىء وتصيب، قال: فالترس قال: ذاك المجن عليه تدور الدوائر قال: فالدرع قال: مشغلة للفارس متعبة للراجل، وأنها لحصن حصين. قال والسيف قال: هناك ثكلتك أمك. فقال عمر: بل ثكلتك أمك. فقال عمرو الحمى أضرعتني إليك قال وعزل عمر سعداً وولى عمار بن ياسر فشكوه وقالوا ضعيف لا علم له بالسياسة فعزله. وكانت ولايته الكوفة سنة وتسعة أشهر، فقال عمر: من عذيري من أهل الكوفة أن استعملت عليهم القوي فجروه. وإن وليت عليهم الضعيف حقروه. ثم دعى المغيرة بن شعبة فقال: إن وليتك الكوفة أتعود إلى شيء مما قرفت به؟ فقال: لا. وكان المغيرة حين فتحت القادسية صار إلى المدينة فولاه عمر الكوفة فلم يزل عليها حتى توفي عمر، ثم أن عثمان بن عفان ولاها سعداً ثم عزله وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية فلما قدم عليه قال له سعد: إما أن تكون كست بعدي أو أكون حمقت بعدك، ثم عزل الوليد وولى سعد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية.

وعن بعض الكوفيين قال: سمعت مسعر بن كدام يحدث، قال: كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شهانشاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء فأعطوا الذي سألوه، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم وأنزلهم سعد بحيث اختاروا، وفرض لهم في ألف ألف، وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم فقيل حمراء ديلم، ثم أن زياد سير بعضهم إلى بلاد الشام بأمر معاوية فهم بها يدعون الفرس، وسير منهم قوماً إلى البصرة فدخلوا في الأساورة الذين بها، قال أبو مسعود: والعرب تسمى العجم الحمراء، ويقولون جئت من حمراء ديلم كقولهم جئت من جهينة وأشباه ذلك، قال أبو مسعود وسمعت من يذكر أن هؤلاء الأساورة كانوا مقيمين بإزاء الديلم فلما غشيهم المسلمون بقزوين أسلموا على مثل ما أسلم عليه أساورة البصرة وأتوا الكوفة فأقاموا بها.

وحدثني المدائني، قال: كان أبرويز وجه إلى الديلم فأتي بأربعة آلاف وكانوا خدمه وخاصته، ثم كانوا على تلك المنزلة بعده وشهدوا القادسية مع رستم فلما قتل وانهزم المجوس اعتزلوا، وقالوا: ما نحن كهؤلاء ولا لنا ملجأ وأثرنا عندهم غير جميل، والرأي لنا أن ندخل معهم في دينهم فنعز بهم فاعتزلوا، فقال سعد: ما لهؤلاء، فأتاهم المغيرة بن شعبة فسألهم عن أمرهم فأخبروه بخبرهم وقالوا: ندخل في دينكم فرجع إلى سعد فأخبره فأمنهم فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد وشهدوا فتح جلولاء، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة مع المسلمين.

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: جبانة السبيع نسبت إلى ولد السبيع بن سبع بن صعب الهمداني، وصحراء أثير نسبت إلى رجل من بني أسد يقال له أثير، وكان عبد الحميد نسب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامل عمر بن عبد العزيز على الكوفة، وصحراء بني قرار نسبت إلى بني قرار بن ثعلبة بن مالك بن حرب بن طريف بن النمر بن يقدم بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، قال: وكانت دار الروميين مزبلة لأهل الكوفة تطرح فيها القمامات والكساحات حتى استقطعها عنبسة بن سعيد بن العاصي من يزيد بن عبد الملك فأقطعه إياها فنقل ترابها بمائة ألف وخمسين ألف درهم، وقال أبو مسعود: سوق يوسف بالحيرة نسب إلى يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي عن ابن الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل، وهو عامل هشام على العراق.

وأخبرني أبو الحسن علي بن محمد وأبو مسعود قالا: حمام أعين نسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص، وأعين هذا هو الذي أرسله الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الجارود العبدي من رستقاباذ حين خالف وتابعه الناس على إخراج الحجاج من العراق ومسألة عبد الملك تولية غيره، فقال له حين أدى الرسالة: لولا أنك رسول لقتلتك. قال أبو مسعود وسمعت أن الحمام قبله كان لرجل من العباد يقال له جابر أخو حيان الذي ذكره الأعشى. وهو صاحب مسناة جابر بالحيرة فابتاعه من ورثته.

وقال ابن الكلبي، وبيعة بني مازن بالحيرة لقوم من الأزد من بني عمرو بن مازن

من الأزد وهم من غسان، قال: وحمام عمر نسب إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص.

قالوا وشهارسوج بجيلة بالكوفة إنما نسب إلى بني بجلة وهم ولد مالك بن ثعلبة بن بهثة بن سليم بن منصور وبجلة أمهم وهي غالبة على نسبهم فغلط الناس فقالوا بجلة: وجبانة عرزم نسبت إلى رجل يقال له عرزم كان يضرب فيها اللبن ولبنها رديء فيه قصب وخزف فربما وقع الحريق بها فاحترقت الحيطان.

عن ابن عون أن إبراهيم النخعي أوصى أن لا يجعل في قبره لبن عرزمي، وقد قال بعض أهل الكوفة أن عرزما هذا رجل من بني نهد، وجبانة بشر نسبت إلى بشر بن ربيعة بن عمرو بن منارة بن قمير الخثعمي الذي يقول:

تحن بباب القادسية ناقتي   وسعد بن وقاص علي أمير

قال أبو مسعود: وكان بالكوفة موضع يعرف بعنترة الحجام وكان أسود فلما دخل أهل خراسان الكوفة كانوا يقولون حجام عنترة فبقي الناس على ذلك وكذلك حجام فرج وضحاك رواس وبطارحيان ويقال رستم ويقال صليب وهو بالحيرة.

وقال هشام بن الكلبي: نسبت زرارة بن يزيد بن عمرو بن عدس من بني البكا ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة وكانت منزلة وأخذها منه معاوية بن أبي سفيان، ثم أصفيت بعد حتى أقطعها محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي قال: ودار حكيم بالكوفة في أصحاب الأنماط نسبت إلى حكيم بن سعد بن ثور البكاي، وقصر مقاتل نسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس بن إبراهيم بن أيوب بن محروق أحد بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم، قال: والسوادية بالكوفة نسبت إلى سواد بن زيد عدي بن زيد الشاعر العبادي وجده حماد بن زيد بن أيوب بن محروق، وقرية أبي صلابة التي على الفرات نسبت إلى صلابة بن مالك بن طارق بن جبر بن همام العبدي، وأقساس مالك نسبت إلى مالك بن قيس بن عبد هند بن لجم أحد بني حذافة بن زهر بن إياد بن نزار ودير الأعور لرجل من أياد من بني أمية بن حذافة كان يسمى الأعور وفيه يقول أبو داود الأيادي:

ودير يقول له الرائدو   ن ويل أم دار الحذاقى دارا

ودير قرة، أحد بني أمية بن حذافة وإليهم ينسب دير السوا والسوا العدل كانوا يأتونه فيتناصفون فيه ويحلف بعضهم لبعض على الحقوق، وبعض الرواة يقول السوا امرأة منهم، قال: ودير الجماجم لأياد وكانت بينهم وبين بني بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وبين بني القين بن جسر بن شيع الله بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف حرب فقتل فيها من إياد خلق فلما انقضت الوقعة دفنوا قتلاهم عند الدير، وكان الناس بعد ذلك يحفرون فخرج جماجم فسمي دير الجماجم: هذه رواية الشرقي بن القطامي، وقال محمد بن السائب الكلبي: كان مالك الرماح بن محرز الأيادي قتل قوماً من الفرس ونصب جماجمهم عند الدير فسمي دير الجماجم، ويقال: أن دير كعب لأياد ويقال لغيرهم، ودير هند لأم عمرو بن هند وهو عمرو بن المنذر بن ماء السماء وأمه كندية، ودار قمام بنت الحارث بن هاني الكندي وهي عند دار الأشعث بن قيس قال: وبيعة بني عدي نسبت إلى بني عدي بن الذميل من لخم قالوا: وكانت طيزناباذ تدعى ضيزناباذ فغيروا إسمها وإنما نسبت إلى الضيزن بن معاوية بن العبيد السليحي، واسم سليح عمر بن طريف بن عمران بن الحاف بن قضاعة وربة الخضراء النضير بنت الضيزن وأم الضيزن جيهلة بنت تزيد بن حيدان بن عمر بن الحاف بن قضاعة، قال: والذي نسب إليه مسجد سماك بالكوفة سماك بن مخرمة بن حمين الأسدي من بني الهالك بن عمرو بن أسد وهو الذي يقول له الأخطل:

أن سماكاً بنى مجداً لأسرته ... حتى الممات وفعل الخير يبتدر
قد كنت أحسبه قيناً وأخبره ... فاليوم طير عن أثوابه الشرر

وكان الهالك أول من عمل الحديد، وكان وِلْدُه يعيرون بذلك، فقال سماك للأخطل: ويحك ما أعياك أردت أن تمدحني فهجوتني، وكان هرب من علي بن أبي طالب من الكوفة ونزل الرقة، قال ابن الكلبي بالكوفة محلة بني شيطان وهو شيطان بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم، وقال ابن الكلبي: موضع دار عيسى بن موسى التي يعرف بها اليوم، كان للعلاء بن عبد الرحمن بن محرز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزي بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان العلاء على ربع الكوفة أيام ابن الزبير

وسكة بن محرز تنسب إليه وبالكوفة سكة تنسب إلى عميرة بن شهاب بن محرز بن أبي شمر الكندي الذي كانت أخته عند عمر بن سعد بن أبي وقاص فولدت له حفص بن عمر، وصحراء شبث نسبت إلى شبث بن ربعي الرياحي من بني تميم، قالوا: ودار حجير بالكوفة نسبت إلى حجير بن الجعد الجمحي، وقال: بئر المبارك في مقبرة جعفي نسبت إلى المبارك بن عكرمة بن حميري الجعفي وكان يوسف بن عمر ولاه بعض السواد، ورحى عمارة نسبت إلى عمارة بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية، وقال جبانة سالم نسبت إلى سالم بن عمار بن عبد الحارث أحد بني دارم بن نهار بن مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن وبنو مرة بن صعصعة ينسبون إلى أمهم سلول بنت ذهل بن شيبان، قالوا: وصحراء البردخت نسبت إلى البردخت الشاعر الضبي واسمه علي بن خالد، قالوا: ومسجد بني عنز نسب إلى بني عنز بن وائل بن قاسط، ومسجد بني جذيمة نسب إلى بني جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد ويقال إلى بني جذيمة بن رواحة العبسي وفيه حوانيت الصيارفة، قال: وبالكوفة مسجد نسب إلى بني المقاصف بن ذكوان بن زبينة بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان ولم يبق منهم أحد، قال: ومسجد بني بهدلة نسب إلى بني بهدلة بن المثل بن معاوية من كندة، قال: وبئر الجعد بالكوفة نسب إلى الجعد مولى همدان، قال: ودار أبي أرطاة نسبت إلى أرطارة بن مالك البجلي، قال: ودار المقطع نسبت إلى المقطع بن سنين الكلبي بن خالد بن مالك، وله يقول ابن الرقاع:

على ذي منار تعرف العين شخصه كما يعرف الأضياف دار المقطع

قال: وقصر العدسيين في طرف الحيرة لبني عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة بن علقمة بن عدس الكلبي نسبوا إلى جدتهم عدسة بنت مالك بن عوف الكلبي وهي أم الرماح والمشظ ابني عامر الملمم.

وحدثني شيخ من أهل الحيرة، قال: وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر أن المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم.

وحدثني أبو مسعود وغيره، قال كان خالد بن عبد الله بن أسد بن كرز القسري من بجيلة بني لأمه بيعة هي اليوم سكة البريد بالكوفة وكانت أمه نصرانية، وقال: وبنى خالد حوانيت أنشأها وجعل سقوفها أزاجاً معقودة بالآجر والجص وحفر خالد النهر الذي يعرف بالجامع، واتخذ بالقرية قصراً يعرف بقصر خالد واتخذ أخوه أسد بن عبد الله القرية التي تعرف بسوق أسد وسوقها ونقل الناس إليها فقيل سوق أسد، وكان العبر الآخر ضيعه عتاب بن ورقاء الرياحي، وكان معسكره حين شخص إلى خراسان والياً عليها عند سوقه هذا.

قال أبو مسعود: وكان عمر بن هبيرة بن معية الفزاري، أيام ولايته العراق أحدث قنطرة الكوفة ثم أصلحها خالد بن عبد الله القسري واستوثق منها، وقد أصلحت بعد ذلك مرات قال: وقال بعض أشياخنا: كان أول من بناها رجل من العباد من جعفي في الجاهلية، ثم سقطت فاتخذ في موضعها جسراً، ثم بناها في الإسلام زياد بن أبي سفيان، ثم ابن هبيرة، ثم خالد بن عبد الله، ثم يزيد بن عمر بن هبيرة، ثم أصلحت بعد بني أمية مرات.

حدثني أبو مسعود وغيره، قالوا كان يزيد بن عمر بن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ونزلها ومنها شيء يسير لم يستتم فأتاه كتاب مروان يأمره باجتناب مجاورة أهل الكوفة فتركها وبنى القصر الذي يعرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا، فلما ظهر أمير المؤمنين أبو العباس نزل تلك المدينة واستتم مقاصير فيها وأحدث فيها بناء وسماها الهاشمية فكان الناس ينسبونها إلى ابن هبيرة على العادة، فقال: ما أرى ذكر ابن يسقط عنها، فرفضها وبنى بحيالها الهاشمية ونزلها، ثم اختار نزول الأنبار فبنى بها مدينته المعروفة فلما توفي دفن بها، واستخلف أبو جعفر المنصور فنزل المدينة الهاشمية بالكوفة واستتم شيئاً كان بقي منها وزاد فيها بناء وهيأها على ما أراد، ثم تحول منها إلى بغداد فبنى مدينته ومصر بغداد وسماها مدينة السلام وأصلح سورها القديم الذي يبتدىء من دجلة وينتهي إلى الصراط، وبالهاشمية حبس المنصور عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب بسبب ابنيه محمد وإبراهيم وبها قبره، وبنى المنصور بالكوفة الرصافة، وأمر أبا الخصيب مرزوقاً مولاه فبنى له القصر المعروف بأبي الخصيب على أساس قديم، ويقال: أن أبا الخصيب بناه لنفسه فكان

المنصور يزوره فيه، وأما الخورنق فكان قديماً فارسياً بناه النعمان بن امرىء القيس وهو ابن الشقيقة بنت أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان لبهرام جور بن يزدجرد بن بهرام بن سابور ذي الأكتاف، وكان بهرام جور في حجره والنعمان هذا الذي ترك ملكه وساح فذكره عدي بن زيد العبادي في شعره، فلما ظهرت الدولة المباركة أقطع الخورنق إبراهيم بن سلمة أحد الدعاة بخراسان وهو جد عبد الرحمن بن إسحاق القاضي كان بمدينة السلام في خلافة المأمون والمعتصم بالله رحمها الله، وكان مولى للرباب وإبراهيم أحدث فيه الخورنق في خلافة أبي العباس ولم تكن قبل ذلك.

عن مشايخ من أهل الكوفة: أن المسلمين لما فتحوا المدائن أصابوا بها فيلاً وقد كانوا قتلوا ما لقيهم قبل ذلك من الفيلة فكتبوا فيه إلى عمر فكتب إليهم أن بيعوه ان وجدتم له مباعاً، فاشتراه رجل من أهل الحيرة فكان عنده يريه الناس ويجلله ويطوف به في القرى فمكث عنده حيناً، ثم أن أم أيوب بنت عمرة بن عقبة بن أبي معيط امرأة المغيرة بن شعبة وهي التي خلف عليها زياد بعده أحبت النظر إليه وهي تنزل دار أبيها فأتي به ووقف على باب المسجد الذي يدعى اليوم باب الفيل فجعلت تنظر إليه ووهبت لصاحبه شيئاً وصرفته فلم يخط إلى خطى يسيرة حتى سقط ميتاً فسمي الباب باب الفيل، وقد قيل أن الناظرة إليه امرأة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقيل أن ساحراً أرى الناس أنه أخرج من هذا الباب فيلاً على حمار وذلك باطل، وقيل: أن الأجانة التي في المسجد حملت على فيل وأدخلت من هذا الباب فسمي باب الفيل، وقال بعضهم: أن فيلاً لبعض الولاة اقتحم هذا الباب فنسب إليه: والخبر الأول أثبت هذه الأخبار.

وحدثني أبو مسعود، قال: جبانة ميميون بالكوفة نسبت إلى ميمون مولى محمد بن علي بن عبد الله وهو أبو بشر بن ميمون صاحب الطاقات ببغداد بالقرب من باب الشام، وصحراء أم سلمة نسبت إلى أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم امرأة أبي العباس. وحدثني أبو مسعود، قال: أخذ المنصور أهل الكوفة بحفر خندقها وألزم كل امرىء منهم للنفقة عليه أربعين درهماً وكان ذاماً لهم لميلهم إلى الطالبين وأرجافهم بالسلطان.

وعن جابر عن عامر، قال: كتب عمر إلى أهل الكوفة رأس العرب.

وعن نافع بن جبير بن مطعم، قال: قال عمر: بالكوفة وجوه الناس. وحدثنا الحسين وإبراهيم بن مسلم الخوارزمي، قالا: حدثنا وكيع عن يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي، قال: كتب عمر إلى أهل الكوفة إلى رأس الإسلام. وحدثنا الحسين بن الأسود، قال: حدثنا وكيع عن قيس بن الربيع عن شمر بن عطية قال: قال عمر وذكر الكوفة، فقال: هم رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار.

عن سلمان قال: الكوفة قبة الإسلام، يأتي على الناس زمان لا يبقى مؤمن إلا وهويها أو يهوي قلبه إليها.

* * *



جامع الكوفة منذ قرن تقريباً ويظهر فيه باب الفيل والمنارة

وقال أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي. . . المتوفى سنة ٢٨٤ هـ.[١]:

والكوفة مدينة العراق الكبرى والمصر الأعظم وقبة الإسلام ودار هجرة المسلمين، وهي أول مدينة اختطها المسلمون بالعراق سنة أربع عشرة[٢] وبها خطط العرب وهي على معظم الفرات ومنه شرب أهلها، وهي من أطيب البلدان وأفسحها وأغذاها وأوسعها وخراجها داخل في خراج طساسيج السواد وطساسيجها التي تنسب إليها طسوج الجبة وطسوج البداة وفرات بادقلا والسالحين ونهر يوسف. والحيرة منها على ثلاثة أميال، والحيرة على النجف. والنجف كان على ساحل بحر الملح، وكان في قديم الدهر يبلغ الحيرة وهي منازل آل بقيلة وغيرهم، وبها كانت منازل ملوك بني نصر من لخم وهم آل النعمان بن المنذر، وعليه أهل الحيرة نصارى فمنهم من قبائل العرب على دين النصرانية من بني تميم آل عدي بن زيد العبادي الشاعر ومن سليم ومن طيء وغيرهم. والخورنق بالقرب منها مما يلي المشرق وبينه وبين الحيرة ثلاثة أميال، والسدير في برية تقرب منها.

تخطيط الكوفة

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص لما افتتح العراق يأمره أن ينزل بالكوفة ويأمر الناس أن يختطوها، فاختطت كل قبيلة مع رئيسها، فاقطع عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت عبس إلى جانب المسجد ثم تحول قوم منهم إلى أقصى الكوفة. واختط سلمان بن ربيعة الباهلي والمسيب بن نجبة العزاري وناس من قيس حيال دار ابن مسعود واختط عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن حريث الدور حول المسجد. وأقطع عمر جبير بن مطعم فبنى داراً ثم باعها من موسى بن طلحة، وأقطع سعد بن قيس عند دار

(١) راجع كتاب البلدان ص ٦٩ ـ ٧٢ ط النجف.

(٢) أكثر المؤرخين على أن الكوفة اختطت سنة ١٧ من الهجرة وقيل اختطت سنة ١٥ منها.

سلمان بن ربيعة بينهما الطريق. واستقطع سعد بن أبي وقاص لنفسه الدار التي بدار عمر بن سعد. وأقطع خالد بن عرفطة وخباب بن الأرث وعمرو بن الحارث بن أبي ضرار وعمارة بن روبية التميمي. وأقطع أبا مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري. وأقطع بني شمخ بن فزارة مما يلي جهينة.

وأقطع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص شهار سوج[١] خنيس. وأقطع شريح بن الحارث الطائي. وأقطع عمر أسامة بن زيد داراً ما بين المسجد إلى دار عمرو بن الحارث بن أبي ضرار. وأقطع أبا موسى الأشعري نصف الآري وكان فضاء عند المسجد، وأقطع حذيفة بن اليمان مع جماعة من عبس نصف الآري وهو فضاء كانت فيه خيل المسلمين. وأقطع عمرو بن ميمون الأودي الرحبة التي تعرف بعلي بن أبي طالب عليه السلام وأقطع أبا جبيرة الأنصاري وكان على ديوان الجند. وأقطع عدي بن حاتم وسائر طيء ناحية جبانة بشر. وأقطع الزبير بن العوام، وأقطع جرير بن عبد الله البجلي وسائر بجيلة قطيعة واسعة كبيرة. وأقطع الأشعث بن قيس الكندي وكندة من ناحية جهينة إلى بني أود، وجاء قوم من الأزد فوجدوا فرجة فيما بين بجيلة وكندة فنزلوا، وتفرقت همدان بالكوفة، وجاءت تميم وبكر وأسد فنزلوا الأطراف. وأقطع أبا عبد الله الجدلي في بجيلة فقال جرير بن عبد الله لم نزل هذا فينا وليس منا، فقال له عمر انتقل ما خير لك فانتقل إلى البصرة وانتقلت عامة أحمس عن جرير بن عبد الله إلى الجبانة. وقد تغيرت الخطط وصارت تعرف بقوم اشتروا بعد ذلك وبنوا، وكان لكل قبيلة جبانة تعرف بهم وبرؤسائهم، منها: جبانة عرزم، وجبانة بشر، وجبانة أزد، وجبانة سالم، وجبانة مراد، وجبانة كندة، وجبانة الصائديين، وصحراء أثير[٢] وصحراء بني يشكر، وصحراء بني عامر. وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد أن يجعل سكك الكوفة خمسين ذراعاً بالسواء،

---

(١) شهارسو فارسي معربه أربع جهات وهي محلة بالكوفة تنسب إلى خنيس بن سعد أخي النعمان بن سعد جد أبي يوسف القاضي يعقوب ابن براهيم بن حبيب بن خنيس.

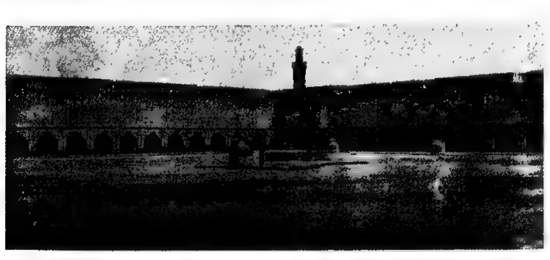
(٢) قال الحموي في المعجم: صحراء أثير بالكوفة ينسب إلى أثير بن عمرو السكوني الطبيب الكوفي يعرف بابن عمريا وهو الذي أدخل عرق رئة شاة حارة في جراحة علي (ع) لما ضربه ابن ملجم لعنه الله على أم رأسه، وفي صحراء أثير أحرق (ع) الطائفة الغلاة.

وجعلت السوق من القصر والمسجد إلى دار الوليد إلى القلائين إلى دور ثقيف وأشجع وعليها ظلال بواري إلى أيام خالد بن عبد الله القسري فإنه بنى الأسواق وجعل لأهل كل بياعة داراً وطاقاً وجعل غلالها للجند، وكان ينزلها عشرة آلاف مقاتل.

المنازل من الكوفة إلى المدينة ومكة

من أراد أن يخرج من الكوفة إلى الحجاز، خرج على سمت القبلة في منازل عامرة ومناهل قائمة فيها قصور لخلفاء بني هاشم، فأول المنازل القادسية ثم المغيثة ثم القرعاء ثم واقصة ثم العقبة ثم القاع ثم زبالة ثم الشقوق ثم بطان وهي قبر العبادي. وهذه الأربعة الأماكن ديار بني أسد والثعلبية وهي مدينة عليها سور، وزرود والأجفر منازل طيء، ثم مدينة فيد وهي المدينة التي ينزلها عمال طريق مكة وأهلها طيء وهي في سفح جبلهم المعروف بسلمى، وتوز وهي منازل طيء، وسميراء والحاجر وأهلها قيس وأكثرهم بنو عبس، والنقرة ومعدن النقرة وأهلها أخلاط من قيس وغيرهم، ومنها يعطف من أراد مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بطن نخل، ومن قصد مكة فإلى مغيثة الماوان وهي ديار محارب ثم الربذة ثم السليلة ثم العمق ثم معدن بني سليم ثم أفيعية ثم المسلح ثم غمرة ومنها يهل بالحج ثم ذات عرق ثم بستان ابن عامر ثم مكة.

* * *



منظر آخر لجامع الكوفة من داخل

الكوفة ـ تخطيطها وتاريخها

وحول هذا الموضوع جاء في كتاب (العمارات العربية الإسلامية في العراق)[1] ما يلي:

تغطي مباني بلدة الكوفة الآن أجزاء واسعة من أنقاض الكوفة القديمة. ولكن جامعها لم يهجر بل عمر وجدد مرات عديدة وما زال يشغل مكاناً من البلدة وتقام فيه الصلوات الخمس. وقامت هيئات من مديرية الآثار العامة بالتحري والتنقيب في نقاط معينة من هذا الجامع وما يلتصق به من الناحية الجنوبية الغربية فتوصلت إلى نتائج ذات أهمية في تتبع تاريخ المسجد ودار الامارة.

ويظهر أن أعمال الهدم المتعمد، من أجل الحصول على الطابوق وتخريبات العوامل الطبيعية كان لها أثر فعال في تحويل ما تبقى من أبنية الكوفة القديمة إلى تلول وأكوام من الأنقاض حول المسجد والدار خصوصاً في المناطق التي لم يمتد إليها العمران بعد.

انطلق جيش القائد سعد بن أبي وقاص، رافعاً راية الإسلام ومحرراً مناطق مهمة من العراق وكان الانتصار حليفه في معارك عظام، القادسية والمدائن فهدم عرش الطغيان وأنجز تحرير العراق. فبرزت ضرورة اتخاذ مركز انطلاق للجيش المظفر، وضرورة إيجاد مكان لسكن عوائل المجاهدين والمهاجرين، وذكر أن قائد الجيش سعد بن أبي وقاص قد سمح في البداية للمجاهدين بالنزول في المدائن واتخاذ الخطط فيها. وجاء أيضاً أن سعداً وافق على نزول أفراد جيشه في الأنبار قبل ذلك وبعد أن قرر الخليفة عمر أن يكون للعرب المسلمين دار هجرة في هذه المناطق المحررة. ويظهر أن الظروف المناخية وعوامل أخرى كان لها أثر في أن يعيد القائد النظر في اختيار مكان آخر غير هذين المكانين يصلح تماماً من حيث الموقع والمناخ

---

(١) تأليف: الدكتور عيسى سلمان، نجلة العزى، هناء عبد الخالق، نجاة يونس... الجزء الأول ص ٥٦ ـ ٦٧، من منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية (السلسلة الفنية رقم ٥١ الصادر عام ١٩٨٢ م تحت عنوان (الكوفة تخطيطها وتاريخها) ما نصه:

وأفاق المستقبل لأن يكون دار هجرة للمسلمين. كتب سعد بذلك إلى الخليفة فوافق الخليفة على المقترح وأمر سعداً أن يعتمد على رائدي الجيش سلمان وحذيفة بن اليمان لاختيار الموقع المناسب لإنشاء دار الهجرة هذه، وبموجب الشروط التي روعيت في اختيار موقع البصرة. قام الرائدان بالتفتيش عن مكان مناسب لهذا الغرض فوقع اختيارهما على موضع مرتفع بين الحيرة والفرات، وصف بأنه لسان بري معروف بنباتاته من الشيح والأقحوان والقيصوم والخزامي والشقائق. وكان الموضع مستديراً وسمي بخد العذراء. ولما نزل سعد الموضع كتب إلى الخليفة «إني نزلت الكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً بحرياً. . . وخيرت المسلمين بالمدائن، فمن أعجبه المقام تركته فيها كالمسلحة فبقي أقوام من الأفناء وأكثر بني عبس».

مصرت الكوفة عام ١٧ هـ/ ٦٣٨ م وكانت خططها قبائلية مثل خطط البصرة. وقد ذكر المؤرخون خطط المدينة وأسماء القبائل التي أنزلت فيها بدقة ووضوح. والذي يهمنا هنا هو التخطيط لا الخطط. وتخطيط الكوفة هو نفس تخطيط البصرة، فقد أمر الخليفة أن يكون المسجد الجامع في القلب وتكون دار الأمارة قريبة منه. أما خطط الناس فتكون حول المكان المختار للجامع والدار أن يكون عرض الشوارع الرئيسية ٤٠ ذراعاً والمتوسطة ٢٠ ذراعاً والأزقة ٧ أذرع وأن تتوسط كل محلة ساحة طول ضلعها ٦٠ ذراعاً وأن لا يزيد عدد غرف الدار الواحدة عن ثلاث ولا يزيد ارتفاعها عن طابق واحد وأن تكون متراصة. وذكرت المصادر الأدبية. التي أوردت خبر التخطيط، أسماء من أشرف على إنزال المسلمين وتخطيط المسجد والدار والمحلات. كما ذكرت أن أسماء الشوارع الرئيسية أخذت من أسماء القبائل التي نزلت الكوفة.

استعملت أخصاص القصب في البداية في بناء دور البلدة الجديدة وحدد مسجدها بخندق. وكانت هذه الأخصاص تجمع إذا ما تقدم الجيش للجهاد ويعاد ترتيبها عند العودة. وتروي المصادر نفسها أن الكوفة احترقت بعد سنة من تمصيرها فتم إعادة بناء دورها باللبن والطين. وكان مسجدها آنذاك يتسع لأربعين ألفاً من المصلين. وعلت مكانة المدينة عندما اتخذها الخليفة علي بن أبي طالب (رضي) حاضرة للدولة العربية الإسلامية الفتية وكان ذلك سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٧ م.

لم تفقد الكوفة مكانتها في العصر الأموي، وعلى الأخص قبل بناء واسط. فقد ظلت محافظة على أهميتها كمركز إداري لجزء كبير من العراق وكان الوالي الأموي يقيم فيها، وظلت دار الإمارة فيها مقراً للوالي حتى بعد سقوط الخلافة الأموية. واهتم بها الولاة الأمويون وبذلوا الأموال لتعمير مسجدها الجامع ومرافقها العامة الأخرى. واستعمل الطابوق والجص في تشييد دورها كما نشطت فيها التجارة والصناعة وبدأت فيها بواكير حركة فكرية وأدبية ازدهرت فيما بعد. وكان الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق المشهور، يقيم فيها ستة أشهر من السنة وستة في البصرة قبل بناء واسط. لم يؤثر عليها وعلى الحياة فيها كثيراً بناء واسط ومدينة السلام وسر من رأى. فقد استقرت الحياة فيها وصارت من مدن العراق المعروفة في مجال الأدب واللغة والفقه وغيرها من العلوم وكانت لها مكانة تجارية وصناعية. وظلت دار الامارة فيها مقراً لحكام الإقليم طيلة العصر العباسي حتى العهد الإيلخاني.

ورغم ما تعرضت له المدينة من ويلات ونكبات وتخريبات كبقية مدن العراق فإن الحياة فيها استمرت وساهمت في البناء الحضاري للقطر وقد حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم والبلدان والرحلات أخبار المدينة ومن اشتهر فيها. كما ذكرت هذه المصادر أماكن العبادة أيضاً ومسجدها الجامع الذي ظل شامخاً إلى يومنا هذا يؤدي الوظيفة التي أنشىء من أجلها رغم التجديدات والتعميرات المستمرة التي أجريت فيه.

المسجد

اختط القائد سعد بن أبي وقاص مسجد الكوفة بنفسه كما تروي كتب التاريخ. وجعله مربع الشكل حيث أمر رجلاً قوي الذراع أن يطلق أربعة سهام بالاتجاهات الأربعة وأمر أن تكون مواقع تلك السهام حدوداً له. وأمر أن تعلم حدود المسجد بخندق يفصله عما حوله من أبنية أخرى. ويظهر أن القائد قد جعل للمسجد ظلة، أي بيت صلاة، كان سقفها يستند على أعمدة من رخام ذات تيجان جميلة.

واهتم من تولى الامارة بعد سعد بن أبي وقاص بالمسجد الجامع حيث تم توسيعه وتجديده عدة مرات. وأول من فعل ذلك المغيرة بن شعبة سنة ٤١هـ/٦٦١ م. ثم الوالي زياد ابن أبيه الذي أمر بتوسيع المسجد وإعادة بنائه بالآجر

والجص، وأقام سقوفه على أساطين من رخام أسطوانية طوال يقال أنها جلبت من خارج العراق لهذا الغرض. ومن المعروف أن الوالي أوكل كل ذلك إلى مهندسين مشهورين. واستطاعت هيئة فنية من مديرية الآثار العامة أن تكشف عن بقايا جدران هذا المسجد على عهد زياد بن أبيه. فظهر أنه كان مربع الشكل طول ضلعه ١١٠ أمتار وأنه كان مشيداً بالطابوق والجص وأن طابوقه ذو قياسات موحدة وغير منقول من بناء سابق كما كان يعتقد البعض من المتخصصين. وكانت جدرانه مدعمة بأبراج نصف أسطوانية تقع قواعدها الآن على عمق ٥,٥ متراً عن مستوى أرضية الجامع الحالية. وتمتد بقايا جدران مسجد الكوفة القديم تحت الجدران الحالية. ولم تستطع الهيئة أن ترسم مخطط الجامع القديم وذلك لأن الجامع الحالي يقوم على القديم بأكمله.

ويستدل من الإشارات التاريخية أن الجامع، في عهد زياد ابن أبيه، كان يتألف من مصلى ومجنبتين ومؤخرة تطل جميعها على صحن يتوسط البناء. واتخذ زياد مقصورة في هذا المسجد. وذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي قد أمر ببناء ما تهدم من جدرانه.

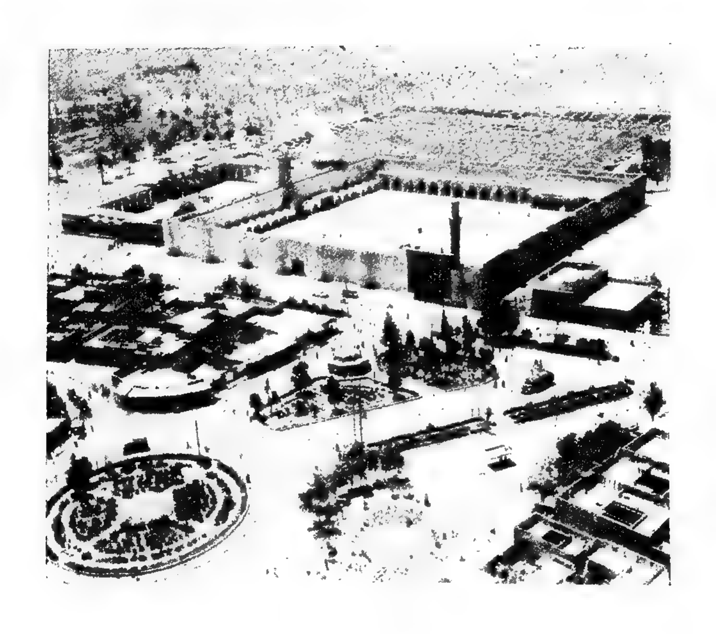
ويعتبر وصف الرحالة العربي ابن جبير للمسجد مهماً لأنه أشار لأول مرة إلى أقسامه وتخطيطها. وقد مر ابن جبير بالكوفة سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م. وذكر أن بيت الصلاة فيه يتكون من خمسة أساكيب وأن كل مجنبة تتألف من رواقين وكذلك المؤخرة. وأشار إلى أن سقوفه قائمة على أعمدة رخامية طويلة. كما ذكر هذا الجامع الرحالة ابن بطوطة الذي زار الكوفة سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧ م. وأشار إلى أن بيت الصلاة فيه يتكون من سبعة أساكيب. ويظهر أن هناك زيادة أحدثت في المسجد ما بين زيارة ابن جبير وزيارة ابن بطوطة. وأن المسجد جدد مرات أخرى بعد أن وصفه ابن بطوطة. ويظهر أن التجديد تركز على هيكل البناء الداخلي أي المصلى والمجنبات والمؤخرة. أما الجدران الخارجية فظلت قائمة إلى يومنا هذا، مقاومة عوامل التخريب وهي متينة جداً وواضح أنها من بناء العصر الإيلخاني (لوح ٣). وتؤشر الجدران الحالية أنه لم يتم فيه أية زيادة بعد عهد زياد ابن أبيه حيث يبلغ طول ضلعه في الوقت الحاضر ١١٠ أمتار وهي نفس الأبعاد التي كان عليها في ذلك العهد وترتفع جدرانه بمسافة

تزيد على عشرة أمتار وهي مدعمة بأبراج نصف أسطوانية عـددها ٢٤ بـرجاً، تـدعم خمسة منها جدار القبلة وسبعة جـدار المؤخرة وتسنـد خمسة منهـا جدار المجنبـة الغربيـة وسبعة منها جدار المجنبة الشرقية. وتلتصق بهذه الجدران من الداخل أروقة وأبنية عدة تعـود إلى فترات متـأخرة جـداً. وصحن المسجد فسيح يتوسـطه منخفضـاً ذا أقـواس وحنايا ومحـراب يدعى بـالسفينة. ويستـدل من الزخـارف الأجريـة التي تزين بـواطن عقوده وواجهة محرابه أنه يعود إلى زمن أقدم من بناء المسجد الحالي. وكـانت للمسجد مأذنة ذات طراز إيلخاني من نفس فترة بناء الجدران الحالية ولكن هدمت سنـة ١٩٥٦ وأعيد بناؤها بطراز يختلف تماماً عن طرازها الأصلي.

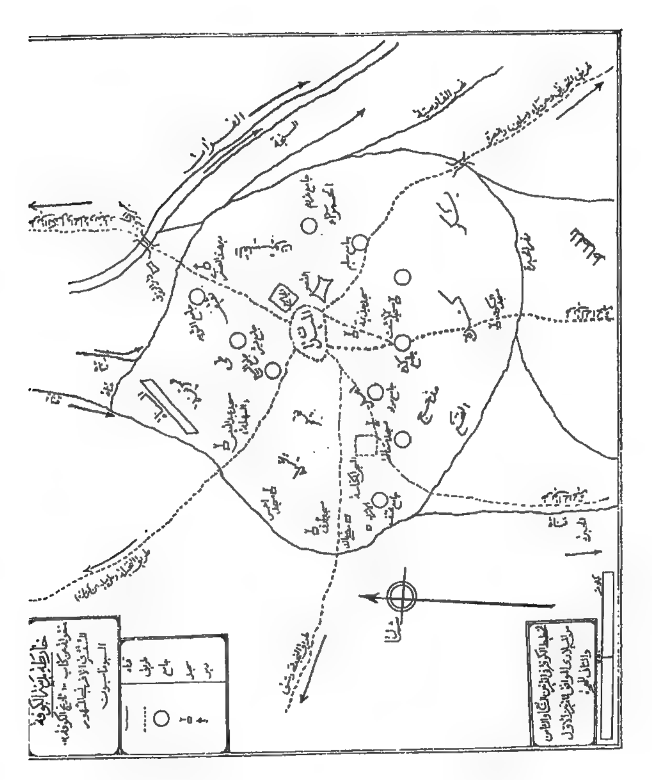
ويشغـل جزء من الصحن مصـلى صيفي تقوم فيـه أجـزاء من أعمـدة رخـاميـة أسطوانية هي بالتأكيد من بقايا أساطين المسجد التي أمر بها زياد ابن أبيه. وتم العثور أيضاً على عدة تيجان وقواعد أعمدة رخامية محلاة بزخارف من أوراق نباتية (لـوح ٤) يعكس أسلوبهـا طراز الفن العـربي الإسلامي أيـام زياد ابن أبيـه. تتصـل في الـوقت الحـاضر بجدار المسجـد الجنوبي الشرقي جـدران مشهدي مسلم بن عقيـل وهـاني بن عروة كما يتصل جداره الجنوبي الغربي بجدار دار الإمارة (لوح ٣).

دار الامارة

إن معلوماتنا عن هذه الدار غير وافية ومختصرة جداً خصوصاً إذا ما قـورنت مع الروايات والأخبار التي أوردها المؤرخـون والجغرافيـون وغيرهم عن المسـاجد الجـامعة الأولى. ويغلب عـلى الظن أن هـذا نـاتـج من كـون دور الإمـارة أبنيـة شبـه خـاصـة وارتيادها محدود من قبل من اهتم بتدوين أخبار هذه المنشآت. ويقتصر مـا نعرفـه عن هذه الدار على أن القائد سعد بن أبي وقاص قد عـين مكانها عـلى مقربـة من المسجد الجامع وجعلها مفصولة عنه بشارع. واهتم القائد بها فنسب أحد مشاهـير المهندسـين للإشراف على بنائها. ويظهر أنها كـانت متميزة جـداً فشبهت بقصورالحـيرة المنذريـة. وكان بيت المال في هـذه الدار. وحـدث أن سرق فلما علم الخليفة عمـر بن الخطاب كتب إلى سعد بأن يجعل دار الإمارة هذه ملاصقة للمسجد ومتصلة به. وذكر أيضاً أن الوالي زياد ابن أبيه قد أمر بتجديدها عندما أعاد بناء المسجد الجامع وأخر من ذكـرها



صورة جوية لجانب من مدينة الكوفة، ويظهر فيها مسجدها الشهير



خارطة مدينة الكوفة منقولة من كتاب «تاريخ الكوفة» للمستشرق الفرنسي المسيو ماسيون

الرحالة ابن بطوطة الذي قال أنها متهدمة وكل ما تبقى منها هو أساسها فقط. ولم يذكر شيئاً عن تخطيطها وبنائها ومساحتها والتجديدات والتعميرات التي أجريت فيها. وظل الأمر على هذه الصورة إلى أن قامت هيئة فنية من مديرية الآثار العامة بالتنقيب والتحري فيها ولعدة مواسم فتوصلت إلى نتائج مهمة عن بناء الدار وما طرأ عليها من تجديدات قبل أن تهجر تماماً. وقد ابتدأت التنقيبات سنة ١٩٣٨ م وما زالت جارية إلى الآن حيث تقوم هيئة فنية بصيانة ما تبقى من أبنية الدار.

نعرف اليوم أن دار إمارة الكوفة كانت مربعة الشكل عند إنشائها، مشيدة بالطابوق والجص، وإن قياسات هذا الطابوق موحدة وأنه غير منقول من أبنية سابقة. ويبلغ طول ضلعها ١١٠ أمتار أي بطول ضلع المسجد تماماً. وتغور قواعد جدرانها حوالي ٩٠ سم في الأرض البكر. وهذا هو عمقها. ودعمت الجدران بأبراج ذات قواعد مستطيلة أبعادها ٦× ١,٥ متراً. ويبلغ عدد الأبراج عشرين برجاً موزعة بالتساوي على جدران الدار والمسافة بين قاعدة وأخرى ١٨ متراً. أما سمك الجدران فبحدود المترين. وكشفت هذه التحريات أن جدران الدار لا تتصل بالمسجد الجامع.

هذه معلوماتنا عن الدار في عهد القائد سعد بن أبي وقاص. - أما تخطيطها فلم يعرف بسبب التجديدات فيها وتراكم طبقة سميكة من الأنقاض والأبنية تعذر إزالتها لأن ذلك سوف يدمر الأبنية اللاحقة ويحتاج إلى وقت طويل جداً.

وأظهرت التنقيبات أن الوالي زياداً قد أحاط الدار بسور آخر خارجي وأن هناك تجديدات وتعميرات أخرى أجريت في الدار أيام عبد الملك بن مروان. وظهر أن زياداً قد أمر بإعادة بناء الجدران الداخلية والسور الداخلي من الخارج وبسمك ١,٧٠ متراً. وتم تدعيمه بنفس عدد الأبراج التي كانت تسند الجدران السابقة، أما شكلها فهو نصف أسطواني بقطر ٣ أمتار ما عدا أبراج الأركان فهي شبه مستديرة. وتم الكشف عن خمسة أبواب يتوسط أحدها الضلع الشمالي وتخترق ثلاثة منها الضلع الجنوبي وهناك مدخل واحد في الجدار الغربي.

ثمة ما يدل على أن السور الخارجي لم يكمل في نفس الوقت الذي أنجز فيه بناء السور الداخلي بل تأخر بعض الوقت عن ذلك. والسور هذا ضخم جداً يبلغ

سمك جدرانه بحدود أربعة أمتار وهو مربع الشكل أيضاً، طول ضلعه ١٧٦ متراً. وتدعمه أبراج نصف أسطوانية، وأبراج الأركان شبه مستديرة ويدعم هذا السور ٢٣ برجاً، معدل قطر كل واحد منها ثلاثة أمتار ونصف المتر. وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر أربعة وعشرين متراً. وتدعم ستة أبراج كلاً من الجدران الشرقية والجنوبية الغربية وبرجان للجدار الشمالية. ويتصل الجدار الشمالي بجدار قبلة المسجد الجامع. وهناك أكثر من مدخل يخترق السور الخارجي أهمها ذلك الذي يتوسط الجدار الجنوبية (لوح ٥). وقد استخدم الطابوق والجص في التجديدات والزيادات وتغطي الجدار طبقة سميكة نسبياً من الجص. أما تفاصيل التخطيط، أي تخطيط أبنية الدار الداخلية، فلم تستطع الهيئة أن ترسمه، بسبب التجديدات اللاحقة (مخطط ١).

وكشفت هذه التحريات أيضاً أن الدار قد هدمت وأعيد بناؤها في العصر العباسي الأول. وقد شمل الهدم السور الداخلي وما يضمه من أبنية فقط. وتم ترميم السور الخارجي في هذه الفترة أيضاً. والمعروف أن الكوفة كانت مقراً لوالي سيطر على منطقة واسعة من العراق طيلة حكم العباسيين لذا فإن الاهتمام بالدار كان كبيراً. ويظهر أن تغييراً أساسياً لم يحدث في تخطيط الأبنية الداخلية التي تعود إلى العصر السابق. فقد أنشئت معظم الأبنية الجديدة على نفس أسس الأبنية السابقة ولكن هناك إضافات أخرى. وأصبحت الدار مستعملة لفترة طويلة بعد ذلك إلى الحكم الإيلخاني وحدثت فيها غرف وقاعات وأروقة تطل على باحة مكشوفة أو تحيط بها من كل الجوانب. ويؤشر ما تبقى من جدران هذه الوحدات أن بعضها كان مخصصاً للأمور الرسمية وبعضها الآخر للسكن والخدمات الأخرى. واستعمل أيضاً الطابوق والجص في تشييد هذه الأبنية ولكن بقياسات تختلف عن قياسات طابوق الفترة السابقة. كما كسيت الجدران بطبقة سميكة نسبياً من الجص. وظلت الدار مستعملة لفترة طويلة بعد ذلك إلى الحكم الإيلخاني وحدثت فيها تجديدات أخرى ولكنها غير مهمة من الناحية التخطيطية والعمارية. (مخطط رقم ٢).

ويستدل من تخطيط هذه الأبنية وعماراتها أن الطراز الذي ساد وانتشر في العراق خلال القرون السابقة لتجديد الدار هو المتبع أيضاً في بناء هذه المرافق. ويدعى هذا الطراز بالطراز الحيري الذي كان سائداً في العراق قبل الفتح الإسلامي.

هذا وتقوم هيئة فنية من مديرية الآثار العامة بصيانة ما تبقى من جدار الأسوار والأبنية الأخرى كما ذكرنا.

(مخطط ٢): تخطيط دار الامارة في عصور لاحقة

تخطيط دار الامارة في عصور لاحقة

وقال شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ٦٧٧ - ٧٣٣هـ في كتابه (نهاية الإرب في فنون الأدب):[١]

وأما الخَوَرْنق والسَّدِير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحِيرة، والسَّدير في برّيةٍ بالقُرْب منها.

بناهما النعمان بن امرىء القيس، وهو النعمان الأكبر، ويقال في سبب بنائه لهما: أن يَزْدَ جُرْد بن سابور كان لا يَعِيش له ولد، فسأل عن مكانٍ صحيح الهواء، فذُكر له ظَهْرُ الحِيرة، فدفع ابنه بَهْرام جُور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق. فبناه على نهر سنداد في عشرين سنة. بناه له رجل يسمّى سِنِمّار.

فلما فرغ من بنائه، عَجِب النُّعمانُ من حسن بنائه واتقانه، فأمر أن يلقى سِنِمّار من أعلاه حتى لا يبنيَ مثله لأحد. ويقال إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أعجبه، شَكَره على عمله ووَصَله، فقال: لو علمتُ أن الملك يحسن إليّ هذا الإحسان، لبنيتُ له بناء يَدُور مع الشمس كيفما دارت، فقال له النعمان: وإنك لتقدر على أن تبنيَ أفضل منه، ولم تبنه؟ فأمر به، فطُرِح من أعلاه.

وقيل: بل قال: أنا أعرف فيه حجراً متى أُخذ من موضعه، تداعى البناء. فخاف النعمان إن هو لم يُنْصفه في أجرته فعل ذلك، فقتله.

والعرب تضرب المثل بفعل النُّعمان مع سِنِمّار في المكافأة على الفعل الحَسَن بالقبيح، فيقال: جازاه مُجَازاة سِنِمّار.

وفيه يقول بعض الشعراء:

جَزاني جَزَاه الله شرَّ جَزَائه جَزاءَ سِنِمّارٍ، وما كانَ ذَا ذَنب.
سوى رِفعه البُنيانَ عِشْرينَ حِجّةً يُعَلّ عليه بالقَرَامِيدِ والسَّكْب.

والخَوْرْنق تعريب خُورنقّاه[٢]، وهو الموضع الذي يؤكَل فيه ويشرَب، والسَّدِير

---

(١) السفر الأول، ط. وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة ص ٣٨٥ - ٣٨٧ ما نصه:
(٢) والأصح خانقاه. (من هامش الأصل).

تعريب سادل أي قُبَّة في ثلاثِ قِباب متداخلة.

وفي هذه الأبنية يقول الأسود بن يَعْفُر:

ماذا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ تَرَكُوا منازِلَهُمْ، وبَعْدَ إيادِ
أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وبارِقٍ والقَصْرِ ذِي الشُّرُفاتِ من سِنْدادِ.

وقال عديّ بن زيد العِبَادي:

وتَفَكَّرْ رَبُّ الخَوَرْنَقِ إذْ أشْـ ـرفَ يَوْماً، وَلِلْهُدى تَفْكِيرُ.
سَرَّه مُلْكُه وكَثْرةُ ما يَحْـوِيـ ـه والبحرُ مُعْرِضاً والسَّدِيرُ.
فَارْعَوى قَلْبُه، فقال: فما غِبْـ ـطة حَيٍّ إلى المَمَاتِ يَصِيرُ.

وأما الغريّان

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة.

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قَيْنتين تغنِّيان بين يديه. فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغَرِيَّيْنِ.

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسَّاني، وكان بينهما وقعة على عين أُباغ، وهي من أيام العرب المشهورة، فقُتِل للحارث ولدان، وقُتِل المنذر وانهزمت جيوشه. فأخذ الحارث ولَدَيْه وجعلهما عِدْلين على بعير، وجعل المنذر فوقهما، وقال: «ما العِلاَوة بِدُون العِدْلين!» فذهبت مثلاً. ثم رحل إلى الحيرة فأنتهبها وحَرَّقها ودفن ابنيه بها، وبنى الغَرِيَّين عليهما. حكاه ٱبن الأثير في تاريخه «الكامل».

وأمر المنصور بهدم أحدهما، لكنزٍ توهَّم أنه تحتهما. فلم يجد شيئاً.

وقيل في سبب بنائهما غير ذلك. والله أعلم.

* * *

وتحدث عن الثوية، والحيرة، والغريان، والنجف، الحموي ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٢هـ في كتابه (معجم البلدان) فقال:(١)

الثويّةُ: بالفتح ثم الكسر، وياء مشددة، ويقال الثوية بلفظ التصغير: موضع قريب من الكوفة، وقيل بالكوفة، وقيل خُرَيبة إلى جانب الحيرة على ساعة منها، ذكر العلماءُ أنها كانت سجناً للنعمان بن المنذر، كان يحبس بها من أراد قتله، فكان يقال لمن حُبس بها ثوي أي أقام، فسميت الثوية بذلك، وقال ابن جبّان: دفن المغيرة بن شعبة بالكوفة بموضع يقال له الثوية، وهناك دفن أبو موسى الأشعري في سنة خمسين؛ وقال عِقال يذكر الثوية:

سَقَينا عقالاً بالثوية شربةً، فمال بلُبِّ الكاهليّ عقالُ

ولما مات زياد بن أبي سفيان دفن بالثوية، فقال حارثة بن بدر الغداني يرثيه:

صَلى الإلهُ على قبر وطَهّرَه عند الثويّة، يسفي فوقه المُورُ
أدَّتْ إليه قريشٌ نَعْشَ سيّدها، ففيه ما في النّدَى، والحزم مقبور
أبا المُغيرَةِ والدُّنيا مُغَيِّرَةٌ، وإنّ مَن غُرّ بالدنيا لَمَغْرورُ
قد كان عندك للمعروف معرفةٌ، وكان عندك لِلنّكراء تنكيرُ
لم يَعرف الناس، مذ كُفِّنتَ، سيِّدهم، ولم يُجَلِّ ظلاماً عنهُمُ نُورُ
والناسُ بعدك قد خفَّتْ حلومُهُمُ، كأنّما نَفَخَتْ فيها الأعاصيرُ

لا لَومَ على من استخفّه حسنُ هذا الشعر فأطال من كتبه؛ وقال أبو بكر محمد بن عمر العنبري:

سَل الركبَ عن ليل الثويّة: من سَرَى أمامهم يحدو بهم وبهم حادي

وقد ذكرها المتنبي في شعره.

(١) معجم البلدان م٢/ ص ٨٧ ـ ٨٨ وص ٣٢٨ ـ ٣٣١، وم٣/ ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ و م٥/ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.

الحِيرَةُ: بالكسر ثم السكون، وراءٍ: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النَّجف زعموا أن بحر فارس كان يتَّصل به، وبالحيرة الخَوَرْنق بقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل، والسدير في وسط البرّية التي بينها وبين الشام، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لخم النعمان وآبائه، والنسبة إليها حاريٌّ على غير قياس كما نسبوا إلى النمِرِ نَمَرِيٌّ؛ قال عمرو بن معدي كرب:

كأن الإثْمِدَ الحاريَّ منها يُسَفُّ بحيث تَبتدر الدموعُ

وجيريٌّ أيضاً على القياس، كلٌّ قد جاءَ عنهم، ويقال لها الحيرة الرَّوْحاءُ؛ قال عاصم بن عمرو:

صبحنا الحيرة الروحاءَ خيلاً ورَجْلاً، فوق أثباج الركاب

حَضرْنا في نواحيها قصوراً مشرّفة كأضراس الكلاب

وأما وصفُهم إياها بالبياض فإنما أرادوا حسن العمارة، وقيل: سمِّيت الحيرة لأن تُبَعاً الأكبر لما قصد خراسان خلَّف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم حيِّروا به أي أقيموا به، وقال الزَّجاجي: كان أول من نزل بها مالك بن زهير بن عمرو بن فَهْم بن تَيْم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حُلْوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، فلما نزلها جعلها حيراً وأقطعَهُ قومَه فسميِّت الحيرة بذلك؛ وفي بعض أخبار أهل السير: سار أردشير إلى الاردوان ملك النبط وقد اختلفوا عليه وشاغَبَهُ ملك من ملوك النبط يقال له بابا فاستعان كلٌّ واحد منهما بمن يليه من العرب ليقاتل بهم الآخر، فبنى الاردوان حيراً فأنزله من أعانه من العرب فسمِّي ذلك الحير الحيرة كما تسمَّى القيعة من القاع، وأنزل بابا من أعانه من الأعراب الأنبارَ وخندق عليهم خندقاً، وكان بخت نصر حيث نادى العرب قد جمع من كان في بلاده من العرب بها فسمَّتها النبطُ أنبار العرب كما تسمى أنبار الطعام إذا جمع إليه الطعام، وفي كتاب أحمد بن محمد الهمداني: إنما سميت الحيرة لأن تُبعاً لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضَلَّ دليلُهُ وتحيَّرَ فسميت الحيرة.

وقال أبو المنذر هشام بن محمد: كان بدو نزول العرب أرض العراق وثبوتهم

بها واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلاً أنّ الله عزّ وجل أوحى إلى يوحنا بن اختيار بن زربابل بن شلشيل من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائتِ بخت نصر فمُرْه أن يغزو العرب الذين لا أغلاقَ لبيوتهم ولا أبواب وأن يطأ بلادهم بالجنود فيقتل مقاتليهم ويستبيح أموالهم وأعلمهم كفرهم بي واتخاذهم آلهةً دوني وتكذيبهم أنبيائي ورُسلي، فأقبل يوحنا من نجران حتى قدم على بخت نصر وهو ببابل فأخبره بما أوحي إليه وذلك في زمن معدّ بن عدنان، قال: فوثب بخت نصر على من كان في بلاده من تجار العرب فجمع من ظفر به منهم وبنى لهم حيراً على النجف وحصّنه ثم جعلهم فيه ووكل بهم حَرَساً وحَفظَةً ثم نادى في الناس بالغزو فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت إليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين، فاستشار بخت نصر فيهم يوحنا فقال: خروجهُم إليك من بلدهم قبل نهوضهم إليك رجوعٌ منهم عما كانوا عليه فاقبلْ منهم وأحسن إليهم، فأنزلهم السواد على شاطىء الفرات وابتنوا موضع عسكرهم فسموه الأنبار، وخَلّى عن أهل الحير فابتنوا في موضعه وسموها الحيرة لأنه كان حيراً مبنيّاً، وما زالوا كذلك مدة حياة بخت نصر، فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار وبقي الحير خراباً زماناً طويلاً لا تطلع عليه طالعةٌ من بلاد العرب وأهل الأنبار ومن انضمَّ إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب بمكانهم، وكان بنو مَعَدّ نزولاً بتهامة وما والاها من البلاد ففرقتهم حروب وقعت بينهم فخرجوا يطلبون المتّسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف أرض الشام، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرّين، وبها قبائل من الأزد كانوا نزلوها من زمان عمرو بن عامر بن ماءِ السماء بن الحارث الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، ومازن هو جمّاعُ غسانَ، وغسانُ ماءٌ شرب منه بنو مازن فسموا غسانَ ولم تشرب منه خزاعة ولا أسلمُ ولا بارق ولا أزد عُمان فلا يقال لواحد من هذه القبائل غسان وإن كانوا من أولاد مازن، فتخلّفوا بها، فكان الذين أقبلوا من تهامة من العرب مالك وعمرو ابنا فَهْم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ومالك بن الزمير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة في جماعة من قومهم والحيقان بن الحيوة بن عمير بن قَنص بن معدّ بن عدنان في قَنص كلها، ثم لحق به غطفان بن عمرو بن طَمَثان بن عوذ مناة بن يَقْدُم بن أفصى بن

دُعْمى بن إياد فاجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على التَّنوخ، وهو المقام، وتعاقدوا على التناصر والتوازر فصاروا يَداً على الناس وضمهم اسم التَّنوخ، وكانوا بذلك الاسم كأنهم عمارة من العمائر وقبيلة من القبائل، قال: ودعا مالك بن زهير بن عمرو بن فَهْم جذيمة الأبرَش بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زَهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد إلى التنوخ معه وزوّجه أخته لَمِيس بنت زهير، فتنَّخَ جذيمة بن مالك وجماعة من كان بها من الأزد فصارت كلمتهم واحدة، وكان من اجتماع القبائل بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم أزمان ملوك الطوائف الذين ملّكهم الإسكندر وفرق البُلْدان عند قتله دَارا إلى أن ظهر أردشير على ملوك الطوائف وهزمهم ودان له الناس وضبط الملك، فتطلّعت أنفس من كان في البحرين من العرب إلى ريف العراق وطمعوا في غلبة الأعاجم مما يلي العرب ومشاركتهم فيه واغتنموا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف، فأجمع رؤساؤهم على المسير إلى العراق ووطّن جماعة ممن كان معهم أنفسهم على ذلك، فكان أول من طلع منهم على العجم حيقان في جماعة من قومه وأخلاط من الناس فوجدوا الأرمنيين الذين بناحية الموصل وما يليها يقاتلون الأردوانيين، وهم ملوك الطوائف، وهم ما بين نِفّر، قرية من سواد العراق، إلى الأُبُلّة وأطراف البادية، فاجتمعوا عليهم ودفعوهم عن بلادهم إلى سواد العراق فصاروا بعد أشلاءً في عرب الأنبار وعرب الحيرة، فهم أشلاءُ قنص بن معدّ، منهم كان عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مالك بن عَمَم بن نُمارة بن لَخم، ومن ولده النعمان بن المنذر، ثم قدمت قبائل تَنوخ على الأردوانيين فأنزلوهم الحيرة التي كان قد بناها بخت نصر والأنبار، وأقاموا يدينون للعجم إلى أن قدمها تُبّع أبو كرب فخلّف بها من لم تكن له نهضة، فانضموا إلى الحيرة واختلطوا بهم؛ وفي ذلك يقول كعب بن جُعَيل:

وغزانا تُبّع من حمير، نازل الحيرة من أرض عدن

فصار في الحيرة من جميع القبائل من مَذْحج وحمير وطيّء وكلب وتميم، ونزل كثير من تنوخ الأنبار والحيرة إلى طَفّ الفرات وغربيه إلا أنهم كانوا بادية يسكنون المظالّ وخيم الشعر ولا ينزلون بيوت المدر، وكانت منازلهم فيما بين الأنبار والحيرة،

فكانوا يسمّون عرب الضاحية، فكان أول من ملك منهم في زمن ملوك الطوائف مالك بن فهم أبو جذيمة الأبرش، وكان منزله مما يلي الأنبار، ثم مات فملك ابنه جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم، وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم مغاراً وأشدهم نكاية وأظهرهم حزماً، وهو أول من اجتمع له الملك بأرض العرب وغزا بالجيوش، وكان به برص وكانت العرب لا تنسبه إليه إعظاماً له وإجلالاً فكانوا يقولون جذيمة الوضّاح وجذيمة الأبرش، وكانت دار مملكته الحيرة والأنبار وبقّة وهيت وعين التمر وأطراف البر إلى الغُمير إلى القُطقُطانة وما وراء ذلك، تجبى إليه من هذه الأعمال الأموالُ وتفد عليه الوفود، وهو صاحب الزَّبّاء وقصير، والقصة طويلة ليس ههنا موضعها، إلا أنه لما هلك صار ملكه إلى ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، وهو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من الملوك، وهو أول ملوك هذا البيت من آل نصر؛ ولذلك يقول ابن رومانس الكلبي وهو أخو النعمان لأمه أمها رومانس:

ما فلاحي بعد الألى عمروا الـ ... حيرة ما أن أرى لهم من باق
ولهم كان كل من ضَرَبَ العَيـ ... ـر بنجد إلى تخوم العراق

فأقام ملكاً مدة ثم مات عن مائة وعشرين سنة مطاع الأمر نافذ الحكم لا يدين لملوك الطوائف ولا يدينون له، إلى أن قدم أردشير بن بابك يريد الاستبداد بالملك وقهر ملوك الطوائف فكره كثير من تنوخ المقام بالعراق وأن يدينوا لأردشير فلحقوا بالشام وانضموا إلى من هناك من قضاعة، وجعل كل من أحدث من العرب حدثاً خرج إلى ريف العراق ونزل الحيرة، فصار ذلك على أكثرهم هجنة، فأهل الحيرة ثلاثة أصناف: فثلث تنوخ، وهم كانوا أصحاب المظال وبيوت الشعر ينزلون غربي الفرات فيما بين الحيرة والأنبار فما فوقها، والثلث الثاني العبّاد، وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها، وهم قبائل شتى تعبدوا لملوكها وأقاموا هناك، وثلث الأحلاف، وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها فمن لم يكن من تنوخ الوبر ولا من العباد دانوا لأردشير؛ فكان أول عمارة الحيرة في زمن بخت نصر ثم خربت الحيرة بعد موت بخت نصر وعمرت الأنبار خمسمائة سنة وخمسين سنة ثم عمرت الحيرة في زمن عمرو بن عدي باتخاذه إياها مسكناً فعمرت الحيرة خمسمائة سنة وبضعاً وثلاثين سنة إلى أن عمرت الكوفة ونزلها المسلمون.

وينسب إلى الحيرة كعب بن عدي الحيري، له صحبة، روى حديثه عمرو بن الحارث عن ناعم بن أُجَيل بن كعب بن عدي الحيري. والحيرة أيضاً: محلة كبيرة مشهورة بنيسابور؛ ينسب إليها كثير من المحدثين، منهم: أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري صاحب حاجب بن أحمد وأبي العباس الأموي، قال أبو موسى محمد بن عمر الحافظ الأصبهاني: أما أبو بكر الحيري فقد ذكر سبطه أبو البركات مسعود بن عبد الرحيم بن أبي بكر الحيري أن أجداده كانوا من حيرة الكوفة وجاؤوا إلى نيسابور فاستوطنوها، قال: فعلى هذا يحتمل أن يكونوا توطنوا محلة بنيسابور فنسبت المحلة إليهم كما ينسب بالكوفة والبصرة كل محلة إلى قبيلة نزلوها، والله أعلم. والحيرة أيضاً: قرية بأرض فارس فيما زعموا.

الغَرِيّانِ: تثنية الغريّ، وهو المطلّي، الغِراء، ممدود: وهو الغِراء الذي يُطلى به، والغريّ فعيل بمعنى مفعول، والغرّي: الحسن من كلّ شيء، يقال: رجل غرّي الوجه إذا كان حسناً مليحاً، فيجوز أن يكون الغرّي مأخوذاً من كل واحد من هذين؛ والغرّي: نُصُب كان يُذبح عليه العتائر؛ والغريّان: طِرْبالان وهما بناءان كالصّومَعَتَيْن بظاهر الكوفة قرب قبر عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال ابن دريد: الطربال قطعة من جبل أو قطعة من حائط تستطيل في السماء وتميل، وفي الحديث: كان، عليه الصلاة والسلام، إذا مَرّ بطِرْبال مائل أسرَع المشْيَ، والجمع الطرابيل، وقيل: الطربال القطعة العالية من الجدار والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطرابيل الشام: صوامعها.

والغريّان أيضاً: خيالان من أخيلة حمى فَيْد بينهما وبين فيد ستة عشر ميلاً يطؤهما طريق الحاجّ؛ عن الحازمي، والخيال: ما نُصِبَ في أرض ليُعْلَمَ أنها حمًى فلا تُقْرَب، وحمى فيد: معروف وله أخيلة؛ وفيهما يقول الشاعر فيما أحسبُ:

وهل أرَيَنْ بين الغَريّين فالرَّجا ... إلى مَدفع الريّان سكناً تجاورُهْ؟

لأن الرجا والريّان قريتان من هذا الموضع؛ وقال ابن هَرْمَةَ:

أتمضي ولم تُلمِم على الطّلل القَفْرِ ... لسلْمى ورَسم بالغَريّين كالسطر

عَهْدِنا به البِيض المعاريب للصِّبا ... وفارط أحواض الشباب الذي يَقْري

وقال السمهري العُكلي:

ونُبئتُ ليلى بالغريّين سلّمت عليّ، ودوني طِخفةٌ ورِجامُها
عديد الحصى والأثل من بطن بِيشَة وطَرْفائها ما دام فيها حَمامُها

قال: فأما الغريّان بالكوفة فحدّث هشام بن محمد الكلبي قال: حدّثني شرقيّ بن القُطامي قال: بعثني المنصور إلى بعض الملوك فكنت أحدثه بحديث العرب وأنسابها فلا أراه يرتاح لذلك ولا يعجبه، قال: فقال لي رجل من أصحابه يا أبا المثنى أي شيء الغريّ في كلام العرب؟ قلت: الغريّ الحسن، والعرب تقول: هذا رجل غريّ، وإنما سميّا الغريين لحسنها في ذلك الزمان، وإنما بني الغريان اللذان في الكوفة على مثل غريّين بناهما صاحب مصر وجعل عليهما حرَساً فكل من لم يُصَلّ لهما قُتل إلا أنه يخيّره خصلتين ليس فيهما النجاة من القتل ولا الملك ويعطيه ما يتمنى في الحال ثم يقتله، فغَبر بذلك دهراً، قال: فأقبل قصّارٌ من أهل إفريقيا ومعه حمار له وكُذينٌ فمرّ بهما فلم يصلّ فأخذه الحرس فقال: ما لي فقالوا: لم تصلّ بالغريّين فقال: لم أعلم، فذهبوا به إلى الملك فقالوا: هذا لم يصلّ للغريّين، فقال له: ما منعك أن تصلي لهما؟ قال: لم أعلم وأنا رجل غريب من أهل إفريقيا أحببت أن أكون في جوارك لأغسل ثيابك وثياب خاصتك وأصيب من كنَفك خيراً، ولو علمت لصليت لهما ألف ركعة، فقال له: تمنّ، فقال: وما أتمنّى؟ فقال: لا تتمنّ الملك ولا أن تنجّي نفسك من القتل وتمنّ ما شئت، قال: فأدبر القصّار وأقبل واخضع وتضرع وأقام عُذْره لغربته فأبى أن يقبل، فقال: إني أسألك عشرة آلاف درهم، فقال: عليّ بعشرة آلاف درهم، قال: وبريداً، فأتى البريد فسُلّم إليه وقال: إذا أتيت إفريقيا فسل عن منزل فلان القصّار فادفع هذه العشرة آلاف درهم إلى أهله، ثم قال له الملك: تمنّ الثانية، فقال: أضرب كلّ واحد منكم بهذا الكُذين ثلاث ضربات واحدة شديدة وأخرى وُسطى وأخرى دون ذلك، قال: فارتاب الملك ومكث طويلاً ثم قال لجلسائه: ما ترون؟ قالوا: نرى أن لا تقطع سُنّةً سنّها آباؤك قالوا: فمن تبدأ؟ قال: أبدأ بالملك ابن الملك الذي سنّ هذا، قال: فنزل عن سريره ورفع القصّار الكُذين فضرب أصل قَفاه فسقط على وجهه، فقال الملك: ليت شعري أيّ الضربات هذه! والله لئن كانت الهينة ثم جاءت الوُسطى والشديدة لأموتن! فنظر إلى الحرس وقال: أولاد الزنا،

تزعمون أنه لم يصلّ وأنا والله رأيته حيث صلى، خلوا سبيله واهدموا الغريّين! قال: فضحك القصّار حتى جعل يفحص برجله من كثرة الضحك؛ قلت أنا: فالذي يقع لي ويغلب على ظني أن المنذر لما صنع الغريين بظاهر الكوفة سنّ تلك السنّة ولم يشرط قضاء الحوائج الثلاث التي كان يشرطها ملك مصر، والله أعلم، وأن الغريّين بظاهر الكوفة بناهما المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء، وكان السبب في ذلك أنه كان له نديمان من بني أسد يقال لأحدهما خالد بن نضلة والآخر عمرو بن مسعود فثملا فراجعا الملك ليلة في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيّين، فلما أصبح استدعاهما فأخبر بالذي أمضاه فيهما فغمه ذلك وقصد حفرتهما وأمر ببناء طربالين عليهما وهما صَوْمعتان، فقال المنذر: ما أنا بملك إن خالف الناس أمري، لا يمرّ أحد من وُفود العرب إلا بينهما، وجعل لهما في السنّة يوم بؤس ويوم نعيم، يذبح في يوم بؤسه كلّ من يلقاه ويغري بدمه الطربالين، فإن رُفعت له الوحش طلبتها الخيل، وإن رُفع طائر أرسل عليه الجوارح حتى يذبح ما يَعنّ ويُطليّان بدم، ولبث بذلك برهةً من دهره وسمّى أحد اليوْمين يوم البؤس وهو اليوم الذي يَقتل فيه ما ظهر له من إنسان وغيره، وسمى الآخر يوم النعيم يُحسن فيه إلى كلّ مَنْ يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم، فخرج يوماً من أيام بؤسه إذ طلع عليه عَبيد ابن الأبرص الأسدي الشاعر وقد جاء ممتدحاً، فلما نظر إليه قال: هلاّ كان الذبح لغيرك يا عبيد! فقال عبيد: أتتك بحائنٍ رجلاه، فأرسلها مثلاً، فقال له المنذر: أو أجل قد بلغ أناه، فقال رجل ممن كان معه: أبَيت اللعن اتركه فإني أظن أن عنده من حسن القريض أفضل مما تريد من قتله فاسمع فإن سمعت حسناً فاستزده وإن كان غيره قتلتَه وأنت قادر عليه، فأُنزل فطعم وشرب ثم دعا به المنذر فقال له: زِدْنيه ما ترى، قال: أرى المنايا على الحوايا، ثم قال له المنذر: أنشدني فقد كان يعجبني شعرك، فقال عبيد: حالَ الجريض دون القريض وبلغ الحزامُ الطُّبيين، فأرسلهما مثلَين، فقال له بعض الحاضرين: أنشد الملك هَبِلَتك أمك! فقال عبيد: وما قول قائل مقتول؟ فأرسلها مثلاً أي لا تدخل في همك في من لا يهتم بك، قال المنذر: قد أمللتني فارحني قبل أن آمر بك، قال عبيد: من عزّ بزّ، فأرسلها مثلاً، فقال المنذر: أنشدني قولك:

أقفرَ من أهله ملحوب

فقال عبيد:

أقفرَ من أهله عبيدُ، فاليومَ لا يُبدي ولا يعيد
عَنّتْ له مَنيّةٌ تكودُ، وحان منها له ورُودُ

فقال له المنذر: أسمعني يا عبيد قولك قبل أن أذبحك، فقال:

والله إن متُّ ما ضرّني، وإن عشتُ ما عشت في واحدَهْ
فأبلغْ بَنيّ وأعمامهم بأن المنايا هي الواردَهْ
لها مدةٌ فنفوس العباد إليها، وإن كَرِهتْ، قاصدَهْ
فلا تجزعوا لِحِمام دنا، فللموت ما تلدُ الوالدَهْ

فقال المنذر: وَيلك أنشدني! فقال:

هي الخمر بالهزل تُكنى الطّلا، كما الذئب يُكْنى أبا جَعدَه

فقال المنذر: يا عبيد لا بد من الموت وقد علمتَ أن النعمان ابني لو عرض لي يوم بؤسي لم أجد بُدّاً من أن أذبحه، فأما أن كانت لك وكنتَ لها فاختر إحدى ثلاث خلال: إن شئت فصدتُك من الأكحل وإن شئت من الأبجل وإن شئت من الوريد، فقال عبيد: أبيتَ اللعن! ثلاث خلال كُساحيات واردها شرٌّ وارد وحاديها شر حاد ومعاديها شر معاد فلا خير فيها لمرتاد؛ إن كنتَ لا محالة قاتلي فاسقني الخمر حتى إذا ماتت لها مفاصلي وذَهَلت منها ذواهلي فشأنك وما تريد من مقاتلي؛ فاستدعى له المنذر الخمر فشرب فلما أخذت منه وطابت نفسه وقدمه المنذر أنشأ يقول:

وخيّرني ذو البؤس، في يوم بؤسه، خلالاً أرى في كلها الموتَ قد بَرَقْ
كما خُيّرَتْ عادُ من الدهر مرة، سحائبُ ما فيها لذي خيرة أَنَقْ
سحائب ريح لم تُوكّلْ ببلدة فتتركها إلا كما ليلة الطَّلَقْ

ثم أمر به المنذر فَفُصد حتى نَزف دمه فلما مات غَرّى بدمه الغريّين؛ فلم يزل على ذلك حتى مرّ به في بعض أيام البؤس رجل من طيّء يقال له حنظلة فقُرّب ليُقتل فقال: أبيتَ اللعن! إني أتيتك زائراً ولأهلي من بحرك مائراً فلا تجعل ميرتهم ما تورده

عليهم من قتلي، قال له المنذر: لا بد من قتلك فسل حاجتك تُقض لك قبل موتك، فقال: تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي فأحكم فيهم بما أريد ثم أسير إليك فينفُذ فيَّ أمرك، فقال له المنذر: ومن يكفلك أنك تعود؟ فنظر حنظلة في وجوه جلسائه فعرف شَريك بن عمرو بن شراحيل الشيباني فقال:

يا شريك يا ابن عمرو — هل من الموت مَحالَهْ؟
يا شريك يا ابن عمرو، — يا أخا من لا أخا لَهْ
يا أخا المنذر فُكَّ الـ — ـيَومَ رَهْنَاً قد أتى لَهْ
يا أخا كل مضاف — وأخا من لا أخا لَهْ
إنَّ شيبان قبيلٌ — أكرمَ الناسُ رجالَهْ
وأبو الخيرات عمرو — وشراحيل الحَمالَهْ
رَقباك اليوم في المجـ — ـد وفي حسن المَقالَهْ

فوثب شريك وقال: أبيت اللعن! يدي بيده ودمي بدمه إن لم يَعُدْ إلى أجله، فأطلقه المنذر؛ فلما كان من القابل قعد المنذر في مجلسه في يوم بؤسه ينتظر حنظلة فأبطأ عليهم فقدم شريك ليُقتل فلم يشعر إلا وراكب قد طلع فإذا هو حنظلة وقد تحنط وتكفّن ومعه نادبته تندبه، فلما رأى المنذر ذلك عجب من وفائه وقال: ما حملك على قتل نفسك؟ فقال: أيها الملك إن لي ديناً يمنعني من الغدر، قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، فاستحسن ذلك منه وأطلقهما معاً وأبطل تلك السّنّة وكان سبب تنصره وتنصر أهل الحيرة فيما زعموا؛ وروى الشرقيّ بن القُطامي قال: الغريّ الحسن من كل شيء وإنما سميا الغريّين لحسنهما وكان المنذر قد بناهما على صورة غريّين كان بعض ملوك مصر بناهما، وقرأت على ظهر كتاب شرح سيبويه للمبرّد بخط الأديب عثمان بن عمر الصقلّي النحوي الخزرجي ما صورته: وجدتُ بخط أبي بكر السّرّاج، رحمه الله، على ظهر جزء من أجزاء كتاب سيبويه أخبرني أبو عبد الله اليزيدي قال حدثني ثعلبٌ قال: مرّ معن بن زائدة بالغريين فرأى أحدهما وقد شُعّث وهُدِم فأنشأ يقول:

لو كان شيء له أن لا يَبيد على — طول الزمان لما باد الغريّان
ففرّق الدهرُ والأيام بينهما، — وكلُّ إلف إلى بَينٍ وهِجْران

النَّجَفُ: بالتحريك؛ قال السهيلي: بالفُرُع عينان يقال لإحداهما الرَّبَضُ وللأخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة، وهو بظهر الكوفة كالمُسنّاة تمنع مسيل الماء أن يعلُوَ الكوفة ومقابرها، والنجف: قشور الصِّلّيان، وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وقد ذكرته الشعراء في أشعارها فأكثرت، فقال علي بن محمد العلوي المعروف بالحِمّاني الكوفي:

فيا أسفي على النجَفِ المعَرّى، وأودية منوّرة الأقاحي
وما بسط الخورنق من رياض مفجرّة بأفنيةٍ فساح
ووا أسفا على القنّاص تغدُو خرائطها على مجرى الوُشاح

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي يمدح الواثق ويذكر النجف:

يا راكب العيس لا تعجل بنا وقفِ نحيِّ داراً لسُعْدَى ثم ننْصرفِ
وابْكِ المعاهد من سُعدى وجارتها، ففي البكاء شفاء الهائم الدَّنِفِ
أشكو إلى الله يا سُعدى جَوى كبدٍ حرّى عليك متى ما تُذكري تجف
أهيم وجداً بسُعدى وهي تصرمني هذا، لعمرك، شكلٌ غير مؤتلف
دَع عنك سعدى فسعدى عنك نازحةٌ، واكفف هواك وعدّ القول في لَطَف
ما إن أرى الناس في سهل ولا جبل أصفى هواء ولا أعذى من النّجف
كأنّ تربته مسكٌ يفوحُ به، أو عنبر دافَهُ العطّارُ في صدف
حفّت ببَرٍّ وبحرٍ من جوانبها، فالبَرّ في طرَفٍ والبحر في طَرف
وبينَ ذاكَ بساتينٌ يسيحُ بها نهرٌ يجيش بجاري سيله القَصِف
وما يزال نسيم من أيامنه يأتيكَ منها بريّا روضةٍ أُنُف
تلقاك منه قُبيلَ الصبح رائحةٌ تشفي السقيم إذا أشفى على التلف
لو حلّه مدنَفٌ يرجو الشفاء به إذاً شفاهُ من الأسقام والدَّنف
يؤتى الخليفة منه كلما طلعتْ شمسُ النهار بأنواع من التُّحَف
والصّيدُ منه قريب إن هممتَ به يأتيك مؤتلفاً في زيّ مختلف
فيا له منزلاً طابت مساكنه بحيز مَن حاز بيت العزّ والشرف
خليفة واثق بالله همّته تقوى الإله بحق الله معترف

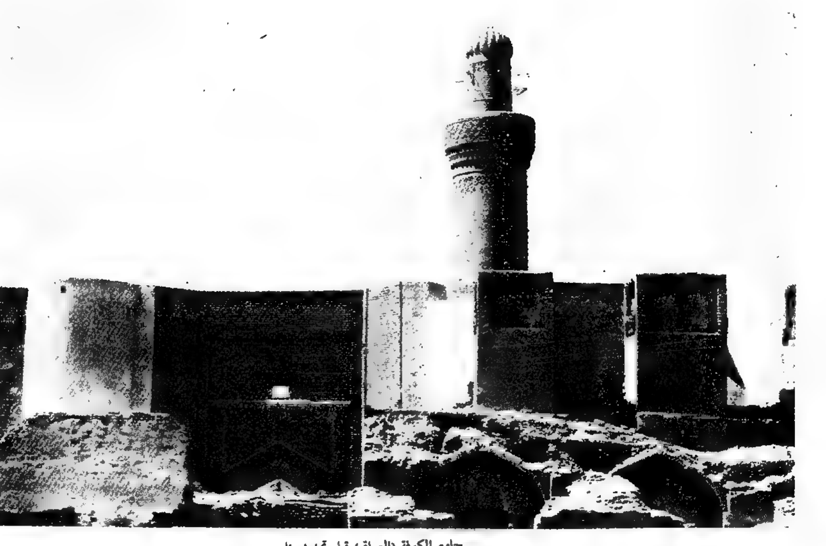
ولبعض أهل الكوفة:

وبالنَّجَفِ الجاري، إذا زُرت أهله، مَهاً مهملات ما عليهنّ سائسُ
خرَجْنَ بحبّ اللّهو في غير ريبة عفائف باغي اللهو منهن آيس
يردن إذا ما الشمس لم يُخش حرّها ظِلالَ بساتينِ جناهنّ يابس
إذا الحرّ آذاهنّ لُذْنَ بغَينة كما لاذ بالظل الظباء الكوانس
لهنّ، إذا استعرضتهنّ عشيّةً على ضَفّةِ النهرِ المليح، مجالس
يفوح عليك المسك منها وإن تقفْ تحدِّثْ وليست بينهنّ وساوس
ولكنْ نقيّات من اللؤم والخنَا إذا ابتُزّ عن أبشارهنّ الملابسُ

***



كتابات عثر عليها أثناء التنقيب



جامع الكوفة (العراق) قبل تجديد بناءه

الجغرافية الطبيعية لمدينة النجف

وحول هذا الموضوع نذكر ما كتبه الأستاذ السيد ناجي وداعة النجفي في كتابه «لمحات من تاريخ النجف»[1] حيث قال:

نظراً للإرتباط الوثيق بين خصائص البيئة الطبيعية للأقاليم ومقوماتها الإقتصادية والسكانية والحضارية رأيت من المفيد أن أقوم بدراسة موجزة لتلك الخصائص التي تتميز بها النجف باعتبارها (إقليماً جغرافياً) لأعرف القارىء من خلالها على إمكانيات وخصائص النجف وإمكانيات تطويرها في المستقبل.

وسوف تشمل هذه الدراسة عناصر البيئة الطبيعية وهي:

١ ـ الموقع والحدود.
٢ ـ الطبغرافيا والجيمورفلوجيا.
٣ ـ المناخ والنبات الطبيعي والتربة.
٤ ـ الموارد المائية.

١ ـ الموقع والحدود: لو ألقينا نظرة على خارطة العراق الإدارية لوجدنا النجف أحد الأقضية الكبيرة وهو تابع لمحافظة كربلاء المقدسة. أما موقع المحافظة بشكل عام من العراق فإنها تحتل بقعة واسعة من المنطقة الوسطى من القطر فهي ليست في شمالهِ ولا في جنوبه. إنها إحدى المحافظات الوسطى وفي سبيل تحديد أكثر يمكن القول أن المحافظة تحتضن الحوض الأوسط لنهر الفرات. وهذا يعني أنها من محافظات الحدود الغربية وتحادد أراضيها حدود المملكة العربية السعودية.

إذن فمدينة النجف التي تبلغ مساحتها ١٣٣٨ كيلو متر مربع وتحتل ١٨,٧٪ [2] من مجموع مساحة المحافظة. تعتبر من مدن الحدود «الثغور» كالرطبة. والسماوة. والبصرة. وتقع بالتحديد في الطرف الغربي من المنطقة الوسطى فوق الهضبة الغربية بعيدة عن ضفة نهر الكوفة بما يساوي ٨ كيلو متر تقريباً.

---

(١) الجزء الأول ص ٩ إلى ٢١.

(٢) المجموعة الاحصائية السنوية ص ٢٩ دائرة الطباعة الجهاز المركزي للإحصاء.

الحدود: يحدها من الشمال والشمال الشرقي مدينة كربلاء (المركز) ومن الغرب والشمال الغربي خط انكساري طولي وهو منطقة البحر أما من الشرق فيحدها الكوفة ونهر الكوفة (فرع من نهر الفرات) أما من الجنوب فيحدها الخط الإنكساري السابق الذكر. أما بالنسبة للموقع الفلكي فتقع النجف ضمن خط عرض ٣١ درجة و ٥٩ ثانية وضمن خط طول ٤٤ درجة و ١٩ ثانية.

٢ ـ **الطبغرافيا والجيمورفلوجيا**: تعني كلمة الطبغرافيا دراسة ووصف أشكال الأرض (التضاريس) الموجودة في الإقليم. لأن لها الأثر الكبير في تمدن وتحضر الإقليم لكونها تحدد التوسع المدني والعمراني كما تحدد امتداد طرق المواصلات وحركة التنقل والبناء... الخ إن التحديد السابق لمدينة النجف يوضح لنا أنها واقعة فوق أرض الهضبة الغربية وفي موقع وسطي منها. فما هي طبغرافية الهضبة في تلك الحدود؟ الحقيقة أن كافة دارسي جيولوجية العراق وطبغرافيته ودارسي التربة وشؤون الزراعة فيه يقسمون سطح العراق إلى الأقسام التالية[1]:

١ ـ المنطقة الجبلية: وهي محصورة في شمال وشمال شرق العراق وتشكل نسبة ٢٠٪ من مساحته منها ٥٪ على شكل جبال معقدة و ١٥٪ منطقة شبه جبلية.

٢ ـ السهل الرسوبي: وهو يمتد امتداداً وسطي بين الجبال شمالاً والهضبة الغربية غرباً وحدودنا مع إيران شرقاً ويشغل نسبة ٢٠٪ من مساحة العراق وقد تكون من ظمى دجلة والفرات.

٣ ـ الهضبة الغربية وتشغل نسبة ٦٠٪ من مساحة العراق وهي ذات امتداد طولي من أقصى حدود العراق الغربية في الشمال وحتى أقصى حدوده في النجف.

لقد كانت الهضبة مقسمة إدارياً إلى وحدتين إداريتين مستقلتين في التنظيمات الإدارية السابقة تابعتين إلى مديرية الشرطة العامة وهما البادية الشمالية والبادية الجنوبية وإليهما تنسب شرطة البادية سابقاً وفي الوقت الحاضر ألغيت الباديتان وهكذا فقد أصبحت البادية الجنوبية تحتل مساحة واسعة من محافظة كربلاء حالياً. إذن فالنجف

(١) جغرافية العراق الطبيعية والبشرية ص ٣٥ الدكتور جاسم محمد الخلف

جزء من الهضبة الغربية في موقع وسطي يتميز بأن له طبغرافية بسيطة وغير معقدة فالسطح فيه عبارة عن أرض مستوية تقريباً توجد فيها بعض التعاريج بسبب عوامل التعرية والسطح منحدر من الغرب نحو الشرق أي يزداد ارتفاعاً كلما اتجهنا من الشرق نحو الغرب حتى تبدوا الأطراف الغربية على شكل حافات (Scarps) شديدة إذا ما تركنا النجف ونزلنا إلى وادي البحر حيث يبلغ ارتفاع النجف زهاء (٢٣٠) قدماً عن سطح البحر[١] أو ٣١,٥ متر كما توجد فيها بعض التلال المتناثرة وقد ضاعت معالمها بسبب توسع المدينة واستغلالها لأغراض التوسع وتسمى هذه التلال بالجبال وذلك من قبل سكان المدينة نظراً لارتفاعها نسبياً عن الأرض المستوية التي يعيشون عليها إلا أنها في الحقيقة ليست بجبال لأنها لا تتجاوز في الغالب ١٥٠ قدم ومنها ما يسمى. جبل الحويش، وجبل المشراق، وجبل شرف شاه.

أما بالنسبة للأصل الجيولوجي فإن القائمة التي وضعها «كوردن هستد»[أ] لأرض العراق فتتحدث عن الهضبة الغربية[٢] ومنها مدينة النجف وتقول بأنها تعود في الغالب إلى عصر «الميوسين»[ب] والشائع في صخورها حجر الرمل وحجر الطفل أحياناً وهما يعودان إلى عهد «فارس الأعلى»[جـ] كما توجد في الإقليم (النجف) صخور طباشيرية أي أحجار كلسية تعود إلى «العصر الترجري»[د] وسطح مدينة النجف بشكل عام مغطى بحصى ورمل ومعظم تربته منقولة.

أما بالنسبة، لكلمة الجيمورفلوجيا فهي تعني دراسة المظاهر الموجودة فوق سطح الأرض مثل الأحواض والإنكسارات والبحيرات وغيرها ثم يبحث عن طريقة تكوينها. يعتبر بحر النجف أهم هذه المظاهر وهو عبارة عن خط انكساري حدث بحركة انكسارية في قشرة الأرض أدى إلى هبوطها ومما يدل على هذا الشكل الطولي

(١) دائرة الأنواء الجوية في النجف.
أ ـ باحث جيولوجي انكليزي درس جيولوجية العراق.
(٢) الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ص ٦٥ كوردن هستد.
ب ـ عصر من العصور الجيولوجية التي تتحدث عن تاريخ طبقات الأرض.
جـ ـ عصر من العصور الجيولوجية التي تتحدث عن تاريخ طبقات الأرض.
د ـ عصر من العصور الجيولوجية التي تتحدث عن تاريخ طبقات الأرض.

للوادي ثم الحافات الشرقية المرتفعة. أما بالنسبة «لمنبع بحر النجف فهو منخفض واقع على الفرات من الجنوب الشرقي من الحيرة عرف في عصورنا الأخيرة باسم (القرنة) وهو غير (القرنة) الواقعة على ملتقى دجلة والفرات. ومنخفض آخر لا يبعد كثيراً عن القرنة يعرف بالمدلك وبين هذين المنخفضين منخفض آخر سمي بالفتحة وقد وجدت الفيضانات العالية في هذه المنخفضات المتقاربة مكاناً وهذا ما يساعد على اندفاع المياه وانحدارها من الفرات إلى المنخفضات الواسعة من الأراضي المتصلة بالحيرة والنجف وتكون بسبب ذلك بحر النجف»[١].

٣ ـ **المناخ والنبات الطبيعي والتربة**: إن دارسي مناخ العراق قسموه بشكل عام إلى قسمين:

مناخ الأطراف الشمالية وغالباً يعود إلى إقليم البحر المتوسط مطير شتاءً وجاف صيفاً. ثم مناخ إقليم الأطراف الوسطى والجنوبية وهي ذات مناخ جاف تقريباً وفي كلا الإقليمين تقتصر الأمطار على فصل الشتاء فقط ويعود هذا التوزيع الفصلي للمطر إلى موقع العراق ضمن دائرة البحر المتوسط. إلا أن التوزيع المكاني للمطر ذو ظروف واضحة حيث يقل المطر في العراق كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وهكذا فالنجف بصورة عامة مناخ شبه صحراوي، الصيف طويل وجاف وعندما يشتد الحر يلتجيء أهالي النجف إلى السراديب المعروفة بـ (سراديب السن). وتبلغ درجة الحرارة في الصيف[٢] ٤٥ درجة. ويبلغ معدل سرعة الرياح في الصيف ١٦ درجة ويرتفع خط الاستواء عن أفقها ٥٨ درجة وتبلغ أقل درجة حرارة في الشتاء ٥ درجة تحت الصفر وأعلى سرعة للرياح في الشتاء في حالة الزوابع ٣٠ درجة. أما بقية الفصول فهي انتقالية قصيرة وشتاء مطير إلا أنه قليل المطر أما الغيوم فإنها ثلاثة أنواع عالية وواطئة ومتوسطة.

والحقيقة هناك ظاهرة لها أثرها في مناخ مدينة النجف وهي ظاهرة شاملة لكافة مناطق العراق يمكن أن نعرفها من خلال الديكرامات والجداول الإحصائية وهي

(١) موسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ص ١٥ ـ الهامش

(٢) معدلات دائرة الأنواء الجوية في النجف.

ظاهرة ذبذبة المطر بين عام وآخر وليس لهذه الظاهرة آثار سيئة عميقة في اقتصاد النجف وفعاليات سكانها بشكل مباشر نظراً لعدم وجود صفة الزراعة في النجف سوى نسبة مئوية ضئيلة وهم الأفراد الذين انحدروا من الهضبة إلى الوادي الإنكساري الذي تحدثنا عنه وهو منطقة البحر للقيام ببعض العمليات الزراعية البسيطة وزراعة البرسيم والخضروات لسد الحاجة المحلية والسوق النجفي.

النبات الطبيعي والتربة: الحقيقة أن النبات الطبيعي صورة من صور الأحوال المناخية وشكل من أشكالها فالهضبة الغربية بشكل عام بخصائصها المناخية المعروفة وبعدها عن مجاري الأنهار ذات غطاء نباتي فقير وخاصة مدينة النجف وذلك بسبب انخفاض معدلات تساقط (المطر) السنوية.

وقد تنمو في النجف والمناطق المجاورة لها بعض النباتات المقاومة للجفاف والملوحة ومن أشهرها (العرد) و (النصب) وأحياناً (الشريب) وجميعها أشواك صالحة لرعي الجمال والأغنام ويلاحظ في فصل الخريف كثرة القبائل البدوية على أطراف مدينة النجف وهي ترى فيه مراعي طبيعية مناسبة[1].

أما بالنسبة للتربة وهي ذرات الصخور المفتتة بسبب عوامل التعرية المتنوعة في آخر مظهر من مظاهر التفاعل بين أحوال المناخ والنبات الطبيعي والتكوينات الجيولوجية لمدينة النجف.

ويبدو أن تربة النجف تابعة للتربة المسماة «Sierozems»[2] وهي رمادية اللون فاتحة أحياناً وقد نشأت على طبقة من صخور كلسية وجبسية وتنتشر خلالها الرمال والحصى بسبب عوامل التعرية السابقة الذكر. وتعتبر تربة مدينة النجف بكبر ذراتها Texture نسبة للسهل الرسوبي وفي الغالب تربة منقولة من المحافظات المجاورة والمحيطة. وهذا يعني أنها تربة خفيفة.

٤ ـ **الموارد المائية**: تنقسم الموارد المائية بشكل عام إلى ثلاثة أصناف هي:

(١) انظر الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ص ١٠٩ كوردن هستد.
(٢) انظر جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ص ١٤٠ الدكتور جاسم محمد الخلف.

أولاً: المطر ويعتبر الأساس في الموارد فهو شكل من أشكال دورة الماء في الطبيعة والنجف قليل المطر حيث لا يتعدى معدل سقوط المطر السنوي أكثر من ١ ـ ٥ قطرات في كل عقدة (بوصة).

ثانياً: المياه السطحية وهي المياه الجارية فوق سطح الأرض على شكل أنهار أو بحار أو بحيرات وغير ذلك والنجف بعيدة عن نهري العراق دجلة والفرات وكما ذكرت فهي تبعد ٨ كلم عن الكوفة كما أنها تعلو عن سطح البحر ٢٣٠ قدم كما ذكرت.

ثالثاً: المياه الجوفية وهي المياه الموجودة تحت سطح الأرض وإما أن تكون جارية أو راكدة تظهر أحياناً بشكل طبيعي وبدون تدخل الإنسان فنسميها العيون والينابيع كما هو في شمال العراق وأحياناً تظهر بعد عمل الإنسان وتدخله لإخراجها فتسمى عادة، الآبار أو الكهاريز.

وتعتبر المياه الجوفية الأساس في التوزيع السكاني والاستيطاني للأقاليم الصحراوية وفعلاً كانت النجف إلى أمد ليس ببعيد تعتمد في وجودها على الآبار المحفورة وسط المحلات والبيوت وقد اشتهرت منها الآبار العباسية. ويبدو أن النجف غني بالمياه الجوفية نظراً للصخور الجبسية والطباشيرية التي تسمح لتسرب المياه فيها خاصة أن نهر الكوفة ليس ببعيد. إن التقدم الميكانيكي أعطى المياه السطحية القريبة ـ في الكوفة ـ زخماً قوياً لمناسبة عملية حفر الآبار التي انتهت بالإعتماد على مشاريع الإسالة في الكوفة.

الطبيعة الجغرافية للنجف في الشعر العربي

استهوت مدينة النجف الأشراف الشعراء بسحرها وجمال منظرها ومناخها وطبيعة أرضها ففاضت نفوسهم بقصائد لو تمكن أحد من جمعها لكانت كتب ودواوين وقد ارتأيت أن أجمع بعضها هنا لطرافتها وإن ما سأقدمه في هذا الحقل ما هو إلا مقتطفات من قصائد الشعراء. وقد روي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) نظر إلى ظاهر الكوفة فقال:

ما أحسن[1] منظرك وأطيب مناخك اللهم اجعل قبري فيها.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي[2]:

يا راكب العيس لا تعجل بنا وقف ... نحي داراً لسلمى ثم ننصرف
لم ينزل الناس من سهل ومن جبل ... أصفى هواءً ولا أغذى من النجف
حفت ببر وبحر من جوانبها ... فالبر في طرف والبحر في طرف
وبين ذاك بساتين تسيح بها ... نهر يجيش مجاري سيله القصف
وما يزال نسيم من يمانية ... يأتيك منها بريا روضه أنف
تلقاك منه قبيل الصبح رائحة ... تشفي السقيم إذا أشفى على التلف
كأن تربته مسك يفوح به ... أو عنبر دافه العطار في صدف

وقال البحتري[3]:

آمق الكوفة أرضاً وأرى ... نجف الكوفة أرضاها وطن

ومما قاله أبو دلامة من الشعر للعباس بن محمد عم المنصور[4]:

(١) إرشاد القلوب ج٢ ص ٤٣٩ محمد بن الحسن الديلمي. ط بيروت بحار الأنوار ج٢٢ ص٢٧ العلامة محمد باقر المجلسي.
(٢) كتاب الأغاني ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧. معجم البلدان ج٥ ص٢٧١ موسوعة العتبات قسم النجف ص ٦١ ـ ٦٢ بحث الدكتور مصطفى جواد.
(٣) ديوان البحتري ص ٦١٣ موسوعة العتبات ج١ ص ٢٧.
(٤) كتاب الأغاني ص ٢٦٦.

تهتز خافقة أمام مغيبها ... أبها صبابة قلبك الخفاق
زدت الطبيعة روعة فعلقتها ... وصرفت نحو جمالها أشواق

وقال السمهري العكلي(١):

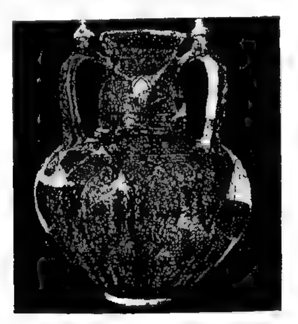
ونُبِّئْتُ ليلى بالغريين سلَّمت ... علي ودوني طفخةٌ ورجامُها
عديد الحصى والأثل من بطن بيشة ... وطرفائها ما دام فيها حمامها

وقال معن بن زائدة عندما رأى أحد الغريين وقد تهدم(٢):

لو كان شيء له أن لا يَبيدَ على ... طولِ الزمان لما باد الغريان
ففرّق الدهر والأيام بينهما ... وكل ألف إلى بين وهجران

ولبعض أهل الكوفة(٣):

وبالنجف الجاري إذا زرتَ أهله ... مهاً مهملاتٌ ما عليهن سائسُ
خرجن بحبِّ اللهو في غير ريبةٍ ... عفائفَ باغي اللهو منهن آيسُ



دنٌّ من الخزف المطلي بالمينا الخضراء مزين بزخارف بارزه نباتية وهندسية، عُمل لصاحب الحيرة

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ١٩٧.
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٠.
(٣) معجم البلدان ج ٥ ص ٢٧٢.

وجاء في كتاب (النجف الأشرف عاداتها وتقاليدها)(*١) ما نصه:

الناحية الجغرافية

الموقع:

تقع مدينة النجف على حافة الهضبة الغربية من العراق، التي عند نهايتها تقوم الحدود السعودية. وتبعد عن فرات الكوفة (١٠) كيلومترات تقريباً. وهي من الناحية الإدارية محافظة من محافظات القطر العراقي الوسطي وقد أصبحت محافظة بعد صدور المرسوم الجمهوري المرقم ٤٢ في ١٩٧٦/٢/٢٩ م. وكانت قبل ذلك قضاءً تابعاً لمحافظة كربلاء.

الحدود:

يحدها من الشمال والشمال الشرقي مدينة كربلاء، ومن الجنوب والغرب منخفض بحر النجف ومن الشرق مدينة الكوفة.

المساحة والنفوس:

تبلغ مساحة النجف ١٣٣٨ كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد نفوسها ١٧٥١٤١ نسمة[1].

طبيعة الأرض:

يمثل سطح النجف جزءاً من الهضبة الغربية. فهو يحمل صفاتها، ويمتاز بكونه منبسطاً خالياً من التعاريج، والتضاريس المهمة. «وتتصل النجف بالسهل الرسوبي فهي - إذن - من حافة الهضبة تنحدر نحو الشرق. أي باتجاه النهر. أما من جهة الغرب، فتنحدر أرض النجف انحداراً مباشراً لتتصل ببحرها أو ببحيرتها. ثم تبدأ

---

*١: ص ١٠ - ١٣.
تأليف السيد طالب علي الشرقي - ط للنجف ١٩٧٧.

(١) التقرير السنوي الثالث لمديرية بلدية النجف عام ١٩٧٥ وبلغ عدد نفوسها عام ١٩٧٧م ١٨٩٠٠٠ نسمة.

أرضها بالإرتفاع باتجاه النهر ويرتفع سطح النجف عموماً ما يقارب ٧٠ متراً عن سطح البحر»[١].

أما القشرة السطحية لمنطقة النجف، فهي عبارة عن صخور رملية أغلبها مغطّى بطبقة خفيفة من تربة رملية، وحصى ناعم. وفي بعض أجزائها، حجارة كلسية. وفي حافة المنخفض (بحر النجف) توجد كميات من المواد الطينية.

المناخ:

«هواء صيفها حار يابس، وفي الشتاء بارد قارص، وعندما يشتد الحر في الصيف يلتجىء أهلها إلى سراديب منحوتة في الأرض نحتاً بديعاً تتفاوت في العمق»[٢].

والجدول التالي يوضح معدلات درجات الحرارة العظمى والصغرى والرطوبة النسبية خلال سنة[٣].

الشهر	معدل درجات الحرارة العظمى	معدل درجات الحرارة الصغرى	معدل الرطوبة النسبية	الشهر	معدل درجات الحرارة العظمى	معدل درجات الحرارة الصغرى	معدل الرطوبة النسبية
كانون الثاني	١٣،٥	٤،٩	٪٨٠	تموز	٤٤،٥	٢٧،٣	٪١٨
شباط	١٦،٠	٦،٤	٪٧٣	آب	٤٣،٢	٢٦،٩	٪١٩
آذار	٢٢،٦	١٢،٥	٪٦٧	أيلول	٤١،٤	٢٣،٨	٪٢٠
نيسان	٢٩،٠	١٥،٩	٪٤١	تشرين الأول	٣٥،٩	١٨،٥	٪٢٣
مارس	٣٨،٠	٢١،٨	٪٢٣	تشرين الثاني	٢٦،٥	١٢،٣	٪٤٩
حزيران	٤٢،٨	٢٦،١	٪٢١	كانون الأول	١٦،٦	٥،٤	٪٦٧

أما الأمطار فهي تسقط في الشتاء، وتزداد في الربيع، والجدول التالي يبين كميات الأمطار المتساقطة خلال سنة:

---

(١) عبد الهادي الفضلي دليل النجف الأشرف ص ١٢.

(٢) جعفر محبوبة/ ماضي النجف وحاضرها ١: ٧.

(٣) الجداول المثبتة هنا أخذت من ملفات الأنواء الجوية في المطار المدني ببغداد عام ١٩٧٥.

الشهر	كمية الأمطار بالمليمترات	الشهر	كمية الأمطار بالمليمترات
كانون الثاني	٢٤,٨	تموز	صفر
شباط	٤٢,١	آب	صفر
آذار	٨٠,٥	أيلول	صفر
نيسان	٦,٥	تشرين الأول	صفر
مارس	٠,٦	تشرين الثاني	٢,٢
حزيران	صفر	كانون الأول	١٠,٣

ويسقط الحالوب في النجف في شهر آذار ومعدل سقوطه لمدة عشر سنوات تقريباً ١,٠ ملم ويذوب بسرعة.

والرياح التي تهب على النجف مختلفة الاتجاه، إلا أن سرعتها بين الهدوء والإعتدال، ويندر أن تمر على النجف العواصف الشديدة. وتهب في الصيف وخاصة في شهر تموز، رياح (السموم) اللافحة التي تصل حرارتها إلى أكثر من ٤٥ درجة م.

* * *

وتحدث الدكتور حسين أمين، في بحثه «أمةٌ تاريخية مجملة» عن مدينتي «الكوفة» و «النجف» فقال[١]:

ذكر أصحاب المعاجم اللغوية في معنى الكوفة أنه: كل رملة تخالطها حصباء، وأنها سميت بهذا الإسم لاستدارتها، وفي سنة ١٧ هـ وبعد انتصار المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص في موقعة القادسية المشهورة فتح سواد العراق، وباشر ببناء مدينة يتخذها معسكراً لجنده فاختار مكان الكوفة الحالية، وقام بتخطيط المدينة أبو الهياج الأسدي عمرو بن مالك بن جنادة[٢] ويصف البلاذري مبدأ التخطيط فيقول: أن عبد المسيح بن بقيلة أتى سعداً وقال له أدلك على أرض انحدرت من الفلاة وارتفعت عن المباق، فدله على موضع الكوفة اليوم وكان يقال له سورستان، فلما انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلاً فعلا بسهم قبل مهب القبلة فاعلم على موقعه ثم علا بهم آخر قبل مهب الشمال واعلم على موقعه ثم علا بهم قبل مهب الجنوب واعلم على موقعه ثم علا بهم قبل مهب الصبا فاعلم على موقعه، ثم وضع مسجدها ودار إمارتها في مقام العال وما حوله وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي، ومن وراء تلك العلامات، وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الإمارة[٣].

وقد حرص المسلمون في بدء الفتوحات الإسلامية، أن يشيدوا معسكراتهم ومدنهم في أمكنة تتصل بمركز الدولة الإسلامية في الحجاز، وأن تكون الصحراء العربية طريقهم المباشر بذلك المركز، ولا يجعلوا بحراً أو نهراً أو جبلاً حاجزاً بين ما يشيدون وبين مركز انتشارهم وتحركهم، ولا يتعدوا مسافة عن المدينة التي كانت

---

(١) أخذناه من موسوعة العتبات المقدسة ـ المدخل ص ٤٩ ـ ١٤٤ وذلك لأجل إكمال الفصل الذي بدأناه.
والدكتور حسين أمين من أساتذة جامعة بغداد، حائز على دكتوراه شرف أولى من جامعة الاسكندرية، وشغل سكرتير قسم التاريخ في كلية التربية، ومقرراً بدائرة التاريخ والآثار بجامعة بغداد.
(٢) فتوح البلدان ص ٢٨٤.
(٣) فتوح البلدان ص ٢٨٥.

مشيدة قبل دخولهم البلاد المفتوحة، فلم يتخذوا الحيرة سكناً بل ابتنوا الكوفة التي تبعد حوالي ثمانية كيلومترات عن مسجد الكوفة إلى الجنوب، وينطبق هذا التعليل على بناء المسلمين لمدينة البصرة القريبة من مدينة الأيلة وبنائهم لمدينة الفسطاط القريبة من عين شمس، ونعتقد أن المسلمين كانوا يريدون الابتعاد قدر الإمكان عن السكان الأصليين وعدم الاختلاط بهم كي لا يتأثروا بعاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم وحتى يبقى الجندي الإسلامي بعيداً عن كل ما تحوي تلك المدن من لهو ومشاغل نفسية وفكرية ويظل دائماً وأبداً تحت السلاح كي يؤدي واجبه بشكل صحيح.

وأرض الكوفة سهلة، عالية فوق مستوى الفيضان، ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار ٢٢ م، وأنها بعيدة عن مناطق الأهوار والمستنقعات، ومن الجدير بالذكر أن ضفة النهر الغربية أعلى من الضفة الشرقية بمقدار ٥ ـ ٦ م، وفي بعض الأقسام الجنوبية يقل ذلك الارتفاع، والأراضي القريبة من النهر تكون رسوبية خصبة صالحة للزراعة أما ما دون ذلك فأرض رملية حصباء تنحدر انحداراً تدريجياً من جهة الغرب فتؤلف ضفة كلسية غير مستنقعية هي النجف، ترتفع بمقدار ٦٠ م عن مستوى سطح البحر ثم تنخفض من جهة الغرب والجنوب فتؤلف بحيرة ضحلة مالحة هي بحر النجف[١] ارتفاعها عن مستوى سطح البحر ١٠ م.

وقد شيدت الكوفة على ضفاف نهر الفرات وترك المسلمون صحراءهم العربية إلى جانبهم، فكان الفرات إلى شرق المدينة والصحراء من جبهتها الغربية وتقع الحيرة إلى جبهتها الجنوبية الغربية والكفل من جهتها الشمالية الشرقية. وتحسن هنا الملاحظة أن الكوفة كانت أقرب إلى الفرات من مدينة الحيرة، وهذا الأمر ساعد في سيطرة الكوفة على الجسر القائم على نهر الفرات الذي كان الرابط التجاري المهم الذي يربط العراق وما يجاوره بالطريق التجاري الذي كانت تتبعه القوافل التجارية نحو الحجاز وجنوبي الجزيرة العربية. ذكر المسعودي: ذكر عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني حين خاطب خالد بن الوليد أيام أبي بكر بن أبي قحافة حين قال له: ما تذكر؟ قال: أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون (يقصد وراء الحيرة) فلما انقطع الماء

(١) اليعقوبي: البلدان.

عن ذلك الموضع انتقل البحر براً. فصار من البحر في هذا الوقت على مسافة أيام كثيرة، ومن أشرف من وراء النجف عليه تبين له ما وصفنا(١).

ومن أهم النقاط الدالة على مدينة الكوفة التاريخية، مسجد الكوفة وقصر الإمارة ومسجد السهلة والأكام المتناثرة بين المسجد والطريق المؤدي إلى مدينة النجف.

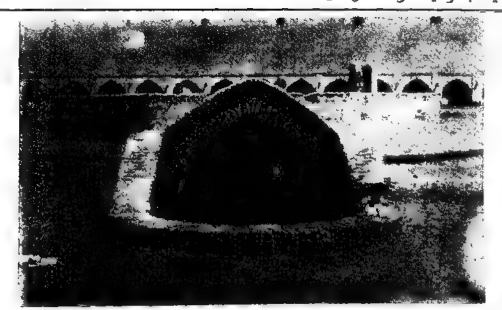
ومسجد الكوفة مربع الشكل تقريباً، ذلك لأن أضلاعه الأربعة مختلفة الطول اختلافاً قليلاً فهي على التوالي ١١٠، ١١٦، ١٠٩، ١١٦. ومن أهم مظاهر المسجد مشهد الإمام علي (ع) الذي يقع في رواق الضلع الجنوبي، وهناك محاريب منتشرة في المسجد وقد تداولت بين الناس باسم المقامات، ومنها باسم مقام الخضر وباسم مقام زين العابدين وباسم مقام جبرائيل وباسم مقام إبراهيم (ع)(٢).

ومن مظاهر المسجد السفينة أو التنوّر ويكاد يكون في وسط المسجد، وينزل إلى السفينة بدرج منظم تعلوه عقادة مائلة، يفضي هذا الدرج إلى ساحة مكشوفة مثمنة الأضلاع تعلو جدرانها إلى ما فوق أرض المسجد قليلاً، فتظهر من الخارج على هيئة حوض مثمن وفي كل ضلع من أضلاع هذا الصحن المثمن إيوان إلى سردابين مسقوفين ويبدو أن لهذا المبنى الذي عرف بالسفينة فروعاً داخلية أخرى، وواضح الجدار الذي سدت به، وأن هذا الجدار على ما يبدو قد استحدث حديثاً. أما سبب تسميته بالسفينة، فالناس يعتقدون أن سفينة نوح (ع) كان رسوها في هذا المكان بعد الطوفان.

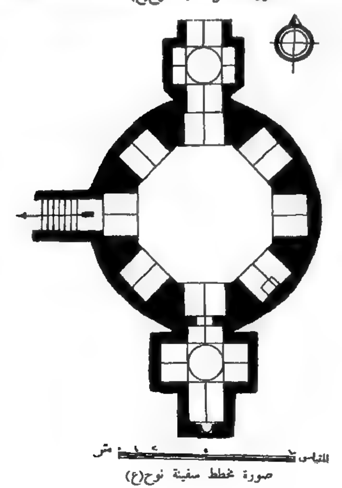
---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص ١١٨ ـ ١١٩ دار الأندلس.

(٢) وقد علّم على هذه المقامات وعين مواضعها السيد مهدي بحر العلوم في القرن الثالث عشر الهجري مستوحياً هذا التعيين من الأخبار الدينية ومن الروايات وما كانت قد تبانت عليه الأحاديث وهي فصول تختلف مع مجرى التأريخ في مكان وتتفق معه في مكان آخر.



صورة مدخل سفينة نوح(ع)



صورة مخطط سفينة نوح(ع)

ومن مظاهر المسجد أيضاً بيت (الطشت) الـذي يتكـون من سرداب يمتد تـ الأرض وينتهي من طرفيه بدرجين يؤديان إلى مدخل ومخرج. ومن الجدير بـالذكـر مسجد الكوفة في بنائه الحالي يختلف عما أنشىء في بادىء الأمر، وقد طرأت على بنـ توسيعات وترميمات في عصور تاريخية مختلفة.

أما قصر الإمارة، فإنه شيد بمحاذاة الضلع الجنوبي لمسجد الكوفة، ومن الثـا تـاريخياً أن سعـد بن أبي وقـاص أول من شرع في بنـاء هـذا القصر، وقـد ظهـر التنقيبات الأثرية التي أجرتها مديرية الآثار العراقية، أن المسجد كان يتصل بالقصر بـاب مفتوح في الجـدار الجنوبي للمسجـد، وأن طول ضلع القصر نحـو ١٧٧ م و معدل سمك الجدران ٣,٦٠ ومعدل قطر الأبراج ٣,٣٠ م.

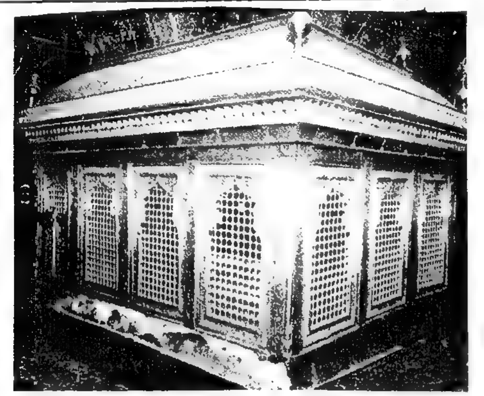
وإلى جهة المسجد الجنوبية الغربية بحدود ٨٥ م بناية صغيرة تعرف بين النـا باسم بيت الإمام علي (ع) ويذكرون أن الإمام كان يسكنه وأنـه كان غسـل فيه بـ استشهاده[١].

ويقوم قبر مسلم بن عقيل (ر) وقبر هاني بن عروة في مشهدين في مكان قر ملاصق لجدار مسجد الكوفة الشرقي ويفضي إليهما من باب كبيـر في ذلك الجدار، أن للمشهدين باباً من جهـة البنـاء الشماليـة، وإلى مكان قـريب من مشهد مسلم عقيل (ر) يقوم قبر المختار بن أبي عبيد الثقفي زعيم التوابين.

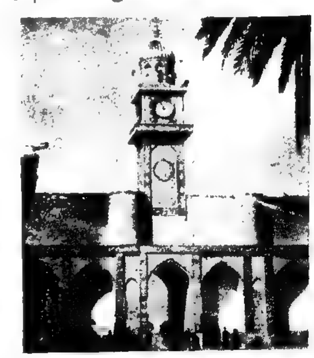
وفي خارج مسجد الكوفة وإلى القرب من بيت الإمام عـلي (ع) يقوم قـبر مـ التمّار وهو من أنصار الإمام علي (ع) الخلصاء.

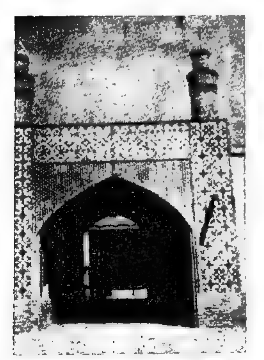
وفي الكوفة مساجد، لها مكانـة كريمـة عند الشيعـة، تلك المساجـد هي مسـ السهلة ومسجـد غنى، ومسجد بني ظفـر، ومسجد الحمـراء، ومسجـد جعفي، رو المجلسي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنـه قال: بـالكوفـة مساجـ ملعونة ومساجد مباركة فأما المبـاركة فمسجـد غني والله أنّ قِبلته لقـاسطة، وأن طينـ

(١) ابن الفقيه: البلدان ص١٧٤ ـ وهناك خبر آخر يشير إلى أن هذا البيت كـان بيت عبد الله بُن هبـيرة نزل الإمام علي فيه كضيف عند أول دخوله الكوفة فعرف البيت باسمه.



ضريح الشهيد مسلم بن عقيل(رضي الله عنه) في الكوفة





مدخل صحن الشهيد مسلم بن عقيل(ع)

لطيبة ولقد بناه رجل مؤمن ولا تذهب الدنيا حتى تنفجر عنده عينان ويكون فيهما جنتان وأهله ملعونون وهو مسلوب منهم ومسجد بني ظفر ومسجد السهلة ومسجد الحمراء ومسجد جعفي.

وأشهر هذه المساجد هو مسجد السهلة، وهو البقية الباقية من المساجد التي اختطتها القبائل بعد مسجد الجامع، ويقع المسجد اليوم في ظاهر الكوفة في الجهة الشمالية الغربية من المسجد الجامع على نحو كيلومترين في أرض خالية من العمران والسكن.

ويرجح أن هذا المسجد شيد قبل مجيء الإمام علي إلى الكوفة، ويذكر ابن الفقيه أن الإمام علياً (ع) قال: أن بالكوفة أربع بقاع قدس مقدسة فيها أربعة مساجد قيل سمّها يا أمير المؤمنين قال: أحدها مسجد ظفر وهو مسجد السهلة[1].

مساحة المسجد ١٤٠ × ١٢٥ م٢ وترتفع جدرانه نحو ٢٢ م وكل ضلع من أضلاعه الأربعة تدعمه أبراج نصف دائرية من الخارج على أبعاد متساوية وأرضية بيت الصلاة مفروشة بالأجر ٢٤ × ٢٤ سم٢ على طراز هندي مقسم بهيئة مستطيلات متساوية الأبعاد، أما المحراب فيقع في وسط بيت الصلاة وهو يخلو من آثار الزخرفة أو الكتابة.

ومن أشهر محلات الكوفة (الكناسة) الواقعة إلى غرب مسجد الكوفة وهذه المحلة التي أصبحت مركزاً مهماً في المدينة تركزت فيها التجارة خاصة تجارة بيع وشراء الجمال والبغال والحمير كما كانت فيها سوق لبيع وشراء العبيد وسميت بهذا الإسم لأنها كانت مكاناً لرمي الأنقاض لبني أسد، ومن أشهر من سكنتها من القبائل العربية، قبيلة عبس وضبة وتميم كما سكنتها بنو رباح وبنو دارم وبنو حمام وبنو الشيطان وبنو عوف وبنو حرام وبنو هالك وبنو الكاهل.

إن أهم القبائل التي سكنت الكوفة هي قبيلة كندة، وبجيلة، وهمدان، وثقيف،

---

(١) والمظنون أن الثلاث الأخرى هي بيت عبد الله بن هبيرة وهو أول بيت نزله الإمام علي (ع) حين ورد الكوفة.

ومذحج، وتميم، وأسد، وبكر، والأزد، وطي، وقد أقطعت هذه القبائل الأماكن التي اتخذتها مستقراً وسكناً.

وكان أول الوافدين إليها بعد العرب الفرس وكان عددهم أربعة آلاف ممن كانوا يعملون في الجيش الفارسي وشهدوا القادسية على رستم، وقد فاوضوا سعداً على أن ينزلوا الكوفة حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا، ويفرض لهم في العطاء، فأعطوا الذي سألوه وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف وكان لهم نقيب منهم يقال له (ديلم) فأطلق عليهم حمراء ديلم، لأن العرب كانت تسمى العجم الحمراء[١].

ثم سكن الكوفة بعد تمصيرها السريان الذين كانوا يسكنون الديارات القائمة في أطراف الحيرة والنجف، وكان في الكوفة أسقفان أحدهما نسطوري والآخر يعقوبي، وكان نصارى الكوفة طائفتين (نساطرة) وهم الحضر و (يعاقبة) وهم البدو[٢].

وقدم الكوفة وافدين من نجران اليمن اليهود والنصارى وكان معظمهم صيارفة قاموا بالكوفة في محلة عرفت بالنجرانية[٣]، ثم نمت الكوفة وازدهرت وصارت قبلة أنظار العرب، ووصلت أوج عظمتها وتوسعها في العصر الأموي، وبلغت مساحتها ستة عشر ميلاً وثلثي الميل[٤]، وقال عنها الأصطخري: أنها أصبحت تضاهي البصرة من حيث السعة والعمران[٥]. وكان فيها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب وستة آلاف دار لليمن[٦].

وفي سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠ م أعلنت الخلافة العباسية في الكوفة ونودي بأبي العباس السفاح أول خليفة عباسي، وقد تحول السفاح عنها إلى مدينة الهاشمية القريبة من الكوفة، ولما تولى أبو جعفر المنصور الحكم بعد وفاة أبي العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ ٧٥٤ م بنى في الكوفة (الرصافة) وأمر أبا الخصيب مرزوقاً مولاه فبنى له

---

(١) الطبري ج ١ ص ٢٤٨٦.
(٢) ماسينون: خطط الكوفة ص ٢٥.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٦.
(٤) ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٣٣٤ طبعة المثنى.
(٥) الاصطخري: المسالك والممالك ص ٥٨.
(٦) البلدان ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

القصر المعروف بأبي الخصيب على أساس قديم ويقال أن أبا الخصيب بناه لنفسه فكان المنصور يزوره فيه[١].

ويقع بالقرب من الكوفة خندق يعرف بخندق (كري سعده) ويعرف أيضاً بخندق سابور، ويعتقد أن الفرس الساسانيين هم الذين أنشأوا هذا المشروع الكبير، ويبدأ من جنوب مدينة هيت على الفرات بمسافة ١٧ كلم ويخترق البادية على طول الحدود العراقية لأراضي العراق السهلة وينتهي البحر قرب مصب (بوبيان) على بعد ٢٠ ميلاً من شط العرب غرباً ويعرج هذا الخندق بعد أن يمر من غرب الحبانية ماراً بجبل سعدة ثم وادي (أبو فروج) ثم إلى الجنوب الشرقي باتجاه (غدير المالح) ويسلك وادي (الفضاوي) ثم هور أبي دبس إلى بحر النجف ملازماً الضفة الغربية قرب الكوفة ثم يقطع المسافة إلى هور الحمّار حيث ينتهي بالقرب من جبل سنام[٢]

وترتبط الكوفة مع البلدان المختلفة بطرق متعددة، فالطريق الموصل من الكوفة إلى مكة كان يسير متجهاً نحو القادسية ثم المغيثية ثم القرعاء ثم واقصة ثم زبالة ثم الشقوق ثم بيطان والأماكن الأربعة هي ديار بني أسد والتغلبية وهي مدينة عليها سور وزرود والأجفر منازل طي ثم مدينة فَيْد وهي التي ينزلها عمال طريق مكة وأهلها من طيّ. وتوز وسميراء والحاجز وأهلها قيس وأكثرهم بنو عبس والنقرة ومنها يعطف الطريق من أراد المدينة أو أراد مكة[٣] ومن أراد الاتجاه نحو البصرة فيسلك طريق بارق ثم القلع ثم سلمان ثم إلى أقر ثم إلى الأخاديد ثم إلى عين صيد ثم إلى عين جمل ثم إلى البصرة[٤].

ومن أراد التوجه إلى واسط فيسلك طريق البطائح وتقدر المسافة بست مراحل[٥].

وأول ولاة الكوفة هو سعد بن أبي وقاص الزهري، الذي كان يقود حملة فتح

(١) ابن خرداذبه: ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢) الاصطخري: المسالك والممالك ص ٦٥.
(٣) البلدان: ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.
(٤) ابن خرداذبه: ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٥) الاصطخري: المسالك والممالك ص ٥٦.

العراق وتولاها بعده عمار بن ياسر ثم أبو موسى الأشعري، ثم تعاقب الولاة عليها حتى سنة ٣٦ هـ، فقد نزل بها الإمام علي (ع) بعد انتصاره في معركة الجمل، وأقام فيها وقتل وأصبحت مركزاً للخلافة الإسلامية، وبعد اغتيال الإمام علي (ع) انتخب فيها الإمام الحسن (ع) خليفة للمسلمين، وبقي كذلك نحو ستة أشهر، ثم صار الأمر لمعاوية بن أبي سفيان فانتقلت حاضرة الدولة الإسلامية إلى دمشق، وظلت هكذا حتى سنة ١٣٢ هـ ففيها سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية، وأصبحت الكوفة عاصمة الدولة الجديدة وظلت عاصمة حتى انتقل منها السفاح إلى الهاشمية فالأنبار.

إن الكوفة تعتبر من أهم مراكز الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، امتازت بعراقتها في الثقافة العربية، وأنها بفخر حاملة لواء الدراسات اللغوية ومدرستها في النحو غنية عن التعريف[١]، وقد ساهمت هذه المدينة إسهاماً كبيراً في الحفاظ على التراث العربي من أدب وشعر ولغة، كما كانت ميداناً واسعاً لنمو الحركات الفكرية الجبارة في الإسلام[٢].



مرقد الشهيد هاني بن عروة الثقفي (رضي الله عنه)

(١) وعلى الرغم من أن أئمة النحو انبعثوا من الكوفة، وعلى الرغم من أن الكوفة كانت لها الصدارة في وضع قواعد النحو وضبط أصوله فقد أخذ العرب بعد ذلك بنحو البصرة الذي يختلف عن نحو الكوفة في كثير من المواضع والمباني العربية.

(٢) وأنجبت عدداً كبيراً من فطاحل رجال العلم والفلسفة كالكندي ومن أئمة الشعر وأنبيائه كالمتنبي.

النجف الأشرف

مدينة تقع في طرف الصحراء، بينها وبين الكوفة زهاء ستة أميال، ومناخها صحراوي، حار وجاف صيفاً وبارد قارص شتاء، وترتفع المدينة عن سطح البحر بزهاء ٢٣٠ قدماً، ومعدل سقوط المطر في المدينة سنوياً ١ ـ ٥ قطرة في كل بوصة، ومدينة النجف عرضة لرياح السموم بسبب وقوعها في طرف الصحراء واختلاف درجة الحرارة فيها، وقد تبلغ درجة الحرارة في المدينة صيفاً ٤٨ درجة مئوية وأكثر أحياناً وتقع النجف غربي بغداد وعلى بعد حوالي ١٨٠ كم.

والنجف قريبة من الحيرة، عاصمة المناذرة بل إنها ضاحية من ضواحيها الجميلة، وقد انتشرت الأديرة المسيحية في منطقة النجف، ومن أشهرها دير فاثيون وهو في أعلا النجف ودير ابن مزعوق في جنوبها، قال الشاعر محمد بن عبد الرحمن الثرواني:

قلت له والنجوم طالعةٌ في ليلة النصح أول السحر
هل لك في مار فاثيون وفي دير ابن مزعوق غير مختصر
يفيض هذا النسيم من طرف الشام ودرّ الندى على الشجر

ومن الأديرة المشهورة، ديارات الأساقف، وهذه الديارات بالنجف، بظاهر الكوفة، وهو أول الحيرة، وهي قباب وقصور تسمى ديارات الأساقف وبحضرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر، وعن شماله السدير، وفيه يقول علي بن محمد جعفر العلوي الحِمّاني:

كم وقفة لك بالخورْ نق ما توازى بالمواقف
بين الغدير إلى السدير إلى ديارات الأساقف[1]

وقصر أبي الخصيب، هو أحد المتنزهات يشرف على النجف وعلى ذلك الظهر كله، يصعد من أسفله في خمسين درجة إلى سطح آخر، أفيح في غاية الحسن وهو

(١) ياقوت: جـ٢ ص ٦٤٢.

عجيب الصنعة، وفي قصر أبي الخصيب يقول بعضهم:[(١)]

يا دار غير رسمها مَرُّ الشمال مع الجنوب
بين الخورنق والسدير فبطن قصر أبي الخصيب
فالدير فالنجف الأشم جبال أرباب الصليب

ومن الأديرة المشرفة على النجف، دير مارث مريم، دير قديم من بناء آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب، وفيه يقول الثرواني:[(٢)]

بمارث مريم الكبرى وظل فنائها فقِف
فقصر أبي الخصيب المشرف الموفي على النجف

ويبدو أن النجف كانت مسرحاً للوقائع الحربية في أثناء الفتوحات الإسلامية، وقد نزل فيها القائد خالد بن الوليد وقواده الذين شاركوا في فتح منطقة الحيرة، وبالقرب من النجف الأشرف دارت المعركة الفاصلة في تاريخ الفتوحات الإسلامية، تلك هي معركة القادسية، في آخر سنة ١٦ هـ[(٣)]. والقادسية بين الكوفة والعذيب، وقد انتصر المسلمون في تلك الوقعة المشهورة، انتصاراً عظيماً، وفتحوا السواد، وفي ذكر تلك الوقعة الحاسمة، قال بشر بن ربيعة بن عمرو الخثعمي:

ألم خيال من أميمة موهناً وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها حجازية أن المحل شطير
فزارت غريباً نازحاً جل ماله جواد ومفتوق الغرار طريرُ
وحلّت بباب القادسية ناقتي وسعد بن وقاص عليّ أمير
تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قُدَيْس والمَكَرّ ضرير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم يعار جَنَاحَيْ طائر فيطير[(٤)]

(١) ياقوت: ج ٤ ص ١٠٧ ويذكر الشابشتي في الديارات ص ١٥٢ (وقصر أبي الخصيب هذا أحد متنزهات الدنيا وهو مشرف على النجف.
(٢) ياقوت ج ٢ ص ٦٩٢.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٥٢ وما بعدها ط بيروت ـ دار الهلال.
(٤) ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ٨٠٧.

ويصف القعقاع بن عمرو التميمي المعارك الطاحنة كما يذكر القتلى في قوله:

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة وأخرى بأثباج النجف الكوانف[١]
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً وبالثنى قرني قارن بالجوارف[٢]

والنجف في اللغة، مكان لا يعلوه الماء مستطيل منقاد ويكون في بطن الوادي وقد يكون ببطن من الأرض، جمعه «نجاف» والنجف محركة، التَلُّ وقشور الصليان[٣]، وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها[٤].

إن أهم القبائل التي كانت تُحوِّل في أطراف الحيرة والنجف هي قبيلة تغلب التي هاجرت بعد حرب البسوس في أيام عمرو بن هند[٥]، وكذلك قبيلة بكر ومن أشهر فروعها قبيلة شيبان، وكانت لهذه القبيلة الأخيرة مواقف مشهورة وقد انتصرت مع حليفاتها القبائل العربية على الجيوش الساسانية في مؤقعة ذي قار[٦].

وقد أصبحت منطقة النجف ضمن الأراضي التي تم فتحها بأيدي المسلمين، وبنيت الكوفة سنة سبع عشرة للهجرة، كما مر بنا سابقاً، واستمرت هذه المدينة ولاية مهمة من ولايات الدولة الإسلامية حتى سنة ٣٦ هـ، ففي هذه السنة قدم إليها الإمام علي بن أبي طالب (ع) بعد فراغه من موقعة الجمل، وأقام فيها، وأضحت الكوفة عاصمة للخلافة الإسلامية مدة أربع سنوات.

وفي الحادي والعشرين من رمضان سنة ٤٠ هـ ٦٦١ م توفي الإمام علي (ع) متأثراً من جرحه أثر الضربة التي أصابه بها أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وقام بدفنه أولاده وأعضاء أسرته المقربون سراً في النجف، وطوال الحكم الأموي لم يشيد لمدفنه الشريف ضريح، وإنما كان التقاء وزيارة العلويين لقبره هو الذي

---

(١) وردت المقطوعة كاملة في ص ٢٣٢ من هذا المجلد.
(٢) الطبري ج٤ ص ١٢ وابن الأثير /٢ ص ١٦٧.
(٣) القاموس المحيط ج٣ ص ٣٠٤ راجع ترتيب القاموس مادة «نجف» ط بيروت.
(٤) ياقوت ج٤ ص ٧٦٠.
(٥) الكامل ج١ ص ٢٩٩.
(٦) الطبري ج٢ ص ١٤٧ وابن الأثير ١ ص ٢٨٥.

شخص مدفنه حتى زال الحكم الأموي[١].

ونتيجة للأخبار التاريخية تعتبر عمارة هارون الرشيد العباسي أول عمارة للقبر الشريف، وبداية الدفن في منطقة النجف، ونزول الناس ذلك المكان تبركاً بالراقد الكريم.

وعقبت عمارة الرشيد، عمارة محمد بن زيد بن محمد بن الحسن العلوي الحسني، صاحب طبرستان والديلم الذي ولي الامرة بعد وفاة أخيه الحسن بن زيد سنة ٢٧٠ هـ[٢]. فقد بنى على قبره الشريف قبة[٣].

وممن اشتهر أنه عني في بناء قبة على القبر الشريف وجعلها مرتفعة الأركان من كل جانب لها أبواب وسترها بفاخر الستور وفرشها بثمين الحصر السامان، أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي[٤] المقتول سنة ٣١٧ هـ ٩٢٩ م[٥].

ولعل أجل العمارات وأهمها تلك التي قام بها الملك البويهي عضد الدولة، وأنه صرف أموالاً طائلة وعمر المشهد عمارة جليلة[٦]، والتي ظلت حتى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وكان قد ستر الحيطان بخشب الساج المنقوش، فاحترقت تلك العمارة، وجددت عمارة المشهد على ما هي الآن[٧].

وتمصرت النجف واتسع نطاقها بعد ذلك وحين زارها الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٧ هـ ١٣٢٦ م قال عنها: أنها مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً واتقنها بناء، ولها أسواق حسنة نظيفة[٨]. ومما جاء في وصفه

---

(١) يراجع بخصوص زيارة الأئمة وكبار رجال العلويين للمرقد الشريف كتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد، وفرحة الغري لابن طاووس.

(٢) الطبري: ج ١١ ص ٣٧٠. ابن الأثير: ج ٦ ص ٥٥.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح النهج ج ٢ ص ٤٥. ابن طاووس: فرحة الغرى ص ١١٠.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٤٠.

(٥) ابن الأثير: حوادث سنة ٣١٧ هـ.

(٦) الديلمي: إرشاد القلوب ج ٢ ص ١٤٨.

(٧) ابن عنبة: عمدة الطالب ص ٦٣.

(٨) رحلة ابن بطوطة: ج ١ ص ١٩٨.

للروضة الطاهرة قوله: «ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم، ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون: عن أمركم يا أمير المؤمنين، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فإن أذنتم وإلا رجع وإن لم يكن أهلاً لذلك، فأنتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة»[1].

ومما جاء في وصف ابن بطوطة لأهلها قوله: «وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وإنما يحكم عليهم نقيب الأشراف وأهلها تجار يسافرون في الأقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم، صحبتهم في الأسفار فحمدت صحبتهم»[2].

والروضة المقدسة التي في وسطها القبر الشريف، مربعة الشكل، طول ضلعها ثلاثة عشر متراً وأرضيتها مفروشة بالرخام الإيطالي المصقول والجدران إلى علو حوالي المترين، مغطاة بالرخام ذي اللون البديع، وما يعلو تلك الصخور فقد كسيت الجدران جميعاً بالمرائي الملونة والزخارف الهندسية البديعة وبالفسيفساء ذات الأشكال الجميلة، ومن الجدير بالذكر أن شاه إيران الحالي محمد رضا بهلوي، هو الذي أمر بوضع المرايا وتزجيج الروضة الحيدرية على نفقته الخاصة، وقد بلغت كلفتها ١٢,٠٠٠ دينار، والذي قام برسم وتنظيم هذه المرايا الفنان الإيراني «حسين كيانفر» بمعمارية الحاج سعيد المعمار .

(١) رحلة ابن بطوطة: ج ١ ص ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) المرجع السابق: ص ١٩٩.

وفي وسط الحضرة القبر الشريف الذي ضم البدن الطاهر وقد وضع عليه صندوق من الخشب الساج المرصع بالعاج المنقوش عليه بعض الآيات القرآنية، محاط بشباكين، الأول مما يلي الصندوق الخشبي من الحديد الفولاذ والثاني من الفضة وقد كتبت في أعلاه أبيات من قصيدة ابن أبي الحديد، التي يقول في أولها:

يا رسم لا رسمتك ريح زعزع وسرت بليل في عراصك خروع

وأبيات من قصيدة السيد الحميري والتي مطلعها:

لأم عمرو باللوى مربع طامسة أعلامه بلقع

وتعلو القبر الشريف قبة جميلة واسعة مرتفعة من قاعدة الروضة المقدسة إلى ٣٥ متراً ومحيط قاعدتها ٥٠ متراً وقطرها حوالي ١٦ متراً، وللقبة ١٢ شباكاً، وهي مزينة بالقاشاني وما تحت الشبابيك بحوالي المتر، زينت الجدران بأشكال مختلفة من المرايا البديعة[1]

(١) وقد كتب في جانب من زخارف التزجيج هذان البيتان باللغة الفارسية وبتوقيع الشاه محمد رضا بهلوي:

كردر حرمت آينه كاري كردم كاري نه سزاي شهسر ياري كردم
تاجلوة حق ببينم از طلعت تو دربيش رحت آينه داري كردم

وقد نقلها جعفر الخليلي إلى العربية بالشعر على هذه الصورة:

أنا إن زينت هذا المرقد ـ الـ طاهر الشامخ قدراً ـ بالمرايا
لم تكن هذي هداياي فمن أنا كي أهدي لعلياك الهدايا
إنما زججتها مصقولة تعكس الضوء وتستجلي الخفايا
كي أرى طلعتك الغرّا بها من بعيد وترى الحق البرايا

ومن خلف الرواق على جهة (الساباط) تقع الخزانة التي تضم أنفس الأحجار الكريمة وما ندر من الهدايا الفنية الثمينة من سيوف وخناجر انفردت في الدنيا من حيث قيمتها وقد بنيت هذه الخزانة بأحكام وسدت أبوابها خشية امتداد الأيدي إليها، وعند زيارة ناصرالدين شاه في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري للنجف رأت الحكومة العثمانية أن تجعل فتح هذه الخزانة له من باب التكريم والحفاوة ففتحت ثم اغلقت بعد ذلك وبنيت، وفي الوزارة الهاشمية اقترح صالح جبر وقد كان متصرفاً للواء كربلاء على الحكومة فتحها وتعيين لجنة لاحصاء كنوزها ففتحت وسجلت جميع محتوياتها، وفي سنة ١٩٣٤ زار آغا أوغلو أستاذ التأريخ الاسلامي بجامعة مشيغن النجف واقترح على العلماء الموافقة بفتح الخزانة وجعلها متحفاً عاماً وتعهد بأن تحمل جامعة مشيغن على التبرع بإرسال خبراء يصنفون هذه التحف ويثمنونها لعرضها على الناس فعارض السيد أبو الحسن الاصفهاني وكان المرجع الأكبر يوم ذاك تخوفاً من العبث وامتداد الأيدي.

وللروضة المطهرة ستة أبواب والباب الأول يقع في وسط الإيوان الذهبي وقد نصب في حدود سنة ١٢١٩ هـ وهو من آثار الحاج محمد حسين خان الأصفهاني الصدر الأعظم، وقد استبدلت هذه الباب، بباب ذهبية مطعمة بالميناء والأحجار الكريمة، متقنة الصنع، رائعة المنظر، قام بعملها وصياغتها أمهر الصاغة في إيران، وفي أعلى الباب الرئيس كتابة نصها: قال الرسول ﷺ: (علي مع الحق ولن يفترقا حتى يردا على الحوض).

والباب الثاني والثالث اللذان يدخل منهما إلى الرواق إلى الحرم المطهر فالذي يكون على يمين الداخل إلى الحرم نصب سنة ١٢٨٣ هـ في زمن السلطان عبد العزيز، وكان الباذل لنفقته لطف علي خان الإيراني، والباب الذي على يسار الداخل إلى المرقد الشريف نصب سنة ١٢٨٧ هـ أيام زيارة ناصر الدين القاجاري، وفي سنة ١٣٧٦ هـ قلعا وأبدلا ببابين ذهبيين جميلين رائعين، امتازا ببديع الصنعة والاتقان وكان الباذل لنفقتها المحسن الحاج محمد تقي الاتفاق الطهراني وبمسعى السيد محمد كلانتر.

وفي أعلى الباب كتابات هذا نصها:

قال الرسول ﷺ: أنا مدينة العلم وعلي بابها ـ الحق مع علي وعلي مع الحق. علي حبه جنة. قسيم النار والجنة. وصي المصطفى حقاً، يا علي، إمام الإنس والجنة.

وفي داخل الحرم بابان فضيان عند الرأس الشريف، أحدهما من جهة الشمال نصب سنة ١٣١٦ هـ وكانت الباذلة لنفقته بنت أمين الدولة زوجة علي شاه، ونصب الآخر سنة ١٣١٨ هـ وكان الباذل لنفقته الحاج غلام علي المسقطي، ونصب في الرواق باب سادس محلى بالذهب سنة ١٣٤١ هـ وموقعه قبال باب الصحن الشريف القبلي، بذلت مصروفاته والدة الحاج عبد الواحد الحاج سكر زعيم آل فتلة[1].

أما الصحن الشريف فيبلغ طول ضلعيه الشرقي والغربي ٨٤ م وطول ضلعه

(١) جعفر محبوبة: ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٨٢. محمد علي التميمي: مشهد الامام ج ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

الشمالي ٧٤ م والجنوبي ٧٥ م وفي كل ضلع من ضلعيه الشمالي والشرقي خمسة عشر إيواناً وفي كل من ضلعيه الغربي والجنوبي أربعة عشر إيواناً وفي كل إيوان حجرة هي مقبرة أحد المشاهير وقد شيدت هذه الحجرات لتكون مأوى لطلاب العلم، أما الآن فقد أشغلت من قبل قراء القرآن الكريم على المدفونين في تلك الحجر.

وللصحن الشريف خمسة أبواب، الباب الكبير وهو من جهة الشرق ويعتبر الباب الرئيسي للروضة الحيدرية، وهو قبالة سوق النجف المشهور بالسوق الكبير، والباب الثاني من جهة الشمال ويعرف بباب الطوسي نسبة إلى شيخ الطائفة أبي جعفر محمد الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ، وهذا الباب يؤدي إلى شارع الطوسي وفيه مسجد الطوسي الذي يضم قبر الشيخ الطوسي رحمه الله. والباب الثالث المعروف بباب القبلة، وقد عرف بهذا الإسم لوقوعه باتجاه القبلة في الجهة الجنوبية من الصحن، والباب الرابع يقع في جهة الغرب، فتح في أيام السلطان عبد العزيز العثماني سنة ١٢٧٩ هـ ويعرف بالباب السلطاني[١]، والباب الخامس وهو باب على مقربة من الباب الكبير.

وفي مشهد الإمام علي (ع) دفن الكثير من الشخصيات الإسلامية البارزة من علماء وسلاطين وملوك ووزراء، تبركاً بالمكان المقدس وتقرباً من المرقد الشريف الطاهر، ومن المشاهير الذين دفنوا بالقرب من الضريح الشريف الأمير البويهي عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٣ هـ[٢]، كما دفن الأمير شرف الدولة بن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٩ هـ[٣]، وممن دفن في (المشهد) من ولاة البويهيين بمنطقة الجبل وهمذان والدينور وبروجرد ونهاوند وأسد آباد، بدر بن حسنويه، وكان مشهوراً بالشجاعة

---

(١) فتح هذا الباب على يد شبلي باشا وهو درزي عربي من لبنان وقد بلغ منصب الولاية وله في العراق تاريخ حافل فارخ الشيخ محسن الخضري فتح هذا الباب بقوله:

«لقد فتح الشبلي لحيدرة باباً» وارخ غيره بقوله: «اثر الشبلي على باب الأسد» وارخ الشيخ عباس الشيخ حسن بقوله: «جلّت علت باب سلطان السلاطين» وقد خطّىء هذا التأريخ لتأنيثه الباب خلافاً للقاعدة؛ ومع ذلك فهنالك بين جميع هذه التواريخ اختلاف في حساب السنة لعل مرجعه عدم ضبط النصوص التأريخية في النقل موسوعة العتبات (المدخل) ص ٩٩.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٢٠.

(٣) المرجع السابق ج١ ص ١٤٩.

والسياسة والعدل[1]، وهناك العدد الكبير من الأمراء والوزراء البويهيين الذين دفنوا بالمشهد الطاهر.

ودفن في المشهد الشريف، الشيخ حسن الكبير الجلايري المتوفى سنة ٧٥٧ هـ والأمير قاسم، شقيق السلطان أويس المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ودفن في جوار والده الشيخ حسن الجلايري[2].

ودفن الشاه عباس الأول الصفوي في الرواق تحت القبة المقدسة التي منها يدخل الداخل إلى الحرم الشريف من جهة رجلي الإمام علي (ع)[3].

ونقل إلى النجف الأشرف جثمان السلطان محمد القاجاري المتوفى سنة ١٢١١ هـ ودفن في الرواق من جهة الشمال بالقرب من منبر الخاتم، وتعرف هذه الحجرة اليوم بحجرة السلاطين، كما نقل إلى النجف جثمان الملك كيومرث ميرزا الملقب بملك آراء ابن السلطان فتح علي القاجاري المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ، كذلك نعش السلطان محمد حسن خان ونعش الملك حسين قلي خان ودفنوا في النجف الأشرف[4].

ودفن في الإيوان الكبير، الملاصق للرواق وفي حجر الصحن عدد كبير من كبار العلماء المسلمين منهم: المولى أحمد بن محمد المقدس الأردبيلي المتوفى سنة ٩٩٠ هـ والشيخ أحمد بن إسماعيل بن عبد النبي الجزائري المتوفى سنة ١١٥١ هـ والشيخ محمد علي بن الحاج محمد حسن الخونساري المتوفى سنة ١٢٥٤ هـ، والسيد محمد مهدي بن السيد مرتضى بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ هـ والشيخ مرتضى الأنصاري، والسيد أسد الله الأصفهاني أو الرشتي[5] والملا كاظم الخراساني المعروف

---

(١) المرجع السابق ج ٧ ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) محبوبة ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٢٤٢ نقلاً عن روضة الصفا ج ٥ ص ١٧١.

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٤ نقلاً من منتخب التواريخ ص ١٢٩.

(٤) محبوبة: ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٢٤٤ أقول: هناك اختلاف يسير بين هذا الكلام وبين ما ذكره محبوبة. فراجع.

(٥) والسيد أسد الله هو الذي انفق على مد النجف بمياه الشرب عن طريق القناة ثم تغلبت المواد المعدنية على عذوبة الماء فصار مالحاً بعد ذلك.

(بالأخوند)، والسيد محمد سعيد الحبوبي[١]، والشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة[٢]، والميرزا النائيني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ ومدفنه في الحجرة الواقعة على الجانب الأيسر بالنسبة للداخل إلى الصحن من الباب الكبير. وفي الحجرة الأولى التي على يسار الخارج من باب الطوسي يرقد عدد من العلماء الكبار أمثال محمد باقر القمي المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ، وفي الحجرة الواقعة ما بين مدخل الساباط وباب الصحن المؤدي إلى سوق العمارة، يرقد الشيخ ضياء الدين العراقي المتوفى سنة ١٣٦١ هـ.

ومن مشاهير من دفن في النجف شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي[٣] المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ودفن في داره بوصية منه.

أما عدد الملوك والأمراء والراجات الذين دفنوا في الرواق والصحن الشريف والغرف المحيطة بالصحن فإنه كبير جداً.

وفي المدينة عدد غير قليل من مقابر المشاهير من الروحانيين والوجهاء وكبار رجال الأدب، كمقبرة الشيخ جعفر الكبير، ومقبرة صاحب الجواهر، ومقبرة الشيخ خضر شلال، ومقبرة الحاج ميرزا حسين الخليلي، ومقبرة آل القزويني، وآل بحر العلوم ومقبرة المامقاني، ومدفن الشيخ أحمد كاشف الغطاء، وآل الشيخ راضي، والشيخ عبد الكريم الجزائري[٤].

وتعتبر مقبرة النجف المعروفة (بوادي السلام) من أوسع المقابر في العالم، وتأريخ هذه المقبرة قديم قدم التعرف على مرقد الإمام علي بن أبي طالب (ع). وتعتبر من

(١) والحبوبي أول عالم روحاني سل السيف في وجه الانكليز في الحرب العظمى الأولى وأفتى بالجهاد ووجوب الحيلولة دون احتلال الانكليز العراق، وهو المعروف بذلك الطراز الفني من الشعر الذي انفرد به في عصره.

(٢) وشيخ الشريعة هو الذي خلف الميرزا محمد تقي الشيرازي بطل الثورة العراقية والذي أفتى بوجوب المطالبة بحق العراق من الحرية والاستقلال.

(٣) ويعتبر الشيخ الطوسي المؤسس الأول لمدرسة النجف العلمية وإليه يعزى تنظيم أول الحلقات الدراسية للعلوم الدينية وسائر العلوم التي كان يعنى بها طلاب الدين كثيراً.

(٤) سيخصص لمقابر النجف والمدفونين بها جزء مستقل خاص من (قسم النجف) من الموسوعة يضم أوسع تأريخ عرف عن هذه المقابر.

أقدس وأطهر الأماكن لدفن المسلم في نظر المسلمين عامة والشيعة منهم بشكل خاص[1]، وتقع هذه المقبرة الواسعة في شمال مدينة النجف، وتمتاز تربتها بأنها رملية ناعمة نقية، وتحتها بحوالي ٢٠ ـ ٢٥ سم طبقة صخرية متكونة من صخور رملية قوية تسمح لحفر اللحود فيها بصورة عمودية، وتمتاز أرض المقبرة بالجفاف التام باعتبارها جزءاً من الهضبة الصحراوية الجافة، ولنقاوتها وجفافها، فهي تكون خالية تماماً من العفونة ومن أي رائحة غير طيبة ـ قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي يمدح الواثق العباسي ويذكر النجف وتربتها التي يصفها بالمسك أو العنبر، في قصيدته التي مطلعها: ـ

يا راكب العيس لا تعجل بنا وقف

والذين هاج (وادي السلام) ـ مقبرة النجف الكبرى شاعريتهم كثيرون وقد يكون من الصعب الإحاطة بأسمائهم سواء من المتقدمين أو المتأخرين ومن هؤلاء المتأخرين الشيخ علي الشرقي، ومحمد علي الحوماني، وعبد المنعم الفرطوسي، ومحمد الخليلي، وحميد فرج الله وغيرهم.

* * *

وجاء في كتاب (البادية) بخصوص موقع النجف الأشرف، ما نصه[2]:

(١٣) طريق النجف ـ الشبكة (المسافة ١٧٥ كيلو متراً)

يسير هذا الطريق من النجف محاذياً الطار وسط المزارع حتى ينتهي إلى

---

(١) وعلى هذا الأساس يجري نقل الجنائز من مختلف أنحاء البلدان الشيعية ودفنها في النجف بقصد المثوبة، وقد وقعت اختلافات بين علماء الدين في نقل هذه الجنائز من الأماكن البعيدة واعتبر بعضهم مثل هذا النقل محرماً بداعي انتهاك حرمة الميت فأحدث هذا الاختلاف ضجة كبيرة وقاد الحملة على هذا النقل السيد محمد علي هبة الدين الشهرستاني، وهو من كبار المجتهدين وجمع فتاوى العلماء الذين أيدوه في تحريم النقل في كتاب مستقل، أما النقل الذي لا يطرأ بسببه ما يخل بحرمة الميت من تعفن الجثة والتفسخ فلم يقل أحد بتحريمه.

(٢) ص ١٣٣ ـ ١٣٤ تاليف الأستاذ السيد عبد الجبار الراوي.

(الرحبة)[١] التي تبعد عن النجف كيلو متراً. وقد أصلحت مديرية الأشغال العامة هذا الطريق، ولكن السير فيه مع هذا صعب ولا سيما في موسم الشتاء. وتغمره مياه الفيضان في أغلب السنين. ومن الرحبة إلى (برچة[٢] زبيدة) مسافة ١٢ ـ ١٤ كيلو متراً. ومن الرحبة أيضاً يتجه الطريق نحو (أم كرون[٣]) التي تظهر فيها آثار قصر قديم، وبها برك، والمسافة ١٢ ـ ١٤ كيلو متراً أيضاً. ومنها إلى (أم عيشة) مسافة ١٥ كيلومتراً. وهي بركة قديمة. ومنها إلى بركة حمد (الحمّام) والمسافة ١٣ كيلو متراً، وفيها بئر أقامت عليها مديرية الأشغال العامة مضخة يدوية لامتياح الماء من عمق ٨٥ متراً، وماؤها غزير عذب. أما الطريق من الرحبة إلى الحمّام، فلا بأس به. ومن الحمّام يتجه الطريق نحو (بركة مسيحب) في منطقة بين الوعورة والسهولة مسافة ١٣ ـ ١٤ كيلو متراً ثم يتجه نحو (برك طليحان)، وفي الطريق حجارة منبثة هنا وهناك، والمسافة ١٣ ـ ١٤ كيلو متراً. ومنها إلى (بركة العميّة)، والمسافة تقارب المسافة السابقة. أما الطريق ففيه حجارة أيضاً. ثم يتجه الطريق ـ وبه وعورة قليلة ـ نحو (السجر)، وهو شعيب أرضه سهلة ذات آبار كثيرة جداً، وتتحول هذه المنطقة في الربيع إلى بساط أخضر بهيج، والمسافة ١٣ ـ ١٤ كيلو متراً. والطريق من السجر إلى الشبكة سهل جداً، وتقدر المسافة من النجف إلى الحمّام بـ ١٢٠ كيلو متراً، ومن النجف إلى الشبكة ١٧٥ كيلو متراً.

والشبكة أرض سهلة تكثر فيها الآبار كما في السجر، ولا يزيد عمق الواحدة منها على المتر ونصف المتر، وماؤها على شيء من العذوبة في الأغلب. وقد يكون بعضها عذباً. وغزارة الماء أو قلته تتبع ـ بطبيعة الحال ـ كثرة الأمطار وقلتها.

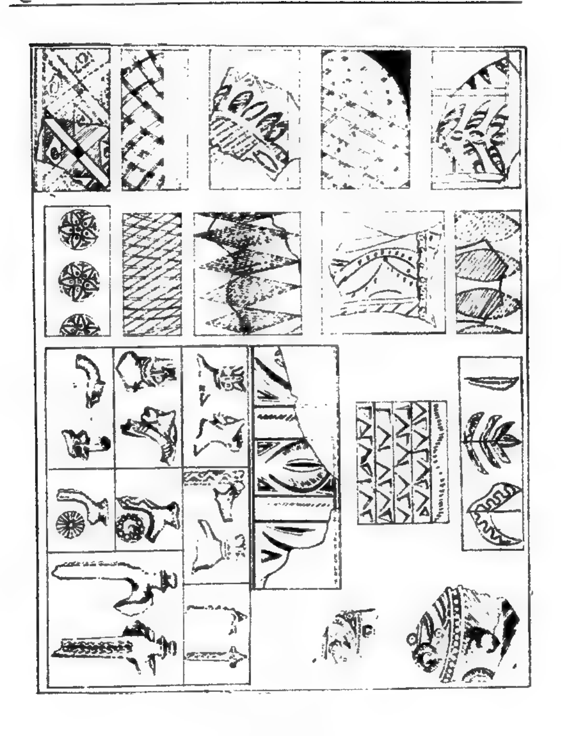
---

(١) الرحبة: قديمة حذاء القادسية وعلى مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة، وقد خربت الآن (معجم البلدان) بكثرة طروق العرب لها، لأنها في ضفة البر ليس بعدها عمارة.(معجم البلدان) مادة «رحاء».

(٢) أي (بركة) وينطقونها بالجيم الفارسية؟.

(٣) ينطقونها بالكاف الفارسية ولعلها (أم قرون)؟.

يقول صاحب كتاب سكردان السلطان بهامش كتاب المخلاة أن السلطان ملكشاه السلجوقي كان مولعاً بالصيد إلا أنه كان كلما قتل صيداً تصدق بدينار وأنه لما خرج من الكوفة لتوديع الحاج صادف في طريقه وحشاً كثيراً فبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظبا التي صادها والمنارة باقية إلى الآن تعرف بمنارة القرون.



نقوش وقبصات فخار



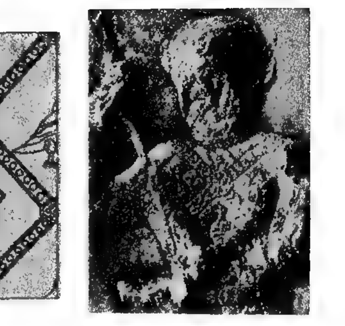
مدينة الكوفة في التاريخ

وآثار الحيرة فيها

بقلم

الحاج عبد المحسن شلاش(*)

(*) مستل من (مجلة الاعتدال) النجفية، ع ٥ س ٢ ص ٢٠٩ - ٢١٣.







رسوم جدارية من آثار الكوفة



عبد المحسن بن الحاج عبود النجفي المتوفى ١٣٦٧/ ١٩٤٨. من الشخصيات الأدبية ورجال المال. تولى الوزارة غير مرة وحاز على لقب رئيس من الحكومة الإيرانية. وستوافيك ترجمته في قسم البيوتات. . .

مدينة الكوفة في التاريخ

الكوفة في التأريخ: قال ابن حوقل: «مدينة الكوفة قريبة من مدينة الكبر. هواؤها أصح، وماؤها أعذب، واقعة على الفرات وهي محط لقبائل إلا أنها خراب بخلاف البصرة، لأن ضياع الكوفة قديمة جداً قبل الإسلام البصرة أحياء موات الإسلام».

وفي معجم البلدان: ـ الكوفة بالضم المصر المشهور، وروى عن ـ سميت الكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب، رأيت كوفان (بضم الكاف للرميلة المستديرة، وَقيل لاجتماع الناس بها إلى غير ذلك من الأسباب والـ الكلبي: ـ [سميت لجبل كان في وسطها يقال له كوفان، قلت قد تسمى ـ الخ].

وفي المحيط (للفيروز آبادي): ـ «الكوفة مدينة العراق الكبرى وقبة ودار هجرة المسلمين، مصرها سعد بن أبي وقاص، وكانت قبلاً منزل نـ السلام) وَبنا مسجدها المعظم، سميت بذلك لاستدارتها واجتماع الناس بـ لها كوفان وكوفة الجند لأنه اختطت فيها خطط العرب، خططها السائب بن الثقفي هذا ملخص ما قيل في التأريخ عن الكوفة وكوفان وقد سماهـ علي (ع): «سنام العرب».

قلت: إذا كانت الأقوال المنقولة بأن الكوفة إنما سميت بالكوفة لاست للرميلة المستديرة؛ أو لوقوع جبل كان في وسطها.. الخ هي الوجوه الوحـ التسمية فإن ما قد تبين لنا من نتيجة الفحص والتتبع في هذا الباب حيث وجـ البقعة الرملية الواقعة على جانب الفرات الغربي كأنها جبل متكوف من الرمال بخلاف الأراضي المحيطة به حيث ترتفع ارتفاعاً بيناً بالتدريج يبلغ إلى ستة

متراً تقريباً مما يلي النجف عن شاطىء الفرات وهو الذي تحده من الجنوب بحيرة النجف المنخفضة وَمن الشرق منخفضات أراضي المشخاب والشامية التي تقطنها اليوم قبائل آل فتلة وآل إبراهيم وآل زياد ومن الشمال مقاطعات زراعية منخفضة تقطنها قبائل بني حسن (أراضي الهندية) ومن الغرب منخفضات طف كربلاء.

نعم! قلت لا ريب من أن اسم كوفان كان يشمل هذه البقعة المرتفعة الرملية المستديرة بحدودها المارة. التي تقدر مسافتها طولاً مائة وخمسين كيلو متراً تقريباً تبدأ من المرتفعات الرملية الواقعة في حصة الخزاعل ومنتهى نهر شلال الذي هو من منازل آل فتله في المشخاب والمعروفة اليوم بعرفهم الحاضر (حصوة شلال) أو (أم خشم) التي تأتي متسلسلة بارتفاعاتها الرملية إلى قضاء أبي صخير، ثم إلى الخورنق والنجف على الخط الغربي حتى تصل طف كربلا وأما متوسط عرضها اليوم فيقدر بـ (٢٥) كيلو متراً، ولا نعتقد بأن هذا هو القدر الحقيقي نظراً لما تبين من التغيرات في مجاري الفرات من وقت لآخر حيث صارت بمرور العصور تتقرب إلى الجبال وترتفع على ضواحيها وتجعلها صالحة للزراعة، كما شاهدنا أمثال ذلك في عصرنا الحاضر في حصوة شلال المارة الذكر وبعض أراضي الهندية.

ولنا من الأدلة الشرعية ما يؤيد حدود كوفان نظراً لما ورد في الجزء العاشر من البحار عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال لولده الحسين (ع) بأبي المقتول على ظهر كوفان، والمفروض أن المقتول في أكناف طف كربلاء وهذا ما يحملنا أيضاً الإعتقاد بأن ظهر كوفان ربما كان يمتد إلى غربي طف كربلاء حيث أن هذا السنام المرتفع من الرمال المتحجرة كان يرافق أراضي الطفوف الواقعة غربي طف كربلاء؟ كطف هور أبو دبس وما يجاوره غير أن الذي يشتهر على الألسن وكان عليه بعض أئمة التأريخ أن إسم الكوفة يرجع إلى بدء الفتح الإسلامي سميت به إشارة إلى تكوف الجنود العربية فيها، وَإلى هذا المعنى وغيره، أشار في القاموس بقوله: (سميت بذلك لاستدارتها واجتماع الناس فيها)، قلت: (وربما لوقوعها على أرض كوفان المارة الذكر). إذ أن التأريخ حدث عن موقع مدينة الحيرة قبل الإسلام على ظهر الكوفة، بما يدلنا على اتساع رقعتها وانبساط هذا الإسم على بقعة من أرض كوفان تشمل

حدودها موقع الكوفة الحادث بعد الإسلام ويؤيد قول المؤرخين ما تنطق به الآثار الباقية، التي كنا قد عنينا بها للفحص والتتبعات الأثرية عناية دقيقة لهذا الموضوع.

لقد تبين لنا أن مدينة الحيرة السابقة والكوفة اللاحقة أسماء لمدينة واحدة تتقلب في أدوار التأريخ بين هذه المواضع التي أطلقت عليها هذه الأسماء اليوم والتي تجتمع كلها على إسم حيرة العرب فترى من ذلك أن هذا الإسم العربي القديم إنما يشار به إلى بقعة تأريخية مقدسة واسعة الأطراف في عهد المناذرة وغيرهم قبل الإسلام ومطمح أنظار العرب بكل أدوار التأريخ وكوفة الجند للإسلام.

وأما النجف فهو جزء من حيرة العرب، وقد أضحى في الصدر الأول للإسلام مرقداً للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بواديها (الغري)..

آثار الحيرة والكوفة

ولعل أقرب ما يكون دلالة على سعة أطراف الحيرة في العهد القديم وانبساط حدودها على آثار الكوفة الحاضرة. هذه الآثار بين الأنقاض المندرسة الواقعة شرقي النجف على مسافة أربعة آلاف متراً تقديراً بطريق أبي صخير والمسماة بأراضي «كنيدرة»[1] بعرف العوام اليوم، كما يظهر ذلك في معجم البلدان، إذ يقدر المسافة بين النجف وآثار الحيرة بثلاثة أميال.

نعم قد شاهدت هذه الآثار شرقي النجف تبتديء من محلها الواقع على ضفة الطف المنخفض متجهة نحو الشمال حتى تتصل بآثار كوفة الجند، وتمتزج بها، ومنها جامع الكوفة الكبير الذي يبعد عن النجف بمقدار ٨٥٠٠ متراً تقريباً، ثم تتوجه نحو الشرق إلى القرب من نهر السدير المعروف اليوم بـ (كرى سعده) وتتوجه نحو الغرب بخط مستقيم تقديره ستة كيلو مترات إلى القرب من مقبرة الحيرة القديمة [تل الثوية] الذي فيه مرقد كميل بن زياد والذي يبعد عن النجف بمسافة قدرها ثلاثة كيلو مترات شمالاً.

ومما يزيد بوضوح الدلالة على ما تقدم هو وجود آثار المناذرة التأريخية من القصور والمباني، وترعهم وأقنيتهم الأرضية القديمة المنصبة في البحيرة بالقرب من هذه

الآثار، كنهر السدير وَقصر النعمان، الذي يبعد عن بدء آثار الكوفة الحادثة على عهد الإسلام بمسافة تقديرها ستة كيلو مترات وعن بدء آثار مدينة الحيرة بمسافة قدرها أربعة كيلو مترات، وَعن النجف (١٢) كيلو متراً تقريباً.

إن مطلق الأرقام المارة التي قدرناها لآثار الحيرة القديمة بما فيها المقابر والساحات الخالية بين القصور الكبيرة لا نعتقد كثيراً بأنها من الجهة الشمالية هي مساحتها الحقيقية لاتصالها بآثار الكوفة المستحدثة على عهد الإسلام، بل إن هنالك ما يحملنا على الظن القوي بأن آثار المدينة القديمة قبل الإسلام هي ذات مساحة أوسع مما قد بيناه بالتقدير فإنها تمتد من جهة الشمال إلى حد لا يمكننا معرفته بالضبط. إذ قلنا بأن الكوفة بنيت على جانب مهم من آثار الحيرة القديمة مؤيدين هذا القول بالتتبعات الأثرية...

ومما حدثنا به بعض المنقبين للأحجار القديمة في آثار الكوفة، من أنهم كانوا يعثرون أثناء التنقيب على آثار يظهر عليها القدم المتمادي بحيث أنهم صاروا يسمونها (الكوفة القديمة) بعرفهم الحاضر وذلك لعدم علمهم في تأريخ الحيرة.

وليس معنى هذا إلا أن الحيرة كانت ذات سلطان على هذه الأرض وأنشئت فيها جميع مقتضيات العمران وازدهرت فيها الحياة ثم اندثرت على ممر العصور بسبب الحروب التأريخية والوقائع التي كان من شأنها فساد النظام في الري، كما تكرر ذلك بعد خراب مدينة الكوفة التي تمصرت في عهد الإسلام وأصبحت كما نرى آثارها اليوم إذ ليس فيها سوى ما يدل على عظمتها من آثارها الخالدة في جوامعها الخطيرة وقصور إماراتها الفخمة وغير ذلك الخ.

فآثار الكوفة التي رأيناها بالتتبع هي شاسعة الأطراف مترامية النواحي، تبدأ من الغرب من شمال جامع سهيل الكبير الواقع بالقرب من ضفة نهر سعد، وتتمشى نحو الشرق على الضفة اليسرى للنهر المذكور من مسافة ٧ كيلو مترات تقريباً وتبدأ من الجنوب الغربي على ضفتي نهر سعد مما يلي خط النجف الحديدي وتنتهي شمالاً إلى ما وراء مقاطعات الناجية وأراضي آل مواش وآلبو حداري بخط يقدر طوله ستة كيلو مترات تقريباً. على أن هذه الحدود الشمالية كانت ولا تزال لا تخلو من الصخور والأحجار وآثار المباني المتراكمة تحت الحقول الزراعية والأنهر الحادثة مجاريها بخلاف

وضع الري القديم حسبما يظهر. وعلى كل كنت أقدر المساحة السطحية لآثار مدينة الكوفة بما لا يقل عن (٥٠) كيلو متراً مربعاً تقريباً وَعلى هذا القياس ربما كنت أستطيع تقدير عدد الدور والمساكن التي كانت عامرة فيها طبقاً لقواعد العمران الاعتيادية بالتقديرات التقريبية إلى مائة ألف دار عدا آثار القصور الخارجة عن المدينة وبعض الأرياف والقرى المجاورة لها وَيؤيد هذا التقدير ما ورد عنها في تأريخ ابن جرار وعلى هذا لا نستكثر إذا قلنا أن النفوس التي كانت تقطن المدينة زمن ازدهارها ربما كانت تنوف على مليون نسمة تقريباً طبقاً للقواعد التقديرية التي كنا نعللها أثناء الفحص. وَلا نستكثر ذلك حيث أنها كانت حين ذلك أكبر عاصمة عربية في الشرق تحكم جزيرة العرب وبلاد فارس ومصر وغيرها من البلدان الخاضعة للإسلام.



(أ) نقش من الستوق وجد في غرفة من التل ـ الحيرة



(ب) قطعتان من ستوق

وجاء في كتاب (دليل النجف الأشرف)[١].

موقع النجف وعدد نفوسها:

تقع مدينة النجف على حافة الهضبة الصحراوية الغربية من العراق، التي عند نهايتها تقوم الحدود العراقية السعودية، فتشغل بحكم موقعها الجغرافي الطبيعي ما بين السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية.

أما عدد نفوس النجف فيبلغ حسب إحصاء عام (١٩٥٧) (٩٠٨١١) نسمة.

سطحها:

أ - (طبيعة صخورها):

أما الصخور السطحية لمنطقة النجف فهي عبارة عن صخور رملية، أغلبها مغطى بطبقة خفيفة من تربة رملية، وهي تعد من أماكن الهضبة الصحراوية الحافلة بـ (رمل الزجاج).

ب - (طبيعة السطح):

تتصل جهات النجف بالسهل الرسوبي، فهي - إذن - من حافة الهضبة تنحدر نحو الشرق أي باتجاه النهر. أما من جهة الغرب فتنحدر أرض النجف انحداراً مباشراً (الطارات أو الحافة) لتتصل ببحرها أو بحيرتها، ثم تبدأ أرضها بالإرتفاع باتجاه النهر.

ويرتفع سطح النجف عموماً ما يقارب (٧٠) متراً عن سطح البحر.

جـ - (بحر النجف):

ويوجد على حافة الهضبة الصحراوية في الجنوب الغربي لمدينة النجف منخفض يسمى (بحر النجف) أخذاً من إسمه التاريخي حينما كان مجرى لسفن النقل الشراعية قديماً، وقبل أن يتحول إلى بحيرة من أهوار حافات الهضبة الصحراوية التي كانت مناطق لتصريف مياه الهضبة ومياه الفرات.

---

(١) تأليف الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي ص ١٣٨٥ هـ.

وهذه البحيرة ـ المشار إليها والتي تسمى جغرافياً (بحيرة النجف) ـ قد جفت وأصبحت أرضاً زراعية، وذلك بسبب تصريف مياه الأنهار وجداول الري عنها.

وقد شق جدول ري في هذا المنخفض تابع لسدة الهندية على نهر الفرات التي تم إنشاؤها سنة (١٩١٣م)، وتقدر مساحة الأراضي المجاورة له بـ(٨٠/ ٠٠٠) دونم، ومجموع الأراضي التي يسقيها فعلاً بـ (٣٩/ ٠٠٠) دونم.

ويقال: إن هذا المنخفض تكون بسبب هبوط حدث في هذا الجزء من القشرة الأرضية.

مناخها:

أما مناخ النجف فصحراوي قاري.

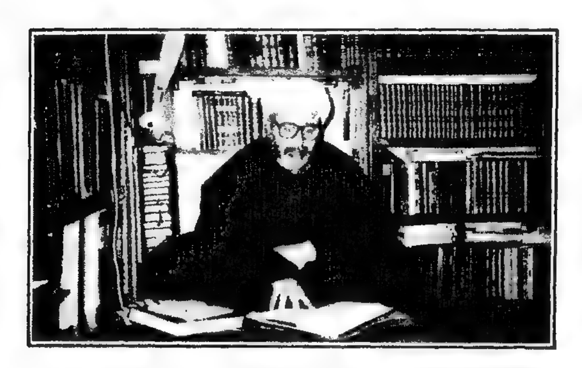
نباتها الطبيعي:

لا تحتوي النجف شيئاً يذكر من النبات الطبيعي وذلك لأنها تقع على حافة الصحراء، ومتى فتشنا عن ذلك لا نجد سوى بعض الأشواك المتناثرة في بعض جوانبها.

الجانب الاقتصادي:

ومن الناحية الاقتصادية فتعتمد النجف على التجارة بما تعرضه في أسواقها لسد طلب الزوار والسواح الأجانب، وطلب المناطق المجاورة لها، وبما تصدره من الغلال الغذائية إلى البادية وبعض مناطق الجزيرة العربية، ويعود ذلك إلى عاملين رئيسيين هما:

١ ـ العامل الديني: وتفيد منه النجف عن طريق الزوار الذين يؤمونها في مواسم كثيرة من السنة من داخل العراق ومن خارجه، فقد قدر أنه «يدخل العراق سنوياً حوالي ١٠٠/ ٠٠٠ إيراني لزيارة العتبات، كما يجيء عدد كبير من أفغانستان وباكستان لنفس الغرض، ولا ينكر ما لهذه الزيارات من أثر في نشاط التجارة وغيرها من خدمات كإعداد مساكن لهؤلاء الزوار»، بالإضافة إلى ما يعد بعشرات الألوف سنوياً من زوار المملكة العربية السعودية وإمارات الخليج العربي.



٢ ـ الموقع الجغرافي: حيث تقع مدينة النجف ـ كما تقدم بين السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية، وهما منطقتان تختلفان في الإنتاج.. وتفيد منه النجف عن طريق تكوينها منفذاً للتجارة الخارجية بين العراق والمملكة العربية السعودية، فقد شكلت بهذا مركزاً ثانوياً من مراكز تجمع طرق المواصلات، ومركزاً تجارياً بين العراق وبادية الجزيرة العربية ومناطقها القريبة منها.

ومدينة النجف ـ بالإضافة إلى ما تقدم ـ تشتهر بالمعامل اليدوية للنسج، ومعامل صنع البديات (أجسام السيارات)، ومعامل تصليح السيارات، وصنع الأحذية، وصياغة الذهب.

***

وجاء في مجلة (العرفان)[1]:

قضاء النجف

النجف بلدة واسعة واقعة على رابية مرتفعة وفوق أرض رملية فسيحة، تطل من الجهتين الشمالية والشرقية على مخيم واسع اسمه ـ وادي السلام ـ فيه القباب الكثيرة والقبور العديدة، وتطل من الجهتين الأخريين على بحر النجف اليابس ويشاهد القادم إليها على بعد مسافة بعيدة الضريح المقدس تتجلى فوقه قبة فخمة كأنها قطعة من الذهب الإبريز تناطح الجوزاء علواً وتفاخر السحاب سمواً، وفي ركنيها مأذنتان مرتفعتان مصفحتان بقطع الذهب تؤثران في النفوس أثراً بليغاً.

والبلدة محاطة بسور فخم تصدّعت قطع كبيرة منه بعد ثورة عام ١٩٢٠م ولها سوق كبيرة مستقيمة تبتدىء من سور المدينة الشرقي وتنتهي عند الصحن الشريف، فالواقف على باب البلد يرى داخل الحضرة الشريفة بكل سهولة.

هواء صيفها حار يابس وشتاؤها بارد قارس وعندما تشتد الحرارة في الصيف يلتجىء سكانها إلى أسراب منحوتة نحتاً يبلغ متوسط عمق الواحد منها عشرين متراً، وقد يخرج بعضهم إلى المزارع والبساتين التي تبعد عن البلدة ميلاً واحداً تطلباً لنقاوة الهواء، وقد أحصت الحكومة نفوسها أخيراً فكانوا (٤٥٠ , ٣٠) نسمة.

والذي يؤسف له كثيراً بعد البلدة عن الفرات، ومعلوم أن الماء سبب حياة البشر وقد حفرت للنجف ترع ونهيرات كثيرة بغية إيصال المياه إليها، غير أن ما يجري فيها من الماء لا يسد حاجة الأهلين فضلاً عن الزائرين الذين يقصدون هذه المدينة المشرفة مئات وألوفاً، فقد دلت الإحصاءات الرسمية على أن متوسط عدد الزائرين للنجف في المواسم المخصوصة يتجاوز الـ (٤٠٠,٠٠٠) نسمة، والهمة مبذولة اليوم لربط النجف بالكوفة بأنابيب تدفع المياه إلى النجف دفعاً، فإذا تم ذلك في الحقيقة فستسعد النجف سعداً كبيراً وسيتبدل موقفها الحاضر بحال خطير ربما عاد على العراق بالنفع الجزيل.

---

(١) المجلد ٦١ العدد/ ٥ ص ٤٩٧ ـ ٥٠٤، بحث عن لواء كربلاء، اقتطفنا منه ما يختص بالنجف.

والنجف في العراق اليوم وقبل اليوم، كالأزهر في مصر، فكما أن الأزهر يخرج الآلاف من العلماء والجهابذة في كل سنة، كذلك النجف فإنها تخرج من العلماء والأساتذة في العالم ما لا يمكن أن تخرجه أية بلدة عراقية أخرى.

وهي بلدة قديمة عربية كانت مصيفاً للمناذرة، وبعد نقوض تلك الدولة ودفن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيها، تقدمت العمارة فيها وبذل عضد الدولة البويهي أموالاً طائلة لتشييد العمارة الجسيمة حول المشهد المشرّف ثم انتقل إليها أرباب الصنائع والحرف وابتدأت تتقدم عمرانياً بانتعاش الشيعة في القرن الرابع للهجرة، ومنذ ذلك الحين ذاع صيتها في الآفاق وقصدها طلاب العلم والعرفان واشتهرت في التاريخ، وللنجف أسماء: منها النجف والمشهد والغري، وسبب تسميتها بالغري له حكاية تاريخية طريفة، تلخيصها أن المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء أمر بقتل نديمين له وهو في حالة سكره، فلما صحا ورآهما قتيلين سأل عن السبب فأجيب عما أمر به، فغمه ذلك كثيراً وأمر بأن يقام طربالان عليهما ـ والطربال بناء كالصومعة ـ ثم قال ـ (ما أنا بملك إن خالف الناس أمري لا يدخل أحد من وفود الرب إلا بينهما) ثم جعل له في السنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه (فيغرى) الطربالان بدمه ويحسن يوم نعيمه إلى كل من يلقاه، ومنذ ذلك الحين عرفت النجف بالغري فلما قتل الأمير(ع) ودفن فيها استمر التعمير وتطور حتى أصبحت بما هي عليه اليوم كما قدمنا.

* * *



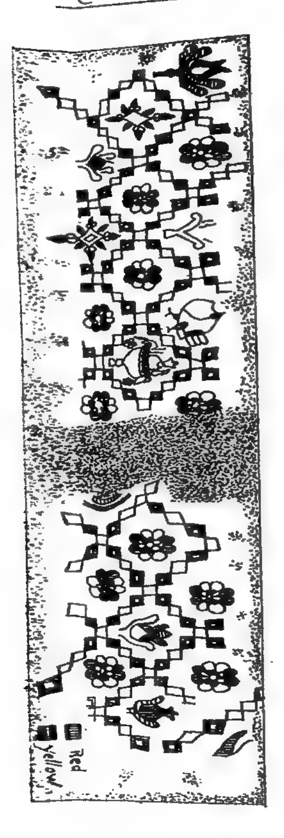
الدكتور مصطفى جواد

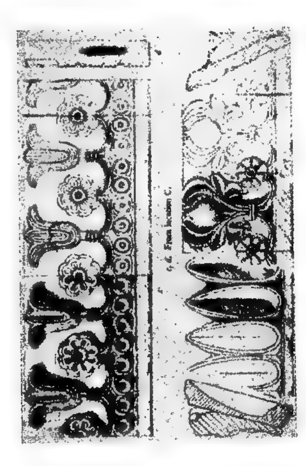


النجف قديما

بقلم الدكتور مصطفى جواد(*)

(*) الدكتور مصطفى بن جواد التركماني البغدادي ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩١٠ ـ ١٩٧٠م كان والده خياطاً في الكاظمية مات ولم يزل الدكتور مصطفى صبياً، فأدخله أخوه كاظم المدرسة الجعفرية ببغداد، فأظهر قابلية مدهشة بالنسبة لسنه ونمت مداركه الفطرية وتوسعت نوافذها فسار بتفوق للأمام وعرفته الأوساط العلمية والأدبية، وسافر إلى الخارج وواصل دراسته، وبعد أن عاد بدأت تحقيقاته العلمية تحل من نفوس المحققين والباحثين في الأقطار العربية والإسلامية، وما لبث أن عرفته هذه الأقطار علماً من أعلام القرن العشرين في اللغة وفي التاريخ الإسلامي تخرج من جامعة السوربون في التاريخ العربي، وعين أستاذاً بجامعة بغداد ـ كلية التربية. وانتخب عضواً في المجمعين العلميين العراقي، والسوري. وترك تآليف وكتب كثيرة.






رسوم جدارية من آثار الكوفة

النجف قديماً[١]

النجف إسم عربي ومعناه «المنجوف» كالعدد بمعنى المعدود، قال ابن فارس: «النون والجيم والفاء: أصلان صحيحان أحدهما يدل على تبسط في شيء مكان أو غيره، والآخر يدل على استخراج شيء، فالأول النجف: مكان مستطيل منقاد ولا يعلوه الماء والجمع نجاف، ويقال: هي بطون من الأرض في أسافلها سهولة تنقاد في الأرض لها أودية تنصب إلى لين من الأرض، ويقال لابط الكثيب نجفة الأرض.

ومن الباب النجيف من السهام: العريض، ونجفت السهم: بريته، كذلك وأصلحته، وسهم منجوف ونجيف وغار منجوف واسع[٢]...». وقال الجوهري في الصحاح: «النجف والنجفة بالتحريك: مكان لا يعلوه الماء مستطيل منقاد والجمع نجاف...» وأورد بعد ذلك كبعض ما نقلنا آنفاً، وقال الزمخشري في أساس البلاغة: «وفي بطن الوادي نجفة ونجف وهي مكان مستطيل كالجدار لا يعلوه الماء»، وجاء في لسان العرب «النجفة أرض مستديرة مشرفة والجمع نجف ونجاف... ابن سيده: النجف والنجاف شيء يكون في بطن الوادي، شبيه بنجاف الغبيط جنداً وليس بجد عريض، له طول منقاد من بين معوج ومستقيم الماء، وقد يكون في بطن الأرض... والنجفة شبه التل... وقال الليث: النجفة تكون في بطن الوادي شبه جدار ليس بعريض... ابن الأعرابي النجفة: المسناة، والنجف التل. قال الأزهري: والنجفة التي بظهر الكوفة وهي كالمسناة تمنع ماء السيل أن يعلو منازل

---

(١) مستل من (موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم النجف) ج١/ ٩ ـ ٦٤.

(٢) المقاييس «٥: ٣٩٥ طبعة دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٩هـ.

الكوفة ومقابرها»، وقال الفيروز آبادي في القاموس: «النجف محركة، وبهاء (النجفة) مكان لا يعلوه الماء مستطيل منقاد، ويكون في بطن الوادي، وقد يكون ببطن من الأرض جمعه نجاف أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها، والنجف محركة: التل... والمسناة ومسناة بظاهر الكوفة تمنع ماء السيل أن يعلو مقابرها ومنازلها». وقال المطرّزي في المغرب: النجف بفتحتين كالمسناة بظاهر الكوفة على فرسخين منها يمنع ماء السيل أن يعلو منازلها ومقابرها[1]، ومنه قول القدوري: «كان الأسود إذا حج قصر من النجف وعلقمة من القادسية».

وقال ياقوت في معجم البلدان: «النجف بالتحريك... وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها، وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد ذكرته الشعراء في أشعارها... «وقال أبو الفداء في وصف الحيرة: «والحيرة مدينة جاهلية كثيرة الأنهار وهي عن الكوفة على نحو فرسخ... والحيرة على موضع يقال له النجف زعم الأوائل أن بحر فارس كان يتصل به، وبينها اليوم مسافة بعيدة»[2].

وفذلكة الأقوال أن النجف إنما سمي بهذا الإسم لأنه يعني أرضاً عالية معلومة تشبه المسناة تصد الماء عما جاورها وينجفها الماء من جوانبها أيام السيول ولكنه لا يعلوها فهي كالنجد والسد، وتغلب على شكلها الاستطالة دون الاستدارة التي أشار إليها بعض اللغويين، لأنها ضد الإستطالة، ولأن صفة النجف الحالية في استطالة أرضه تؤيد ذلك، وأما الاستدارة التي ظنها بعض اللغويين في «النجف» فهي مستندة إلى استدارة قطعة تكون في النجف اتفاقاً لا دوماً وتسمى «الرحا» جاء في لسان العرب «والرحا: قطعة من النجفة مشرفة على ما حولها تعظم نحو ميل والجمع ارحاء، وقيل: الإرحاء قطع من الأرض غلاظ دون الجبال تستدير وترتفع عما حولها، ابن الأعرابي: الرحا من الأرض مكان مستدير غليظ يكون بين رمال. قال ابن شميل: الرحا القارة الضخمة الغليظة وإنما رحّاها استدارتها وغلظها وإشرافها على ما حولها

---

(١) نقل هذا القول الشيخ فخر الدين الطريحي في كتابه «مجمع البحرين» في مادة «النجف».
(٢) تقويم البلدان «ص ٢٩٩».

وأنها أكمة مستديرة مشرفة ولا تنقاد على وجه الأرض ولا تنبت بقلاً ولا شجراً، وقال الكميت:

إذا ما القف ذو الرحيين أبدى محاسنه وأفرخت الوكور».

وقال الفيروزأبادي في القاموس: «الرحا: الصدر... وقطعة من النجفة مشرفة تعظم نحو ميل».

ومما يؤيد ارتفاع أرض النجف ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني أن حنيناً الحيري المغني القائل:

أنا حنين ومنزلي النجف وما نديمي إلا الفتى القصف

لما حج هشام بن عبد الملك سلك طريق الفرات ـ وأحسبه جاء من الرصافة ـ فوقف له حنين بظهر الكوفة ومعه عود وزامر له وعليه قلنسوة طويلة، فقال هشام: من هذا؟ فقيل: هذا حنين الحيري. فأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره وسير به أمامه وهو يتغنى، فلم يزل هشام يستعيده حتى نزل من النجف فأمر له بمائتي دينار[1]. فقوله: «حتى نزل من النجف» يدل على أنه نزل من أرض عالية كائناً ارتفاعها ما كان[2].

وسميت هذه الأرض المتعادية[3] التي منها النجف «النجاف» وكأنه جمع النجفة، وهي التي تلي الصحراء ويقابلها مما يلي الفرات «الملطاط» قال ابن قتيبة: «وكانت العرب تقول: ادلع البر لسانه في الريف فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط وما كان يلي البطن منه فهو النجاف» وقال ياقوت: «اللسان من أرض العراق في كتابه

(١) الأغاني «ج ٢ ص ٣٤٢، ٣٤٣ طبعة دار الكتب المصرية».

(٢) وهنالك من الأخبار التي توردها بعض الكتب الدينية والتي يتناقلها الناس خبر عن بحر النجف وهو أنه كان يسمى ببحر (الني) فلما جف (الني) على حد قولهم قالوا (الني جف) ثم ما لبثت الياء أن سقطت في الاستعمال تخفيفاً فصارت (نجفاً) ومن هنا جاء اسم (النجف) ومثل هذا الخبر أو الرواية التي أوردتها بعض الكتب يفتقر إلى كثير من الأدلة لتصبح مقبولة. ج. خ

(٣) الأرض المتعادية هي المتفاوتة التي لم تستو، ضد الأرض المتقاودة.

الفتوح... واللسان لسان البر الذي أدلعه في الريف عليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم، قالوا: لما أراد سعد تمصير الكوفة أشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان. وظهر الكوفة يقال له اللسان وهو فيما بين النهرين إلى العين: عين بني الجرّاء، وكانت العرب تقول: أدلع البرّ لسانه في الريف، فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط وما كان يلي البطن منه فهو النجاف قال عديّ بن زيد.

ويح أمٍّ دار حللنا بها   بين الثوية والمردمه
بريّة غرست في السّوادِ   كغرس المضيغة في اللهزمه[1]
لسان لعربية ذو ولفة   تولغ في الريف بالهندمةْ»

وقال السهيليُّ في وصف دومة الحيرة: «ودومة بضمّ الدال... ودومة بالضمّ أخرى وهي عند الحيرة ويقال لما حولها النجف[2]». وقال القعقاع بن عمرو:

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة   وأخرى بأثباج النجاف الكوائن

وقيل أن النجف كان قريباً من البحر وذكر ابن الدبيثي في تاريخه أن عبد الجبار بن معيّة العلويّ قال: «خرج قوم من أهل الكوفة يطلبون الأحجار الغروية يجمعونها لأيام الزيارات والمعيشة بها، وبالكوفة من يعمل ذلك إلى اليوم وأبعدوا في الطلب إلى النجف وساروا فيه حتى خافوا التيه فوجدوا ساجة كأنها سكان مركب عتيقة وإذا عليها كتابة، فجاؤوا بها إلى الكوفة، فقرأناها فإذا عليها مكتوب: سبحان مجري القوارب، وخالق الكواكب، المبتلي بالشدة امتحاناً، والمجازي بالإحسان إحساناً، ركبت في البحر في طلب الغنى ففاتني الغنى وكسر بي، فأفلتّ على هذه الساجة، وقاسيت أهوال البحر وأمواجه، ومكثت عليها سبعة أيام ثم ضعفت عن مسكها فكتبت قصتي بمدية كانت معي في خريطتي فرحم الله عبداً وقعت هذه الساجة إليه فبكى لي، وامتنع عن مثل حالي»[3]

---

(١) والملحوظة في هذين البيتين اختلال في الوزن قيل أنه كان مستساغاً في عصره. ج.خ

(٢) ذيل تاريخ بغداد «من مصورة جزء كمبريج ٢٩٢٤ الورقة ١٥٧».

(٣) الروض الأنف: «٢: ٣١٩ المطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م».

وعلى ذكر قرب النجف من البحر ودعوى صحة قصة الفريق المذكور ينبغي توجيه ذلك أو نفيه، فكيف كان البحر يبلغ النجف، أو يتصل بأرضه المطمئنة وفي أخبار الحيرة في صدر الإسلام ما يؤيد وجود البحر هناك، فقد ذكر الشريف المرتضى التحاور بين خالد بن الوليد وعبد المسيح بن بقيلة الغساني، قال له خالد فيما قال: «كم أتى لك؟ قال: خمسون وثلاثمائة سنة، قال: فما أدركت؟ قال: أدركت سفن البحر في السماوة في هذا الجرف، ورأيت المرأة تخرج من الحيرة وتضع مكتلها على رأسها لا تزوّد إلا رغيفاً حتى تأتي الشام ثم قد أصبحت خراباً يباباً وذلك دأب الله في العباد والبلاد[1].

قال ابن واضح في كتابه البلدان في الكلام على الكوفة: «والحيرة منها على ثلاثة أميال، والحيرة على النجف والنجف كان ساحل بحر الملح وكان في قديم الدهر يبلغ الحيرة وهي منازل آل بقيلة وغيرهم[2].

وأريد بالبحر أحياناً الفرات نفسه، جاء في لسان العرب في مادة ب ح ر وقال عدي بن زيد:

وتذكر رب الخورنق إذا أشـ ـرف يوماً وللهوى تذكير
سره ماله وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضاً والسدير

أراد بالبحر ههنا الفرات لأن رب الخورنق كان يشرف على الفرات».

وقال ياقوت في كلامه على الحيرة: «زعموا أن بحر فارس كان يتصل بالنجف[3]».

وقال المسعودي: «وقد كان الفرات لأكثر من مائة ينتهي إلى بلاد الحيرة ونهرها بيِّنٌ إلى هذا الوقت فيصب في البحر الحبشي في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت تتقدم هناك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك الحيرة، وقد ذكر ما قلنا

(١) أمالي الشريف المرتضى «١ : ١٨٨ الطبعة الأولى».
(٢) البلدان «ص ٧٣، ٧٤. طبعة النجف».
(٣) معجم البلدان في «الحيرة».

عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني حين خاطب خالد بن الوليد في أيام أبي بكر بن أبي قحافة ـ رضي الله عنه ـ حين قال له: ما تذكر؟ قال: «أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون، فلما انقطع الماء عن ذلك الموضع انتقل البحر براً فصار من البحر في هذا الوقت على مسيرة أيام كثيرة ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا[١].

وسيأتي قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

حُفَّت ببر وبحر من جوانبها فالبرُّ في طرف والبحر في طرف[٢]

ولكننا لا نعد ذلك تصديقاً لوجود بحر حقيقي، وإنما نفهم أن الفرات كان يسيح ماؤه في تلك البطاح ويرفده الخندق الذي شقه سابور ذو الأكتاف «٣١٠ ـ ٣٨٠م» في غربي الفرات بين أعالي العراق الغربية وأسافله، وترفده كذلك الأودية التي تأتي من النجاد الغربية من صحراء السماوة القديمة من شمالي جزيرة العرب، فتكون بطائح واسعة ترى كأنها البحر وكان من بقاياها «بحر الشنافية» و «بحر النجف» المعروف الإسم حتى اليوم[٣]، ولا يبعد اتصال هذه البطائح ببحر فارس، كما نقل ياقوت من زعم الناس في مادة الحيرة من معجم البلدان، قال: «الحيرة بالكسر ثم السكون مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا أن بحر فارس كان يتصل به» فخندق سابور كان واسعاً وعميقاً ويتصل ببحر فارس في الخليج المعروف اليوم بخور عبد الله، لأنه إنما حفره ووسّعه ليحمي بلاده من هجمات العرب الخاطفة ولا خصاب الأرض للأعراب الموالين له[٤].

---

(١) مروج الذهب: «١: ٦٢» طبعة المطبعة البهية بمصر.

(٢) الأغاني «٥: ٣٥٦» من مطبعة دار الكتب المصرية. ومعجم البلدان في «النجف».

(٣) سيوافيك في آخر البحث الحديث عن (بحر النجف).

(٤) وقد وصف المستر بارلو هذا القسم من نهر الفرات كما شاهده في سنة ١٨٨٩م ١٣٠٦هـ فقال: إن النهر المسمى نهر الهندية يجري في الجهة اليمنى من الفرات وهو يحمل نصف مياه الفرات فيترك مدينة كربلاء على جهته الغربية، وأطلال بابل في الجهة الشرقية، ثم يصل إلى مدينة النجف فيصب هناك في بحيرة تسمى (بحر النجف) يبلغ طولها ٦٠ ميلا وعرضها ٣٠ ميلا، (نفس المصدر).

والمياه بعد أن تتجمع في بحر النجف تتغلب عليها المواد المعدنية وتغدو مياهها كمياه البحر مالحة وغير صالحة للإفادة منها ولكن هذا البحر كان خير طريق للمواصلات بين النجف وسائر الجهات العراقية، =

وهذا الماء المختلط المتبطح مذكور الخبر في السيرة، فقد جاء في أخبار عرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه على القبائل أن المثنى بن حارثة الشيباني قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «وقد سمعت مقالتك يا أخا قريش. . وإنا إنما نزلنا بين صريين اليمامة والسماوة» فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما هذان الصريان»؟ فقال: «أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول واما ما كان مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول»[1] وجاء في الفائق للزمخشري «لما أحضر (النبي) بني شيبان وكلم سراتهم قال له المثنى بن حارثة: إنا نزلنا بين صيرتين اليمامة والشمامة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وما هاتان الصيرتان؟ فقال: «أنهار كسرى ومياه العرب، نزلنا بينها»[2] قال الزمخشري: «الصيرة: فعلة من صار يصير وهي الماء الذي يصير إليه الناس ويحضرونه، ويقال للحاضرة مسيرة وقد صاروا إذا حضروا الماء[3]، وقال ابن الأثير المبارك: «في حديث عرض نفسه صلى الله عليه وآله وسلم على القبائل: وإنما نزلنا الصريين: اليمامة والسمامة. هما تثنية صرى وهو الماء المجتمع، ويروى الصيرين وسيجيء في موضعه». ثم قال: «وفي حديث عرضه على القبائل، قال له المثنى: إنا نزلنا بين صيرين اليمامة والسمامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هذان الصيران؟ فقال: «مياه العرب وأنهار كسرى»

= بل وحتى بين النجف وخارج العراق، فقد ذكر المستر بارلو أن أكثر الزائرين الذين يقدمون من الهند لزيارة الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف كانوا يسلكون طريق الفرات (فالعطشان) فشط (الشنافية) أن سفناً كبيرة ذات حمولة خمسين طناً تمر من هذا الطريق النهري الذي ينتهي بالنجف (وادي الفرات ومشروع سدة الهندية ج٢ ص ٢٦٥).

ومن المحاولات الأخيرة التي جرت في سد تلك الفتحات النهرية التي تتسرب منها مياه الفرات إلى بحر النجف محاولة وقعت سنة ١٣٠٥ ـ ١٨٨٧م وقد تم بها إحكام السدود وانقطاع المياه عن بحر النجف. وتحولت من هناك مراسي السفن إلى (الكوفة) التي أطلق عليها اسم (شريعة الكوفة) لهذا السبب، (المصدر السابق).

ولم تمر بضع سنوات حتى تدفقت المياه مرة أخرى من جانب (القرنة) وكانت أراضي البحر الجاف هذا قد استصلحت وزرعت، وأنتجت عدداً كبيراً من النخيل والأثمار وسدت حاجة النجف من الخضر، فغمرها البحر وقضى على جانب كبير من مزروعاتها الأمر الذي دعا إلى مضاعفة الجهود لإحكام هذه السدود في تلك المواضع من نهر الفرات. ومنذ أكثر من أربعين سنة وبحر النجف يجف نهائياً بسبب تقدم الفن الهندسي ومعالجة السدود معالجة فنية.

(١) الروض الأنف «١ : ٢٦٥».

(٢) الفائق «١ : ٥٩٠ طبعة القاهرة».

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر «٢ : ٢٦٣ و٣: ٨».

قال المبارك: «والصير: الماء الذي يحضره الناس وقد صار القوم يصيرون إذا حضروا الماء، ويروي بن صيرتين وهي فعلة منه..».

وإذ ذكرنا السبب في حفر سابور ذي الأكتاف الخندق العظيم المنسوب إليه نذكر ما يؤيده من تاريخ الطبري من أخبار هجوم العرب على أطراف المملكة الساسانية وتوغلهم فيها وإمعانهم في أقطارها.

قال أبو جعفر الطبري في أخبار ملوك الفرس الساسانيين تحت عنوان «سابور ذو الأكتاف»: «ثم ولد سابور بن هرمز بن نرسي بن بهرام... مملكاً بوصية أبيه هرمز له بالملك، فاستبشر الناس بولادته وبثوا خبره في الآفاق وكتبوا الكتب ووجهوا به البُرُد إلى الآفاق والأطراف، وتقلد الوزراء والكتاب الأعمال التي كانوا يعملونها في ملك أبيه، ولم يزالون على ذلك حتى فشا خبرهم وشاع في أطراف مملكة الفرس أنه كان لا ملك لهم (كذا) وأن أهلها إنما يتلومون صبياً في المهد لا يدرون ما هو كائن من أمره، فطمعت في مملكتهم الترك والروم، وكانت بلاد العرب أدنى البلاد إلى فارس وكانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من معايشهم وبلادهم لسوء حالهم وشظف عيشهم فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على إيرانشهر وسواحل أردشير خره وأسياف فارس وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ومعايشهم وأكثروا الفساد في تلك البلاد، فمكثوا على ذلك من أمرهم حيناً لا يغزوهم أحد من الفرس لعقدهم تاج الملك على طفل من الأطفال وقلة هيبة الناس له حتى تحرّك سابور وترعرع... حتى تمّت له ست عشرة سنة وأطاق حمل السلاح وركوب الخيل واشتد عظمه.. ثم انتخب ألف فارس من صناديد جنده وأبطالهم وتقدم إليهم في المضي لأمره ونهاهم عن الإبقاء على من لقوا من العرب والعرجة على إصابة مال ثم سار بهم فأوقع بمن انتجع بلاد فارس من العرب وهم غارون وقتل منهم أبرح القتل وأسر أعنف الأسر وهرب بقيتهم ثم قطع البحر في أصحابه فورد الخط واستقرى بلاد البحرين يقتل أهلها ولا يقبل فداءاً ولا يعرّج على غنيمة ثم مضى على وجهه فورد هجر وبها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس فأفشى فيهم القتل وسفك فيهم من الدماء سفكاً سالت كسيل المطر حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه منه غار ولا جبل ولا جزيرة في بحر ثم عطف إلى بلاد عبد القيس

فأباد أهلها إلا من هرب منهم فلحق بالرمال ثم أتى اليمامة فقتل بها مثل تلك المقتلة، ولم يمر بماء من مياه العرب إلاّ غوّره ولا جبّ من جبابهم، إلاّ طمّة ثم أتى قرب المدينة فقتل من وجد هنالك من العرب وأسر ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام فقتل من وجد بها من العرب وسبى وطم مياههم وأنه أسكن من بني تغلب من البحرين دارين واسمها هيج والخط، ومن كان عبد القيس وطوائف من بني تميم هجر ومن كان من بكر بن وائل كرمان وهم الذين يدعون بكر أبان، ومن كان منهم من بني حنظلة بالرملية من بلاد الأهواز وأنه أمر فبنيت بأرض السواد مدينة فسماها بزرج سابور وهي الأنبار[١]..».

وذكر الطبري بعد ذلك تملك لليانوس (يوليانس) في المملكة الرومية وحشده جموعاً من الروم والخزر ومن كان في مملكته من العرب ليقاتل بهم سابور وجنود فارس، وقال: «وانتهزت العرب بذلك السبب الفرصة من الانتقام من سابور وما كان من قتله العرب، واجتمع في عسكر لليانوس من العرب مائة ألف وسبعون ألف مقاتل، فوجههم مع رجل من بطارقة الروم بعثه على مقدمته يسمى يوسانوس... وإن من كان في عسكر لليانوس من العرب سألوه أن يأذن لهم في محاربة سابور، فأجابهم إلى ما سألوه، فزحفوا إلى سابور فقاتلوه ففضوا جمعه وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وهرب سابور فيمن بقي من جنده واحتوى لليانوس على مدينة طيسبون (المدائن) محلة سابور، وظفر ببيوت أموال سابور وخزائنه فيها، وذكر بعد ذلك استرداد سابور مدينة طيسبون وهزمه لجيوش ملك الروم ثم قال: وإن سابور ضري بقتل العرب ونزع أكتاف رؤسائهم إلى أن هلك وكان ذلك سبب تسميتهم إياه ذا الأكتاف. وذكر بعض أهل الأخبار أن سابور بعد أن أثخن في العرب وأجلاهم عن النواحي التي كانوا صاروا إليها مما قرب من نواحي فارس والبحرين واليمامة ثم هبط إلى الشام»[٢].

وقال الطبري: ثم استصلح (سابور) العرب وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوّج والأهواز. وهلك في عهد سابور عامله على

---

(١) الطبري «في تاريخ الأمم والملوك» ج٢ ص ٦٦، ٦٧ طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة».
(٢) المرجع المذكور ص ٦٨، ٦٩.

ضاحية مضر وربيعة امرؤ القيس البدء بن عمرو بن عديّ بن ربيعة بن نصر فاستعمل سابور على عمله ابنه عمرو بن امرىء القيس»[١].

خندق سابور ذي الأكتاف
«كري سعدة»

قال ياقوت الحموي: وخندق سابور في برية الكوفة، حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من شرهم، قالوا: كانت هيت وعانات مضافة إلى طسّوج الأنبار، فلما ملك أنو شروان (٥٣١ ـ ٥٧٩م) بلغه أن طوائف من الأعراب يغيرون على ما قرب من السواد إلى البادية، فأمر بتجديد سور مدينة تعرف بالنسر كان سابور ذو الأكتاف بناها وجعلها مسلحة تحفظ ما قرب البادية وأمر بحفر خندق من هيت يشق طفّ البادية إلى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون ذلك مانعاً لأهل البادية من السواد، فخرجت هيت وعانات بسبب ذلك الخندق، من طسوج شاه فيروز لأن عانات كانت قرى مضمومة إلى هيت»[٢].
وقال في المشترك: «وخندق سابور في برية الكوفة، كان سابور ذو الأكتاف أمر بحفره ليكون مانعاً للعرب من العيث في أرض السواد»[٣].

وقال صفي الدين بن عبد الحق في مراصد الإطلاع: «وخندق سابور في برية الكوفة، حفره سابور ملك الفرس بينه وبين العرب من هيئة[٤] يشق طف البادية إلى كاظمة مما يلي البصرة إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح[٥]». وهذا يعني أنه كان متصلاً بما يسمى خور عبد الله.

وقال ياقوت أيضاً: «والطف أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان

(١) المرجع المذكور «ص ٧٠».
(٢) معجم البلدان في مادة «خندق».
(٣) المشترك «١٦٠».
(٤) في نسخة «من هيت».
(٥) سيأتي فيما بعد هذا أن من مسالحه الحصن العظيم المعروف اليوم بالأخيضر، ومن مناظره القائمة اليوم «الموجدة».

مقتل الحسين بن علي - رضي الله عنه - وهي أرض بادية قريبة من الريف، فبها عدة عيون ماء جارية منها الصيد والقطقطانة والرهيمة وعين جمل وذواتها وهي عيون كانت للموكلين بالمسالح التي كانت وراء خندق سابور الذي حفره بينه وبين العرب وغيرهم، وذلك أن سابور أقطعهم أرضاً يعتملونها من غير أن يلزمهم خراجاً، فلما كان يوم ذي قار ونصر الله العرب بنبيه ﷺ غلبت العرب على طائفة من تلك العيون، وبقي بعضها في أيدي الأعاجم»[١]

وقال البلاذري: «قالوا: كانت عيون الطف من عين الصيد والقطقطانة وعين جمل وذواتها للموكلين بالمسالح التي وراء السواد وهي عيون خندق سابور الذي حفره بينه وبين العرب الموكلين بمسالح الخندق وغيرهم، وذلك أن سابور أقطعهم أرضاً فاعتملوها من غير أن يلزمهم لها خراجاً، فلما كان يوم ذي قار ونصر الله العرب بنبيه ﷺ غلبت العرب على طائفة من تلك العيون وبقي في أيدي الأعاجم بعضها ثم لما قدم المسلمون الحيرة هربت الأعاجم بعد أن طمست عامة ما في أيديهم منها وبقي الذي في أيدي العرب فاسلموا عليه وصار ما عمروه من الأرضين عشرياً»[٢].

ولا يزال تحقيق خندق سابور واضحاً في غربي النجف وموضع الحيرة وكربلاء ويعرف «بكري سعدة»[٣] ولا تزال قائمة من مسالح سابور ذي الأكتاف مسلحة عظيمة تعرف (بحصن الأخيضر) وهو مشيد في أرض بسيطة بين تلال وأطلال متعادية، وكأن الأرض التي أنشىء فيها كانت السهل الوحيد المؤدي إلى بلاد السواد لمن يقصدها من الفرسان، وكان الحصن هذا هو الذي حاصر خالد بن الوليد جنوده وحاميته، قال البلاذري: «قالوا وأتى خالد بن الوليد رجل دلّه على سوقة يجتمع فيها كلب وبكر بن وائل وطوائف من قضاعة فوق الأنبار فوجه إليها المثنى بن حارثة فأغار عليها فأصاب ما فيها وقتل وسبى ثم أتى خالد عين التمر فألصق بحصنها وكانت مسلحة للأعاجم عظيمة، فخرج أهل الحصن فقاتلوا ثم لزموا حصنهم فحاصرهم

(١) المراصد في مادة خندق.
(٢) فتوح البلدان «طبعة المطبعة المصرية ص ٢٩٦».
(٣) لا ندري من سعدة هذه التي نسب الخندق إليها وسيأتي في أخبار دير اللج بالحيرة قول إسماعيل بن عمار الأسدي: ما أنس سعدة والزرقاء يومهما فراغ باللج شرقية فوق الدكاكين.

خالد والمسلمون حتى سألوا الأمان، فأبى أن يؤمنهم وافتتح الحصن عنوة وقتل وسبى، ووجد في كنيسة هناك جماعة سباهم. . .»[١].

النجف
مصحة قديمة

وكان النجف ولا يزال كذلك طيب المناخ، عذي الأرض والهواء مصحة للأجسام العليلة، ومنجاة من الأمراض الوبيلة، وقد أيد ذلك الاختبار والأخبار والأشعار، ومن ذلك قول إسحاق بن ابراهيم الموصلي:

يا راكب العيس لا تعجل بنا وقف — نحي داراً لسعدى ثم ننصرف
لم ينزل الناس من سهل ولا جبل — أصفى هواءً ولا أعذى من النجف
حفت ببرّ وبحر من جوانبها — فالبرّ في طرف والبحر في طرف
وما يزال نسيم من يمانية — يأتيك منها بريّا روضة أنف
كأن تربته مسك يفوح به — أو عنبر دافه العطار في صدف[٢]

وقال الجاحظ: «هرب رجل من الطاعون إلى النجف أيام شريح، فكتب إليه شريح: أما بعد فإن الفرار لن يبعد أجلاً ولن يكثر رزقاً وإن المقام لن يقرب أجلاً ولن يقلل رزقاً وإن النجف من ذي قدرة لقريب»[٣].

وكان هذا فضولاً من شريح ـ رحمه الله ـ فلو أتبع قوله لم يستشف مريض ولا استوصف الأطباء، ولا شرب الدواء لدفع الأدواء، ولا أحسن السكن والغذاء، ومن أجل صفاء الماء والهواء وعذاوة الأرض بنى المناذرة قصرهم المشهور «الخورنق» قرب النجف، قال ياقوت الحموي: «الخورنق». الذي عليه أهل الأثر والأخبار أن الخورنق قصر كان بظهر الحيرة وقد اختلفوا في بانيه فقال الهيثم بن عدي: الذي أمر ببناء الخورنق النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي بن نصر بن الحارث بن لخم. .

---

(١) فتوح البلدان «ص ٢٤٨».
(٢) الأغاني «٣٥٦، ٣٥٧» وج٩ ص ٢٨٥ طبعة دار الكتب المصرية، ومعجم البلدان في رسم «النجف».
(٣) البيان والتبيين «٢ : ٢٠٣ طبعة مطبعة لجنة التأليف بمصر».

ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق في ستين سنة بناه له رجل من الروم يقال له سنمار. . وكان النعمان هذا قد غزا الشام مراراً وكان من أشد الملوك بأساً، فبينما هو ذات يوم جالس في مجلسه في الخورنق فأشرف على (النجف) وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار مما يلي المغرب وعلى الفرات مما يلي المشرق والخورنق مقابل الفرات يدور عليه على عاقول كالخندق فأعجبه ما رأى من الخضرة والنور والأنهار فقال لوزيره: أرأيت مثل هذا المنظر وحسنه؟ فقال: لا والله أيها الملك ما رأيت مثله لو كان يدوم. فقال: فما الذي يدوم؟ قال: ما عند الله في الآخرة. قال: فبم ينال ذلك؟ قال: بترك هذه الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده. فترك ملكه في ليلة ولبس المسوح وخرج مختفياً هارباً لا يعلم به أحد ولم يقف الناس على خبره إلى الآن». ثم ظهر تخليه من الملك ولحاقه بالنساك في الجبال والفلوات فما رؤي بعد ذلك ويقال إن وزيره صحبه ومضى معه، وفي ذلك يقول عدي بن زيد:

وتبينّ رب الخورنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سرّه ما رأى وكثرة ما يـ ـملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبـ ـطة حيّ إلى الممات يصير؟
ثم بعد الفلاح والملك والإمـ ـرة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

وقال ابن الكلبي: صاحب الخورنق والذي أمر ببنائه بهرام جور بن يزد جرد بن سابور ذي الأكتاف وذلك أن يزدجرد كان لا يبقى له ولد وكان لحق ابنه بهرام جور في صغره علة تشبه الاستسقاء فسأل عن منزل مريء، صحيح من الأدواء والأسقام ليبعث بهرام إليه خوفاً عليه من العلة فأشار عليه أطباؤه أن يخرجه من بلده إلى أرض العرب ويسقى أبوال الإبل وألبانها فأنفذه إلى النعمان وأمره أن يبني له قصراً مثله على شكل بناء الخورنق فبناه له وأنزله إياه وعالجه حتى برأ من مرضه ثم استأذن أباه في المقام عند النعمان فأذن له فلم يزل عنده نازلاً قصره الخورنق حتى صار رجلاً ومات أبوه فكان من أمره في طلب الملك حتى ظفر بما هو متعارف مشهور. . .».

وذكر كريستنسن في كتابه (إيران في عهد الساسانيين) في كلامه على سيرة

يـزدجرد وأبنـائه، قـال: «والمؤكد أن بهـرام كان يعيش في قصر الخـورنق بالحـيرة وهو القصر الذي ينسب بناؤه إلى النعمان اللخمي ولكن تاريخه يرجع بغير شـك إلى تاريـخ أقدم زماناً»(١). وتطرق هذا المؤلف في الصفحة ٤٤٢ إلى بناء سنمار للخورنق.

وذكر أبو بكر أحمد بن مروان المالكي، بسنده عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: «دخلت على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بالخورنق وعليه قطيفـة وهو يـرعد من البرد. فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل بنفسك هذا؟ فقال: إني والله لا أرزأ من أموالكم شيئاً وهذه القطيفة التي أخرجتها من بيتي (أو قال) من المدينة»(٢).

النجف والحيرة

الحيرة المدينـة العربيـة المشهورة في تـاريخ العـرب وجغرافيـة بلادهم أنشئت في منطقة النجف وكان ينبغي أن تضاف إليـه فيقال «حـيرة النجف» إلا أن العادة جـرت بتعريف الغامر بالعامر فأضيف النجف إلى الحيرة فقيل: «النجف الحاري» أي النجف الحيري، قال ياقوت: ولبعض أهل الكوفة:

ويـا (النجف الحاري) إن زرت أهله ... مهـاً مهمـلات مـا عليهن سـائس
خـرجن بحب اللهـو في غـير ريبـة ... عفـائف بـاغي اللهـو منهن آيس
يـردن إذا ما الشمس لم يخش حرّها ... ظـلال بسـاتـين جنـاهن يـابس
إذا الحـر آذاهـن لـذن بـفـيئـه ... كما لاذ بـالظل الظبـاء الكـوانس
لهن إذا مـا استعـرضتـهن عشيـة ... عـلى ضفـة النهـر المليـح مجـالس
يفـوح عليك المسـك منه وإن تقف ... تحـدث ولـيسـت بينهـن وسـاوس
ولـكن نـقيـات مـن اللؤم والخنـا ... إذا ابـتزعن أبشـارهن المـلابس(٣)

ويؤيد ذلك أن ياقوتاً الحموي قال في ذكر الحيرة: «... مدينة كانت على ثلاثة

(١) إيران في عهد الساسانيين «ص ٢٦٠ من الترجمة العربية ليحيى الخشاب».
(٢) المجالسة «نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٣٤٨١ الورقة ٥».
(٣) معجم البلدان في «النجف».

أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف»، وأن حنيناً الحيري المغني الذي ذكرناه آنفاً افتخر بأن منزله «النجف» في بيته المقدم ذكره:

أنا حنين ومنزلي النجف   وما نديمي إلا الفتى القصف

وقال بعده:

أقرع بالكأس ثغر باطية   مترعة تارة وأغترف
والعيش غضّ ومنزلي خصب   لم تغذني شقوة ولا عنف[1]

أما قول البحتري:

آمق الكوفة أرضاً وأرى   (نجف الحيرة) أرضاها وطن

فقد جرى فيه على العادة التي ذكرنا آنفاً، والحقيقة أن الحيرة هي (حيرة النجف) كما ألمعنا إليه من قبل.

مباني منطقة النجف ومآثرها

١ ـ الأكيراح. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: «أكيراح: بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وراء وألف مهملة... وهي في الأصل القباب الصغار، قال الخالدي: الأكيراح رستاق نزه بأرض الكوفة، والأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم، يقال لواحدها (كرح) بالقرب منها ديران يقال لأحدهما (دير مر عبدا) وللآخر (دير حنة) وهو وضع بظهر الكوفة...» وقال أبو عبيد البكري: في معجم ما استعجم: «الأكيراح: بضم أوله تصغير أكراح بالراء والحاء: موضع بالحيرة، وموضع أيضاً آخر بالبليخ يقال له الأكيراح ـ وإياه يعني ـ الأول ـ عن الحكمي بقوله: (يا دير حنة من ذات الأكيراح) وسيأتي ذكره في باب الديارات».

٢ ـ الغريان، قال ياقوت الحموي: «الغريان: تثنية الغري وهو المطلي بالغراء... والغري نصب كان يذبح عليه العتائر، والغريان طربالان وهما بناآن

(١) الأغاني «٢: ٣٤١ طبعة دار الكتب المصرية».

كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ . . بناهما المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء وكان السبب في ذلك أنه كان له نديمان من بني أسد يقال لأحدهما خالد بن نضلة والآخر عمر بن سعود فثملا فراجعا الملك ليلة في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيّين، فلما أصبح استدعاهما، فأخبر بالذي أمضاه فيهما، فغمه ذلك وقصد حفرتهما وأمر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان، فقال المنذر: ما أنا بملك إن خالف الناس أمري: لا يمر أحد من وفود العرب إلا بينهما، وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم، يذبح في يوم بؤسه كل ما يلقاه، ويغري بدمه الطربالين، فإن رفعت له الوحش طلبتها الخيل وإن رفع طائر أرسل عليه الجوارح حتى يذبح ما يعن ويطليان بدمه. ولبث بذلك برهة من دهره وسمى أحد اليومين (يوم البؤس) وهو اليوم الذي يقتل فيه ما ظهر له من إنسان وغيره، وسمى الآخر (يوم النعيم) يحسن فيه إلى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم[1] . . وجدت بخط أبي بكر السراج . . . مر معن بن زائدة بالغريين فرأى أحدهما وقد شعث وهدم فأنشأ يقول:

---

(١) روى المسعودي عن (الغريين) رواية على ضعف احتمال وقوعها فإن إيرادها هنا متمم للفائدة، جاء في الجزء الثاني من مروج الذهب صفحة ٢٥٢ من طبع المطبعة البهية بمصر ما يلي:
«روى ابن عياش أن المنصور كان قد ضم الشرقي بن القطامي إلى المهدي حين خلفه بالري وأمره أن يأخذ بحفظ أيام العرب ومكارم الأخلاق ودارسة الأخبار، وقراءة الأشعار، فقال له المهدي ذات ليلة يا شرقي ارح قلبي بشيء يلهيه، قال نعم أصلح الله الأمير: ذكروا أنه كان في ملوك الحيرة ملك يقال كان له نديمان قد نزلا من قلبه منزلة مكينة، وكانا لا يفارقانه في لهوه، ومنامه، ويقظته، وكان لا يقطع أمراً دونهما، ولا يصدر إلا عن رأيهما، فعبر بذلك دهراً طويلاً فبينا هو ذات ليلة في شربه ولهوه إذ غلب عليه الشراب فأزال عقله. فدعا بسيفه وانتضاه، وشد عليهما فقتلهما!! وغلبته عيناه فنام، فلما أصبح سأل عنهما فأخبر بما كان منه فأكب على الأرض عاضاً لها، متأسفاً عليهما، وجزعاً لفراقهما، وامتنع عن الطعام والشراب، ثم حلف لا يشرب شراباً يزعج قلبه ما عاش، وواراهما وبنى على قبريهما قبة وسماها (الغريين) وسن أن لا يمر بهما أحد من الملك فمن دونه إلا سجد لهما، وكان إذا سن الملك سنة توارثوها، وأحيوا ذكرها ولم يميتوها، وجعلوها عليهم حكماً واجباً، وفرضاً لازماً، وأوصى بها الأبناء أعقابهم، فغبر الناس بذلك دهراً طويلاً لا يمر أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما، فصار ذلك سنة لازمة كالشريعة والفريضة، وحكم فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يحكم لها بخصلتين يجاب إليهما كائناً ما كان، قال فمر يوماً قصار معه كارة ثياب وفيها مدقته، فقال الموكلون (بالغريين) للقصار أسجد، فأبى أن يفعل، فقالوا له: إنك مقتول إن لم تفعل، فأبى، فرفعوه إلى الملك وأخبروه بقصته، فقال: ما منعك أن تسجد؟ قال: سجدت ولكن كذبوا علي فقال: الباطل قلت، فاحتكم في خصلتين فإنك مجاب إليهما، وإني قاتلك، قال: لا بد من قتلي بقول هؤلاء؟ قال: لا بد من ذلك، قال: فإني أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتي هذه . . . قال له الملك: يا جاهل لو حكمت علي أن أجري على من تخلف وراءك ما =

لو كان شيء له أن لا يبيد على ... طول الزمان لما باد الغريان
ففرق الدهر والأيام بينهما ... وكل إلف إلى بين وهجران[١]

٣ ـ دير الحريق، قال ياقوت: «سمي بذلك لأنه أحرق في موضعه قوم ثم دفن فيه قوم من أهل من أحرقه هناك وعمل ديراً... ووجدته بخط ابن حمدون بالخاء المعجم ـ في الشعر والترجمة... وهو بالحيرة قديم وفيه يقول الثرواني:[٢]

دير الحريق فبيعة المزعوق ... بين الغدير فقبة الشنيق
أشهى إلي من الصراة[٣] ودورها ... عند الصباح ومن رحى البطريق
فاغدوا بناكر من ذخائر عتبة ... الخمار من صافي الدنان رحيق
يا صاح واجتنب الملام أما ترى ... سمجاً ملامك لي وأنت صديقي[٤]

ـ بغنيهم كان أصلح لهم، قال ما أحكم إلا بضربة لرقبة الملك، فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل؟ قالوا: نرى أن هذه سنة، وأنت أعلم بما في نقض السنن من العار والشنار، وعظم الإثم، وأيضاً إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى، ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك فتبطل السنن، قال: فارغبوا إلى القصار أن يحكم بما شاء ويعفيني من هذه فإني أجيبه إلى ما شاء ولو بلغ حكمه شطر ملكي، فرغبوا إليه، فقال: ما أحكم إلا بضربة في عنق الملك، قال: فلما رأى الملك ذلك وما عزم عليه القصار قعد له مقعداً عاماً وأحضر القصار، فأبدى مدقته وضرب بها عنق الملك، فأوهنه وخر مغشياً عليه، فأقام لما به سنة وبلغت به العلة إلى أن كان يسقي الماء بالقطن، فلما أفاق، وتكلم، وأكل، وشرب، واستقل، سأل عن القصار؟ فقيل إن محبوس، فأمر بإحضاره فحضر، فقال: لقد بقيت لك خصلة فاحكم بها فإني قاتلك لا محالة إقامة للسنة، قال القصار: فإذا كان لا بد من قتلي فإني أحكم أن اضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى فلما سمع الملك ذلك خر على وجهه من الجزع وقال: ذهبت والله نفسي إذن، ثم قال للقصار: ويلك دع عنك ما لا ينفعك فإنه لم ينفعك منه ما مضى واحكم بغيره، وأنفذه لك كائناً ما كان، قال: ما أرى حقي إلا ضربة اخرى، فقال الملك لوزرائه ما ترون؟ قالوا: تموت على السنة، قال: ويلكم إن ضرب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد أبداً، لأني أعلم ما قد نالني، قالوا: فما عندنا حيلة، فلما رأى ما قد أشرف عليه قال للقصار: اخبرني الم أكن قد سمعتك تقول يوم أتى بك الموكلون (بالغريين) إنك قد سجدت وأنهم كذبوا عليك؟. قال: قد كنت قلت ذلك فلم أصدق... قال فكنت سجدت؟ قال نعم...
فوثب من مجلسه وقبل رأسه، وقال أشهد أنك صادق، وأنهم كذبوا عليك، وقد وليتك موضعهم، وجعلت إليك بأسهم وأمرهم...».

(١) الغريان من معجم البلدان.
(٢) هو محمد بن عبد الرحمن.
(٣) الصراة نهر كان يأخذ من نهر عيسى المتخلج من الفرات ويصبه فرع منه إلى دجلة عند موضع إعدادية الكرخ الحالية البنين.
(٤) معجم البلدان في «دير الحريق».

وقال ابن فضل الله العمري: «دير الحريق قديم، هو بالحيرة، بناه النعمان بن المنذر على ولد كان له، عدي عليه وأحرقه فيه، وإلى جانبه قبة تعرف بقبة السنيق وتعرف بقبة غصين وهما راهبان نسبتا إليهما وهما بديعتا البناء، وفي الدير وفيها يقول الثرواني:

دير الحريق وقبة السُّنيق مغنى لِخِلف مدامة وفسوق
وطن لفرقته شرقت بدمعتي ولرحلتي عنه غصصت بريقي

حكى حمزة بن أبي سلامة قال: كان الثرواني جاري بالكوفة وكان كثير الإلمام بالديرة فباكرني في يوم شعانين[1] وقال لي: اعزم بنا اليوم على الشرب في دير الحريق لأنه يوم سيقصده فيه خلق، ولي به صديق من رهبانه ظريف، مليح القلاية جيد الشراب فهلم نتنزه أعيننا فيما نراه من الجواري والغلمان ثم نعدل إلى قلاية صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض، فخرجنا فرأينا من النساء والوصائف والولدان في الحلي والحلل ما لم أر مثله قط، فلم يزل يعبث ويتعرض ويقبل ويعانق - وكان معروفاً بذلك فما أحد ينكر عليه فعله إلى بعد الظهر، ثم أتينا قلاية صديقه الراهب، فلقيه بالإكرام والترحيب، فدخلنا قلايته فما رأينا أنظف من آلاتها ولا أنضر من بستانها، ثم قدم لنا شيئاً من طعامه، فأصبنا منه ثم صعدنا سطحها وجلسنا ننظر إلى منظر يبهر حسناً وجمالاً من رياض وغدران وطير تصفر، ونحن نشرب حتى ثملنا ونمنا هناك، وغدونا على الكوفة، فقلت له: تترك هذا اليوم مع حسنه عاطلاً من حلي شعرك؟ فقال: لا والله ولقد عملت في ليلتي هذه، هذه الأبيات ثم أنشدني:

خرجنا في شعانين النصارى وشيعنا صليب الجاثليق
فلم أر منظراً أحلى بعيني من المتقيّنات على الطريق
حملنا الخوص والزيتون حتى بلغن به إلى (دير الحريق)
أكلناهن باللحظات عشقاً وأضمرنا لهن على الفسوق[2]

(١) عيد الشعانين عيد السعانين هو عيد الأحد الذي قبل الفصح ويقال فيه عيد الشعانين أيضاً (المنجد).
(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار «١: ٣١٥، ٣١٦».

٤ ـ دير الأسكون(١)، قال ياقوت: «هو بالحيرة ـ راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم وعليه سور عال حصين وعليه باب حديد ومنه يهبط إلى غدير بالحيرة، أرضه رضراض ورمل أبيض وله مشرعة تقابل الحيرة لها ماء إذا انقطع النهر كان منها شرب أهل الحيرة...».

ونقل ابن فضل الله العمري وصفة من كتاب «ديارات الحيرة» وظهر أن ياقوتاً الحموي نقل من المرجع نفسه وزاد العمري قوله: «قال ـ يعني مصنف ديارات الحيرة ـ: وإليه تجتمع النصارى في أعيادهم وفي كل يوم جمعة بعد صلاة الجمعة فإذا كان يوم الشعانين أتوه من كل ناحية مع شماميسهم بصلبهم وأعلامهم فإذا استتموا فيه وفي القصر الأبيض والعلالي المدانيّة خرج أسقفهم بهم إلى مكان يعرف بقبيبات الشعانين (وهي قباب على ميل من ناحية طريق الشام) فأقام بهم فيها يومهم ذلك إلى آخره ولكل منهم يومئذ شأن يغنيه».

٥ ـ دير حنة، قال ياقوت الحموي: «هو دير قديم بالحيرة منذ أيام بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع، تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القائم لبني أوس ابن عمرو بن عامر، وفيه يقول الثرواني:

يا دير حنة عند القائم الساقي ... إلى الخورنق من دير ابن براق
ليس السلو وإن أصبحت ممتنعاً ... من بغيتي فيك من شكلي وأخلاقي
سقياً لعافيك من عاف معالمه ... قفر وما فيك مثل الوشم من باق

ودير حنة بالأكيراح التي قيل فيه: «يا دير حنة من ذات الأكيراح» هذا أيضاً بظاهر الكوفة والحيرة، لا أدري أهو هذا المذكور هنا أم غيره وقد ذكر شاهده في الأكيراح»(٢). وقد كان قال في الأكيراح: .. بالقرب منها ديران يقال لأحدهما (دير مر عبدا) وللآخر (دير حنة) وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض، وفيه يقول أبو نواس:

(١) قال ياقوت: «بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وكاف مضمومة وآخره نون».
(٢) معجم البلدان ج٢، ص ٥٠٧.

يـا ديـر حـنـة مـن ذات الأكـيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي
يـعـتـاده كـل مجـفـو مـفـارقـه من الـدهـان عليـه سحق أمسـاح
في فتيـة لم يـدع مـنهـم تخـوفـهـم وقـوع مـا حـذروه غـير أشـبـاح
لا يـدلـفـون إلى مـاء ببـاطيـة[١] إلا اغـترافـاً مـن الغـدران بـالـراح

قرأت بخط أبي سعيد السكري (حدثني أبو جعفر أحمد بن أبي الهيثم البجلي قال رأيت الأكيراح وهو على سبعة فراسخ من الحيرة مما يلي مغرب الشمس من الحيرة وفيه ديارات فيها عيون وآبار محفورة يدخلها الماء)... وقال بكر بن خارجة:

دع الـبـسـاتـين مـن آس وتـفـاح واقصد إلى الشيخ من ذات الأكـيراح
إلى الـدساكـر فـالـديـر المقـابلهـا لـدى الأكـيراح أو ديـر ابـن وضـاح
مـنـازل لم أزل حـيـنـاً ألازمـهـا لـزوم عـاد إلى الـلذات روّاح»

وقال ابن فضل الله العمري: «دير حنة بالحيرة من بناء نـوح، هكذا نقلته ولا أعرف من هو، وإلى جانبه قائم، حكى أحمد بن عمر الكوفي، قال: كان بالكوفة رجل أديب ضعيف الحال مهما وقع في يده من شيء أتى به إلى دير حنة فيشرب فيه حتى يسكر، ثم ينصرف إلى أهله ويقول: يعجبني من الغراب بكوره في طلب الرزق وربما بات به ويقول:

تـطاول لـيـلك بـالـزاويـة وكـان المبيـت بهـا عـافيـه
ومـن تحـت رأسـك آجـرّة وجـنبـك ملقىً عـلى بـاريـه
وذلـك خـير مـن الانصراف فتحكم فيـك بنـو الـزانيـه
وتصبـح إمّـا رهـين السجـون وإمـا قـتـيـلاً عـلى سـاقيـه

قال: فوجد والله بعد أيام قتيلاً على ساقية وهو القائل:

مـا لـذة العيش عنـدي غـير واحـدة هـي البـكـور إلى بعض المـواخـير
لخـامـل الـذكـر مـأمـون بـوائقـه سهـل القيـاد من الـفـره المـدابـير
حـتى يحـل عـلى ديـر ابـن كـافـرة من النصـارى ببيـع الخمـر مشهـور

(١) في مسالك الأبصار نقلاً من رواية أبي الفرج الأصفهاني: «لا يدلفون إلى ماء بآنية».

كأنما عقد الزنّار فوق نقاً ... واعتّم فوق دجى الظلماء بالنور

وفيه قال الثرواني:

يومي بهيكل دير حنة لم يزل ... غرٌّ السحاب تجود فيه وتمرع
متجوش طوراً وطوراً شاهراً ... بيض السيوف ودارة يتدرع

وكذلك قال فيه بكر بن خارجة الكوفي:

ألا سقي الخورنق من محل ... طريف الروض معشوق أنيق!
أقمت بدير حنّته زماناً ... بسكر في الصبوح وفي الغبوق
ومنا لابس إكليل زهر ... ومختضب السوالف بالخلوق
كأن رياضه حسناً ونوراً ... سحائب ذهّبت بسنا البروق
كأن تقاطر الأشجار فيه ... إذا غسق الظلام قطار نوق
وماذا شئت من در الأقاحي ... هناك ومن يواقيت الشقيق

وقد ذكر دير حنة أبو الفرج الأصفهاني وقال: «ذكره أبو نواس في شعره يعني في قوله: يا دير حنة من ذات الأكيراح... قال: والأكيراح بلد نزه كثير البساتين والرياض والمياه، قال وبالحيرة أيضاً موضع يقال له الأكيراح فيه دير، والأكيراح قباب صغار يسكنها الرهبان، يقال للواحد منها الكرح»[1].

٦ - دير ابن مزعوق، قال الشابشتي: «وهذا الدير بالحيرة في وسطها وهو دير كثير الرهبان، حسن العمارة، أحد المتنزهات المقصودة والأماكن الموصوفة، ولمحمد بن عبد الرحمن الثرواني فيه:

هل لك في مار فايثون وفي ... دير ابن مزعوق غير مختصر
ونسأل الأرض عن منابتها ... وعهدها بالربيع والمطر

---

(١) في ذكر الأكيراح يقول جحظة:

سقياً ورعياً لدير العلث من وطن ... لا دير حنة من ذات الأكيراح

وقال:

بدائع لا لدير العلث هن ولا ... لدير حنة من ذات الأكيراح

والمسالك جـ١: ٢٩٥ - ٢٩٦.

يـا لـك طـيبـاً وشـم رائـحـة كـالمسك يـأتي بنفحة السحـر
في شرب خمـر وسمـع محسنـة تلهيـك بين اللسـان والـوتـر

والثرواني هذا كوفيّ من المطبوعين في الشعر والمنهمكين في البطالات والمتطرحين في الحانات والمدمنين لشرب الخمر، والمغرقين في إتباع المرد، لا يعرف شيئاً غير ذلك، ولا يوجد شيء من الدنيا إلا فيه وكان آخر أمره أن أصيب في حانة خمّار بين زقيّ خمر وهو ميت[١]...

وقال ياقوت في معجم البلدان: «دير المزعوق ويقال دير ابن المزعوق، وهو قديم بظاهر الحيرة، قال محمد بن عبد الرحمن الثرواني:

قـلت لـه والـنـجـوم طـالـعـة في لـيلة الـفـصـح أول الـسـحـر
هـل لـك في مـار فـاثـيـون وفي ديـر ابـن مـزعـوق غـير مقـتصر؟
يفيض منـه النسيم عن طـرق الشـام وريـح الـنـدى عـن المـدر[٢]
ونـسـأل الأرض عن بـشـاشـتـهـا وعـهـدهـا بـالـربـيـع والمـطر
في شرب خمـر وصـدع محـسـنـة تـلهيـك بـين الـلسـان والـوتـر»

وأورد ابن فضل الله العمري ذكره قال: «دير ابن مزعوق هو بالحيرة قريب دير الحريق، في أنزه البقاع زهراً، ورقيق هواء وتدفق ماء، وتشوق إليه الثرواني من بغداد فقال:

ديـر الحـريـق وبـيـعـة المـزعـوق بـين الـغـديـر وقـبـة الـشـنـيـق
أشـهـى إلي مـن الصراة[٣] وطـيـبـهـا عنـد الصبـاح ومن رحى البـطريق[٤]
يـا صـاح فـاجتنب المـلام أمـا تـرى سمجـاً مـلامـك لي وأنت صـديقي

---

(١) الديارات «ص ١٤٩».
(٢) في المسالك «يفيض منه النسيم من طرف الشام ودر الندى على الشجر».
(٣) نهر الصراة كان من فروع نهر عيسى بالجانب الغربي من بغداد ونهر عيسى كان يأخذ ماءه من الفرات، والصراة كان من المتنزهات.
(٤) جاء في طبعة المسالك «١ : ٣١٦» دجى البطريق التصحيف ورحى البطريق من مواضع غربي بغداد ولها قصة مذكورة في تاريخ الخطيب.

وقد ذكره أبو الفرج وأنشده للثرواني فيه وفي (دير فاثيون) قوله: قلت له «والنجوم جانحة. . .» وذكر الأبيات المكتوبة آنفاً ثم قال: ودير فاثيون أسفل النجف ودير ابن مزعوق بحذاء قصر عبد المسيح بأعلى النجف وفيه يقول الثرواني:

تقرّ بفضل عينك لي بوصل … وفعلك لي مقرّ بالجحود
تشككني وأعلم أنّ هذا … هوىً بين التعطف والصدود

وقال أيضاً:

كرّ الشراب على نشوان مصطبح … قد هب يشربُها والديك لم يصح
والليل في عسكر جمّ بوارقه … من النجوم وضوء الصُّبح لم يلحُ
والعيش لا عيش إلا أن تباكرها … صهباء تقتل هم النفس بالفرح
حتى يظل الذي قد بات يشربها … ولا براح به يختال كالمرح[1]

٧ ـ دير مارت مريم، قال ياقوت في معجم البلدان: «دير مارت مريم: دير قديم من بناء آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب مشرف على النجف وفيه يقول الثرواني:

بمارت مريم الكبرى … وظلّ فنائها فقف
فقصر أبي الخصيب المشـ … ـرف المرخي على النجف
فأكناف الخورنق والسـ … ـدير ملاعب السلف
إلى النخل المكمم والحـ … ـمائم فوقه الهتف

وقال ابن فضل الله العمري: «دير مارت مريم: هو بالحيرة من بناء المنذر وهما ديران متقابلان وبينهما مدرجة الحاج وطريق السابلة إلى القادسية وهما مشرفان على النجف ومن أراد الخورنق عدل عن جادتها ذات اليسار ومن شعر الثرواني فيها:

دع الأيام تفعل ما أرادت … إذا جادت بندمان وكأس
ومارت مريم والصحن فيه … حديقتان من ورد وآس

---

(١) المسالك: «١: ٣١٧».

وظبي في لواحظ مقلتيه نعاس من فتور لا نعاس
وخِل لا يحول عن التصابي ذكور للمودة غير ناسي
ومحتضن لطنبور فصيح يغنيني بشعر أبي نواس

وقد ذكره أبو الفرج وقال: كان قس يقال له يحيى بن حماد ويقال له يوشع[1]، تألفه الفتيان ويشربون على سطحه وفي قلايته على قراءة النصارى وضرب النواقيس وفيه قال بكر بن خارجة أو غيره:

بتنا بمارت مريم سقياً لمارت مريم
ولقسها يحيى المهيـ ـنم بعد نوم النوم
وليوشع والخمرة حمراء مثل العندم
ولفتية حفُّوا به يعصون لوم اللّوم
يسقيهم ظبي أغن لطيف غلق المعصم
يرمي بعينيه القلوب كمثل رمي الأسهم

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: «لما خرجت مع الواثق إلى النجف درنا بالحيرة بدياراتها فرأيت دير مريم بالحيرة فأعجبني موقعه وحسن بنائه فقلت:

نعم المحل لمن يسعى للذته دير لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماء غير ذي أسن وقاصرات كأمثال الدمى حور

فقال الواثق: لا نصطبح والله غداً إلا فيه، وأمر أن يعدَّ فيه ما يصلح من الليل، وباكرناه فاصطبحت فيه على هذا الصوت، وأمر بمال ففرقه على أهل ذلك الدير، وأمر لي بجائزة[2]».

٨ ـ دير حنة الكبير، قال ياقوت وقد نقلنا قوله آنفاً: «ودير حنة بالأكيراح الذي قيل فيه: يا دير حنة من ذات الأكيراح. هذا أيضاً بظاهر الكوفة والحيرة ولا

---

(١) في كلامه انقطاع يدل على نقصان في النص أو سقوط جار ومجرور فتكون العبارة: «كان فيه قس يقال يحيى...».
(٢) الأغاني: «٥: ٤٢٧ ـ ٤٢٨».

أدري أهو هذا المذكور هنا أم غيره، وقد ذكر شاهده في الأكيراح». قلنا: ذكره ابن فضل الله باسم (دير حنة الكبير) قال: «وقال الخالدي هو بالحيرة في الأكيراح، غير دير حنة الذي قدمنا ذكره، يقال إنه بني حين بنيت الحيرة، وكان من أنزه الديرة لكثرة بساتينه وتدفق مياهه. حكى جحظة عن بعض أهل الحيرة قال: اجتاز عمر بن الفرج الرخجي منصرفاً من الحج فتلقيناه وأعظمناه وسرنا معه فلما اجتاز بدير حنة سألنا عنه، فعرفناه به، فقال: من ذا الذي يقول: يا دير حنة من ذات الأكيراح!! فقال له الحسين بن هشام الحيري: هذا لأبي نواس أفتحب أن أنشدك لشاعرنا الثرواني شيئاً يقرب من هذا المعنى في هذا الدير؟ قال: قل. فأنشده:

على الريحان والراح وأيام الأكيراح
وإبريق كطير الماء في لجة ضحضاح
سلام يسكر الصاحي وما فيه فتى صاحي
ومن لي فيه بالسكرة عن وجه ابن وضاح
غزال صيغ من فتنة أبدان وأرواح
إذا راح إلى البيعة في أثواب أمساح
ففي كفيه إفسادي وفي كفيه إصلاحي

قال: فاستحسن الأبيات وأمر كاتباً معه يكتبها وخلع على الحسين بن هشام وأجازه».

«وحكى جحظة قال: زرت إبراهيم بن المدبر ـ وكان بالكوفة ـ فأكرمني وأنس لي وأقمت عنده ثلاثة أشهر، فجرى يوماً ذكر دير حنة، فقال ابن المدبر، والله إني لأحب أن أراه وأشرب فيه، فقد ذكر لي حسنه، فأين هو من الحيرة؟ فدله إسحاق بن الحسين العلوي عليه وقال له: في هذه الأيام ينبغي أن يقصد لأنه أيام ربيع ورياض معتّمة بالزهر والغدران والبادية بقربه فلن نعدم أعرابياً فصيحاً يطير إلينا ونحن فيه فيهدي إلينا بيض نعام ويجني لنا الكمأة. فتقدم ابن المدبر إلى غلمانه بإعداد ما يحتاج إليه، وخرج وخرجت حتى وافيناه، فإذا هو حسن البناء والرياض محدقة به ونهر الحيرة الذي يقال له الغدير بقرب منه، فضربت لنا خيام عنده وخرج إلينا رهبانه

وحملوا إلينا مما عندهم من التحف واللطف، فأكلنا وجلسنا نشرب، وغنيته بشعر أبي نواس المتقدم، فبينا نحن كذلك إذا اجتاز بنا غلام حسن عارضه كأنه بدر على غصن، معه مصحف من مصاحف النصارى، كامل العقل ساحر اللحظ واللفظ، فشرب ابن المدبر على وجهه رطلاً وسقاه قدحاً واستأذنه الغلام في النهوض وقال: معي مصحف لا تتم للرهبان صلاة إلا بحضوره وهذا وقت صلاتهم وقد ضربوا الناقوس منذ ساعة. وأخذ عليه العهد في الرجوع إليه وأمر له بمائة دينار وعملت شعراً صنعت فيه صوتاً فما زال صوته طول مقامه وهو. . .» وذكر الأبيات ثم قال: «وأقمنا بمكاننا ثلاثة أيام ثم عدنا إلى الكوفة وقد عملت في تلك الأيام وغنّيت فيه:

وبالحيرة لي يوم ويوم بالأكيراح
إذا عزّ بنا الماء مزجنا الراح بالراح

وحكى الربيع عن بعض أهل الحيرة قال: كان في دير حنة خمار يقال له مر عبدا موصوف بجودة الخمر ونظافة الآنية وملاحة الحانة، فحكى مر عبدا قال: ما شعرت يوماً وقد فتحت حانوتي وجلست إلى جانب الهيكل إلا بثلاثة فوارس قد أقبلوا من طريق السماوة في البر، حتى وقفوا علي وهم متلثمون بعمائم الخز وعليهم حلل من القصب، فسلموا عليّ وأسفر أحدهم وقال: أنت مر عبداً وهذا دير حنة؟، قلت: نعم. قال: قد وصفت لنا بجودة الشراب والنظافة فاسقني رطلاً. فبادرت فغسلت يدي ثم نقرت الدنان ونظرت أصفاها فبزلته، فشرب ومسح يده وفمه بالمنديل ثم قال اسقني آخر. فغسلت يدي وتركت ذلك الدن وذلك القدح والمنديل ونقرت دنا آخر. فلما رضيت صفاره بزلت منه رطلاً في قدح وأخذت منديلاً جديداً فناولته إياه فشرب كالأول، ثم قال: اسقني رطلاً آخر فسقيته في غير ذلك القدح وغير ذلك المنديل، فشرب ومسح يده وفمه وقال لي: بارك الله فيك فما أطيب شرابك وأنظفك وأحسن أدبك، وما كان رأيي أن أشرب أكثر من ثلاثة أرطال فلما رأيت نظافتك دعتني نفسي إلى شرب رابع فهاته. فناولته إياه على تلك السبيل، فشرب وقال: ولولا أسباب تمنع من بيتك لكان حبيباً إلي جلوسي يومي هذا فيه، وولى منصرفاً في الطريق الذي بدا منه ورمى إلي أحد الراكبين اللذين كان معه بكيس، فقلت: وحق النصرانية لا قبلته حتى أعرف الرجل. فقال: هذا الوليد بن يزيد بن عبد الملك وصفت له فأقبل من

دمشق حتى شرب شرابك ورأى ديرك والحيرة. ثم انصرف فحللت الكيس فإذا هو أربعمائة دينار»[1].

٩ ـ دير هند الصغرى، قال الشابشتي: «بنت هند هذا الدير بالحيرة وترهبت فيه وسكنته دهراً طويلاً ثم عميت. وهذا الدير من أعظم ديارات الحيرة وأعمرها وهو بين الخندق وخضراء بكر، ولما قدم الحجاج الكوفة سنة أربع وسبعين قيل له: أن بين الحيرة والكوفة ديراً لهند بنت النعمان وهي فيه ومن رأيها وعقلها، فانظر إليها فإنها بقية، فركب والناس معه حتى أتى الدير. فقيل لها: هذا الأمير الحجاج بالباب، فاطّلعت من ناحية الدير. فقال لها: يا هند ما أعجب ما رأيت؟ قالت: خروج مثلي إلى مثلك فلا تغتر يا حجاج بالدنيا، فإنا أصبحنا ونحن كما قال النابغة:

رأيتك من تعقد له جل ذمة   من الناس يا من سرحه حيث أربعا

ولم نمس إلا ونحن أذل الناس وقل ما إناء امتلأ إلا انكفأ. فانصرف الحجاج مغضباً وبعث إليها من يخرجها من الدير ويستأديها الخراج فأخرجت مع ثلاث جوار من أهلها، فقالت إحداهن في خروجها:

خارجات يسقن من دير هند   مذعنات بذلة وهوان
ليت شعري ألأول الحشر هذا   أم محا الدهر غيرة الفتيان؟

فشد فتى من أهل الكوفة على فرسه فاستنقذهن من أشراط الحجاج وتغيب فبلغ الحجاج شعرها وفعل الفتى، فقال: إن أتاني فهو آمن وإن ظفر نابه قتلناه، فأتاه الفتى. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: الغيرة. فوصله وخلاه وكان سعد بن أبي وقاص حين فتح العراق أتى هنداً إلى ديرها، فخرجت إليه، فأكرمها وعرض عليها نفسه في حوائجها، فقالت: سأحييك بتحية كانت أملاكنا تحيا بها. . . ثم جاءها المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة فاستأذن عليها. فقيل لها: أمير هذه المدرة بالباب. فقالت: قولوا له: من أولاد جبلة بن الأيهم أنت؟ قال: لا. قالت: فمن ولد المنذر بن ماء السماء؟ قال: لا. قالت: فمن أنت؟ قال المغيرة بن شعبة

(١) المسالك: «١: ٣١٩ ـ ٣٢٢».

الثقفي. قالت: فما حاجتك؟ قال: جئتك خاطباً. قالت: لو جئتني لجمال أو حال لأجبتك ولكن أردت أن تتشرف بي في محافل العرب فتقول: نكحت بنت النعمان بن المنذر وإلا فأي خير في اجتماع أعور وعمياء؟ فبعث إليها قال: كيف كان أمركم؟ قالت: سأختصر لك الجواب: أمسينا مساء وليس في الأرض عربي إلا وهو يرغب إلينا ويرهبنا ثم أصبحنا وليس أحد إلا ونحن نرغب إليه ونرهبه. قال: فما كان أبوك يقول في ثقيف. قالت: اختصم إليه رجلان منهم في شيء أحدهما ينتمي إلى إياد والآخر إلى بكر بن هوازن فقضى به للأيادي وقال:

إن ثقيفاً لم تكن هوازنا ولم تناسب عامراً ومازنا

فقال المغيرة: «أما نحن فمن بكر بن هوازن فليقل أبوك ما شاء»[1].

وقال ياقوت: «بالحيرة يقارب خطة بني عبد الله بن دارم بالكوفة مما يلي الخندق في موضع نزه وهو دير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرقة. قال هشام الكلبي: كان كسرى قد غضب على النعمان بن المنذر فحبسه فأعطت بنته هند عهداً لله إن رده الله إلى ملكه أن تبني ديراً تسكنه حتى تموت فخلى كسرى عن أبيها النعمان فبنت الدير وأقامت به إلى أن ماتت ودفنت فيه، وهي التي دخل عليها خالد بن الوليد لما فتح الحيرة، فسلمت عليه، فقال لها لما عرفها: اسلمي حتى أزوجك رجلاً شريفاً مسلماً. فقالت: أما الدين فلا رغبة لي في غير دين أبائي، وأما التزويج فلو كانت في بقية لما رغبت فيه فكيف وأنا عجوز هرمة أترقب المنية بين اليوم والغد. فقال: سليني حاجة، فقالت: هؤلاء النصارى الذين في ذمتكم تحفظونهم. قال: هذا فرض علينا أوصانا به نبينا محمد ـ ﷺ ـ قالت: ما لي حاجة غير هذا فإني ساكنة في هذا الدير الذي بنيته ملاصقاً لهذه الأعظم البالية من أهلي حتى ألحق بهم. فأمر لها بمعونة ومال وكسوة. قالت: أنا في غنى عنه، لي عبدان يزرعان مزرعة لي أتقوت بما يخرج منها ويمسك الرمق وقد اعتددت بقولك فعلاً وبعرضك نقداً. فقال لها: أخبريني بشيء أدركت. قالت ما طلعت الشمس بين الخورنق والسدير إلا على ما هو تحت حكمنا، فما أمسى المساء حتى صرنا خولاً لغيرنا. ثم أنشأت تقول:

---

(١) الديارات: «١٥٧ ـ ١٧٨».

فبينـا نسوس النـاس والأمر أمـرنـا إذا نحن فيهم سوقـة نتنصف
فتبـاً لـدنيـا لا يـدوم نعيمهـا تـقـلب تـارات بـنـا وتصرف

ثم قالت: اسمع مني دعاء كنا ندعو به لأملاكنا (شكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ولا أزال عن كريم نعمة إلا جعلك سبباً لردها إليه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة). فتركها وخرج، فجاء النصارى وقالوا: ما صنع بك الأمير؟ فقالت:

صـان لي ذمـتي وأكـرم وجـهـي إنمـا يـكـرم الـكـريـم الـكـريـم

وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا الدير فقال الأمير معن بن زائدة الشيباني وكان منزله قريباً منه:

ألا لـيت شعـري هـل أبيتـن لـيلة لـدى ديـر هـنـد والحبيب قـريـب
فـنقضي لـبـانـات ونلقـى أحبـة ويـورق غـصـن لـلسرور رطـيـب

«وهند هذه صاحبة القصة مع المغيرة بن شعبة». قال ابن فضل الله العمري: «دير هند وهي بنت النعمان بن المنذر، بناه أبوها لها لتتعبد فيه فلما فرغ خرجت من قصر أبيها تريده فأقامت في الطريق سنة تضرب المضارب في نزه وصيد والمسافة بين قصر أبيها وبينه نحو الفرسخ، وشق لها بشر بن مروان نهراً من الفرات ولم يزل النهر يجري حتى خرب الدير، وحكي أن النعمان كان يصلي ويتقرب فيه وأنه علق في هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضة، وكانت أدهانها في أعياده من زنبق وبان وما شاكلها من الأدهان، ويوقد فيه من العود الهندي والعنبر شيئاً يجل عن الوصف. وفيها حكى الكلبي أن النعمان دخله في بعض أعياده فرأى امرأة تأخذ قرباناً أخذت بقلبه، فدعا الراهب الذي قربها وسأله عنها، فقال: هي امرأة حكم بن عمرو اللخمي، فلما انصرف النعمان دعا عدي بن زيد كاتبه وأوقفه على الخبر وقال له: كيف الحيلة؟ فقال له: إذا كان بكرة غد وحضر الناس الباب فابدأه في الأذن وأجلسه معك على سريرك. ففعل النعمان ذلك وأذن للناس بعده. فجعلوا يتعجبون وانصرفوا. فقال النعمان لعدي بن زيد: قد فعلت ما أشرت به فمه؟. قال: إذا أصبحت فاكسه واحمله ففعل ثم قال اجعل حوائج العرب إليه. ففعل ثم قال النعمان لعدي بن زيد: قد طال

هذا. قال: إذا أصبحت فإن عندك عشر نسوة فطلّق أبغضهن إليك، ثم قل له: قد طابت نفسي لك بما لم تطب به لولد ولا أخ. وقد طلقت لك فلانة فتزوجها. ففعل ذلك وخرج وهو لابس من حلل النعمان ولديه ما حمله عليه. فجلس وحكم بين العرب وعدي بن زيد بالباب جالس. فقال له اللخمي: ما أدري ما أكافىء به الملك فعل معي وفعل؟ فقال عدي: ما أقدرك على مكافأته. قال: وما هو؟ قال: طلّق امرأتك كما طلّق لك امرأته قال: قد فعلت. فأنفذها إلى النعمان وفي ذلك يقول:

علقتها حرة حوراء ناعمة ... كأنها البدر في داج من الظلم

ما في البرية من أنثى تعادلها ... إلا التي أخذ النعمان من حكم

وقد ذكره أبو الفرج وقال: «هند بنت النعمان صاحبة هذا الدير هي الحرقة وهي التي دخلت على خالد بن الوليد». وذكر مختصر الخبر ثم قال: «وهذا الدير يقارب دير[1] بني عبد الله بن دارم بالكوفة مما يلي الخندق». وذكر بعد ذلك ما ذكره الشابشتي في كتابه الديارات.

١٠ ـ دير هند الكبرى، قال ياقوت: «وهو أيضاً بالحيرة، بنته هند أم عمرو بن هند وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي وكان في صدره مكتوباً: بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده وفي ملك ملك الأملاك خسر وأنوشروان في زمن مار إفريم الأسقف، فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها ويقومها إلى أمانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر. حدث عبد الله بن مالك الخزاعي قال: «دخلت مع يحيى بن خالد لما خرجنا مع الرشيد إلى الحيرة وقد قصدناها لنتنزه بها ونرى آثار المنذر، فدخل دير هند الأصغر فرأى آثار قبر النعمان وقبرها إلى جنبه ثم خرج إلى دير هند الكبرى وهو على طرف النجف، فرأى في جانب حائطه شيئاً مكتوباً فدعا بسلم وأمره بقراءته وكان فيه مكتوباً»[2]:

---

(١) لعل الأصل «دار» أو «دور».

(٢) ذكر الشابشتي هذه الأبيات في القصة بعينها في زيارة الرشيد للسدير ص «١٥٣» وليس في السدير بيعة راهب.

إن بني المنذر عام انقضوا بحيث شاد البيعة الراهب
تنفح بالمسك ذفاريّهم وعنبر يقطبه القاطب
والقز والكتان أثوابهم لم يجب الصوف لهم جائب
والعز والملك لهم راهن وقهوة ناجورها ساكب
أضحوا وما يرجوهم طالب خيراً ولا يرهبهم راهب
كأنهم كانوا به لعبة سار إلى أين بها الراكب؟
فأصبحوا في طبقات الثرى بعد نعيم لهم راتب
شر البقايا من بقي بعدهم قل وذل جده خائب

قال: فبكى حتى جرت دموعه على لحيته وقال: «نعم هذه سبيل الدنيا».

١١ ـ دير اللج قال ياقوت: «هو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيام مملكته ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن بناءً منه ولا أنزه موضعاً وفيه قيل»:

سقى الله دير اللج غيثاً فإنه على بعده مني إلي حبيب
قريب إلى قلبي بعيد محله وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيج ذكراه غزال يحله أغن سحور المقلتين ربيب
إذا رجّع الإنجيل واهتز مائداً تذكر محزون وحنّ غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته بلابل أسقام به ووجيب

وفيه يقول إسماعيل بن عمار الأسدي:

ما أنس سعدة والزرقاء يومهما باللج شرقية فوق الدكاكين

وذكره جرير فقال: ـ نقلته من خط ابن أخي الشافعي وقال هو بظاهر الحيرة: ـ

يا رب عائدة بالغور لو شهدت عزّت عليها بدير اللج شكوانا
إن العيون التي في طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا
يا رب غابطنا لو كان يطلبكم لاقى مباعدة منكم وحرمانا

وقال ابن فضل الله العمري: «دير اللج هو بالحيرة مما بناه النعمان بن المنذر وهو من أنزه دياراتها وأحسنها بناءً، لما يطيف به من البساتين، وكان النعمان يأتيه يتعبد فيه ويستشفي به في مرضه وفيه قيل:

يا ليلتي أطيب بها ليلة لو لم يكن قصّرها الطيب
بتنا (بدير اللج) في حانة شرابها في الكأس مكبوب
يديرها ظبي هضم الحشا يحبه الشبان والشيب
حتى إذا ما الخمر مالت بنا جرتْ أمور وأعاجيب
فما ترى ظنك في شادن بات إلى جانبه ذيب

وقد ذكره أبو الفرج فقال: كان النعمان يركب كل أحد إليه وفي كل عيد معه أهل بيته خاصة من آل المنذر ومن ينادمه من أهل دينه عليه حلل الديباج المذهبة وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب وفي أوساطهم الزنانير المحلاة بالذهب المفصّصة بالجوهر وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب فإذا قضوا صلاتهم انصرف إلى مستشرفه على النجف فيشرب بقية يومه إلى أن يمسي، وخلع ووصل وحمل، وكان ذلك أحسن منظر وأشرفه وأنشد فيه قول الشاعر: «سقى الله دير اللج خيراً فإنه[1]...» وذكر بيتين مما ذكره ياقوت من الشعر فيه.

١٢ - دير بني علقمة أو دير علقمة، قال ياقوت: «دير علقمة بالحيرة، منسوب إلى علقمة بن عدي بن الرميك بن ثوب بن أسس بن ربى[2] بن نمارة بن لخم، وفيه يقول عدي بن زيد العبادي:

نادمت في الدير بني علقما عاطيتهم مشمولة عندما
كأن ريح المسك في كأسها إذا مزجناها بماء السماء
علقم ما بالك لم تأتنا أما اشتهيت اليوم أن تنعما
من سرّه العيش ولذاته فليجعل الراح له سلّما»

---

(١) مسالك الأبصار: «١: ٣٢٥».

(٢) سيأتي في الكلام على دير حنظلة ما يخالف هذا النسب في التسلسل بعض الخلاف.

وذكره ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار بأخصر مما ذكره ياقوت.

١٣ - دير حنظلة، قال ياقوت: «دير حنظلة آخر وهو بالحيرة منسوب إلى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة بن مالك بن ربى بن نمارة بن لخم بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد، وفيه يقول الشاعر:

«بساحة الحيرة دير حنظلة — عليه أذيال السرور مسبله
أحييت فيه ليلة مقتبله — وكأسنا بين الندامى معمله
والراح فيها مثل نار مشعله — وكلنا منتقد ما خوّله
فما يزال عاصياً من عذله — مبادراً قبل تلاقي أجله»!

وذكره ابن فضل الله العمري قال: «دير حنظلة هو بالحيرة على نحو فرسخ منها إلى المشرق وموضعه حسن لما فيه من جنينات رهبانه وأشجارهم وما يلبسه الربيع من الرياض، وأنشد الخالدي فيه لغيره شعراً منه.

طرقتك سعدى بين شطي بارق — نفسي الفداء لطيفها من طارق
يا دير حنظلة المهيج في الهوى — هل تستطيع صلاح قلب العاشق

وقد ذكره أبو الفرج الأصفهاني وأنشد لبعض الشعراء فيه رجزاً منه: «بساحة الحيرة دير حنظلة[1]» وذكر بيتين من الأبيات التي ذكرها ياقوت.

١٤ - ديارات الأساقف، قال الشابشتي: «هذه الديارات بالنجف بظاهر الكوفة وهو أول الحيرة وهو إما قباب أو قصور تسمى ديارات الأساقف ويحفرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر وعن شماله السدير وبين ذلك الديارات. وقصر أبي الخصيب هذا أحد متنزهات الدنيا وهو مشرف على النجف وعلى ذلك الظهر، ويصعد من أسفله على درجة طولها خمسون مرقاة إلى سطح حسن ومجلس فيشرف الناظر على النجف والحيرة من ذلك الموضع ثم يصعد منه على درجة

---

(١) ولم يبق اليوم من هذه الأديرة أثر أو بعض أثر يستدل به عليها وتعيين مواقعها غير كهوف في الجهات القريبة من النجف المعروفة (بالطارات)، ويغلب على الظن أن هذه الكهوف المنحوتة في التلول إنما هي صوامع خاصة للرهبان وهي تحتاج إلى زيارات من قبل الأثريين للتحقيق الكامل في شأنها.

أخرى طولها خمسون مرقاة إلى سطح فسيح ومجلس عجيب. وأبو الخصيب هذا مولى أبي جعفر المنصور وحاجبه. والسدير قصر عظيم من أبنية ملوك لخم في قديم الزمان وما بقي الآن منه ديارات وبيع للنصارى، ولعلي بن محمد الحماني العلوي يذكر هذه المواضع[١].

كم وقفة[٢] لك بالخورنق لا توازى بالمواقف؟!
بين الغدير إلى السدير إلى ديارات الأساقف
فمدارج[٣] الرهبان في أطمار خائفة وخائف
دِمن كأن رياضها يكسين أعلام المطارف
وكأنما غدرانها فيها عشور في مصاحف
وكأنما أنوارها[*] تهتز بالريح العواصف
طرر الوصائف يلتقين [بها][٤] إلى طرر الوصائف
تلقى أوائلها أواخرها بألوان الزخارف[٥]
بحرية شتواتها برية فيها المصايف
وردية[٦] الحصباء كا فورية فيها المشارف
ثم انبرت سحًا (كباكية)[٧] بأربعة ذوارف»[٨]
باتت سواريها تمخض في رواعدها القواصف[٩]

(١) ذكر هذه القصيدة أبو حيان التوحيدي في كتابه «البصائر» يراجع الجزء الأول «ص ١٨٩ طبعة بغداد» وأكثرها ياقوت الحموي في «ديارات الأساقف» و«الخورنق من معجم البلدان» وأبو علي القالي في الأمالي «١ : ١٨٠، ١٧٧» وأبو عبيد البكري في سمط اللآلي «١ : ٤٣٩» والعمري في مسالك الأبصار: «١ : ٢٨٥».
(٢) في البصائر «كم منزل».
(٣) في البصائر «فمواقف».
(*) في معجم البلدان «وكأنما أغصانها».
(٤) سقطت من الديارات.
(٥) في البصائر «الرفارب».
(٦) درية في البصائر، وهو الصواب فدر النجف لنوع شفاف من الصخر لا يزال معروفاً موجوداً في أرض النجف ولذلك سمى المصريون «الثريا النورية الصناعية» باسم «النجفة».
(٧) سقطت من الديارات واختل وزن البيت كبيت الطرر.
(٨) هنا انتهت رواية الشابشتي.
(٩) من هنا تبدأ رواية البصائر «ص ١٨٩».

فكأن لمع بروقها ... في الجو أسياف المثاقف
فكأنما أنوارها تهتز ... في الدرج العواصف[١]
طرر الوصائف يلتقين ... بها إلى طرر الوصائف
دافعتها عن دجنها ... بالغلب والبيض الغطارف
يعبق يوم البأس شرًّا ... بين في يوم المعارف[٢]
سُمح بحر المال وقا ... فون في يوم المتالف
واهاً لأيام الشباب ... وما لبسن من الزخارف
وزوالهنّ بما عرفت ... من المناكر والمعارف
أيام ذكرك في دوا ... وين الصبا صدر الصحائف
واهاً لأيامي وأيام ... النقيات المراشف
والغارسات البان قضـ ... ـباناً على كثب الروادف
والجاعلات البدر ما ... بين الحواجب والسوالف
أيام يظهرن الخلافَ ... بغير نيات المخالف
وقف النعيم على الصِّبا ... وزللت عن تلك المواقف

١٥ ـ قبة الشنيق، قال الشابشتي: وهي من الأبنية القديمة بالحيرة، على طريق الحاج وبإزائها قباب يقال لها السكورة[٣]، جميعها للنصارى، فيخرجون يوم عيدهم من السكورة إلى القبة في أحسن زي عليهم الصلبان، بأيديهم المجامر والشمامسة والقسان معهم يقدسون (على نغم واحد متفق من الألحان)[٤] ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين وأهل البطالة إلى أن يبلغوا قبة الشنيق فيتقربون ويتعمدون ثم يعودون بمثل تلك الحال فهو منظر مليح، ولبعض الشعراء فيه:

(١) كذا ورد هذا البيت في البصائر المطبوع ببغداد.
(٢) قال الدكتور عبد الرزاق محي الدين في تعليقه: (كذا في النسخ الثلاث) يعني (الثلاث) قلت: صوابه: تتقين يوم البأس شرايين في يوم المعازف ـ والتتقن هو الممتلىء غيظاً.
(٣) سيأتي عن المسالك أنه روي بصورة «السكورة» أيضاً، قال الباحث كوركيس عواد في حاشية الديارات: فإن أخذنا برواية الشابشتي لهذا الإسم جاز لنا إرجاعه ـ يعني رجعه ـ إلى أصل سرياني (شكوراً) بمعنى الزهر والورد «ص ١٥٥».
(٤) زيادة موضحة من المسالك.

والنصارى مشددين[1] الزنا نير عليهن كل حلي وثيق
يتمشين من قباب الشعانيـ ـن إلى صحن قبة الشنيق
يا خليلي فلا تعنفني يوم ترى اللهو فيه بالتحقيق[2]

ولبكر بن خارجة:

يا خليلي عرجا بي إلى الحيرة كم كم تراقبان النجوما؟!
واسقياني من بيت بيجوم[3] را حاً قهوة لا تماكسا بيجوما
حانة حشوها ظباء ملاح هيجوا بالدلال قلباً سقيما
وإذا ما سقيتماني شراباً خندريساً معتقاً مختوما
فاقصدوا[4] قبة الشنيق وظبياً سكن الدير قد سباني رخيما
عقد زناره توصل بالقلب وأمسى بين الحشا محزوما»[5]

وقال ابن فضل الله العمري: «قبة الشنيق[6] وهي من الأبنية القديمة بالحيرة على طريق الحاج وبإزائها قباب يقال لها السكورة جميعها للنصارى وعيد الشعانين بها نزه يخرج فيه النصارى من السكورة إلى القبة في أحسن زي، عليهم الصلبان وبأيديهم. . .» وذكر ما يشبه قول الشابشتي ما عدا الشعر فلم يذكر منه شيئاً. وقد قدمنا ذكر هذه القبة في الكلام على دير الحريق ودير ابن مزعوق.

١٦ ـ دير عبد المسيح، قال ياقوت في معجم البلدان: «دير عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني، وسمي بقيلة لأنه خرج على قومه في حلتين خضراوين فقالوا: ما هذا إلا بقيلة، وكان أحد المعمرين، يقال إنه عمر ثلاثمائة وخمسين سنة

---

(١) كذا ورد في الديارات طبعة بغداد وكتاب الديارات النصرانية جمع حبيب زيات (ص ١٦). ولعل الصواب (مشددات) لقوله بعد ذلك (عليهن) (يتمشين).
(٢) كذا ورد في الكتاب المذكور ولعل الأصل:
يا خليلي فلا تعبني بيوم لا ترى اللهو فيه بالتحقيق
(٣) رسم الباء والياء وردا مهملين.
(٤) كذا طبع ولعل الأصل: «فاقصدا» موافقة لابتدائه «يا خليلي».
(٥) الديارات «ص ١٥٦».
(٦) قال أحمد زكي باشا محقق المسالك: «أورده في الأصل بالشين المعجمة والنظر تصحيفاً عن ياقوت في صفحة ٣١٥ المتقدمة أثناء الكلام على دير الحريق».

(كذا) وهذا الدير بظاهر الحيرة بموضع يقال له الجزعة، وعبد المسيح هو الذي لقي خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ لما غزا الحيرة وقاتل الفرس فرموه من حصونهم الثلاثة: حصون آل بقيلة، بالخزف المدور، وكان يخرج قدام الخيل فتفر منه، فقال له ضرار بن الأزور: هذا من كيدهم، فبعث خالد رجلاً يستدعي رجلاً منهم عاقلاً، فجاءه عبد المسيح بن عمرو وجرى له معه ما هو مذكور مشهور. قال: وبقي عبد المسيح في ذلك الدير بعد ما صالح المسلمين على مائة ألف حتى مات وخرب الدير مدة فظهر فيه أزج معقود من حجارة، فظنوه كنزاً ففتحوه فإذا فيه سرير رخام عليه رجل ميت وعند رأسه لوح فيه مكتوب «أنا عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة:

حلبت الدهر أشطره حياتي ... ونلت من المنى فوق المزيد
فكافحت الأمور وكافحتني ... فلم أخضع لمعضلة كؤود
وكدت أنال في الشرف الثريا ... ولكن لا سبيل إلى الخلود»

وذكره ابن فضل الله العمري، قال: دير عبد المسيح وهو بالحيرة بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة، ويقال إنه عمر دهراً طويلاً ولحق خالد بن الوليد حين فتح الحيرة وله معه خبر طويل، وحكى بعض أهل الكلام قال: قرأت على حائطه مكتوباً.

رأيت الدهر للإنسان ضداً ... ولا ينجي من الدهر الخلود
ولا تنجي من الآجال أرض ... يحل بها ولا قصر مشيد

وحكى آخر قال: قرأت على حائطه أيضاً:

هذي منازل أقوام عهدتهم ... في خفض عيش خصيب ماله خطر
دارت عليهم صروف الدهر فانتقلوا ... إلى القبور فلا عين ولا بصر

وقد ذكره الأصفهاني في أخبار لا حاجة فيها[1]... وذكر عنه ما يشبه الذي في معجم البلدان فدل ذلك على أن ياقوتاً نقل كلام أبي الفرج الأصفهاني ولم ينسبه إليه إلا أن ابن فضل الله لم يذكر البيت الثاني.

(١) المسالك «١: ٣١٤».

١٧ ـ دير العذارى، ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان قال: «وبالحـ أيضاً دير العذارى»، ولم يزد على ذلك.

١٨ ـ حانة عون بالحيرة، قال ابن فضل الله العمري: «حانات الحيرة وه أربع حانات، حانة عون. وكان عون ظريفاً طيب الشراب نظيف الثياب، وكـ فتيان الكوفة يشربون في حانوته ولا يختارون عليه أحداً وشرب عنده ليلة أبو الهند الشاعر حتى طلع الفجر وصاحت الديوك على أنه يصبح يوم شك، فقيل إنه م رمضان، فقال:

شربت الخمر في رمضان حتى ... رأيت البدر للشعرى شريكا
فقال أخي: الديوك مناديات ... فقلت له: وما يدري الديوكا[1]

١٩ ـ حانة دومة، قال ابن فضل الله: «حانة دومة وعن أبي عبيدة قال: مـ الأقيشر بخمارة في الحيرة يقال لها دومة فنزل عندها واشترى منها شراباً ثم قال لها جودي لي الشراب حتى أجود لك المديح ففعلت فأنشأ يقول:

ألا يا دوم دام لك النعيم ... وأسمر ملء كفك مستقيم
شديد الأسر ينبض حالباه ... يجمّ كأنه رجل سقيم
يرويه الشراب فيزدهيه ... وينفخ فيه شيطان رجيم

قال: فظنت الخمارة أن هذا مدح. فسرت به وزادت في الشراب وقالت: م قال أحد فيَّ أحسن من هذا»[2].

٢٠ ـ حانة جابر، قال ابن الصلصال: كان أبو نواس يأتي الكوفة يزورني وكاد يأتي بيت خمار بالحيرة يقال له جابر، لطيف الخلقة نظيف الآلة، يعتق الشراب سنين، فقدم علينا مرة وقد نهاه الأمين عن الشراب، فسأل عني فقيل: هو بالحيرة، فوافاني وفي يدي شيء من شراب جابر عجيب الحسن والرائحة، فقال لي: يا أبا جعفر لا يجتمع هذا والهم في صدر واحد، وكان شديد العجب بضرب الطنبور، وكان إذ

(١) المسالك «١: ٣٨٩».
(٢) المسالك «١: ٣٨٩».

جناءني جمعت له ضراب الطنابير، وكانت الكوفة معدنهم، وكان يسكر في الليلة الواحدة سكرات، فوجهت فجمعت له منهم جماعة وأحضرته شيئاً من ذلك الشراب، فقال لي: ألم تعلم ما حدث علي؟ قلت: وما هو؟ قال: نهاني أمير المؤمنين عن الشراب وتوعدني عليه. ثم أنشدني قصيدته التي فيها:

أيها الرائحان باللوم لوما ... لا أذوق المدام إلا شميما

إلى أن انتهى إلى قوله:

فكأني وما أحسّن منها ... قعديّ يحسّن التحكيما
كلّ عن حمله السلاح إلى الحر ... ب فأوصى المطيق أن لا يقيما

فقلت له: أقم معنا كما حكيت من نقل القعدية. قال: أفعل. وصرنا إلى حانة جابر، فقلت شعراً ذكرت فيه ما قاله لي وأنشدته إياه وهو قولي:

غبيت[1] عليك محاسن الخمر ... أم غيّرتك نوائب الدهر؟
فصرفت وجهك عن معتقة ... تفتر عن درر وعن شذر
يسعى بها ذو غنة غنج ... متكحل اللحظات بالسحر
ونسيت قولك حين تمزجها ... فتريك مثل كواكب النسر
«لا تحسبن عقار خابية ... والهم يجتمعان في صدر»

فقال: هاتها في كذا وكذا من أم الأمين. ومد يده فأخذ القدح وشرب معنا ثم شخص إلى الأمين فقال له: أين كنت؟ قال: عند صديقي الكوفي. وحدثه الحديث. قال: فما صنعت حين أنشدك الشعر؟ قال: شربت والله يا أمير المؤمنين. قال: أحسنت وأجملت، فاشخص حتى تحمل إلي صديقك هذا. فقدم إلي فحملني إليه، فلم أزل معه حتى قتل»[2].

---

(١) في المسالك: «١: ٣٩٠» عتبت عليك. وقد تصحف فعل الجملة على أحمد زكي باشا ـ رح ـ والصواب (غبيت عليك محاسن الخمر) يقال: غبي على الشيء، بكسر الباء غباوة إذا لم تعرفه «الصحاح» وإلا فكيف تعتب عليه محاسن الخمر؟

(٢) المسالك: «١: ٣٨٩ ـ ٣٩١».

٢١ ـ حانة شهلاء، وكانت يهودية من أهل الحيرة وحكي أن الأقيشر كان يألفها وكان يشرب في دارها، فجاءه شرطي فدق الباب. فقال: اسقني وأنت آمن. فقال: والله ما آمنك، وهذا النقب بالباب فأنا أسقيك منه، فوضع له أنبوب قصب في النقب فصب فيه النبيذ من داخل والشرطي يشرب من خارج فقال الأقيشر:

سأل الشرطي أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب
إنما لقحتنا خابية فإذا ما مزجت كان العجب
لبن أصفر صاف طعمه ينزع الباسور من عجب الذنب
إنما نشرب من أموالنا فاسألوا الشرطي ما هذا الغضب[1]

والذي رواه صاحب الأغاني الأصفهاني فيه خلاف، قال: «شرب الأقيشر في بيت خمار بالحيرة فجاءه الشرط ليأخذوه فتحرز منهم وأغلق بابه وقال: لست أشرب فما سبيلكم علي؟ قالوا: قد رأينا العس في كفك وأنت تشرب. قال: إنما شربت من لبن لقحة لصاحب الدار، فلم يبرحوا حتى أخذوا منه درهمين، فقال: إنما لقحتنا باطية»[2]. . . الأبيات.

اشهر القصور المحيطة بالنجف

١ ـ العذيب والصنبر

ومن قصور الحيرة العذيب والصنبر بناهما امرؤ القيس بن النعمان بقرب الفرات للنزهة وقد ذهب حمزة الأصفهاني إلى أن البنّاء الذي عمر الصنبر هو سنمار وروى قتله على يد الملك امرىء القيس خلافاً لما هو مشهور عن قتل سنمار الخورنق. وذكر البيت الآتي:

ليت شعري متى تخب به النا قة نحو العذيب والصنبر

ولم يذكر ياقوت هذين القصرين بل قال في مادة عذيب: «هو ماء بين القادسية

(١) المصدر المذكور «ص ٣٩١» وهذه الأبيات مذكورة في الأغاني في ترجمة الأقيشر.
(٢) الأغاني «١١ : ٢٥٧» طبعة دار الكتب المصرية.

والمغيثة وقيل: هـو واد لبني تميم وهو من منـازل حاج الكـوفة وقيـل هو حـد السواد، وكان بين العذيب والقادسية مسلحة للفرس وقد أكثر الشعراء من ذكرها(١).

٢ ـ القصر الأبيض، قال ياقوت: «هو من قصـور الحيرة، وفي مـادة لحيان من معجم البلدان: هو أبيض النعمان. وذكر قول حاتم الطائي:

ومـا زلت أسعى بـين خص ودارة   ولحـيـان حتى خفـت أن اتـنصرا

فعلى رواية يـاقوت يكـون القصر الأبيض وأبيض النعمان ولحيـان قصراً واحـداً بعينه، وجاء في رواية مؤلف كتاب الأغـاني أن صاحب القصر الأبيض هـو جابـر بن شمعون أسقف الحيرة أحـد بني أوس بن قلام وقـد أتاه الملك النعـمان مع عـدي بن زيد وطلب منه مـالاً يستعين بـه على أمره عند كسرى فـأضافهـا ثلاثـة أيام وأعـطى النعمان ثمانين ألف درهم. فقال النعمان للأسقف: لا جرم لا جرى لي درهم إلا عـلى يديك إن ملكت(٢).

٣ ـ قصر الغرس، قال عنه ياقوت هو أحـد قصور الحـيرة الأربعة ولم يـزد على ذلك.

٤ ـ قصر الـزوراء أو الزوراء. دار بنـاها النعـمان بن المنـذر بـالحـيرة، ونسب بعضهم بناءها إلى المنذر الثالث ابن امرىء القيس الثالث وفيها يقول النابغة الذبياني:

وأنت ربيـع ينعش النـاس سيبـه   وسـيف أعــيرتـه المنـيـة قـاطـع
وتـسقـى إذا مـا شئت غـير مصرد   بـزوراء في أكنـافهـا المسك كـارع

وقال بعضهم إن أبا جعفر المنصور هدم الزوراء:

٥ ـ قصر العدسيين: كان بالكوفة ـ قبل تأسيسها ـ في طرف الحـيرة وهو لبني عمار بن عبد المسيح بن قيس الكلبي وقد سموا العدسيين نسبة إلى أمهم عدسة بنت مـالك بن عـامر بن عـرف الكلبي، وهذا القصر أول مـا فتح المسلمـون لما غـزوا العراق. على ما قاله بن الكلبي في جمهرة النسب.

(١) الحيرة ليوسف رزق الله غنيمة «ص ٢٥».
(٢) المرجع المذكور «ص ٢٥».

٦ ـ قصر ابن مازن وقصر الطين وقصر بني بقيلة وذكر أن عبد المسيح بن بقيلة لما بنى قصره بالحيرة قال:

لقد بنيت للحدثان قصراً ... لو أن المرء تنفعه الحصون
طويل الرأس أقعس مشمخراً ... لأنواع الرياح به أنين

٧ ـ قصر مقاتل أو قصر بني مقاتل، كان من قصور تلك النواحي، وفيه يقول ابن طخماء الأسدي:

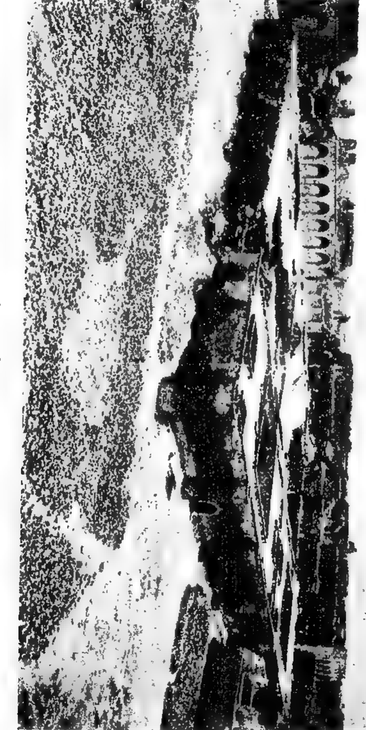
كان لم يكن بالقصر قصر مقاتل ... وزورة ظل ناعم وصديق
وإني وإن كانوا نصارى أحبهم ... ويشتاق قلبي نحوهم ويتوق

٨ ـ القصور الحمر: ألمع إليها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، قال: أتى أبو زيد الطائي إلى الوليد بن عقبة في سنة مجدبة فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام إلى القصور الحمر من الحيرة وجعله له حمى[1].

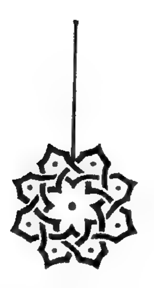
٩ ـ دومة الحيرة، كان فيها حصن وهو حصن الأكيدر السكوني الكندي صاحب دومة الجندل القريبة من المدينة، أجلاه عمر الخطاب ـ رض ـ من دومة فيمن أجلاهم من غير المسلمين إلى الحيرة فنزل في موضع منها قرب عين التمر وبنى به منازل سماها (دومة) وقيل دوماء باسم حصنه بوادي القرى وعرفت بدومة الحيرة[2].

* * *

(١) الحيرة «ص ٢٧».
(٢) معجم البلدان في «دومة».



قصر الأخيضر (الأكيدر)



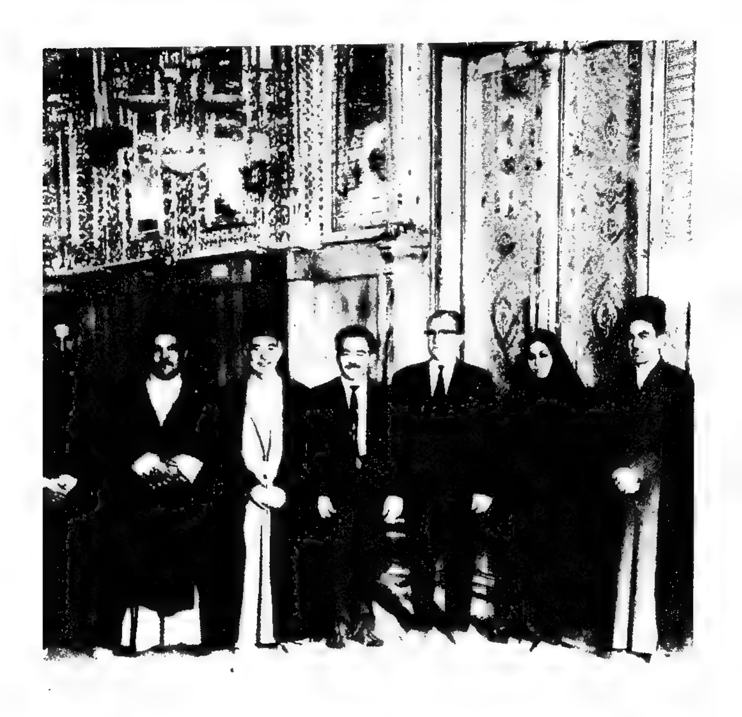
النجف قبل العصر الاسلامي

بقلم

الدكتورة سعاد ماهر محمد[1]

---

(١) مستل من كتاب (مشهد الإمام علي في النجف وما به من الهدايا والتحف) ص ٨٧ ـ ١١٤. ط. دار المعارف بمصر سنة ١٣٨٨هـ، فقد زارت الكاتبة الجليلة... النجف عام ١٣٨٥هـ، وسجلت دراسة مفصلة عن تاريخ النجف في علة فصول كما دونت فصلاً عن التحف والهدايا المخزونة بالمشهد، وهذا الفصل أحد فصول الكتاب وستقرأ البعض من فصوله في صفحات الموسوعة بإذن الله تعالى..



لأول مرة في تاريخ المشهد النجفي يسمح لسيدة أن ترى وتفحص ما به من الهدايا والتحف وفي الصورة تتوسط المؤلفة سدنة المشهد ومندوبي مديرية الآثار العراقية.

النجف
قبل العصر الاسلامي

تقع مدينة النجف على حافة المضبة الغربية التي تفصل العراق عن الحدود الشرقية للمملكة العربية السعودية، فتشغل بحكم موقعها الجغرافي الطبيعي ما بين السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية. ويوجد على حافة المضبة الصحراوية إلى الجنوب الغربي من مدينة النجف منخفض يعرف باسم (بحر النجف)، إذ كان مجرى لسفن النقل الشراعية، قبل أن يتحول إلى بحيرة من أهوار حافات الهضبة الصحراوية التي كانت مناطق لتصريف مياه الهضبة ومياه الفرات. وقد جفت (بحيرة النجف) وأصبحت أرضاً زراعية، نتيجة لصرف مياه الأنهار وترع الري عنها. وفي القرن العشرين أعيد توصيل المياه لهذه المنطقة، وذلك بشق مجرى ـ تابع للسدة الهندية ـ من نهر الفرات، تم إنشاؤه سنة ١٩١٣ م.

وقد جاء في كتاب الإيمان[1] عن بحر النجف ما يلي: «أما منبع بحر النجف فهو منخفض واقع على الفرات من الجنوب الشرقي من الحيرة، عرف في عصورنا الأخيرة باسم (القرنة)، وهو غير (القرنة) الواقعة على ملتقى دجلة والفرات. وقد وجدت الفيضانات العالية في هذه المنخفضات ما يساعد على اندفاع المياه وانحدارها من الفرات إلى المنخفضات الواسعة من الأراضي المتصلة بالحيرة والنجف، وتكون بسبب ذلك (بحر النجف)، وقد تغير بسبب ذلك مجرى نهر الفرات عدة مرات».

---

(١) الساعدي: مجلة الإيمان ص ١، ٢ (عن هامش موسوعة العتبات المقدسة ج١ ص ١٥).

ثم يضيف الساعدي فيقول: «ويتضح من تتبع التاريخ أن محاولات • لسد هذه المنابع وقطع الصلة بين الفرات وبحر النجف قد حدثت بقصد اسـ الأراضي الزراعية وتنظيم طرق المواصلات النهرية، فكان هذا البحر يجف ز يعود مرة أخرى حين تكون مناسيب مياه الفيضان قد تجاوزت الحدود المألوفة تهدم السدود الترابية وتقلعها من أساسها».

وقد عرف بحر النجف في بعض المراجع الدينية باسم (بحر الني). وي ذلك مصطفى جواد[1]: «وهناك من الأخبار التي توردها بعض الكتب الديني يتناقلها الناس عن بحر النجف وهو أنه كان يسمى ببحر (الني) فلما جف (الني حد قولهم قالوا (الني جف) ثم ما لبثت الياء أن سقطت في الاستعمال تخفيفاً ف (نجفاً) ومن هنا جاء اسم (النجف)». ويعقب مصطفى جواد على هذه الرواية ؛ «ومثل هذا الخبر أو الرواية التي أوردتها بعض الكتب يفتقر إلى كثير من الأدلة مقبولة».

وقد ورد في كثير من معاجم البلدان وكتب التراجم والأخبار أن النجف قريباً من بحر فارس، فيذكر ياقوت الحموي[2]: «الحيرة بالكسر ثم السكون كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا أن بحر كان يتصل به»، وقال ابن واضح[3] عند كلامه على الكوفة: «والحيرة منها على أميال، والحيرة على النجف، والنجف على ساحل بحر الملح وكان في قديم الده الحيرة وهي منازل آل بقيلة وغيرهم»، وقال أبو الفداء[4] في وصف الحيرة: « مدينة جاهلية كثيرة الأنهار وهي من الكوفة على نحو فرسخ»، ثم يضيف: « اليوم على موضع يقال له النجف زعم الأوائل أن بحر فارس كان يتصل به، اليوم مسافة بعيدة». ويقول المسعودي[5]: «وكانت الفرات لأكثر من مائة ينت

(١) مصطفى جواد: النجف قديماً ص ١٢ (موسوعة العتبات المقدسة).
(٢) معجم البلدان ص ج٢/ ٣٢٨.
(٣) ابن واضح: البلدان ص ٧٣، ٧٤.
(٤) تقويم البلدان ص ٢٢٩.
(٥) مروج الذهب ج ١ ص ٦٢.

بلاد الحيرة ونهرها بيّن إلى هذا الوقت فيصب في البحر الحبشي في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت تتقدم هناك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك الحيرة».

وهناك كثير من القصص والروايات التي تذكر قرب النجف من البحر في صدر الإسلام، فقد ذكر لنا الشريف المرتضى(١) الحديث الذي دار بين خالد بن الوليد وبين عبد المسيح بن بقيلة الغساني عن الحيرة جاء فيه «(سأل خالد)، كم أتى لك؟ قال (الغساني): خمسون وثلاثمائة سنة، قال: فما أدركت؟ قال: أدركت سفن البحر في السماوة في هذا الجرف ورأيت المرأة تخرج من الحيرة وتضع مكتلها على رأسها لا تزود إلا رغيفاً حتى تأتي الشام، ثم أصبحت خراباً يباباً، وذلك دأب الله في العباد والبلاد». وقد أورد المسعودي(٢) هذه القصة برواية وإن اختلفت عنها في التفاصيل ولكنها اتفقت معها في المقصود، وجاء فيها: «خاطب خالد بن الوليد عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني في أيام أبي بكر بن أبي قحافة قال: ما تذكر؟ قال: أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون، فلما انقطع الماء عن ذلك الموضع انتقل البحر برًّا فصار من البحر في هذا الوقت على مسيرة أيام كثيرة، ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا».

ومن الروايات الطريفة التي تذكر كذلك عن قرب النجف من البحر، ما ذكر ابن الدبيثي(٣) في تاريخه عن لسان عبد الجبار بن معيّة العلوي أنه قال: «خرج قوم من أهل الكوفة يطلبون الأحجار(٤) الغروية يجمعونها لأيام الزيارات والمعيشة بها، وبالكوفة من يعمل ذلك إلى اليوم، وأبعدوا في الطلب إلى النجف وساروا فيه حتى خافوا التيه فوجدوا ساجة كأنها سكان مركب عتيقة وإذا عليها كتابة، فجاؤوا بها إلى الكوفة، فقرأناها، فإذا عليها مكتوب: سبحان مجري القوارب، وخالق الكواكب، المبتلي بالشدة امتحاناً، والمجازي بالإحسان إحساناً، ركبت في البحر في طلب الغنى،

(١) أمالي الشريف المرتضى ج١ ص ١٨٨.
(٢) مروج الذهب ج١ ص ٦٢.
(٣) الروض الأنف ج ٢ ص ٣١٩.
(٤) تعرف عند الشيعة باسم التربة يضعونها أمامهم عند تأدية الصلاة. أقول: لا يبعد أن يراد بالأحجار الدر النجفي المعروف.

ففاتني الغنى وكسر بي، فأفلت على هذه الساجة، وقاسيت أهوال البحر وأمواجه، ومكثت عليها سبعة أيام ثم ضعفت عن مسكها، فكتبت قصتي بمدية كانت معي في خريطتي، فرحم الله عبداً وقعت هذه الساجة إليه فبكى لي، وامتنع عن مثل حالي».

ويرجع جمهور[1] مؤرخي المسلمين في العصور الوسطى السبب في اتصال النجف ببحر فارس إلى الخندق العظيم المنسوب إلى أحد ملوك الفرس الساسان والذي أطلق عليه العرب اسم سابور ذي الأكتاف، ونخص بالذكر من هؤلاء المؤرخين ياقوت الحموي[2] الذي قال: وخندق سابور في برية الكوفة، حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من شرهم، قالوا: كانت هيث وعانات مضافة إلى طوج الأنبار، فلما ملك أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) بلغه أن طوائف من الأعراب يغيرون على ما يقرب من السواد إلى البادية، فأمر بتجديد سور مدينة تعرف بالنسر، كان سابور ذو الأكتاف بناها وجعلها مسلحة تحفظ ما يقرب من البادية، وأمر بحفر خندق من هيث يشق طف البادية إلى الكاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر. وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون ذلك مانعاً لأهل البادية من السواد، فخرجت هيث وعانات بسبب ذلك الخندق من طوج شاه فيروز، لأن عانات كانت قرى مضمومة إلى هيث».

ويجمل الأستاذ الدكتور مصطفى جواد[3] كل ما جاء في المراجع التاريخية ومعاجم البلدان عن قرب النجف من بحر فارس وعن خندق سابور في الفقرة التالية: «ولكننا لا نعد ذلك تصديقاً لوجود بحر حقيقي، وإنما نفهم أن الفرات كان يسبح ماؤه في تلك البطاح ويرفده الخندق الذي شقه سابور ذو الأكتاف (٣١٠ ـ ٣٨٠ م) في غربي الفرات بين أعلى الفرات وغربيه وأسافله، وترفده كذلك الأودية التي تأتي من النجاد الغربية، صحراء السماوة القديمة من شمالي جزيرة العرب، فتكون بطائح

(١) ابن الدبيثي في الروض الأنف ج١ ص ٢٦٥، الزمخشري: الفائق ج١ ص ٥٩٠، النهاية في غريب الحديث والأثر ج٢ ص ٢٦٣، ج ٣ ص ٨، الطبري ج٢ ص ٢٧، ٦٦ ياقوت: معجم البلدان ص ٥٧، المشترك ص ١٦٠، مراصد الاطلاع، البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٩٦، البيان والتبيين ج٢ ص ٢٠٣، الأغاني ٩ ص ٢٨٥.

(٢) معجم البلدان في مادة (خندق).

(٣) النجف قديماً ص ١٥.

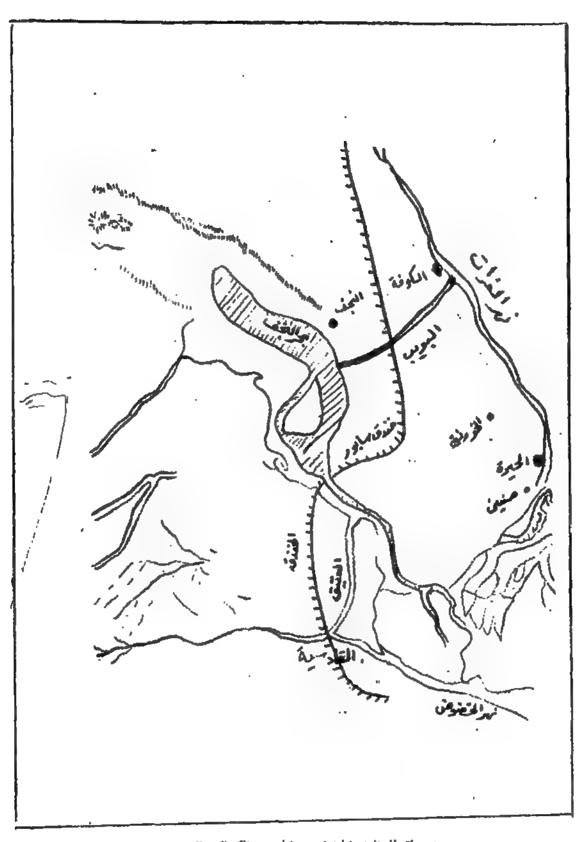
واسعة ترى كأنها البحر وكان من بقاياها «بحر الشنافية» و «بحر النجف» المعروف الإسم حتى اليوم. ولا يبعد اتصال هذه البطائح ببحر فارس، فخندق سابور كان واسعاً وعميقاً ويتصل ببحر فارس في الخليج المعروف اليوم بخور عبد الله، لأنه إنما حفره ووسعه ليحمي بلاده من هجمات العرب الخاطفة ولإخصاب الأرض للأعراب الموالين له».

أما عن النجف في العصر الحديث، فإن ما تركه لنا الرحالة بارلو[1] الذي زار العراق (سنة ١٨٨٩ م ـ ١٣٠٦ هـ) وشاهد نهر الفرات وروافده بنفسه، لخير دليل على أن النجف كانت تقع على بحيرة تسمى (بحر النجف)، إذ يقول: إن النهر المسمى نهر الهندية يجري في الجبهة اليمنى من الفرات وهو يحمل نصف مياه نهر الفرات فيترك مدينة كربلاء، على جهته الغربية، وأطلال بابل في الجهة الشرقية، ثم يصل إلى مدينة النجف فيصب هناك في بحيرة تسمى (بحر النجف) يبلغ طولها (٦٠) ميلاً وعرضها (٣٠) ميلاً. ثم يتكلم على بحر النجف فيقول: «والمياه بعد أن تتجمع في بحر النجف تتغلب عليها المواد المعدنية وتغدو مياهها كمياه البحر مالحة وغير صالحة للإفادة منها، ولكن هذا البحر كان خير طريق للمواصلات بين النجف وسائر جهات العراق، بل حتى بين النجف وخارج العراق». ويقول الأستاذ بارلو: «إن أكثر الزائرين الذين يقدمون من الهند لزيارة الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف كانوا يسلكون طريق الفرات، (فالعطشان) فشط (الشنافية) وإن سفناً كبيرة ذات حمولة تبلغ خمسين طنّاً تمر من هذا الطريق النهري الذي ينتهي بالنجف».

ومدينة النجف تعلو سطح البحر بما يقرب من (٢٣٠) قدماً، ومن هنا جاء إسمها فقد ورد في معاجم[2] اللغة: «وفي بطن الوادي نجفة ونجف وهي مكان مستطيل كالجدار لا يعلوه الماء[3]، وجاء في المخصص[4]: «والنجف والنجاف شيء

---

(١) بارلو: وادي الفرات ومشروع سدة الهندية ج٢ ص ٢٦٥ (هامش موسوعة العتبات المقدسة ص ١٦).
(٢) الجوهري: الصحاح، القاموس المحيط ج٣ ص ٢٠٤، المقاييس ج٥ ص ٣٩٥، ابن منظور: (لسان العرب) ابن فارس.
(٣) الزمخشري: أساس البلاغة.
(٤) ابن سيده: ج١٤ ص ٢٥.



خريطة للمثلث الحضاري (الحيرة ـ الكوفة ـ النجف)

يكون في بطن الوادي شبيه بنجاف الغبيط جنداً وليس بحد عريض، له طول منقاد من بين معوج ومستقيم الماء، والنجفة شبه التل». وقال ابن الأعرابي: «النجفة المسناة، والنجف التل».

وقال الأزهري: «والنجفة التي بظهر الكوفة وهي كالمسناة تمنع ماء السيل أن يعلو منازل الكوفة ومقابرها»[1].

وقد لخص الدكتور مصطفى جواد كل تلك المعاني التي وردت في معاجم اللغة ومعاجم البلدان في تفسير معنى النجف فقال: «وفذلكة الأقوال أن النجف، إنما سمي بهذا الإسم لأنه يعني أرضاً عالية معلومة تشبه المسناة تصد الماء عما جاورها وينجفها الماء من جوانبها أيام السيول، ولكن لا يعلوها كالنجد والسد، وتغلب على شكلها الاستطالة دون الاستدارة»[2].

ويقول الدكتور مصطفى جواد: «الحيرة المدينة العربية المشهورة في تاريخ العرب وجغرافية بلادهم، أنشئت في منطقة النجف، وكان ينبغي أن تضاف إليه فيقال (حيرة النجف) إلا أن العادة جرت بتعريف الغامر بالعامر فأضيف النجف إلى الحيرة فقيل (النجف الحاري) أي «النجف الحيري». ثم استشهد ببعض أبيات من الشعر أوردها ياقوت لبعض أهل الكوفة جاء فيها:

وبالنجف الحاري إن زرت أهله ... مها مهملات ما عليهنّ سائس
خرجن بحب اللهو من غير ريبة ... عفائف باغي اللهو منهن آيس
يردن إذا ما الشمس لم يخش حرها ... ظلال بساتين جناهن يابس
إذا الحر آذهن لذن بفيئة ... كما لاذ بالظل الظباء الكوانس[3]

وإذا كان الدكتور مصطفى جواد يرى ـ كما قال في الفقرة السابقة ـ أن تضاف الحيرة إلى النجف فيقال: «حيرة النجف»، لا «النجف الحاري»، فإن الإضافة في

(١) وقال هذا المعنى تماماً كذلك الفيروزآبادي في القاموس، والمطرزي في المغرب، وفخر الدين الطريحي في مجمع البحرين.
(٢) النجف قديماً: الموسوعة ص ١٠.
(٣) ياقوت: معجم البلدان في (النجف).

التسمية الأولى، والنعت في الثانية، لم تعد ذات موضوع، لأن إسم الحيرة تلاشى بعد الفتح الإسلامي وحل محله إسم البقعة المختارة التي شرفها مرقد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه والتي أخذت إسمها من اسم المنطقة كلها وهي النجف.

وقد يكون من المفيد أن أذكر هنا في إيجاز إمارة الحيرة، فهو في الواقع تاريخ مدينة النجف قبل الإسلام، سواء أكانت هي الأصل والحيرة هي الفرع، أو العكس، وقد يهدينا هذا التاريخ إلى معرفة الأصل من الفرع.

كانت البدو تفد إلى تلك المنطقة لابتياع حاجياتهم، كما يفد عليها جماعات من مدن العراق والجزيرة، وأصبح سكانها في القرن الثالث الميلادي خليطاً من العرب. ولما قامت دولة آل ساسان في فارس سنة ٢٢٦ م، حاولت طرد هؤلاء العرب من تخوم دولتهم، ولكنها لم تستطع ذلك، ورأت من حسن السياسة الانتفاع بهم فأسست إمارة الحيرة في سنة ٢٤٠ م، وعينت عمرو بن عدي بن نصر اللخمي أميراً عليها. وقد بحث بعض المؤرخين تحليل إسمها، فقال بعضهم إنها سميت كذلك من الحيرة أو الضلال، وزعم آخرون أنها سميت الحيرة من الحور، أي شدة البياض، وذلك لبياض أبنيتها، والحقيقة أن إسمها سرياني معناه الحصن أو المعقل.

وكانت العلاقة بين دولة فارس وإمارة الحيرة قائمة على أساس أن يقدم عرب الحيرة الطاعة لملك فارس وهو يولي عليهم أميراً من بينهم، وعليهم أن يصدوا كل من يحاول الإغارة على بلاد فارس من نواحيها، وفي مقابل ذلك يعفون من الإتاوة. وقد ساعدت إمارة الحيرة دولة فارس في حروبها التي شنها على الدولة الرومانية الشرقية، وفي نشر نفوذها في بلاد البحرين واحتلال بلاد اليمن. على أن ملوك الفرس من الساسانيين عدلوا منذ أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع عن سياسة استخدام عرب الحيرة في أغراضهم الحربية والسياسية، كما عمدوا إلى إزالة استقلال هذه المملكة وصاروا يتدخلون في تولية أمرائها وفي سياستها الداخلية، وكان من أثر ذلك أن ضعفت الأداة الحكومية في هذه الإمارة ووقعت الحروب بين قبيلة بكر التي احتمى بها النعمان بن المنذر أمير الحيرة وبين الفرس ومن انضم إليهم من عرب الحيرة ودارت الدائرة فيها على الفرس في واقعة (ذي القار) بالقرب من الأنبار،

وكانت هذه أول انتصار للعرب على الفرس. ولم يمض على هـذا الانتصار الـذي ظفر به العرب وقت طويل حتى استعاد المناذرة سلطتهم عـلى الحيرة فـولى إمارتها المنذر بن النعمان بـن المنذر سنة ٦٢٨ م، وظل والياً عليها حتى فتحها خالد بن الوليد في عهد أبي بكر الصديق.

وتعتبر النجف الحالية ضـاحيـة جميلة من ضـواحي الحـيرة يختلف إليهـا ملوك الساسان وأمراؤها طلباً للراحة والاستجمام، وذلك لطيب مناخها، كما اتخذوها مصحة فقد كان هواؤها عـلاجاً لـلأجسام العليلة. فقـد جاء في البيـان والتبيـين: «ومن أجـل صفـاء المـاء والهـواء وغـداوة الأرض بنى المنـاذرة قصرهم المشهـور (الخـورنق) قـرب النجف»[1]. . وقـد اختلف الكتّاب العـرب في معنى قصر الخورنق الـذي بني بظاهـر الحـيرة (بضاحيـة الحيرة النجف) فمنهم من يقـول إنه عـربي الاشتقـاق من (الخـرنق) ومعناه الصغير من الأرانب، ومنهم من يقول إنه من العـبرية ومعنـاه المزرعـة، وذهب فريق ثالث إلى أنـه فارسي من (كـوورنة) بمعنى ذي السقف الجميـل، على حـين يقول فريق آخر أنه فارسي معرب من (خورن كاه) أي موضـع الأكل والشرب وهـذا المعنى هو الأرجح عند معظم الكتّاب.

وكما اختلف المؤرخون في معنى (الخورنق) كذلك تفرقوا شيعاً وأحزاباً فيمن بنى هـذا القصر، وإن كانـوا قد أجمعـوا على أنـه بني بظاهـر الحيرة في مكـان صحي وهـو (النجف) فيقول البعض إن الذي أمـر ببناء الخـورنق هو النعـمان بن امرىء القيس، فقد جاء في معجم[2] البلدان: «الخورنق الذي عليه أهل الأثـر والأخبار أن الخـورنق قصر كان بظهر الحيرة. وقد اختلفوا في بانيه فقـال الهيثم بن عدي: الـذي أمر ببنـاء الخـورنق النعمان بن امـرىء القيس بن عمرو بن عـدي بن نصر بن الحـارث بن لخم» ويضيف «ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق في ستين سنة، بنـاه له رجـل من الروم يقال له سنمار». ويقول البعض الآخر: إن بهرام جور بن يزدجرد هو الذي أمر ببنائه، إذ يقول ابن الكلبي[3]: «صاحب الخورنق والذي أمر ببنائه بهرام جور بن يزدجرد بن

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج٢ ص ٢٠٣.
(٢) ياقوت ص ٢/ ٤٠١.
(٣) ابن الكلبي: الأصنام ص ٧٩.

سابور ذي الأكتاف، وذلك أن يزدجرد كان لا يبقى له ولد، وكان لحق إبنه بهرام جور في صغره علة تشبه الاستسقاء فسأل عن منزل مرىء، صحيح من الأدواء والأسقام ليبعث بهرام إليه خوفاً من العلة، فأشار عليه أطباؤه أن يخرجه من بلده إلى أرض العرب ويسقى أبوال الإبل وألبانها، فأنفذه إلى النعمان وأمره أن يبني له قصراً مثله على شكل بناء الخورنق فبناه له وأنزله إياه وعالجه حتى برىء من مرضه، ثم استأذن أباه في المقام عند النعمان فأذن له فلم يزل عنده نازلاً قصره الخورنق حتى صار رجلاً». وفريق ثالث[١] ينفي نسبته إلى النعمان اللخمي، ويقول: إن تاريخه يرجع إلى تاريخ أبعد قدماً. كما نفوا أن يكون المهندس الذي قام بالبناء سنمار، الذي يرجح أن يكون شخصية أسطورية[٢].

ويقال إن قصر الخورنق كان من روائع الفن المعماري في العصر الساساني، فقد ورد في وصفه، أنه كان يتلألأ ليلاً ونهاراً بالألوان المختلفة، فيظهر في الصباح أزرق اللون، وفي الظهيرة أبيض اللون، وفي العصر أصفر. وكان مما زاد في بهاء قصر الخورنق وروعته موقعه الطبيعي، فكان يشرف على النجف وما يليه من البساتين والأنهار من ناحية الغرب وفي تجاهه نهر الفرات ولذلك افتتن به بعض الشعراء ونظموا القصائد في الإشادة بذكره. وظل قصر الخورنق قائماً ـ كما يظهر ذلك من أقوال الشعراء ـ حتى بعد الفتح الإسلامي، وأدخل عليه ولاة الكوفة كثيراً من الإصلاحات. ويذكر أبو بكر أحمد بن مروان المالكي، بسنده عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: «دخلت على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، بالخورنق وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل بنفسك هذا؟ فقال: إني والله لا أرزأ من أموالكم شيئاً وهذه القطيفة التي أخرجتها من بيتي (أو قال): من المدينة»[٣].

وهناك قصر آخر بمنطقة النجف يلي الخورنق في العظمة والبهاء، هو قصر السّدير، ويقرن إسمه في كثير من الأحيان بالخورنق في قصائد الشعراء وروايات

(١) الطبري ص ٨٥٥. Rothestein: P.76, Noeldeke: P.86.

(٢) Arthur Christensen: L'Iran sous les Sassanides, P. (444)

(٣) المجالسة «مخطوط بمكتبة باريس رقم (٣٤٨١) ورقة ٥ عن موسوعة العتبات المقدسة ص ٢٥».

المؤرخين، وينسب بناء هذا القصر إلى النعمان ابن امرىء القيس. وفي ذلك يقول عدي بن زيد:

وتبين رب الخورنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره ما رأى وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضاً والسّدير
فارعوى قلبه وقال فما غبـ ـطة حيٍّ إلى الممات يصير

وقد اختلف المؤرخون في تعيين موقع بناء السدير، فذهب فريق إلى أن الخورنق والسّدير، كانا في مكان واحد، وأنه يطلق عليهما اسم الخورنق، وهناك من يقول إن الخورنق كان في بقعة غير البقعة التي بني فيها السدير. كما اختلف في تفسير معنى السدير، فقال البعض إنه عربي من قولنا أرى سدير نخل أي سواده وكثرته، لكن الأصح أنه فارسي معرب، ويتكون من كلمتين (سه) بمعنى ثلاثة و (دير) بمعنى قبة، فيكون المعنى هو البيت المعقود عليه ثلاث قباب.

ويفهم من بعض القصص والروايات التي ذكرتها معاجم البلدان أن الخورنق والسدير يقعان في منطقتين متقابلتين على حدود الحيرة، فقد جاء في حديث ياقوت عن دير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرقة، الرواية التالية: «قال هشام بن الكلبي، كان كسرى قد غضب على النعمان بن المنذر فحبسه فأعطت بنته هند عهداً لله إن رده الله إلى ملكه أن تبني ديراً تسكنه حتى تموت، فخلى كسرى عن أبيها النعمان فبنت الدير وأقامت به إلى أن ماتت ودفنت فيه. وهي التي دخل عليها خالد بن الوليد لما فتح الحيرة فسلمت عليه، وقد دار بينهما حديث طويل جاء فيه: «قال لها، أخبريني بشيء أدركت قالت: ما طلعت الشمس بين الخورنق والسدير إلا على ما هو تحت حكمنا، فما أمسى حتى صرنا خولاً لغيرنا»[1].

كذلك ذكر بعض الشعراء في قصائدهم صراحة أن الخورنق يقع في الشمال والسدير في الجنوب فقد جاء في ياقوت[2] هذه الأبيات:

---

(١) ياقوت ج ٢ ص ٦٤٢.
(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٧.

يا دار غير رسمها مرّ الشمال مع الجنوب
بين الخورنق والسدير فبطن قصر أبي الخصيب
فالدير فالنجف الأشم جبال أرباب الصليب

وعلى أية حال فقد بلغ من شهرة هذين القصرين أن أصبح طرازهما علماً على طراز الحيرة المعماري، واشتهر بين العرب باسم الطراز الحيري، وقد أكثر خلفاء الدولة العباسية من استعماله في مبانيهم الخاصة والعامة، وفي ذلك يقول المسعودي(١): «أحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري وذي الكمين والأروقة، وذلك أن بعض ندمائه حدثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً في دار قراره وهي الحيرة على صورة حرب لئلا يغيب عنه ذكره، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنه وميسره، ويعلو كل منها قبة فسمي السدير»(٢).

ويقول الشابشتي(٣): السدير قصر عظيم من أبنية ملوك لخم في قديم الزمان وما بقي الآن منه فهو ديارات وبيع للنصارى. وقد ذكر علي بن محمد الحماني العلوي بعض هذه المواضع في قصيدته التي جاء فيها:

كم وقفة لك بالخورنق لا توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السدير إلى ديارات الأساقف
فمدارج الرهبان في أطمار خائفة وخائف
دمن كأن رياضها يكسين أعلام المطارف
وكأنما غدرانها فيها عشور في مصاحف

أما عن قصور إمارة الحيرة فهي كثيرة تزخر بها معاجم(٤) البلدان وكتب التراجم والأخبار، وقد عنى بجمع المهم منها الدكتور مصطفى جواد(٥)، ولما كان حديثنا عن

(١) مروج الذهب ص ٢١٢.
(٢) الديارات ص ١٥٢.
(٣) العمري: مسالك الأبصار ج١ ص ٢٨٥، ياقوت ج ٢ ص ٦٤٢.
(٤) البلاذري ص ٢٦٥، ياقوت ج ٤ ص ١٠٩ ج٤ ص ٨٠٧، الكامل ج١ ص٢٩٩، ابن الأثير ج١ ص ٢٨٥.
(٥) موسوعة العتبات المقدسة (قسم النجف ص ٥٨).

مدينة النجف خاصة فقد رأيت أن أذكر أسماء تلك القصور فقط دون التعرض إلى وصفها وهي:

(١) **القصر الأبيض**: يقول ياقوت هو من قصور الحيرة، كما عرف باسم أبيض النعمان، ويقول أبو الفرج الأصفهاني[1]: إن صاحب القصر الأبيض هو جابر بن شمعون أسقف الحيرة أحد بني أوس بن قلام.

(٢) **العذيب والصنبر**: من قصور الحيرة بناهما امرؤ القيس بن النعمان بقرب الفرات للنزهة.

(٣) **قصر الزوراء**: اختلف في اسم بانيه وإن كان المرجح هو النعمان بن المنذر وفيه يقول النابغة الذبياني:

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه — وسيف أعرته المنية قاطع
وتسقى إذا ما شئت غير مصرد — بزوراء في أكنافها المسك كارع

(٤) **قصر مقاتل**: أو بني مقاتل: وفيه يقول ابن طخماء الأسدي:

كأن لم يكن بالقصر قصر مقاتل — وزورة ظل ناعم وصديق
وإني وإن كانوا نصارى أحبهم — ويشتاق قلبي نحوهم ويتوق

وقصر الفرس والقصور الحمر وقصر ابن مازن وقصر الطين وقصر بني بقيلة وغيرها كثير.

* * *

وقد كان لموقع مدينة النجف الجغرافي على اعتبار أنها ضاحية الحيرة وتطرفها في الصحراء أثر كبير في انتشار الأديرة المسيحية فيها، ومن أشهرها الأديرة الآتية: دير الأسكون، ويقول ياقوت[2]: وهو بالحيرة راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم وعليه سور عال حصين، وعليه باب حديد ومنه يهبط

(١) يوسف رزق الله غنيمة: الحيرة ص ٢٥.
(٢) معجم البلدان ج٢ ص ٦٩٢.

إلى غدير بالحيرة، أرضه رضراض ورمل أبيض وله مشرعة تقابل الحيرة لها ماء إذا انقطع النهر كان منها شرب أهل الحيرة.

ويعتبر دير فاثيون في أعلى النجف ودير ابن مزعوق في جنوبها من أشهر أديرة الحيرة قال فيها الشاعر محمد بن عبد الرحمن الثرواني[١]:

قلت له والنجوم طالعة في ليلة الفصح أول السحر
هل لك في مار فاثيون وفي دير ابن مزعوق غير مختصر
يفيض هذا النسيم من طرف الشام ودر الندى على الشجر

وقال ياقوت: «دير المزعوق ويقال دير ابن مزعوق وهو قديم بظاهر الحيرة» وجاء في المسالك: «دير ابن مزعوق هو بالحيرة قريب من دير الحريق، في أنزهة البقاع زهراً، ورقيق هواء ودفق ماء». ويقول الشابشتي[٢]: «ودير فاثيون أسفل النجف ودير ابن مزعوق بحذاء قصر عبد المسيح بأعلى النجف».

أما دير (مارت مريم) فيقول ياقوت[٣] في معجم البلدان: «دير قديم من بناء آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب مشرف على النجف، وفيه يقول الثرواني:

بمارت مريم الكبرى وظل فنائها فقف
فقصر أبي الخصيب المشـ ـرف المرخى على النجف
فأكناف الخورنق والسديـ ـر ملاعب السلف

وقال أبو إسحاق المَوْصلي[٤]: «لما خرجت مع الواثق إلى النجف درنا بالحيرة ومررنا بدياراتها فرأيت دير مريم بالحيرة فأعجبني موقعه وحسن بنائه فقلت:

نعم المحل لمن يسعى للذته دير لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماء غير ذي أسن وقاصرات كأمثال الدمى حور

(١) المسالك ج١ ص ٣١٥.
(٢) الديارات ص ١٤٩.
(٣) ياقوت ج ٢ ص ٦٩٢.
(٤) الأغاني ج ٥ ص ٤٢٧.

وجاء في مسالك الأبصار(١): «دير مارت مريم، هو بالحيرة من بناء المنذر، وهما ديران متقابلان وبينهما مدرجة الحاج وطريق السابلة إلى القادسية، وهما مشرفان على النجف ومن أراد الخورنق عدل عن جادتها ذات اليسار».

ومن الأديرة المشهورة ديارات الأساقف وصفها الشابشتي(٢) فقال: «هذه الديارات بالنجف بظاهر الكوفة وهو أول الحيرة، وهو إما قباب أو قصور تسمى ديارات الأساقف، وبحفرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر، وعن شماله السدير، وبين ذلك الديارات. وقصر أبي الخصيب هذا أحد متنزهات الدنيا وهو مشرف على النجف وعلى ذلك الظهر، ويصعد من أسفله على درجة طولها خمسون مرقاة إلى سطح حسن ومجلس؛ فيشرف الناظر على النجف والحيرة من ذلك الموضع، ثم يصعد منه على درجة أخرى طولها خمسون مرقاة إلى سطح فسيح ومجلس عجيب، وأبو الخصيب هذا مولى أبي جعفر المنصور وحاجبه».

وجاء في تاريخ الطبري(٣) في حديثه عن النعمان بن المنذر ما يلي: «كان النعمان، قد غزا الشام مراراً فذكر أنه جلس يوماً في مجلسه من الخورنق فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار، مما يلي المغرب، وعلى الفرات مما يلي المشرق. وهو على متن النجف في يوم من أيام الربيع فأعجبه ما رأى من الخضرة والنور والأنهار».

ومن آثار النجف الهامة التي كثر ذكرها في المراجع العربية الغريان، وذلك لقربها من قبر الإمام عليّ رضوان الله عليه، وقد اتفقت المراجع(٤) جميعها على أنه نصب تذكاري بظاهر الكوفة قرب قبر الإمام علي، فيقول ياقوت(٥): «الغريان، تثنية الغري وهي المطلي بالغراء. والغري نصب كان يذبح عليه العتائر، والغريان طربالان وهما بناآن كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر الإمام عليّ بن أبي طالب بناهما

(١) ابن فضل الله العمري ج١ ص ٣١٧.
(٢) الديارات ص ١٥٢.
(٣) تاريخ الطبري ج١ ص ٨٥٣.
(٤) ابن فضل الله العمري ج١ ص ٣١٧، الأغاني ج٢ ص ٣٤٦، أبو علي القالي في الأمالي ج١ ص ١٧٧.
(٥) معجم البلدان ص ٤/ ١٩٦.

المنذر بن امرىءالقيس بن مـاء السماء». أمـا السبب في بناء هـذا النصب التـذكـاري فيسرد ياقوت رواية أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة جاء فيها: وكان السبب في ذلـك أنه كان له نديمان من بني أسد يقـال لأحدهمـا خالـد بن نضلة والآخر عمـر بن سعود فثملا فراجعا الملك ليلة في بعض كلامه، فأمر وهو سكران فحفر لهما حفرتـان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين. فلما أصبح الصباح استدعاهما، فأخبر بالـذي أمضاه فيهـما فغمه ذلك وقصد حفرتهما وأمر ببناء طـربالـين عليهما وهمـا صومعتـان، فقال المنـذر: ما أنـا بملك إن خالف الناس أمري، لا يمر أحـد من وفود العـرب إلا بينهما، وجعـل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم، يذبح في يوم بؤسه كل ما يلقاه ويغري بدمه الطربالين».

ويضيف عـلى ذلك المسعـودي[1] قصصاً أقـرب إلى الأسطورة منهـا إلى الحقيقة فيقول: «وسن (الملك) أن لا يمر بهـما أحد من الملك فمن دونـه إلا سجد لهـما، وكان إذا سن الملك سنة توارثوها، وأحيوا ذكرها ولم يميتوها، وجعلوها عليهم حكـماً واجباً، وفرضاً لازماً، وأوصى بها الآباء أعقابهم، فعبر الناس بذلك دهـراً طويـلاً لا يمر أحـد من صغـير ولا كبير إلا سجـد لهما، فصـار ذلك سنـة لازمة كـالشـريعة والفـريضة، وحكم فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يحكم لهما بخصلتين يجاب إليهما كائنـاً ما كـان» ويستمر المسعـودي في سرد باقي الأسـطورة مبيناً مـا حدث (لقصـار) امتنع عن السجود فحكم عليه بالإعدام، وعندما طلب إليـه أن يذكـر خصلتين، تحـايل في طلبـه حتى نجا من عقوبة القتل.

ويقال إن مدينة النجف كانت ولا تزال تشتهر بوجود نـوع من الصخر الشفـاف في المناطق المرتفعة بها، فقد ورد في قصيدة علي بن محمد الحماني العلوي التي يذكر فيها النجف وما بها من عمائر البيت التالي:

دريـة الحـصـبـاء كـأ نَّ فـوريـة فيهـا المشـارف

ويضيف الدكتور مصطفى جواد[2]، أنه نسبه إلى وجود هذا النـوع من الصخر في أرض النجف قد سمى المصريون «الثريا النورية الصنـاعية» بـاسم (النجفة). وبما

(١) مروج الذهب ج٢ ص ٢٥٢.
(٢) الموسوعة ص ٥١ (هامش).

أن (النجفة) تعلق في أعلى الغرف، فأصبحت بالإضافة إلى شفافية صخرها مرتفعة تشرف على ما حولها فأصبحت إسماً على مسمى.

وكما كانت النجف ذات مركز ممتاز بالنسبة لإمارة الحيرة العربية قبل الإسلام، كانت كذلك ذات أهمية خاصة بالنسبة للفتوحات الإسلامية. فقد نزل بها القائد العربي خالد بن الوليد هو وقواده الذين شاركوا في فتح منطقة الحيرة. فقد جاء في فتوح البلدان «أن أبا بكر رضي الله عنه كتب إلى خالد بن الوليد المخزومي يأمره بالمسير إلى العراق، وكتب أبو بكر إلى المثنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه». وأقبل خالد إلى مجتمع الأنهار فلقيه أراذبة صاحب مسالح كسرى فيما بينه وبين العرب، فقاتله المسلمون وهزموه ثم نزل خالد خفان، ويقال بل سار قاصداً إلى الحيرة فخرج إليه عبد المسيح بن عمر بن قيس بن حيان بن بقيلة، واسمه بقيلة الحارث وهو من الأزد، وهانىء بن قبيصة بن مسعود الشيباني، وأباس بن قبيصة الطائي، ويقال فروة بن إياس. وكان إياس عامل كسرى أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر فصالحوه على مائة ألف درهم، ويقال على ثمانين ألف درهم في كل عام، وعلى أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس». وقد اشترط أهل الحيرة من النصارى «أن لا يهدم لهم بيعة ولا قصراً». وروى أبو مخنف عن أبي المثنى الوليد بن القطامي وهو الشرقي بن القطامي الكلبي: أن عبد المسيح استقبل خالداً وكان كبير السن فقال له خالد: من أين أقصى أثرك يا شيخ؟ قال: من ظهر أبي، قال: فمن أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال: ويحك في أي شيء أنت؟ قال: في ثيابي. قال: ويحك على أي شيء أنت؟ قال: على الأرض. قال: أتعقل؟ قال: نعم وأقيد. قال: ويحك إنما أكلمك بكلام الناس. قال: وأنا إنما أجيبك جواب الناس. قال: أسلم أنت أم حرب؟ قال: بل سلم. قال: فما هذه الحصون؟ قال: بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم. ثم تذاكرا الصلح فاصطلحا على مائة ألف يؤدونها في كل سنة، فكان الذي أخذ منهم أول مال حمل إلى المدينة من العراق. واشترط عليهم أن لا يبغوا المسلمين غائلة، وأن يكونوا عيوناً على أهل فارس وذلك سنة ١٢ هـ». وفي رواية أخرى للحسين بن الأسود عن يحيى بن آدم قال: «سمعت أن أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل، فألزم كل رجل منهم أربعة عشر درهماً وزن خمسة، فبلغ ذلك

أربعة وثمانين ألفاً وزن خمسة، تكون ستين وزن سبعة، وكتب لهم بذلك كتاباً قد قرأته». وفي رواية ثالثة عن يزيد بن نبيشة العامري أنه قال: «قدمنا العراق مع خالد بن الوليد فانتهينا إلى مسلحة العذيب ثم أتينا الحيرة وقد تحصن أهلها في القصر الأبيض وقصر ابن بقيلة وقصر العدسيين، فأجلنا الخيل في عرصاتهم ثم صالحونا».

وقالوا[١] في رواية رابعة: «وبعث خالد بن الوليد بشير بن سعد أبا النعمان بن بشير الأنصاري إلى بانقيا، فلقيته خيل الأعاجم عليها فرخبنداذ فرشقوا من معه بالسهام وحمل عليهم فهزمهم، وقتل فرخبنداذ، ثم انصرف وبه جراحة انتقضت به وهو بعين التمر، فمات منها. ويقال إن خالداً لقي فرخبنداذ بنفسه وبشير معه. ثم بعث خالد جرير بن عبد الله البجلي إلى أهل بانقيا؛ فخرج إليه بصبهرى بن صلوبا فاعتذر إليه من القتال وعرض الصلح فصالحه جرير على ألف درهم وطيلسان» وقالوا: «وكتب خالد لبصبهرى بن صلوبا كتاباً ووجه إلى أبي بكر بالطيلسان مع مال الحيرة وبالألف درهم، فوهب الطيلسان للحسين بن علي رضي الله عنهما».

وجاء في الطبري[٢] في حوادث سنة ١٢هـ: «أن أبا بكر كتب إلى خالد بن الوليد يأمره أن يسير إلى العراق، فمضى خالد يريد العراق حتى نزل بقريات من السواد يقال لها بأبقيا وبأروسما وأليس، فصالحه أهلها، وكان الذي صالحه عليها ابن صلوبا وذلك في سنة اثنتي عشرة، فقبل منهم خالد الجزية وكتب لهم كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادي ومنزله بشاطىء الفرات، إنك آمن بأمان الله إذا حقن دمه بإعطاء الجزية وقد أعطيت من نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان في قريتك بأنقيا وبأروسما ألف درهم فقبلتها منك ورضي من معي من المسلمين بها منك ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ وذمة المسلمين على ذلك».

ثم واصل خالد بن الوليد السير حتى نزل الحيرة «فخرج إليه أشرافهم مع قبيصة بن أياس بن حية الطائي، وكان أمرّه عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر، فقال

---

(١) البلاذري ص ٢٥٣، ٢٥٤.
(٢) الطبري ج٢ ص ٥٥٦.

له خالد ولأصحابه أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منهم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم، فقال له قبيصة بن أياس: ما لنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية، فصالحهم على تسعين ألف درهم، فكانت أول جزية وقعت بالعراق هي والقريات التي صالح عليها ابن صلوبا. وجاء في حوادث يوم المقر وفم فرات بادقلى[1]: «لما أصاب خالد ابن الأراذبة على فم فرات بادقلى قصد للحيرة واستلحق أصحابه وسار حتى نزل بين الخورنق والنجف، فقدم خالد الخورنق وقد قطع الأراذبة الفرات هرباً من غير قتال، وإنما حداه على الهرب أن الخبر وقع إليه بموت أردشير ومصاب إبنه وكان عسكره بين الغريين والقصر الأبيض، ولما تتام أصحاب خالد إليه بالخورنق، خرج من العسكر حتى يعسكر بموضع عسكر الأراذبة بين الغريين والقصر الأبيض، وأهل الحيرة متحصنون، فأدخل خالد الحيرة الخيل من عسكره، وأمر بكل قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم، فكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائي، وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر العدسيين وفيه عدي ابن عدي المقتول، وكان ضرار بن مقرن المزني عاشر عشرة إخوة له محاصراً قصر بني مازن، وفيه إبن أكال، وكان المثنى محاصراً قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح، فدعوهم جميعاً، وأجلوهم يوماً، فأبى أهل الحيرة ولجوا فناوشهم المسلمون».

وتدل أحداث الحرب التي دارت بين جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وبين أهل الحيرة عامة والنجف خاصة، أن معظم أهل النجف كانوا من العرب العاربة أو العرب المتعربة وأن لغتهم هي العربية فقط. فقد حدث عندما استولى المسلمون على قصور النجف، أن عهد خالد بن الوليد إلى أمرائه أن يدعوا أهل النجف إلى إحدى ثلاث، الإسلام أو الجزية، أو المنابذة، فاختاروا المنابذة، فلما دارت الدائرة على أهل النجف، وأكثر المسلمون فيهم القتل، نادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم، فنادى أهل القصور يا معشر العرب، قد

(١) الطبري ج٢ ص ٥٦٤.

قبلنا واحدة من ثلاث، فادعوا بنا، وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً»، فأرسلهم الرؤساء إلى خالد مع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين وبدأ بأصحاب عدي، وقال: ويحكم! ما أنتم؟ أعرب؟ فما تنقمون من العرب! أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى متعربة، فقال: لو كنتم كما تقول لما تحادونا وتكرهوا أمرنا. فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية، فقال: صدقت، وقال: اختاروا واحدة من ثلاث، أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية أو المنابذة والمناجزة».

ومما يؤكد أن العربية كانت لغتهم تلك القصيدة التي قالها ابن بقيلة[(١)] بعد خضوعهم لجيش المسلمين جاء فيها:

أبعد المنذرين أرى سواما تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى قلوصاً بين مرة والحفير
تقسمنا القبائل من معد علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال فيوم من مساءة أو سرور

وتجمع المراجع العربية[(٢)] على أن أهل مكة تعلموا الخط العربي عن أهل الحيرة، وقد ذكر ذلك البلاذري[(٣)] مفصلاً عند كلامه على نشأة الخط العربي إذ قال: «حدثني عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن جده قال: اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقة وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ثم

(١) بقيلة هو الإسم الذي أطلق على عمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن الحارث، وإنما سمي بهذا الإسم لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين فقالوا: يا حار ما أنت إلا بقيلة خضراء ـ وفي هذه التسمية ما يدل على أن لغتهم هي العربية كذلك. (الطبري ج٢ ص ٥٦٥).
(٢) النديم ص ٧٣، القلقشندي ج٢ ص ٣٤، جورجي زيدان ج٣ ص ٣٧.
(٣) البلاذري ص ٤٧٦.

تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار. وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي، ثم السكوني صاحب دومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانيًّا، فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ثم رحل إلى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فسألاه أن يعلمها الخط فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتباه، ثم إن بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي، فتعلم الخط منهم وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضى فتعلم الخط منه عمرو بن زاررة بن عدس فسمى عمراً الكاتب.

وسكن الحيرة قبائل أصيلة في عروبتها، كما سكنها أيضاً من يرجع إلى بطون قريش، فقد ذكر بعض نقبائهم في الكتاب الذي كتبه إليهم خالد بن الوليد وجاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد، عديًّا وعمراً ابني عدي، وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال ـ وهم نقباء أهل الحيرة، رضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ـ عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا، رهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها، فإنه لم يمنعهم، فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة. وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة، ودفع الكتاب إليهم».

ولكن أهل الحيرة سرعان ما ارتد معظم من أسلم منهم عن الإسلام بعد موت الخليفة أبي بكر، كما نقضوا العهد والميثاق الذي عقده معهم خالد بن الوليد. وفي ذلك يقول الطبري في تاريخه: «فلما كفر أهل السواد بعد موت أبي بكر استخفوا بالكتاب وضيعوه، كفروا فيمن كفر، وغلب عليهم أهل فارس، فلما افتتح المثنى ثانية، أدلوا بذلك، فلم يجبهم إليه وعاد بشرط آخر، فلما غلب المثنى على البلاد كفروا وأعانوا واستخفوا وأضاعوا الكتاب».

وفي ذلك قال القعقاع بن عمرو في أيام الحيرة:

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة وأخرى بأنباح النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً وبالثنى قرني قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كاد عرشهم يميل بهم، فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا إلى الريف من أرض العريب المقانف

ولما استخلف عمر بن الخطاب، وجه أبا عبيد بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيدة بن عوف بن ثقيف إلى العراق في ألف، وكتب إلى المثنى بن الحارثة يأمره بتلقيه والسمع والطاعة له(١). ولما بلغ الفرس اجتماع العرب بعثوا إليهم رستم المعروف باسم ذي الحاجب، فأمر أبو عبيد بالجسر فعقد وأعانه على عقده أهل بانقيا، ويقال إن ذلك الجسر كان قديماً لأهل الحيرة يعبرون عليه إلى ضياعهم، فأصلحه أبو عبيد وذلك أنه كان معتلاً مقطوعاً، ثم عبر أبو عبيد والمسلمون من المروحة على الجسر فلقوا رستم وهو في أربعة آلاف مدجج، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكثرت الجراحات وفشت في المسلمين ودارت الدائرة عليهم. وكانت وقعة الجسر يوم السبت في آخر شهر رمضان سنة ١٣هـ.

وبعث المثنى بعد الجسر فيمن يليه من الممدين فتوافوا إليه في جمع عظيم، وبلغ رستم ذلك وأتته العيون به وبما ينتظرون من الأمداد. وأرسل المثنى إلى جرير ومن معه: «إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجلوا اللحاق بنا، موعدكم البويب» وكان جرير ممدًّا له، وكتب إلى عصمة ومن معه، وكان ممدًّا له بمثل ذلك وإلى كل قائد أظله بمثل ذلك، وقال: «خذوا على الجوف، فسلكوا القادسية والجوف، وسلك المثنى وسط السواد، فطلع على النهرين ثم على الخورنق، وطلع عصمة على النجف، ومن سلك معه طريقه، وطلع جرير على الجوف ومن سلك معه طريقه، فانتهوا إلى المثنى، وهو على البويب».

ثم كتب المسلمون إلى عمر بن الخطاب يعلمونه كثرة من تجمع لهم من أهل

(١) البلاذري ص ٢٥٩.

فارس ويسألونه المدد، فأراد أن يغزو بنفسه وعسكر لذلك، فأشار عليه العباس بن عبد المطلب وجماعة من مشايخ أصحاب رسول الله ﷺ بالمقام وتوجيه الجيوش والبعوث، ففعل ذلك ووجه سعد[١] بن أبي وقاص، وكان رجلاً شجاعاً له خبرة ودراية بشؤون الحرب والرماية.

وأقبل رستم قائد جيوش الفرس فأقام بين الحيرة والسيلحين، وأمر الجالنوس بالتقدم إلى الحيرة، «فمضى وضرب فسطاطه بالنجف، وخرج رستم حتى ينزل بكوفي، وكتب إلى الجالنوس والأزادمرد: أصيبا لي رجلاً من العرب من جند سعد. فخرجا في سرية حتى انتهيا إلى القادسية، فأصابا رجلاً دون قنطرة القادسية فاختطفاه، فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم. فلما انتهيا إلى النجف سرحا به إلى رستم وهو بكوش، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال: جئنا نطلب موعد الله، قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناءكم ودماءكم إن أبيتم أن تسلموا. قال رستم: فإن قتلتم قبل ذلك؟ قال: في موعد الله أن من قتل منا قبل ذلك أدخله الجنة، وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك، فنحن على يقين. فقال رستم: قد وضعنا إذاً في أيدكم، قال: ويحك يا رستم، إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تحاول الإنس إنما تحاول القضاء والقدر»[٢]. فاستشاط رستم غضباً فأمر به فضربت عنقه.

ثم خرج ونزل بحيال دير الأعور، ثم انصب إلى الملطاط، فعسكر مما يلي الفرات بحيال أهل النجف بحيال الخورنق إلى الغريين، ودعا بأهل الحيرة فأوعدهم وهمَّ بهم، فقال له ابن بقيلة: لا تجمع علينا اثنتين: أن تعجز عن نصرتنا، وتلومنا على الدفع عن أنفسنا وبلادنا. فسكت».

ومن القصص التي تواترت في المراجع العربية[٣] «أن رستم لما نزل بالنجف، رأى كأن ملكاً نزل من السماء، ومعه النبي ﷺ وعمر، فأخذ الملك سلاح أهل

(١) البلاذري ص ٢٦٤.
(٢) الطبري ج٣ ص ٥٠٨.
(٣) الكامل في التاريخ ج٢ ص ٣٥٥، البلاذري ص ٢٦٤، الطبري ج٣ ص ٥٠٩.

فارس، فختمه ثم دفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدفعه الرسول عليه السلام إلى عمر. فأصبح رستم حزيناً، وأرسل سعد السرايا ورستم بالنجف والجالنوس بين النجف والسيلحين. ويزيد الطبري على هذه الرواية. أن هذه الرؤيا عاودته للمرة الثانية في النجف.

وكتب عمر إلى سعد يأمره أن يبعث إلى عظيم الفرس قوماً يدعونه إلى الإسلام، فوجه عمرو بن معدي كرب، والأشعث بن قيس الكندي في جماعة، فمروا برستم فأتى بهم فقال: أين تريدون؟ قالوا: صاحبكم، ثم أتوا الملك ودعوه إلى الإسلام فغضب وأمرهم بالإنصراف، وقال: «لولا أنكم رسل لقتلتكم وكتب إلى رستم يعنفه على إنفاذهم إليه»[(١)].

وجاء في الكامل في التاريخ[(٢)] عن أحداث السنة الرابعة عشرة للهجرة «أنه بعد مسير الوفد إلى يزدجرد، أغار سواد بن مالك التميمي على النجاف والفراض، فاستاق ثلاثمائة دابة، من بغل وحمار، وثور وأوقرها سمكاً. وصبح العسكر فقسمه سعد بين الناس، وهذا يوم الحيتان». كذلك جاء في الطبري[(٣)]: «أن عمر كان يمدهم بالأسواق إلى ما يصيبون فلما رأى ذلك الملك ورستم وعرفوا حالهم، وبلغهم عنهم فعلهم، علم أن القوم غير منتهين، وأنه إن أقام لم يتركوه، فرأى أن يشخص رستم، ورأى رستم أن ينزل بين العتيق والنجف، ثم يطاولهم مع المنازلة، وخاصة أن سرايا المسلمين أخذت تطوف، ورستم بالنجف والجالنوس بين النجف والسيلحين».

وهكذا يبدو واضحاً أن النجف كانت مسرحاً للوقائع الحربية والفتوحات الإسلامية التي دارت رحاها في العراق، فبالقرب منها وقعت المعركة الفاصلة في تاريخ الدولة الإسلامية، تلك هي معركة القادسية في آخر عام ١٦هـ[(٤)]. وتقع القادسية

(١) البلاذري ص ٢٦٦.
(٢) الكامل في التاريخ جـ٢ ص ٥٤.
(٣) الطبري ج٣ ص ٥١٠.
(٤) الطبري ج١ ص ١١٩، البلاذري ص ٢٦٥.

بين الكوفة والعذيب، وقد انتصر المسلمون في تلك الموقعة المشهورة، انتصاراً عظيماً، وفتحوا السواد، وقال بشر بن ربيعة في ذلك تلك الموقعة:

ألم خيال من أميمة موهناً ... وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها ... حجازية أن المحل شطير
فزارت غريباً نازحاً حل ماله ... جواد ومفتوق الغرار طرير
وحلت بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص عليّ أمير
تذكر هداك الله وقع سيوفنا ... بباب قُديس والمكر ضرير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير[1]

ومن القبائل العربية التي كانت تسكن أطراف الحيرة والنجف والتي كان لها فضل كبير في انتصار جيوش المسلمين هناك، قبيلة تغلب التي هاجرت بعد حرب البسوس في أيام عمرو بن هند[2]، وكذلك قبيلة بكر ومن أشهر فروعها قبيلة شيبان التي كانت لها مواقف مشهودة مع حليفاتها القبائل العربية في موقعة ذي قار ضد الدولة الساسانية[3].

وبعد انتصار المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص في موقعة القادسية المشهورة فتح سواد العراق وأصبحت منطقة النجف ضمن المناطق التي خضعت للحكم الإسلامي، كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً. فاختط مدينة الكوفة وأقطع الناس المنازل وأنزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها وذلك في سنة ١٧هـ[4]. ويصف البلاذري بناء الكوفة فيقول: وأتى عبد المسيح بن بُقيلة سعداً وقال له: «أدلك على أرض انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المباق، فدله على موضع الكوفة اليوم، وكان يقال لها سوزستان، فلما انتهى إلى موضع مسجدها، أمر رجلاً فعلا بسهم قبل مهب القبلة، فأعلم على موقعه، ثم علا بسهم آخر قبل مهب الشمال وأعلم على موقعه،

(١) ياقوت الحموي.
(٢) الكامل ج١ ص ٢٩٩.
(٣) الطبري جـ٢ ص ١٤٧.
(٤) فتوح البلدان ص ٢٨٤.

ثم علا بسهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ثم علا بسهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه، ثم وضع مسجدها ودار إمارتها في مقام العالي وما حوله» ويضيف البلاذري فيقول: «ثم إن المغيرة بن شعبة وسعه، وبناه زياد فأحكمه وبنى دار الإمارة، وكان زياد يقول أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مائة، وبنى فيها عمرو بن حريث المخزومي، بناء، وكان زياد يستخلفه على الكوفة إذا شخص إلى البصرة، ثم بنى العمال فيها فضيقوا رحابها وأفنيتها»[1].

ويقول ابن الفقيه[2]: توجد بناية صغيرة تقع إلى الجنوب الغربي من مسجد الكوفة تعرف بين الناس باسم بيت الإمام علي، ويذكرون أن الإمام عليّ كان يسكنها وأنه غسل فيه بعد استشهاده. ويقال إن هذا البيت كان لعبد الله بن هبيرة وقد نزل الإمام عليّ فيه كضيف، عند أول دخوله الكوفة فعرف البيت باسمه.

وأول من تولى إمارة الكوفة هو سعد بن أبي وقاص الزهري، ثم عمار بن ياسر ثم أبو موسى الأشعري ثم تعاقبت الولاة عليها حتى انتقل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنة ٣٦هـ بعد انتصاره في موقعة الجمل واتخذها مقرًّا له بدلاً من المدينة المنورة، وبذلك أصبحت مركزاً للخلافة الإسلامية. وبعد اغتيال الإمام عليّ انتخب فيها الإمام الحسن خليفة للمسلمين وبقي كذلك ستة أشهر، ثم صار الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، فانتقلت حاضرة الدولة الإسلامية إلى دمشق، وظلت كذلك حتى سنة ١٣٢هـ، حين سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية[3].

ويتحدث البلاذري عن الكوفة في العصر العباسي فيقول: «كان يزيد بن عمر بن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ونزلها ومنها شيء يسير لم يستتم فأتاه كتاب مروان يأمره باجتناب مجاورة أهل الكوفة فتركها وبنى القصر الذي يعرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا، فلما ظهر أمير المؤمنين أبو العباس نزل تلك المدينة واستتم مقاصيرها وأحدث فيها بناء وسماها الهاشمية، فكان الناس ينسبونها إلى ابن

(١) الإصطخري: المسالك والممالك ص ٥٦.
(٢) ابن الفقيه: البلدان ص ١٧٤.
(٣) فتوح البلدان: ص ٢٩٥.

هبيرة على العادة، فقال «ما أرى إسم ابن هبيرة يسقط عنها» فرفضها وبنى بحيالها المدينة الهاشمية ونزلها، ثم اختار نزول الأنبار، فبنى بها مدينته المعروفة، فلما توفي دفن بها. ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة نزل مدينة الهاشمية بظاهر الكوفة، وهنا يقول البلاذري: واستتم شيئاً كان بقي منها وزاد فيها بناء وهيأها على ما أراد، ثم تحول منها إلى بغداد». وبالهاشمية حبس المنصور عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بسبب ابنيه محمد وإبراهيم وبها قبره. وقد بنى المنصور الرصافة بالكوفة، كما أمر مولاه أبا الخصيب مرزوقاً فبنى له القصر المعروف بأبي الخصيب على أساس قديم، ويقول البلاذري(١): «ويقال إن أبا الخصيب بناه لنفسه فكان المنصور يزوره فيه».

وجاء في صبح الأعشى وكتاب الأذكياء(٢) وصف النجف «وكان ظهر الكوفة الذي هو النجف يدعى خد العذراء، ينبت الخزامي والأقحوان والشيح والقيصوم والشقائق، ولحسن تربته وطيب هوائه كان منتزهاً للساسانيين والمناذرة والعباسيين». ويقول المسعودي(٣) عند ذكره الكوفة «كان جماعة من خلفاء بني العباس كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم ينزلونها ويطلبون المقام بها لطيب هوائها وصفاء جوها وصحة تربتها وقرب الخورنق والنجف منها». وجاء في معجم البلدان(٤) «بالقرب من الحيرة «القصر الأبيض» الذي يقال إنه من أبنية الرشيد، وجد على جدار من جدرانه مكتوب حضر عبد الله بن عبد الله ولأمر ما كتمت نفسي وغيبت بين الأسماء اسمي في سنة ٣٠٥ هـ(٥)».

والمتتبع لتاريخ النجف قديماً يرى أنها كانت تنسب إلى إمارة الحيرة قبل الإسلام، وإلى إمارة الكوفة بعده، فقد كان يقال نجف الحيرة كما كان يقال نجف الكوفة، وفي هذا يقول البحتري عند مدحه محمد بن أحمد الطائي:

أمق الكوفة أرضاً وأرى   نجف الحيرة أرضاها وطن

(١) فتوح البلدان ص ٢٩٥.
(٢) القلقشندي، ابن الجوزي ص ١٦٩.
(٣) مروج الذهب ج١ ص ٢٩٧.
(٤) ياقوت ص ٣١٥.
(٥) وجاء في كتاب ماضي النجف وحاضرها ص ٥: هذا القصر من قصور العرب القديمة وله ذكر في الفتوح الإسلامية وكان باقياً إلى زمن الرشيد واختص به فنسب إليه.

كما قيل عند الحديث عن مدفن الإمام عليّ «وحملاه الحسن والحسين إلى الغري من نجف الكوفة فدفناه هناك[١]».

أما تاريخ النجف السياسي في العصر الإسلامي، فيكاد يقف عند سنة ٤٠ هـ، وهي السنة التي قتل فيها الإمام عليّ وسعدت باختيارها مرقداً له، إذ أصبحت الأحداث تدور كلها حول الوافدين لزيارة القبر من أهله وشيعته، أو من حاول نبشه من الخوارج أو غيرهم من أعداء العلويين. وقد كتب في وصف المشهد وعمارته عبر العصور وعمن زاره من الملوك والسلاطين كتب كثيرة بل موسوعات طوال. لذلك رأيت أن أقصر تاريخ النجف في العصر الإسلامي على الأحداث الهامة، أما التفاصيل الدقيقة فسيرد ذكرها عند الكلام على تاريخ «مشهد الإمام» وليس هنا من حاجة إلى الإطالة أو التكرار.

على أن أهمية النجف كمدينة بدأت تظهر عندما ظهر القبر الشريف بعد إخفائه زمناً ليس بالقصير، فنشأت العمارة والمباني حول المرقد الشريف سنة ١٧٠هـ، وقطن بالنجف بعض العلويين والخاصة من الشيعة. ثم أخذت رقعة المدينة تزداد وتتسع، بازدياد عمائرها وتلاحق مبانيها، كما أخذت بنصيب وافر من العمران فلم ينقض القرن الرابع الهجري إلا وكان في النجف من السادة العلوية ألف وتسعمائة[٢]، هذا بخلاف أتباعهم وأهل شيعتهم. وفي عهد الجلائريين والإيلخانيين الشيعة، بلغت النجف درجة عظيمة من التقدم والازدهار حضاريًّا واقتصاديًّا في القرنين السابع والثامن الهجري، فقد أنفقوا كثيراً من الأموال والجهد لبناء المدارس وإقامة المساجد والخانقاوات، وأجروا إليها الأنهار وأنفقوا الأرزاق والإعاشة على من حل بها، كما فعل قبلهم البويهيون في القرن الرابع الهجري. نهم الذين قاموا بأول عمارة كبيرة للمرقد الشريف وشيدوا بإزائه المساجد والدور لمن جاوروا النجف، ووصلوهم بالأموال الكثيرة والصلات الثمينة، وأحاطوها بالأمن والاستقرار ونظروا لأهلها بعين التبجيل والاحترام.

---

(١) فرحة الغري ص ٩.

(٢) جعفر محبوبة ص ٢١.

فقد جاء في تاريخ المغول، أنه بعد وفاة الطاغية هولاكو سنة ١٢٦٥م، خلفه في الحكم ابنه (أباقا) فأقر في حكم بغداد المؤرخ علاء الدين، شقيق رشيد الدين(١) وزير هولاكو، وفي أيامه انتعشت الحالة الاقتصادية في بغداد والعراق، وذلك عن طريق المشروعات العمرانية الكثيرة التي قام بها، مثل حفر نهر جديد يستمد ماءه من الفرات ويمر بالنجف والكوفة، ويرى المستر كوك(٢) (Coke) كما ورد في كتابه «بغداد مدينة السلام» أن هذا النهر هو الفرع الغربي الحالي للفرات.

وجاء في تاريخ السلطان محمد خدابنده(٣) الملقب (بأولجايتو) والذي تولى بعد أخيه غازان خان سنة ١٣٠٥م، أنه على الرغم من النشأة المسيحية التي أنشأته عليها والدته المسيحية، إلا أنه اعتنق الإسلام حينما تقدم به العمر بتأثير من زوجته المسلمة، ثم حدث أن أسمعه أعداء الدين الحنيف، أن الإسلام يبيح للمسلم التزوج بأمه وأخته أو ابنته فارتعدت فرائصه، وصدق ما قيل له حينما هبت من بعد ذلك بالصدفة عاصفة رعدية شديدة قتل فيها عدد من رجال الحاشية، وحسب (أولجاتيو) حدوثها دليلاً على غضب السماء عليه لأنه اعتنق الديانة الإسلامية، وحدثته نفسه بترك الإسلام والعودة إلى ديانة المغول القديمة، لكنه قصد النجف الأشرف في تلك الأثناء لزيارة الضريح المطهر فيها، فحلم حلماً اطمأنت به نفسه وقرر اعتناق المذهب الجعفري على أثره. ويضيف (سير سايكس) أن السلطان خدابنده أنشأ في سنة ١٣١٥م مدينة السلطانية على بعد مئة ميل غرب قزوين، وكان في نيته أن يحقق بذلك مشروعاً ظل يراوده فترة طويلة من الزمن، وهو مشروع نقل رفات الإمامين عليّ والحسين رضوان الله عليهما من النجف وكربلاء إلى مدينة السلطانية التي كانت أهم مدينة في إيران في ذلك الوقت. ومن أجل ذلك أنشأ فيها عتبة محكمة البناء ذات تخطيط مثمن الشكل، تقوم فوق كل زاوية من زواياه الثمانية مئذنة رشيقة عالية، أما المثمن فتعلوه قبة ضخمة يبلغ قطرها أربعاً وثمانين قدماً. غير أن أمنيته لم تتحقق

---

(١) جامع التواريخ ـ لرشيد الدين.

(٢) Richaard Coke: Baghdad the City of Peace P 157.

(٣) Sir Percy Sykes: A Histony of Persia, vol THT P 166.

بطبيعة الحال، وأصبح البناء الفخم الذي أعده ليكون مرقداً للإمامين مدفناً له بعد وفاته سنة ١٣١٦م.

ثم توالت على النجف بعد ذلك أدوار مختلفة وحالات متباينة من حيث كثرة السكان وقلتهم وحركة الهجرة إليها ووقوفها والمجاورة بها وامتناعها، ففي القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين وقعت عدة حروب طاحنة بين الصفويين والعثمانيين. فعطلت البلدة المقدسة، وذهبت نضارتها، وكادت تكون نسياً منسياً ولكنها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة عادت إلى حالتها الأولى بل زادت عليها من حيث التقدم والعمران.

ففي مستهل القرن العاشر، استولى الشاه إسماعيل الصفوي على بغداد وأصبح معظم العراق خاضعاً لإيران، وما كاد العراق يدخل في حوزة العرش الشيعي الجديد حتى جاء الشاه مسرعاً لزيارة العتبات المقدسة، فزار النجف، وأصلح نهراً من الأنهار القريبة منها فسمي باسمه، ويقول ستيفن[1] (Stephen) في كتابه (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث)، إن هذاالنهر هو الذي كان يعرف يومئذ بنهر الشاه، وهو النهر الذي أمر الشاه إسماعيل بحفره من الفرات، وإيصال مائه بقناة خاصة تمتد تحت سطح الأرض إلى النجف لارتفاع موقعها عن مستوى الفرات. وفي الفترة التي كانت فيها العراق خاضعة للصفويين وهي التي تقع بين سنتي ١٥٠٧م إلى وفاة الشاه إسماعيل الصفوي سنة ١٥٢٤، تقاطر التجار الإيرانيون على بغداد والنجف وكربلاء، وجذب نفوذ الصفويين الديني حتى العشائر المتمردة إليهم.

إلا أنه ما كادت تأتي سنة ١٥٣٤م حتى استرد السلطان سليمان القانوني العراق من الإيرانيين، وأخذ يعمل على إصلاح الأحوال فيه بطريقته الخاصة، كما أنه زار النجف وكربلاء قبل عودته إلى القسطنطينية، وقد اهتم السلطان اهتماماً خاصاً بزيارة العتبات المقدسة، ويقال إنه كان يقصد بذلك أن يفعل فيها من الإصلاحات أكثر مما فعل الشاه الصفوي. وكان من أعماله أن أصلح جدول الحسنية في كربلاء ووسعه، ثم زار قبر الإمام عليّ(ع) في النجف ورجع إلى بغداد. ومن القصص التي تروى عن

(١) Stephen H. Longrigg: Four Centuries of Modern Iraq P. 6.

زيارته هذه للنجف، القصة التالية «أن رجلاً من رجال حاشية السلطان الكبار، حينما شاهد القبة المباركة من بعيد ترجل عن فرسه، فسأله السلطان عن السبب، فأجابه بأنه ترجل إجلالاً لخليفة من الخلفاء الراشدين الأربعة. فما كان من السلطان، إلا أن ترجل هو أيضاً بعد أن تردد في ذلك واستخار القرآن الكريم، فإذا به يلاحظ في الصفحة التي فتحها الآية الكريمة ﴿فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾. وتروي هذه الرواية أيضاً عن السلطان مراد كذلك، حينما زار النجف الأشرف.

ولما ظهر إسم نادر شاه[1] على مسرح الحوادث في العراق وإيران في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، كان إسم النجف يتردد في كل مناسبة، فقد اشتبك مع الدولة العثمانية في حروب عدة مرات بين عامي ١٧٣١م، ١٧٤٦م وحاصر بغداد والموصل فترات طويلة وكان يعقب تلك الاشتباكات والحروب مفاوضات تدور معظمها حول الحدود المشتركة بين البلدين من جهة، وحول الاستيلاء على النجف وكربلاء والاعتراف بالمذهب الجعفري مذهباً خامساً، يضاف إلى مذهب أهل السنة الأربعة. ثم جرت حروب أخرى بين نادر شاه والأتراك في أرمينية، وأذربيجان، فأحرز انتصاراً جديداً عليهم سنة ١١٥٨هـ (١٧٤٥م)، ويقول ستيفن[2] في هذا الصدد: إن انتصاره الساحق هذا جعله يتقدم إلى الدولة العثمانية بشروط صلح قاسية، يصعب قبولها، فقد طلب الاعتراف بالمذهب الجعفري وتسليم «وان» وكردستان والعراق كله، وذكر بصفة خاصة مدينتي النجف وكربلاء، ثم عاد فتنازل عن جزء من تلك الطلبات، ولكنه أصر على المطالبة بالنجف وكربلاء.

وقد كان الشاه نادر شاه قبل انتصاره هذا الانتصار الأخير، قدم كثيراً من الهدايا النفيسة ـ سنذكرها بالتفصيل في الباب الرابع ـ إلى العتبات المقدسة في كربلاء والنجف وسامراء ـ وإلى مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة في بغداد. كما أمر بتذهيب القبة والإيوان والمآذن في النجف سنة ١٧٤٢م، ولم يتم العمل فيها إلا في سنة ١٧٤٣، وهي السنة التي عقدت فيها المناظرات بين السنة وعلماء الشيعة في النجف للبحث في قضية التوفيق بين الفريقين، على أن هذه المناقشات الطويلة التي

(١) Lokhart: Nadir Shah. P 153.

(٢) Stephen: P 144.

جرت بين علماء الفريقين وكان يرأسها الشاه بنفسه لم تثمر عن شيء يذكر. ويذكر[١] (Lokhart) أن محضر المناظرات قد حفظت نسخه فارسية منه في خزانة الإمام عليّ في النجف. ويقال إن نادر شاه قد أنفق أموالاً طائلة على تغليف القبة بالذهب، وأن زوجه الإمبراطورة (كوهر شاه بكم) قد أمرت بترميم سور المشهد فأنفقت عليه مبلغ مئة ألف نادري، كما أنها أهدت مبخرة مرصعة بالأحجار الكريمة وإناء من الذهب الخالص ليحرق فيه البخور في الروضة العلوية[٢].

وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر انتشرت الدعوة الوهابية في نجد وما جاورها من الأصقاع المتاخمة للعراق، وأخذ الوهابيون يهاجمون ويغيرون على المناطق المطلة على البادية من هذه البلاد، وكان نصيب النجف وكربلاء بحكم موقعهما القريب من البادية وصبغتهما الدينية المعروفة، ومافيهما من العمائر والمشاهد والقباب وما تحتويه من الهدايا والنفائس، كان نصيبهما غير قليل من هجماتهم المدمرة وغزواتهم العنيفة.

ومما يذكر عن مسلمي الهند وتعلقهم بالمذهب الشيعي، ما جاء في كتاب[٣] الشيعة في الهند عن وقف (أوده)، وهو عبارة عن مبلغ من المال قيمته ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه إسترليني أودعه ملوك (أوده) للاستثمار في قروض حكومية، ليصرف على أفراد أسرهم وممن يتعلق بهم من الشيعة. وظل نسل هؤلاء الملوك الشيعة يتقاضون ربح ذلك المبلغ، وقد اعتاد الورثة صرف العائد عليهم منه على العتبات المقدسة، أما أولئك الذين لم يكن لهم ورثة، فقد كانوا يبعثون بكل ما يستحقونه إلى العتبات المقدسة.

أما عن تقسيم النجف الإداري في العصور الوسطى، فقد كانت مكونة من محلات أربع وهي (المشراق) وهي أقدم الأحياء عمارة وكان فيها دار الشيخ الطوسي الذي أصبح بعد ذلك مرقده، كما كان فيها دور (الملالي) سدنة مرقد الإمام عليّ رضوان الله عليه.

(١) Lokhart: P.144.
(٢) كوركيس عواد: مباحث عراقية ص ٣٣٢.
(٣) John Norman Hollister: The Shi'a of India P. 39.

والمحلة الثانية هي (العمارة) وقد كانت تزدحم بدور العلم من مدارس وخانقاوات كما يوجد بها مراقد كثير من العلماء ورجال الدين الأجلاء، مثل الشيخ الكبير كاشف الغطاء وآل الشيخ الراضي وآل الشيخ صاحب الجواهر وآل القزويني وآل الجزائري. كذلك كان بحي العمارة دار المقدس الأردبيلي وغيره من مشاهير العلماء. وكان الشيعة في العصور الوسطى يفضلون السكنى في محلتي (المشراق) و(العمارة) على غيرهما من المحال وذلك لوقوعهما بين الحرمين (النجف وكربلاء) هذا بالإضافة إلى أنهما يزخران بمراقد العلماء ورجال الدين. أما الحي الثالث فهو محلة (البراق) وفيها دور آل الطريحي وذلك لبعده عن الطرق الموصلة للبلدة المقدسة، وخاصة بعدها عن القبر الشريف ومن أهم ساكني هذا الحي آل نجف. إما المحلة الرابعة فهي حي الأسواق.

وهذه المحال لم تكن منظمة ولا حدود لها تفصلها عن غيرها من المحال، كما هي اليوم، ولكن حدث سنة ١٢٨٢هـ أن أخذت الحكومة التركية في أحصاء النفوس في النجف وذلك توطئة لعملية التجنيد الإجباري، فأدى ذلك بدوره إلى وضع حدود لكل حي وضبط عدد السكان المقيمين فيه وعينت الحكومة لكل محلة (مختاراً).

* * *



خان الشيلان



بقايا حصن الرحبة الأثري القريب من بحر النجف



بحر النجف

بقلم: الشيخ حمود الساعدي[1]

---

(١) مستل من مجلة (الإيمان) العدد ٣ من السنة الثانية ص ١٣٩ ـ ١٤٧ وهو فصل من كتاب (أمكنة وحوادث فراتية أهملها التاريخ).
أما الكاتب فهو الأستاذ الجليل الشيخ حمود بن الشيخ حادي بن حبيب الساعدي النجفي ولد ١٣٣٣ /١٩١٥. كان من أسرة التعليم، كاتب أديب جليل مؤرخ متتبع له مقالات ودراسات وافرة تاريخية وأدبية، ومن مؤلفاته كتاب (مباحث عن الفرات الأوسط وعشائره في القرون الأخيرة) ١ ـ٥ وتآليف أخرى.



منظر آخر لمرقد الإمام علي(ع)

بحر النجف

بقي نهر الحميدية المتقدم الذكر عامراً إلى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) ثم طم مجراه وبهذا التأريخ جف بحر النجف الذي سبق لعبد الغني وكيل السنية (في الجعارة) أن سد طريق مجراه سنة ١٣٠٥ هـ، وظهر ما كان في قاعه من أنقاض السفن التي غرقت فيه قديماً وبعض الأشياء الأخرى ومن غريب ما شوهد فيه عند جفافه ظهور السلاحف التي كانت تعيش بمائه، فإنها ظهرت ظهوراً غريباً بحيث ترى الأسراب من نوعها مؤلفة من الألوف وأمامها فحولها وذكرانها تدلها على الطريق متجهة من الموضع المعروف برأس الماء (المكان الذي يقيم فيه البو عامر اليوم) إلى نهر الفرات عن طريق أبو فشيجة مسافة فرسخ ونصف وتقاوم كلٌ من عارضها في الطريق[1].

وموقع هذا البحر غربي النجف، وكانت البقعة التي يشغلها فيما مضى قسماً من البحر، غير أن ارتفاع الأرض بسبب تراكم الأتربة المترسبة في قاعه من مياه الفرات فصلت هذه البقعة عن البحر[2] وباعدت بينه وبينها، ويفهم من الروايات التأريخية ومن التلال الأثرية الواقعة فيه أنه كان جافاً في عهد المناذرة، واستمر جفافه إلى سنة ١٢٤٠ المارة الذكر.

---

(١) حوادث العراق في القرن الثالث عشر الهجري للشيخ محمد علي اليعقوبي (مخطوط).

(٢) يقدر انخفاض قاع البحر اليوم عن سطح بلدة النجف المطلة عليه ـ بنحو خمسين متراً.

وقد وصف بحر النجف بعد جفافه الأخير غير واحد من المؤرخين والكتاب. منهم الشيخ محمد الكوفي فقد قال عنه في ضمن كلامه عن نهر الحميدية المتقدم الذكر بما هذا لفظه: في سنة ١٣٠٥ هـ ابتدعوا نهراً من ماء الفرات وأوصلوه إلى بحر النجف وسموه نهر السنية، وقد غاض ماء البحر ونضب بعد ما كان بحراً عظيماً ذا أمواج عظيمة تغرق فيه السفن، وقد غرقت فيه سفن كثيرة وذهبت فيه أموال وافرة فصار أرضاً يابسة يخشى السائر فيه الهلاك من العطش، واليوم فيه نخيل وأشجار ومزارع وأثمار تنقل إلى النجف، وصار سنية بمعنى مخصوص للسلطان دون المسلمين فسبحان من يغير ولا يغير[1].

ومنهم السيد محمد رشيد السعدي في كتاب قرة العين. قال بعد وصفه لمدينة النجف وفي الجنوب الشرقي (كذا) من هذه المدينة نحو نصف فرسخ، كانت بحيرة تسمى بحر النجف طولها عشرة فراسخ وعرضها كذلك وعمقها ثلاثة أذرع إلى عشرة أذرُعَ بالذراع البغدادي، ترد السفن إليها من البصرة وتدخل إليها بقرب قرية يقال لها الشنافية[2] وقد سافرت فيها ورأيتها سنة ١٢٨٥ و١٢٨٧ هـ وفي سنة ١٣١٠ هـ نشفت وصارت قاعاً[3] وفي وقتنا هذا أعني سنة ١٣٢٥هـ صارت أراضي تلك البحيرة كثيرة الزرع والخصب وتسقى من نهر الفرات إنتهى.

نهر الحيدرية

ومما قامت به إدارة السنية أيضاً إنها شرعت في سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) (في عهد وكيل السنية في الجعارة راقم أفندي) في حفر نهر جديد من الجعارة إلى النجف بسعي من قائمقام النجف خير الله أفندي وجيء به على آثار سابقة وأطلق عليه إسم الحيدرية، وقد تم حفره وجرى فيه الماء في شهر شعبان سنة ١٣١٠ هـ المذكورة.

---

(١) نزهة الغري ص ٥٨.

(٢) تقع بلدة الشنافية على الفرات على بعد نحو ٤٨ كيلو متراً من جنوب ابو صخير. ويرجع زمن تأسيسها إلى سنة ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م) وكان بحر النجف ينتهي بها، ثم تقلص تدريجياً وصار اسمه لا يطلق إلا على المنخفض الواقع في غربي النجف.

(٣) لعل الكاتب أخذ سنة جفاف بحر النجف من الأفواه وقد مر الكلام أنه جف تماماً سنة ١٣٠٧هـ.

وللسيد جعفر الحلي قصيدة يمدح بها السلطان عبد الحميد بهذه المناسبة استهلها بقوله:

جرى ماؤنا من لطف سلطاننا عذبا   فلذ لنا طعما وطاب لنا شربا
شممنا شذا أنفاسه حين جريه   فأنشقنا الريحان والمندل الرطبا

وختمها بقوله مؤرخاً:

لقد صدقت أنباؤها وهي عذبة   إذ الناس في تأريخها شربوا العذبا

انهر الجعارة

كان المجرى الرئيس لفرات الهندية في بادىء أمره ينتهي عند قرية أبو صخير الواقعة على بعد عشرين كيلو متراً من جنوب بلدة الكوفة الحالية، ومن ثم يتحول إلى عدة أنهر بعضها يجري نحو الجنوب والجنوب الشرقي، وهذه الفروع كانت تسمى المشاخيب ثم توحدت بطبيعتها وصارت نهراً واحداً هو المعروف اليوم باسم المشخاب.

أما بقية الفروع فكانت تجري نحو الغرب وبعد أن تقطع مسافة ليست بالبعيدة تنعطف نحو الشمال وتنتهي ببحر النجف، وهذه هي أنهر الجعارة (الحيرة) التي نريد أن نتحدث عنها.

١ - نهر البكرية

بقيت هذه الأنهر الغربية تأخذ من الفرات مباشرة إلى أواخر أيام العهد العثماني ثم سعى أحد مأموري الأتراك في الحيرة واسمه بكر أفندي إلى توحيد هذه الأنهر وإنشاء ممون رئيسي لها طوله أكثر من كيلو مترين ومن هنا صارت هذه الأنهر الغربية تتمون من الترعة المذكورة التي أطلق عليها إسم البكرية.

٢ - نهر جحات

ثم أنفق على أثر فيضان الفرات سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)أن ظهر فرع جديد «الجديد إسم نهر جحات نسبة إلى صاحب الأرض التي ظهر فيها وهو حجات بن

علوان البختري». وفي خلال عام ١٩١٨ سدت حكومة الإحتلال نهر جحات من صدره، وكذلك سدت نهرين آخرين يقعان على مقربة منه ويجريان في نفس الذي يجري فيه وهما نهر أبو مطي (بالتصغير) ونهر الحسانية، وأبقت نهر البكرية وحده بعد أن مددته حتى أوصلته ببزايز نهر جحت الآنف الذكر، ومن هذا التاريخ صار نهر البكرية يعرف باسم نهر جحات، وهو اليوم من الأنهر المهمة يقع صدره عند بلدة أو صخير، ويجري أولاً نحو الغرب مسافة كيلو مترين ثم ينعطف نحو الجنوب ويجري بموازات نهر المشخاب وبعد أن يقطع مسافة تقدر بأكثر من عشرين كيلو متراً ينتهي بهور صليب بعد أن تخرج منه فروع كثيرة لسقي مزارع الشلب الممتدة بامتداده، وينزل على هذا النهر وفي سقيه آل فتلة والغزالات وآل شبل وبعض الأسر العلوية كآل سيد محسن العذاري وآل سيد عبد الله العذاري وآل محمد أبو طبيخ، ومن مقاطعاته الطرة والهارمية وشبينة وغيرها.

٣ ـ نهر الصافي

كان يسمى الجعارة ثم سمي الصافي ثم الدعامية نسبة إلى زراعة الدعوم ثم الحميدية في سنة ١٣٠٥ هـ وقد مر الكلام عليها ثم الحيدرية سنة ١٣١٠ هـ وقد مر ذكرها أيضاً ثم جدول الأمير غازي سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢ م) وفي سنة ١٩٥٨ أطلق عليه إسم السدير وأما صدره الذي يرى على مقربة من بلدة أبو صخير فهو ثابت لم يتغير بتغيير الأسماء.

٤ ـ نهر أبو جدوع

هذا هو إسمه القديم ثم سمي الحسيني وفي سنة ٩٥٨ سمي جدول النعمان. يأتي من بعد سابقه ويجري نحو الشمال أيضاً فيذهب إلى الأراضي المعروفة باسم الرمل فيسقيها ومنها ينتهي في بحر النجف.

٥ ـ نهر البدرية

هذا هو إسمه القديم، ثم سمي الفيصل وأطلق عليه أخيراً إسم جدول الحيرة. يأتي من بعد سابقه ويمر ببلدة الحيرة (الجعارة سابقاً) فيشطرها إلى شطرين

ومنهـا يـذهب فيسقي بسـاتين الجعـارة ومن ثم ينتهي في بحـر النجف في أراضي الغزالات والدعوم وغيرهم، وفي حدود سنة ١٩٥٥ م طهرت الحكومة هذا النهر ثم مددته في سنة ٩٦٣ إلى نهاية بحر النجف إلى المكان المعروف باسم الفتحة وتقع على جهتي هذا النهر البالغ عرضه ستة أمتار عدة تلال أثرية منها تل المنبطح وتل أبو الدبيغ وتل الصنين وتل أم حصاني وغيرها.

٦ - نهر الهاشمي

هكذا كان يدعى منذ مئة وخمسين عاماً، وفي سنة ١٩٥٨ م قرر هـديب الحاج حمود وزير الزراعة يومئذ استبدال إسمه القديم باسم جـدول الدسم لعقيـدته بـأنه منسـوب إلى العائلة المالكة. يقع صـدره بالقـرب من قريـة الجعارة في أرض تسمى أبـو شبوط ويجـري نحو الغرب، وهو بعد أن يقـطع مسافـة تقدر بنـحو خمسة عشر كيلو متراً يصل إلى قرية إسمها الدسم وبعد أن يتعداهـا بمسافـة ليست بالبعيـدة ينتهي في موضـع يسمى القـرنة. وتسمى الأراضي الـواقعة على نهر الهاشمي وفي سقيـه باسم أراضي الـدسم وهي أراضي خصبة تكثر فيها بساتين النخيل، وكان هذا النهر فيما مضى بمثابة العمـود لنهر الفرات أما اليوم فليست لـه بعض تلك الأهمية. أمـا قريـة الدسم الـواقعة عليه فهي من أقدم قرى قضاء أبو صخير، أسسها سيـد محمد بن سيـد حسن زوين وكيل الخزاعل في منطقة الحيرة المتوفى في شهر ذي الحجة سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١) وتوطنهـا مدة ثم اتخذتها حكومة الأتراك مـركزاً لنـاحية الجعـارة وعينت لها مـديراً إسمـه لطفي آغا، وهي اليوم قرية بسيـطة خاملة فيهـا مدرسـة ابتدائيـة تحمل إسم القـائد العـربي سعد بن أبي وقاص، وفي أوائل سنة ١٩٥٨ م أنشـأت الحكومـة لها في هـذه القريـة بناية ضخمة ذات أبراج.

هذه هي أهم أنهار الجعارة (الحيرة) وجميعها لا تزال عامرة. وهناك أنهار أخـرى مندرسة كنهر أبو شبوط، وأبو مـطيْ (مصغر) والحسانية. وهذه كانت جميعها تتمون من الفرات مباشرة وقد ماتت جميعها.

شط المشخاب

لقد مر القول بأن فرات الكوفة كان ينشطر عند بلدة أبو صخير إلى شطرين يسمى الغربي منهما جحات والثاني وهو موضوع بحثنا يسمي المشخاب. ونهر المشخاب هذا هو المجرى الرئيس اليوم للفرات طوله ٢٤ كيلو متراً وتقع عليه مزارع جسيمة، وكانت أرضه حتى سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) بعد لا تزال مغمورة بالمياه أهواراً وكانت تشكل جزءاً من المنخفض الواسع المعروف يومئذ باسم بحر النجف.

وسبب تسميته بالمشخاب هو أن فرات الهندية لما وصل إلى مكان بلدة أبو صخير أخذت مياهه تشخب في أراضي البحر الواطئة بواسطة عدة مجاري فاطلق عليها إسم المشاخيب، ثم توحدت تلك المجاري بطبيعتها وتكون منها نهر المشخاب الحالي. وفي اللغة: الشخب (بفتح الشين المشددة وضم الخاء) والشخب (بضم الشين المشددة وسكون الخاء) ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتلب والشخب بالفتح المصدر. والشخبة الدفعة منه والجمع شخاب وقيل الشخب بالضم من اللبن ما امتد منه حين يحلب متصلاً بين الأناء والطبي شخبه شخباً فانشخب وقيل الشخب صوت اللبن عند الحلب. وفي حديث الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة. وانشخب عرقه دماً إذا سال وقولهم عروقه تنشخب دماً أي تتفجر[١].

يبدأ شط المشخاب من بلدة أبو صخير الراكبة على ضفته اليمنى ويجري نحو الجنوب وبعد أن يقطع أثني عشر كيلو متراً يصل إلى بلدة المشخاب[٢] ويتعداها إلى قرية سوق شعلان وهذه قرية بسيطة تقع على بعد ستة كيلو مترات من قرية المشخاب، ومنها يذهب إلى القادسية وهي قرية حادثة على بعد أربعة وعشرين كيلو متراً من أبو صخير ويطلق على قسمه الأخير الواقع عند بلدة القادسية إسم أبو عشرة، وقد أنشأت مديرية الري في نهايته ناظماً لصد تقدم النكارات في الفرات وأسمته ناظم أبو عشرة. وبعد هذا يستمر المجرى فيصب في نهر العطشان الذي كان يطلق عليه في

---

(١) لسان العرب، مادة شخب.

(٢) كانت تسمى السوارية نسبة إلى رجل من آل فتلة اسمه سوار ثم سميت الفيصلية على أثر زيارة الملك فيصل الأول لقضاء الشامية سنة ١٣٥٢هـ وفي سنة ١٩٥٨م سميت المشخاب.

السابق بحر الشنافية وهناك تلتقي به الجارة الغربية ثم الجارة الشرقية ويستمر المجرى فيمر ببلدة الشنافية الواقعة على نحو أربعة وعشرين كيلو متراً من القادسية وثمانية وأربعين كيلو متراً من أبو صخير ومنها إلى السماوة فالناصرية فسوق الشيوخ فالقرنة وفيها يلتقي بنهر دجلة ويشكلان شط العرب.

فروع شط المشخاب

تتفرع من ضفتي شط المشخاب جداول ونهيرات كثيرة يسمون الواحد منها طبر ويجمعونها طباره وإليك أسماءها بحسب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب: فالجداول المتفرعة من الضفة اليمنى هي: -

١ - المجيهيلة. يعود إلى حاج عباس آل حاج لهوف وحاج حسن آل ظويهر وغيرهما من آل فتلة.

٢ - الدينية، نهر كبير تخرج منه فروع كثيرة لسقي أراضي مقاطعات أبو واوية والعيلة والطرق العائدة لآل فتلة، ومن ثم يذهب إلى أراضي الغزالات فيسقيها وينتهي في هور صليب.

٣ - طبر فرعون. نسبة إلى فرعون بن ياقوت شيخ الفتلة وهو نهر صغير يقع صدره بالقرب من بلدة المشخاب.

٤ - السوارية. نسبة إلى رجل من آل فتلة إسمه سوار يقع صدره عند بلدة المشخاب (السوارية سابقاً) من جهتها الجنوبية، كان نهراً صغيراً ينتهي في الأهوار، وعلى أثر فيضان الفرات سنة ١٣٢٢هـ توسع وتمدد وحدثت عليه مزارع شلبية جسيمة كمقاطعة أم عرده وغيرها وهو لا يزال من الأنهر المهمة، تقع عليه دار عبد العباس آل مزهر الفرعون، ومن سكانه الفيادة وآل كيم والعبودة وآل سيد حمود الياسري وآل سيد إدريس المحنه وغيرهم.

٥ - بربعي. يأتي من بعد سابقه ويعود لآل فتلة أيضاً.

٦ - طبر سيد نور. نهر كبير منسوب إلى سيد نور بن سيد عزيز الياسري، وتسمى الأراضي الواقعة عليه (الجزرة) وهي أراضي شلبية واسعة تعود إلى سيد نور

الياسري، وتقع عليه قرية كبيرة فيها سوق يقال لها قرية الأيشان وهي من أقدم القرى التي انشئت في منطقة المشخاب.

٧ ـ أبو الدجيج. نهر كبير تقع عليه أرض واسعة تسمى أم البط تعود إلى آل عواد من آل إبراهيم.

هـذه هي أهم الجداول والنهيرات المتفرعة من المشخاب من جهتـه الغـربيـة، وجميعها تنتهي بالجارة الغربية (مبزل)، والجارة الغربيـة تجري بموازات شط المشخاب وتمر على تل الطرمة الذي ينزل عليه عـلى آل مزعـل رئيس الغزالات، ومن ثم ينتهي بنهر العطشان في نقطة تقع جنوب ناظم أبو عشرة. أما أهم الجداول التي تتفـرع من ضفة المشخاب اليسرى هي:

١ ـ المالحة نهر صغير يقع صدره بالقرب من أبو صخير ويعود إلى حـاج كاظم الحيدري.

٢ ـ شـلال. منسوب إلى آل شـلال الخزاعيـين، وهو نهر كبـير ينتهي بـالجـارة الشرقية، والأراضي الواقعة عليه تسمى أراضي هـور نعيم وهي أراضي شلبية واسعة تعود ملكيتها إلى آل شنته الفرعون وآل سكر الفرعون وآل سيـد علوان الياسري وآل سيد حسن العذاري.

٣ ـ عايش. نهر صغير، يعود إلى عبد الواحد آل سكر رئيس آل فتلة.
٤ ـ الكطاح. بكاف فارسية نهر صغير يعود إلى حاج عبد الواحد أيضاً.
٥ ـ أم ليره. نهر صغير يعود لآل فتلة.
٦ ـ الكوثري. نهر صغير يمتلك أكثر أراضيه أولاد مجهول آل شنته الفرعون.
٧ ـ أبو قريصه. يعود لآل إبراهيم.
٨ ـ أبو قهيوة. يعود لآل إبراهيم.
٩ ـ أبو جكي. بكاف فارسية نهر كبير يعود لآل إبراهيم.
١٠ ـ اللواج. يعود لآل إبراهيم.
١١ ـ المقـير. يعود لآل إبـراهيم أيضاً ويشـاركهم فيه سيـد علوان وسيد عبـد الجواد الياسريان.

١٢ ـ التوبي. يعود إلى سيد علوان الياسري.

١٣ ـ الليثاوي. يعود أيضاً الى سيد علوان الياسري، والأراضي الواقعة في سقي هذا النهر والنهر السابق له تسمى أراضي أم رغلة تبلغ مساحتها (٢٨٠٠) دونما وتعود جميعها إلى سيد علوان الياسري.

١٤ ـ الأحيمر، نسبة إلى أراضي الأحيمر الواقعة في سقيه، والأحيمر تل أثري يتوسط هذه الأرض، ويقال لهذا النهر أيضاً طبر شعلان نسبة إلى شعلان آل جبر رئيس آل إبراهيم، وهو يعود إلى سيد علوان الياسري.

١٥ ـ الشاطىء. يعود إلى مجيد آل عواد آل سهل من آل إبراهيم.

١٦ ـ القوة: ينزل عليه آل صراف وآل حبيب من آل سهل من آل إبراهيم.

١٧ ـ اليعو. بفتح الياء والعين وسكون الواو. نهر كبير، عميق القعر، يقع صدره على بعد كيلو متر واحد من فوق مركز ناحية القادسية، كان في ابتداء أمره نهيراً صغيراً، وفي سنة ١٩٢٧ م اجتمع أفراد قبيلتي آل شبل والغزالات النازلين عليه وكروه وجعلوا عرضه خمسة أمتار بعمق متر واحد، وعلى أثر هذا دخلت فيه النكارة ووسعته كثيراً، وحصل من جراء توسعه أن أثر على زراعة المشخاب، وهذا مما جعل مديرية الري تهتم للأمر فأنشأت في بزايزه شلالاً لمنع تقدم النكارات، وفي نفس الوقت وللغرض نفسه شرعت بإنشاء ناظم أبو عشرة المتقدم الذكر على عمود الفرات. وبعد مرور ستتين انهار شلال اليعو من شدة تيار جريان الماء فأنشىء بدله شلال آخر في نقطة تقع على مقربة من صدره وهو الشلال الحالي المعروف باسم ناظم اليعو.

واليعو اليوم نهر عريض عميق القعر يبلغ طوله نحو ثلاثة كيلو مترات ثم ينتهي بالجارة الشرقية، والجارة ويراد بها البزل تنتهي بنهر العطشان. ومن الأراضي الواقعة على نهر اليعو وفي سقيه، المرانه العائدة إلى أهل السداين وهم فرقة من الغزالات، وأم سباع العائدة إلى آل شبل، وهاتان المقاطعتان تقعان في الجهة الغربية من مجراه أما الأراضي الواقعة في الجهة الشرقية منه فمنها الغزالية العائدة إلى آل عواد من رؤساء آل إبراهيم، ومنها جزرة العبودة.

* * *



بقايا من الأديرة في الحيرة



موقع النجف الطبيعي

والديارات القائمة فيه قبل الإسلام

للدكتور الشيخ محمد هادي الأميني

(أ) نقش النمارة، كتابة قديمة على قبر ملك الحيرة امرىء القيس بن عمرو




(ب) زخارف جبسية ـ الكوفة

تعتبر منطقة النجف، من جهة موقعها الطبيعي، منذ أول معرفة التأريخ بها، مصحة عامة كانت تقصدها الناس على اختلاف طبقاتهم للتنزه والراحة والاستجمام، عند فصولها الأربعة، لوجودها في إقليم طيب المناخ، حسن التربة، معتدل في الحرارة والبرودة، عذي الأرض والهواء، مشفية للأجسام الضعيفة، ومصحة للأبدان الضئيلة، ومنجاة لها من الأمراض الوبيلة. فلم يشبه الحجاز في حره وقيظه، ولا المناطق الشمالية في بردها وشتائها، وتقع في العراق، وقد أشار أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، إلى هذه الخصائص عند ذكره العراق فقال (والعراق أعدل أرض الله هواء، وأصحها مزاجاً وماء فلذلك كان أهل العراق هم أهل العقول الصحيحة، والآراء الراجحة والشهوات المحمودة، والشمائل الظريفة، والبراعة في كل صناعة مع اعتدال الأعضاء، واستواء الأخلاط، وسمرة الألوان. وهم الذين أنضجتهم الأرحام، فلم تخرجهم بين أشقر وأصهب وأبرص كالذي يعتري أرحام نساء الصقالبة في الشقرة، ولم يتجاوز أرحام نسائهم في النضج إلى الإحراق كالزنج، والنوبة، والحبشة، الذين حلك لونهم ونتن ريحهم، وتفلفل شعرهم، وفسدت آراؤهم وعقولهم، فمن عداهم بين خمير لم ينضج، ومجاوز للقدر حتى خرج عن الإعتدال[1].

وكان ظهر الكوفة الذي هو النجف يدعي (خد العذراء) لنزاهتها وطيبها، وكثرة أشجارها وأنهارها، ينبت الخزامي، والإقحوان، والشيح، والقيصوم،

(١) معجم البلدان ٤/٩٥.

والشقائق. ولحسن تربته وطيب هوائه كان منتزهاً للساسانيين، والمناذرة، والعباسيين[1] وحدث عبيد راوية الأعشى، قال: خرج النعمان إلى ظهر الحيرة، وكان معشابا وكانت العرب تسميه خد العذراء، فيه نبت الشيح، والقيصوم، والخزامي، والزعفران، وشقائق النعمان، والاقحوان. فمر النعمان بالشقائق فأعجبته، فقال: من نزع من هذا شيئاً فانزعوا كتفه، قال: فسميت شقائق النعمان.[2]

وقال المسعودي، في ذكره الحيرة: ـ ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذي ذكرنا إلى صدر من أيام المعتضد فإنه استولى عليها الخراب. وقد كان جماعة من خلفاء بني العباس كالسفاح، والمنصور، والرشيد، وغيرهم ينزلونها ويطيلون المقام بها لطيب هوائها، وصفاء جوهرها، وصحة تربتها، وصلابتها وقرب الخورنق والنجف منها، وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان، فلحقوا بغيرها من البلاد لتداعي الخراب إليها[3] ولذلك أقام الخلفاء عليها قصوراً عالية فخمة، مشرفة على النجف يتنزهون بها أيام الربيع.

وقال محمد بن جرير الطبري، عند ذكره النعمان بن امرىء القيس بن عمرو اللخمي ملك الحيرة، من قبل الفرس في الجاهلية: ـ جلس النعمان يوماً في مجلسه من الخورنق فأشرف منه على النجف، وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار، مما يلي المغرب وعلى الفرات مما يلي المشرق، وهو على متن النجف، في يوم من أيام الربيع، فأعجبه ما رأى من الخضرة والنور والأنهار. فقال لوزيره وصاحبه: هل رأيت مثل هذا المنظر قط؟ فقال: لا لو كان يدوم. قال: فما الذي يدوم؟ قال: ما عند الله في الآخرة. قال: فبم ينال ذاك؟ قال: بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده. فترك ملكه من ليلته، ولبس المسوح، وخرج مستخفياً هارباً لا يعلم به[4].

وقال جرجي زيدان: كانت الحيرة على شاطىء الفرات، والفرات يدنو من أطراف البر، حتى يقرب من النجف، فلما انبسط النعمان في العيش رأى أن يتخذ

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٤٨.
(٢) ماضي النجف ١/ ٤.
(٣) مروج الذهب ٢/ ٤. ط١ ١٣٨٤/ ١٩٦٤.
(٤) تأريخ الطبري ٢/ ٧٣.

مجلساً عالياً، يشرف منه على المدينة فاتخذ الخورنق على مرتفع يشرف منه على النجف، وما يليه من البساتين والجنان والأنهار[١].

إنّ الشواهد التأريخية هذه، إنْ دلت على شيء فإنما تدل على أن منطقة النجف كانت في العصور الغابرة تسمى (بخد العذراء) لوجود الغابات والأنهار والأشجار، ومختلف الأزهار والأوراد، والأقحوان، والشقائق بحيث ضرب بتربتها المثل في طيبها، ونقائها، وهوائها، وصفاء جوها، كما ذكرتها الشعراء في أشعارها فاكثرت من وصفها. ومنهم إسحاق بن إبراهيم الموصلي المتوفى ٢٣٥ هـ، حين قصد من بغداد النجف، لمدح الواثق خلال إقامته في النجف، قال إسحاق: وانحدرت منه إلى النجف، فقلت له: يا أمير المؤمنين قد قلت في النجف قصيدة. قال: هاتها، فأنشدته:

يا راكب العيس لا تعجل بنا وقف — نحي داراً لسعدى ثم ننصرف
وابك المعاهد من سعدى وجارتها — ففي البكاء شفاء الهائم الدنف
أشكو إلى الله يا سعدى جوى كبد — حرّي عليك متى ما تذكري تجف
أهيم وجداً بسعدى وهي تصرمني — هذا لعمرك شكل غير مؤتلف
دع عنك سعدي فسعدى عنك نازحة — واكفف هواك وعد القول في لطف
ما إن أرى الناس في سهل ولا جبل — أصفى هواء ولا أعذى من النجف
كأن تربته مسك يفوح به — أو عنبر دافه العطار في صدف
حفت ببر وبحر من جوانبها — فالبر في طرف والبحر في طرف
وبين ذاك بساتين يسيح بها — نهر يجيش بجاري سيله القصف
وما يزال نسيم من أيامنه — يأتيك منها بريّا روضة أنف
تلقاك منه قبيل الصبح رائحة — تشفي السقيم إذا أشفى على التلف
لو حله مدنف يرجو الشفاء به — إذا شفاه من الأسقام والدنف
يؤتي الخليفة منه كلما طلعت — شمس النهار بأنواع من التحف
والصيد منه قريب إن هممت به — يأتيك مؤتلفا في زيّ مختلف
فيا له منزلا طابت مساكنه — بحيز من حاز بيت العز والشرف
خليفة واثق بالله همته — تقوى الآله بحق الله معترف

(١) العرب قبل الإسلام ١/٢٠٤.

ولبعض أهل الكوفة في وصف النجف:

وبالنجف الجاري إذا زرت أهله ... مها مهملات ما عليهن سائس
خرجن بحب اللهو في غير ريبة ... عفائف باغي اللهو منهن آيس
يردن إذا ما الشمس لم يخش حرّها ... ظلال بساتين جناهن يابس
إذا الحر آذاهن لذن بغينة ... كما لاذ بالظل الظباء الكوانس
لهن إذا استعرضتهن عشية ... على ضفة النهر المليح مجالس
يفوح عليك المسك منها وإن تقف ... تحدّث وليست بينهن وساوس
ولكن نقيات من اللؤم والخنا ... إذا ابتزعن أبشارهن الملابس(١)

هذا ومن أجل صفاء الماء والهواء، وعذاوة الأرض والتربة، في منطقة النجف بنى المناذرة قصرهم المشهور (الخورنق) قرب النجف، وما جاء أحد من الولاة والأمراء الكوفة، إلاّ وأحدث في قصرها المعروف شيئاً من الأبنية والمرافق. وقد اختلف في بانيه، وفيه أقوال متضاربة لعل ذكرها يبعدنا عن صلب الموضوع. قال ابن الكلبي: صاحب الخورنق، والذي أمر ببنائه بهرام جور بن يزد جرد بن سابور ذي الأكتاف(٢) وذلك أن يزد جرد كان لا يبقى له ولد، وكان لحق ابنه بهرام جور في صغره علة تشبه الإستسقاء، فسأل عن منزل مرىء صحيح من الأدواء والأسقام، ليبعث بهرام إليه خوفاً عليه من العلة، فأشار عليه أطباؤه أن يخرجه من بلده إلى أرض العرب، ويسقى أبوال الإبل وألبانها، فأنفذه إلى النعمان، وأمره أن يبني له قصراً مثله على شكل بناء (الخورنق) فبناه له، وأنزله إياه وعالجه حتى برأ من مرضه، ثم استأذن أباه في المقام عند النعمان، فأذن له فلم يزل عنده نازلاً قصره الخورنق حتى صار رجلاً، ومات أبوه فكان من أمره في طلب الملك حتى ظفر بما هو متعارف مشهور(٣).

ومن المتنزهات الكبيرة التي بنيت بظاهر الكوفة وهو النجف، قصر أبي الخصيب... بناه أبو الخصيب مرزوق بن ورقاء، مولى المنصور، وأحد حجابه. وقيل: إنه بنى هذا القصر بأمر المنصور. وجاء أنه بناه لنفسه فكان المنصور يزوره فيه.

(١) معجم الأدباء ٦/ ٢٩. معجم البلدان ٥/ ٢٧١.
(٢) دائرة المعارف البستاني ٥/ ٦٣٧.
(٣) معجم البلدان ٢/ ٤٠٢.

وكان يشرف على النجف بتمامه، ويصعد من أسفله في خمسين درجة إلى سطح آخر أفيح في غاية الحسن وهو عجيب الصنعة. وفيه يقول بعضهم:

يا دار غير رسمها مر الشمال مع الجنوب
بين الخورنق والسدير فبطن قصر أبي الخصيب
فالدير فالنجف الأشم جبال أرباب الصليب [1]

وفيه يقول أبو الحسن علي بن جعفر بن محمد بن محمد بن زيد الشهيد المتوفى ٣٠١ هـ المعروف بالحماني:

سقيا لمنزلة وطيب بين الخورنق والكثيب
بمدافع الجرعات من أكناف قصر أبي الخصيب
دار تخيرها الملو ك فهتكت رأي اللبيب
أيام كنت من الغواني في السواد من القلوب
لو يستطيع خبأنني بين المخانق والجيوب
أيام كنت وكن لا متحرجين من الذنوب
غريّن يشتكيان ما يجدان بالدمع السروب
لم يعرفا نكدا سوى صد الحبيب عن الحبيب [2]

ولا مشاحة في أن المناخ الطيب، والطقس والتربة العذبة النقية، والخضرة والنور والأشجار، من العوامل الداعية للسرور والمرح والانتعاش والانبساط الروحي، تتدافع نحوه الناس وتتوافد عليه العواطف والمشاعر، يهيمن على أجوائه مثير الحس، وترجمان الوجدان، وراحة الروح، ويتحكم في جوانبه الحب والعشق والغناء، وترتاح إليه النفوس على السراء والضراء، وحين اليأس وينفث الإنسان به ما أكنه صدره من مكين التأثرات، وستر في حنايا ضلوعه من خفي السرائر... وهذا ما نجده أيضاً يومذاك في (خد العذراء) فقد قامت فيه الحانات، ويمم شطره المغنيون والمطربون، وتوجهت إليه جمرة من ذوي الفنون والألحان، وحسن الصوت ومن أوتي في صوته

(١) معجم البلدان ٤/ ٣٥٤. ماضي النجف ١/ ٤.
(٢) معجم البلدان ٢/ ٤٠٣.

مزمارا من مزامير آل داود. . .

إن جمال المناخ الطبيعي، دفع الناس إلى الترف والدعة، وأصبح المغنون زينة المحافل والأندية، ومجالس الخلفاء وغيرهم من أولي الأمر، ومن ورائهم عامة الناس على اختلاف طبقاتهم، ويمكن القول أن أول من شق طريقه إلى النجف (ظهر الكوفة) شاعر الغزل والغناء والموسيقى، حنين بن بلوع الحيري المتوفى نحو ١١٠ هـ، وقد كان من كبار المغنين. ولد في الحيرة وكان في صغره يحمل الفاكهة، ويطوف بالرياحين على بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة، وأصحاب القيان والمطربين في الحيرة وغيرها، وكانت في روحه خفة. وهو نصراني المذهب له صنعة فاضلة متقدمة. فقد جاء أن هشام بن عبد الملك لما حج سلك طريق الفرات ـ وأحسبه جاء من الرصافة ـ فوقف له حنين بظهر الكوفة، ومعه عود وزامر له، وعليه قلنسوة طويلة، وأخذ يغني ويصف في غنائه منزله:

أنا حنين ومنزلي النجف ... وما نديمي إلّا الفتى القصف
أقرع بالكأس ثغر باطية ... مترعة تارة وأغترف
من قهوة باكر التجار بها ... بيت يهود قرارها الخزف
والعيش غض ومنزلي خصب ... لم تغذني شقوة ولا عنف

فقال هشام: من هذا؟ فقيل: هذا حنين الحيري. فأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره، وسير به أمامه وهو يتغنى. فلم يزل هشام يستعيده حتى نزل به من النجف فأمر له بمائتي دينار[1].

ومن المغنين الذين قدموا الكوفة، أبي الخطاب مسلم بن محرز، مولى بني عبد الدار المتوفى نحو ١٤٠ هـ، وكان أحد المقدمين في صناعة الغناء والألحان. فارسي الأصل. نشأ بمكة وأقام مدة في المدينة، يتعلم فيها الضرب من عزة الميلاء. وشخص إلى إيران فتعلم ألحان الفرس. وصار إلى الشام فتعلم غناء الروم وألحانهم. ومزج غناء الفرس والروم، وأخذ منهما أغانيه التي صنعها في أشعار العرب، فأتى بما لم يسمع

(١) الأغاني ٢/ ١٢٠ ط بولاق.

مثله. وكان يقال له (صناج العرب) قدم الكوفة ليقيم بها مدة، غير أن حنيناً خشية أن يفسد عليه الكوفة دفع إليه مبلغاً وصرفه منها.

قال أبو الفرج: أخبرني الحسين بن يحيى، قال، حماد: قرأت على أبي عن المدائني، قال: كان حنين غلاماً يحمل الفاكهة بالحيرة، وكان لطيفاً في عمل التحيات، فكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة وأصحاب القيان، والمتطربين إلى الحيرة، ورأوا رشاقته وحسن قدّه وحلاوته وخفة روحه، استحلوه وأقام عندهم وخف لهم، فكان يسمع الغناء ويشتهيه، ويصغي إليه ويستمعه ويطيل الإصغاء إليه، فلا يكاد ينتفع به في شيء إذا سمعه حتى شدا منه أصواتاً فأسمعها الناس، وكان مطبوعاً حسن الصوت، واشتهوا غناءه والاستماع منه وعشرته وشهر بالغناء ومهر فيه، وبلغ منه مبلغاً كثيراً ثم رحل إلى عمر بن داود الوادي، وإلى حكم الوادي، وأخذ منهما وغنى لنفسه في أشعار الناس، فأجاد الصنعة وأحكمها، ولم يكن بالعراق غيره فاستولى عليه في عصره، وقدم ابن محرز حينئذ إلى الكوفة فبلغ خبره حنيناً، وقد كان يعرفه فخشي أن يعرفه الناس فيستحلونه ويستولي على البلد فيسقط هو، فقال له: يا ابن محرز كم منتك نفسك من العراق؟ قال: ألف دينار، قال: فهذه خمسمائة دينار عاجلة فخذها وانصرف، واحلف لي أنك لا تعود إلى العراق فأخذها وانصرف.

وفي رواية، أن ابن محرز قدم الكوفة وبلغ خبره حنين بن بلوع، فتلطف له حتى دعاه فغناه ابن محرز لحنه. فسمع حنين منه شيئاً هاله وحيره، فقال له حنين: كم منتك نفسك من العراق؟ قال: ألف دينار. فقال: هذه خمسمائة دينار حاصلة عاجلة، ونفقتك في عودتك وبدأتك، ودع العراق لي وامض مصاحباً حيث شئت. وكان ابن محرز صغير الهمة لا يحب عشرة الملوك، ولا يؤثر على الخلوة شيئاً فأخذها وانصرف[1].

وقدم الكوفة من المغنين أبو يحيى عبد الله بن سريح (وجاء عبيد الله وعبيد، وعبد الله) مولى بني نوفل بن عبد مناف المتوفى ٩٨ هـ. وكان أحسن الناس غناء،

(١) المصدر السابق ٢/١٢٢. الأعلام ٨ /١٢٠.

يغني مرتجلا ويوقع بقضيب، وهو أول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة، وأول من غنى الغناء المتقن بالحجاز بعد طويس. وكان يقال ما خلق الله تعالى بعد داود عليه السلام أحسن صوتاً من ابن سريح، ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحذق منه بالغناء. ويقال أيضاً: كأنه خلق من كل قلب، فهو يغني لكل إنسان ما يشتهي(١).

ومن أخباره في الكوفة ما حدث بها أبو الفرج، قال أخبرني رضوان بن أحمد الصيدلاني، قال: حدثنا يوسف بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي، قال: كنت مع الرشيد في السنة التي نزل فيها على عون العبادي، فأتاني عون بابن ابن حنين بن بلوع، وهو شيخ فغناني عدة أصوات لجده فما استحسنتها، لأن الشيخ كان مشوه الخلق طن الغناء قليل الحلاوة، إلّا أنه لا يفارق عمود الصوت أبداً حتى يفرغ منه فغناني صوت ابن سريح، فما أذكر أني سمعته من أحد قط أحسن مما سمعته منه. فقلت له: أحسنت في هذا الصوت وما هو من أغاني جدك، ولا من أغاني بلدك، وإني لأعجب من ذلك، فقال لي الشيخ: والصليب والقربان، ما صنع هذا الصوت إلّا في منزلنا وفي سرداب لجدي، ولقد كاد أن يأتي على نفس عمي فسألته عن الخبر في ذلك، فقال: حدثني أبي أن عبيد الله بن سريح، قدم الحيرة ومعه ثلاثمائة دينار، فأتى بها منزلنا في ولاية بشر بن مروان الكوفة، وقال: أنا رجل من أهل الحجاز من أهل مكة، بلغني طيب الحيرة، وجودة خمرها، وحسن غنائك فخرجت بهذه الدنانير لأنفقها معك وعندك ونتعاشر حتى تنفذ وانصرف إلى منزلي.

فسأله جدي عن اسمه ونسبه، فغيرهما وانتمى إلى بني مخزوم، فأخذ جدي المال منه، وقال موفر مالك عليك ولك عندنا كل ما يحتاج إليه مثلك ما نشطت للمقام عندنا، فإذا دعتك نفسك إلى بلدك جهزناك إليهم، ورددنا عليك مالك واخلفنا ما أنفقته عليك أن جئتنا، وأسكنه داراً كان ينفرد فيها فمكث عندنا شهرين لا يعلم جدي ولا أحد من أهلنا انه يغني، حتى انصرف جدّي من دار بشر بن مروان، في يوم صائف مع قيام الظهيرة فصار إلى باب الدار التي كان أنزل ابن سريح فيها، فوجده مغلقاً فارتاب بذلك ودق الباب فلم يفتح له ولم يجبه أحد، فصار إلى منازل

(١) جمهرة المغنين /٧١. الأعلام ٤/٣٤٨.

الحرم، فلم يجد فيها ابنته ولا جواريها، ورأى مـا بين الـدار التي فيها الحرم ودار ابن سريج مفتوحاً، فانتضى سيفه ودخل الدار ليقتل ابنته، فلما دخلها رأى ابنته وجواريهـا وقوفاً على باب السرداب وهن يومـين إليه بـالسكوت، وتخفيف الـوطء فلم يلتفت إلى إشارتهن، لما تداخله إلى أن سمع ترنم ابن سريج فـألقى السيف من يده وصـاح به، وقد عرفه من غير أن يكون رآه ولكن بالنعت والحـذق، أبا يحيى جعلت فـداك أتيتنا بثلاثمائة دينار لتنفقها عندنا في حيرتنا، فوحق المسيح لاخرجت منها إلّا ومعك ثلاثمائـة دينار، وثلاثمائة دينار، وثلاثمائة دينار، سوى ما جئت به معك.

ثم دخل إليه فعانقه ورحب بـه، ولقيه بخـلاف ما كـان يلقاه بـه، وسألـه عن الصوت فأخبره أنه صـاغه في ذلـك الوقت، فصـار معه إلى بشر بن مـروان، فوصله بعشرة آلاف درهم أول مـرة، ثم وصله بعد ذلـك بمثلها فلما أراد الخـروج، ردّ عليـه جـدّي مالـه وجهزه ووصله بمقـدار نفقته التي أنفقهـا من مكة إلى الحـيرة، ورجـع ابن سريج إلى أهله وقد أخذ جميع من كان في دارنا منه هذا الصوت[1].

هذا وقد اختلف إلى ظهر الكوفـة. . . غير هؤلاء المغنـين، وأقامـوا فيها وكـانوا يغنـون غناء الحـيرة بين الهـزج والنصب، أمثال: زيـد بن طليس، وزيد بن كعب، وعباديس، ومالك بن حمة. . . ولو أردنا استقصـاء ما جـاء في هذا البـاب لطال بنـا البحث، غير أننا اكتفينا بما أوردناه في هذه الصحائف لضيق المقال، وبه الكفايـة ففي معاجم السير والتأريخ الكثير من أخبارهم.

الحانات في الحيرة:

قرأنا في الصفحات السالفة أن من بين الدوافع في هجـرة جمع من المغنـين، إلى ظهر الكوفة حسبما جاء على لسان عبد الله بن سريج وغيره، هو طيب مناخها وجودة خمرها. . . ومـا في سكرهـا من اللذة والإناقـة والجمال والـرائحة. كما نجده أيضـاً في أشعـارهم، وهو يـدلنا إلى وجـود حانـات متعددة في الحـيرة فضلاً عـلى أن الكوفـة ما برحت يومذاك معدن ضراب الطنابير، ومجتمع الخمارة، وندوة المستخـمرين والمـترفين.

---

(١) الأغاني ٢/١٢٥ ـ ١٢٦.

ويحدثنا التأريخ عن تلكم الحانات قضايا طريفة، ونكات مليحة وظريفة، مع الإشارة إلى أصحابها وزبانيتها. وذكر شهاب الدين أحمد بن يحيى بن محمد الكرماني العمري الشافعي، المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقي المتوفى ٧٤٩ هـ في كتابه(١) أن كانت في الحيرة أربع حانات، عرفت بالجودة والنظافة والمعتقة. . . . وهي:

١ ـ حانة جابر

قال ابن الصلصال: كان أبو نواس يأتي الكوفة يزورني، وكان يأتي بيت خمار بالحيرة، يقال له جابر. لطيف الخلقة نظيف الآلة، يعتق الشراب سنين، فقدم علينا مرة وقد نهاه الأمين عن الشراب، فسأل عني فقيل: هو بالحيرة، فوافاني وفي يدي شيء من شراب جابر، عجيب الحسن والرائحة. فقال لي: يا أبا جعفر يجتمع هذا والهم في صدر واحد، وكان شديد العجب بضرب الطنبور، وكان إذا جاءني جمعت له ضراب الطنابير، وكانت الكوفة معدنهم، وكان يسكر في الليلة الواحدة سكرات، فوجهت فجمعت له منهم جماعة وأحضرته شيئاً من ذلك الشراب. فقال لي: ألم تعلم ما حدث علي؟ قلت: وما هو؟ قال: نهاني أمير المؤمنين عن الشراب، وتوعدني عليه. ثم أنشدني قصيدته التي فيها:

أيها الرائحان باللوم لوماً — لا أذوق المدام إلاّ شميماً

إلى أن انتهى إلى قوله:

فكأني وما أحسن منها — قعدى يحسن التحكيما
كل عن حمله السلاح إلى — الحرب فأوصى المطيق أن لا يقيما

فقلت له: أقم معنا كما حكيت من نقل القعدية. قال: أفعل. وصرنا إلى حانة جابر، فقلت شعراً ذكرت فيه ما قاله لي، وأنشدته إياه وهو قولي:

غبيت عليك محاسن الخمر — أم غيرتك نوائب الدهر؟
فصرفت وجهك عن معتقة — تفتر عن درر وعن شذر
يسعى بها ذو غنة غنج — متكحل اللحظات بالسحر

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. ط مصر ١٣٤٢/ ١٩٢٤.

ونسيت قولك حين تمزجها ... فتريك مثل كواكب النسر
(لا تحسبن عقار خابية ... والهم يجتمعان في الصدر)

فقال: هاتها في كذا وكذا من أم الأمين... ومد يده فأخذ القدح وشرب معنا ثم شخص إلى الأمين. فقال له: أين كنت؟ قال: عند صديقي الكوفي، وحدثه الحديث. قال: فما صنعت حين أنشدك الشعر؟ قال: شربت والله يا أمير المؤمنين. قال: أحسنت وأجملت. فأشخص حتى تحمل إلي صديقك هذا. فقدم إلي فحملني إليه فلم أزل معه حتى قتل[1] .

٢ ـ حانة دومة

عن أبي عبيدة، قال: مرّ الأقيشر[2] بخمارة في الحيرة، يقال لها دومة، فنزل عندها واشترى منها شراباً، ثم قال لها: جوّدي لي الشراب حتى أجود لك المديح، ففعلت فأنشأ يقول:

ألا يا دوم دام لك النعيم ... وأسمر ملء كفك مستقيم
شديد الأسر ينبض حالباه ... يحم كأنه رجل سقيم
يرويه الشراب فيزدهيه ... وينفخ فيه شيطان رجيم

قال: فظننت الخمارة أن هذا مدح. فسرت به وزادت في الشراب، وقالت: ما قال أحد فيّ أحسن من هذا[3] .

٣ ـ حانة شهلاء

كانت شهلاء يهودية من أهل الحيرة، ولها حانة. حكي أن الأقيشر كان يألفها، وكان يشرب في دارها. فجاءه شرطي فدق الباب. فقال: اسقني وأنت آمن. فقال:

---

(١) مسالك الأبصار ١/ ٣٨٩. موسوعة العتبات ـ قسم النجف ١/ ٥٦.
(٢) الأقيشر المغيرة بن عبد الله بن معرض الأسدي المتوفى نحو ٨٠هـ. أحد مجان الكوفة وشعرائهم، شاعر هجاء عالي الطبقة من أهل الكوفة خليع ماجن مدمن لشرب الخمر. له نوادر وحكايات. الأغاني ١٠/ ٨٤ ـ ٩٨، خزانة الأدب ٢/ ٢٧٩، معجم الشعراء/ ٣٦٩، معاهد التنصيص ٣/ ٢٤٣، تاريخ الإسلام ٣/ ٢٢٤.
(٣) مسالك الأبصار ١/ ٣٨٩، موسوعة العتبات ق النجف ١/ ٥٥، الأغاني ١٠/ ٩٤.

والله ما آمنك، وهذا النقب بالباب فأنا أسقيك منه، فوضع له أنبوب قصب في النقب فصب فيه النبيذ من داخل، والشرطي يشرب من خارج. فقال الأقيشر:

سأل الشرطي أن نسقيه ... فسقيناه بأنبوب القصب
إنما لقحتنا خابية ... فإذا ما مزجت كان العجب
لبن أصفر صاف طعمه ... ينزع الباسور من عجب الذنب
إنما نشرب من أموالنا ... فاسألوا الشرطي ما هذا الغضب[1]

وروى صاحب الأغاني، هذه الأبيات في قضية فيها خلاف واختلاف. قال: شرب الأقيشر في بيت خمار في الحيرة، فجاءه الشرط ليأخذوه فتحرز منهم، وأغلق بابه. وقال: لست أشرب فما سبيلكم عليّ؟ قالوا: قد رأينا العس في كفك وأنت تشرب. قال: إنما شربت من لبن لقحة لصاحب الدار، فلم يبرحوا حتى أخذوا منه درهمين فقال:

إنما لقحتنا باطية ... فإذا ما مزجت كانت عجب
لبن أصفر صاف لونه ... ينزع الباسور من عجب الذنب
إنما نشرب من أموالنا ... فسلوا الشرطي ما هذا الغضب[2]

٤ ـ حانة عون

وكان عون... ظريفاً طيب الشراب نظيف الثياب. وكان فتيان الكوفة يشربون في حانوته، ولا يختارون عليه أحداً. وشرب عنده ليلة أبو الهندي الشاعر[3]

---

(١) مسالك الأبصار ١/ ٣٩١.
(٢) الأغاني ١٠/ ٨٧ ط بولاق.
(٣) في بعض النسخ ابن الهندي الشاعر، وقد اختلف اسمه فقيل عبد المؤمن وقيل: عبد الملك. وجاء أزهر، وعبد السلام، غالب. مات نحو ١٨٠هـ. استفرغ شعره في وصف الخمر، وهو أول من تفنن في وصفها من شعراء الإسلام، وكان سكيراً خبيث السكر. قال صدقة بن ابراهيم البكري أو البلوي: كان أبو الهندي يشرب معنا وكان إذا سكر يتقلب تقلباً قبيحاً في نومه. وكانت وفاته في حدود الثمانين والمائة. فمررت على قبره بعد حين فوجدت عليه مكتوباً:

اجعلوا إن مت يوماً كفني ... ورق الكرم وقبري المعصره
وادفنوني وادفنوا الراح معي ... واجعلوا الأقداح حول المقبرة
إنني أرجو من الله غدا ... بعد شرب الراح حسن المغفره

ورأيت الفتيان يجتمعون عند قبره، ويشربون ويصبون القدح إذا وصل إليه على قبره.
الأعلام ٥/٣٠٣. الأغاني ١٠/ ٢٩٣. طبقات ابن المعتز/١٣٦. فوات الوفيات ٣/١٦٩.

حتى طلع الفجر، وصاحت الديوك على أنه يصبح يوم شك، فقيل أنه من رمضان. فقال:

شربت الخمر في رمضان حتى رأيت البدر للشعرى شريكا
فقال أخي الديوك مناديات فقلت له: وما يدري الديوكا (١)

هذه أربع حانات كانت في الحيرة كما ذكرها ابن فضل الله العمري... غير أن أبا الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي، والمتوفى ٣٨٨هـ، تفرد بذكر حانة أخرى في الحيرة، قال:

ولبكر بن خارجة (٢):

يا خليلي عرّجا بي إلى الحيـ ـرة كم كم تراقبان النجوما
واسقياني من بيت بحوم را حا قهوة لا تماكسا بحوما (٣)
حانة حشوها ظباء ملاح هيجوا بالدلال قلباً سقيما
وإذا ما سقيتماني شراباً خندريسا معتقاً مختوما
فاقصدا قبة الشتيق وظبيا سكن الدير قد سباني رخيما
عقد زناره توصل بالقلـ ـب فأمسى بين الحشا مخزوما

وبكر بن خارجة هذا من أهل الكوفة. وكان من المنهمكين في الخمر والمستهترين بالتطرح في الحانات، والديارات. وكان أكثر شعره في ذلك.

فمن شعره أيضاً:

راح من الحانة سكرانا فزادني هماً وأحزانا
حانة بحوم التي صيرت من حبها في القلب نيرانا

---

(١) مسالك الأبصار ١/ ٣٨٩. موسوعة العتبات ق النجف ١/ ٥٥.

(٢) بكر بن خارجة... شاعر كوفي، ماجن، مطبوع، طيب الشعر. كان يتكسب من الوراقة، ويعاقر الشراب في منازل الخمارين والحانات. وكانت الخمر قد أفسدت عقله في آخر عمره، وكان يمدح ويهجو بدرهم وبدرهمين. وصرف جميع ما اكتسبه في النبيذ.
الأغاني ٢٠/ ٨٧ ـ ٨٨. الديارات /١٤٢.

(٣) جاء في هامش الديارات /٢٤٢: وقد تقرأ بنجوم. تنجوم. ينجوم. فالكلمة وردت في المخطوط غير منقوطة.

يرنو بعيني شادن أحور تخاله للسكر وسنانا
ما رأت العينان شبهاً له إنسا إذا عد ولا جانا
معاقد الزنار في خصره عذبني بالحب ألوانا
كتمت حبي وهواي له دهراً وأحوالا وأزمانا
حتى تولى جسدي للبلى فما أطيق اليوم كتمانا (١)

الديارات بظاهر الكوفة...

توخينا أن يكون الحديث في هذا الفصل عن جانبين، وإن كانا في الواقع واحداً لأنهما يعودان للنصارى بصورة خاصة... فالجانب الأول، تناول البحث عن بيوت ومساكن الأساقفة ومنتزهاتهم، لأنه لابد للراهب في كل دور وبلد من صومعة يقيم فيها وحده. وهذه الصوامع تبنى بناء إن كان الدير قائماً في السهل أو تنقر في قلب الصخر إن كان الدير في الجبل... والجانب الثاني، تبان عن معابدهم ودياراتهم بظهر الكوفة، فقد ذكرناها حسب ترتيب الحروف، مع الإشارة إلى أن بعضاً من تلك الديارات كان على جانب عظيم من فخامة البنيان، واتساع الرقعة، وحسن الآلة حتى أن بعض الخلفاء والملوك والأمراء، وأعيان الناس ووجوههم كانوا ينزلونها. ولا يخرج أحدهم منها إلاّ وهو يلهج بطيب الإقامة فيها، والثناء على من بها.

ومن المؤسف أنه لم يبق من هذه الأديرة، وبيوت الأساقف أثر وعين أو بعض الأثر الذي يستدل به عليها وتعيين مواقعها، ومرافقها، وخططها، غير كهوف في الجهات القريبة من النجف، المعروفة اليوم على ألسنة النجفيين (بالطارات) ويغلب على الظن أن هذه الكهوف المنحوتة في التلول، إنما هي صوامع ومساكن خاصة للرهبان وعلى مقربة منها تقع الديارات والمعابد.

(١) الديارات /٢٤٢ ـ ٢٤٣.

١ ـ ديارات الأساقف[1]

قال أبو الحسن الشابشتي ـ هذه الديارات بالنجف بظاهر الكوفة، وهو أول الحيرة. وهي قباب وقصور تسمى ديارات الأساقف. وبحضرتها نهر يعرف بالغدير. عن يمينه قصر أبي الخصيب[2] مولى أبي جعفر وعن شماله السدير[3] وبين ذلك الديارات.

وقصر أبي الخصيب هذا، أحد متنزهات الدنيا. وهو مشرف على النجف، وعلى ذلك الظهر. ويصعد من أسفله على درجة طولها خمسون مرقاة إلى سطح حسن، ومجلس فيشرف الناظر على النجف والحيرة من ذلك الموضع ثم يصعد منه على درجة أخرى طولها خمسون مرقاة، إلى سطح أفيح، ومجلس عجيب.

وأبو الخصيب هذا، مولى أبي جعفر المنصور، وحاجبه.

والسدير، قصر عظيم من أبنية ملوك لخم[4] في قديم الزمان، وما بقي الآن منه فهو ديارات وبيع، للنصارى.

ولعلي بن محمد الحماني العلوي، يذكر هذه المواضع:

كم وقفة لك بالخور ... نق لا توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السدير ... ر إلى ديارات الأساقف
فمدارج الرهبان في ... أطمار خائفة وخائف
دمن كأن رياضها ... يكسين أعلام المطارف
وكأنما غدرانها ... فيها عشور في مصاحف
وكأنما أنوارها ... تهتز بالريح العواصف
طرر الوصائف يلتقيـ ... ـن بها إلى طرر الوصائف

(١) الأساقف. جمع الأسقف. وقد يجمع أيضاً على الأساقفة. من رؤساء الدين عند النصارى ـ وهو فوق القسيس، ودون المطران. واللفظة يونانية الأصل.
(٢) معجم البلدان ٤/ ١٠٧.
(٣) السدير. من أشهر قصور الحيرة. ويقترن إسمه في أكثر الأحيان بالخورنق. والسدير معرب (سه دير) لأنه كان في داخله ثلاث قبب. فإن دير بكسر الدال باللغة البهلوية معناها القبة.
(٤) ملوك لخم، هم الذين حكموا بين سنة ٢٦٨ و٦٣٢ للميلاد.

تلقى أوائلها أواخرها بألوان الزخارف
بحرية شتواتها برية فيها المصايف
درّية الحصباء كما فورية فيها المشارف
ثم انبرت سحاكبا كية بأربعة ذوارف
باتت سواريها تمخض في رواعدها القواصف
فكأن لمع بروقها في الجو أسياف المثاقف
فكأنما أنوارها تهتز في الدرج العواصف
طرر الوصائف يلتقين بها إلى طرر الوصائف
دافعتها عن دجنها بالغلب والبيض الغطارف
يعبقن يوم البأس شرا بين في يوم المعارف
سمح بحر المال وقا فون في يوم المتالف
واهاً لأيام الشباب وما لبسن من الزخارف
وزوالهن بما عرفت من المناكر والمعارف
أيام ذكرك في دوا وين الصبا صدر الصحائف
واهاً لأيامي وأيام النقيات المراشف
والغارسات البان قضـ ـبناناً على كثب الروادف
والجاعلات البدر ما بين الحواجب والسوالف
أيام يظهرن الخلاف بغير نيات المخالف
وقف النعيم على الصبا وزللت عن تلك المواقف

ولأبي نواس يذكر أيامه بالسدير:

عدن لي بالسدير أيام قصف وسرور مع الندامى وعزف
وعيون الظباء ترنو إلينا منعمات بكل بر ولطف
ورخيم الخطا يكاد مـ ـن الرقة يدمى أديمه كل طرف
حل منه الصليب في موضع الجيـ ـد فقد خصه على كل ألف
قد أدرنا رحى النعيم ثلاثا ووصلنا النعيم كفا بكف

قال: ولما نزل الرشيد الحيرة، وقت منصرفه من الحج، ركب جعفر بن يحيى

إلى السدير فطافه ونظر إلى بنائه. ثم وقعت عينه على كتاب في أعلاه، فأمر من صعد إلى الموضع فقرأه. فقال: في نفسه قد جعلته فألا لما أخالفه من الرشيد. فقرىء فإذا هو:

إنّ بني المنذر عام انقضوا   بحيث شاد البيعة الراهب
أضحوا ولا يرجوهم راغب   يوماً ولا يرهبهم راهب
وأصبحوا أكلا لدود الثرى   وانقطع المطلوب والطالب[1]

فحزن جعفر لذلك، وصار ينشد الأبيات ويقول: ذهب والله أمرنا.

ومن هذه الأبنية المسقطات. وهو قصر فيه آزاج مستطيلة مسقطة شرقي الحيرة على طريق الحاج. ثم القصر. ثم كوة البقال. ثم قصر العدسين. ثم الأقصى الأبيض. ثم قصر بني بقيلة. وكان هذا القصر لعبد المسيح بن بقيلة الغساني. وإنما سمي بقيلة لأنه خرج يوماً على قومه في حلتين خضراوين قد اتزر باحداهما، واشتمل بالأخرى، فقال قومه: ما هو إلا بقيلة. فسمي بذلك.

وعبد المسيح هذا هو ابن أخت سطيح الكاهن. وكان كسرى أنفذه إلى سطيح بسبب الرؤيا التي رآها. فجاءه وهو يجود بنفسه. فقال: أصم أم يسمع غطريف اليمن في أبيات ففتح سطيح عينه، وقال: عبد المسيح على جمل مشيح، جاء إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، من قبل ملك بني ساسان، لارتجاس الايوان، وخمود النيران، ورؤيا المؤبذان. والخبر مشهور تركناه لشهرته.

فلما نزل خالد بن الوليد، الحيرة خرج إليه عبد المسيح، فقال له خالد: من أين أقصى أثرك؟ قال: من صلب أبي. قال: ما عن هذا سألتك، قال: ولا أجبت إلا عما سألت عنه. قال: ما أنتم؟ قال عرب استنبطنا. قال: فما بال هذه الحصون؟ قال: بنيناها نتحرز بها من الجاهل إلى أن يجيء العاقل فيردعه. قال: أتعقل؟ قال: نعم وأقيد. قال: سنك؟ قال: عظم كم أتى عليك؟ قال: لو أتى علي شيء لقتلني. قال: كم مضى من عمرك؟ قال: أربعمائة سنة. قال: فما رأيت من العجائب؟ قال:

(١) البيت في بعض المراجع جاء هكذا:
فأصبحوا في طبقات الثرى   بعد نعيم لهم راتب

رأيت السفن وهي ترفىء في هذا الموضع[1] ورأيت المرأة وهي تخرج من الحيرة إلى الشام بمغزلها في يدها، ومكتلها على رأسها لا يروعها أحد، وهي الآن خراب يباب. وذلك دأب الله في خلقه.

وكان في يده شيء يقلبه. قال خالد: ما هذا الذي في يدك؟ قال: سم ساعة. قال: وما تصنع به؟ قال: إن أعطيتني ما أحب وإلاّ قتلت نفسي به. ولم أكن أول من أدخل الذل على قومه، وساق إليهم ما يكرهون. قال خالد: هلمه إلي. فناوله إياه فطرحه في فيه. وقال: بسم الله وازدرده. فأخذته غشية ثم أفاق كأنما نشط من عقال. فرجع عبد المسيح إلى قومه، فقال: جئتكم من عند رجل شرب سم الساعة وما ضره. وحمل إليه مالاً صالحه عليه وانصرف عنهم.

ومن بعده دار عون. ثم فيه عصر وهي ما يلي النجف. فهذه قصور الحيرة الباقية الآن[2].

٢ ـ رستاق الأكيراح

قال ياقوت الحموي، في معجمه: (أكيراح بالضم ثم الفتح، وباء ساكنة وراء وألف. وجاء مهملة... وهي في الأصل القباب الصغار. قال الخالدي: الأكيراح، رستاق نزه بأرض الكوفة. والأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم. يقال لواحدها كرح. بالقرب منها ديران، وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض. وفيه يقول أبو نواس:

يا دير حنة من ذات الأكيراح   من يصح عنك فإني لست بالصاحي

(١) أراد بالبحر بحر النجف الذي جف ماؤه في أوائل القرن العشرين هذا.

(٢) أمالي المرتضى ١/ ١٨٨ ـ ١٨٩.
البيان والتبيين ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢.
حياة الحيوان للدميري ١/٢٧٧.
الديارات /٢٣٦ ـ ٢٤٠.
ماضي النجف ١/ ١٧.
مجمع الأمثال ٢/ ١٣.
مسالك الأبصار ١/ ٢٨٥ و٣٢٧ ـ ٣٢٨.
معجم البلدان ٢/ ٤٠٣.
موسوعة العتبات ق النجف ١/ ٤٩ ـ ٥٢.

يعتاده كل مخفو مفارقه   من الدهان عليه سحق أمساح
في فتية لم يدع منهم تخوّفهم   وقوع ما حذروه غير أشباح
لا يدلفون إلى ماء بباطية   إلاّ اغترافا من الغدران بالراح[١]

٣ - قبة الشنيق[٢]

قال أبو الحسن الشابشتي: (وهي من الأبنية القديمة بالحيرة على طريق الحاج. وبإزائها قباب يقال لها الشكورة[٣] جميعها للنصارى. فيخرجون يوم عيدهم من الشكورة إلى القبة في أحسن زي، عليهم الصلبان، بأيديهم المجامر والشمامسة، والقسان معهم يقدسون على نغم واحد متفق في الألحان. ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين، وأهل البطالة إلى أن يبلغوا قبة الشنيق. فيتقربون ويتعمدون. ثم يعودون بمثل تلك الحالة. فهو منظر مليح. ولبعض الشعراء فيه:

والنصارى مشددي الزنانيـ   ـر عليهن كل حلي وثيق
يتمشين من قباب الشعانيـ   ـن إلى صحن قبة الشنيق
يا خليلي فلا تعنفني يوم   ترى اللهو فيه بالتحقيق[٤]

أما ابن فضل الله العمري فقال عنها:

(قبة الشنيق وهي من الأبنية القديمة بالحيرة،على طريق الحاج، وبإزائها قباب يقال لها جميعها للنصارى. وعيد الشعانين[٥] بها نزه يخرج فيه النصارى، من السكورة إلى القبة في أحسن زي. عليهم الصلبان وبأيديهم) وذكر ما يشبه الشابشتي، ما عدا الشعر فلم يذكر منه شيئاً[٦].

---

(١) معجم البلدان ١/ ٢٤٢.
موسوعة العتبات ق النجف ١/ ٢٧.

(٢) في بعض المراجع (السنيق) وفي بعضها (الشنيق) والصحيح الشنيق، وهي لفظة سريانية. وشنيقا بمعنى الساكت والصامت. ولا يبعد أن هذه القبة كانت منسكاً لراهب انقطع عن الناس ولازم السكوت. فعرفت به من هذه الجهة. وجاء في بعض المراجع أن كان أصحابها يلازمون الصمت والسكوت. حتى عرفوا بالسكوتيين.

(٣) وجاء السكورة بالسين المهملة. والأصل شكوراً، وهي كلمة سريانية بمعنى الزهر والورد.

(٤) الديارات /٢٤١.

(٥) عيد الشعانين، وقيل عيد السعانين. هو عيد الأحد الذي قبل الفصح، ويقال فيه عيد الشعانين أيضاً.

(٦) مسالك الأبصار ١/ ٣١٥. موسوعة العتبات ق النجف ١/٥٢.

١ ـ دير ابن مزعوق

جاء في بعض المراجع دير المزعوق. . . قال أبو الحسن الشابشتي: وهذ الدير بالحيرة في وسطها قريب دير الحريق، كثير الرهبان حسن العمارة أحد المتنزهات المقصورة والأماكن الموصوفة.

ولمحمد بن عبد الرحمن الثرواني[1] فيه:

قلت له والنجوم طالعة ... في ليلة الفصح أول السحر
هل لك في مار فاثيون وفي ... دير ابن مزعوق غير مختصر
يفيض هذا النسيم من طرف الـ ... شام ودّر الندى على الشجر
ونسأل الأرض عن منابتها ... وعهدها بالربيع والمطر
يا لك طيباً وشم رائحة ... كالمسك يأتي بنفحة السحر
في شرب خمر وسمع محسنة ... تلهيك بين اللسان والوتر

والثرواني هذا، كوفي من المطبوعين في الشعر، والمنهمكين في البطالات والمتطرحين في الحانات، والمدمنين لشرب الخمر، والمغرقين في اتباع المرد. لا يعرف شيئاً غير ذلك. ولا يوجد في شيء من أمر الدنيا إلّا فيه. وكان آخر أمره أن أصيب في حانة خمار بين زقي خمر وهو ميت[2].

وذكره ياقوت في معجمه، وقال: دير المزعوق. . . ويقال دير ابن مزعوق، وهو قديم بظاهر الحيرة. قال محمد بن عبد الرحمن الثرواني. . . الأبيات[3].

وأورده ابن فضل الله العمري، وقال: دير ابن مزعوق، هو بالحيرة قريب دير الحريق في أنزه البقاع زهراً، ورقيق هواء، وتدفق ماء، وتشوق إليه الثرواني من بغداد، فقال:

---

(١) محمد بن عبد الرحمن الثرواني. . . لم أتوصل إلى ترجمته رغم البحث والتتبع، وقد ذكر له مؤلف الديارات نماذج كثيرة من خمرياته، واستشهد بشعره في كلامه عن كثير من الديارات ولم يترجم له.

(٢) الديارات / ٢٣٠ ط٢.

(٣) معجم البلدان ٣/ ٥٣٧.

دير الحريق وبيعة المزعوق ... بين الغدير وقبة الشنيق
أشهى إليّ من الصراة وطيبها ... عند الصباح من رحى البطريق[1]
يا صاح فاجتنب الملام أما ترى ... سمجا ملامك لي وأنت صديقي

وقد ذكره أبو الفرج، وأنشد للثرواني فيه وفي (دير فاثيون) قوله: قلت له والنجوم جانحة... وذكر الأبيات المكتوبة آنفا، ثم قال: ودير فاثيون أسفل النجف، ودير ابن مزعوق بحذاء قصر عبد المسيح، بأعلى النجف. وفيه يقول الثرواني:

تقر بفضل عينك لي بوصل ... وفعلك لي مقر بالجحود
تشككني وأعلم أن هذا ... هوى بين التعطف والصدود

وقال أيضا:

كر الشراب على نشوان مصطبح ... قد هب يشربها والديك لم يصح
والليل في عسكر جم بوارقه ... من النجوم وضوء الصبح لم يلح
والعيش لا عيش إلاّ أن تباكرها ... صهباء تقتل هم النفس بالفرح
حتى يظل الذي قد بات يشربها ... ولا براح به يختل كالمرح[2]

٢ ـ دير الاسكون

قال ياقوت الحموي: (الأسكون بفتح الهمزة وسكون السين المهملة، وكاف مضمومة وآخره نون. وهو بالحيرة راكب على النجف، وفيه قلالي وهياكل، وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم، وعليه سور عال حصين، وعليه باب حديد، ومنه يهبط الهابط إلى غدير بالحيرة. أرضه رضراض ورمل أبيض. وله مشرعة تقابل الحيرة لها ماء إذا انقطع النهر كان منها شرب أهل الحيرة.

وذكره ابن فضل الله العمري نقلا عن كتاب (ديارات الحيرة) لهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ وقيل ٢٠٦ هـ. كما يظهر أن ياقوتا الحموي

(١) نهر الصراة، كان من فروع نهر عيسى بالجانب الغربي من بغداد. ونهر عيسى كان يأخذ ماءه من الفرات. والصراة كان من المتنزهات.
(٢) مسالك الأبصار ١/ ٣١٧. موسوعة العتبات ق النجف ١/ ٣٥ ـ ٣٧.

نقل من المرجع نفسه، غير أن العمري زاد عليه قوله: ـ قال يعني مصنف ديارات الحيرة ـ وإليه تجتمع النصارى في أعيادهم، وفي كل جمعة بعد صلاة الجمعة، فإذا كان يوم الشعانين، أتوه من كل ناحية مع شماميسهم بصلبهم وأعلامهم، فإذا استتموا فيه وفي القصر الأبيض والعلالي المدانية، خرج أسقفهم بهم إلى مكان يعرف بقبيبات الشعانين (وهي قباب على ميل من ناحية طريق الشام) فأقام بهم فيها يومهم ذلك إلى آخره، ولكل منهم يومئذ شأن يغنيه.

وجاء في بعض المراجع (دير الأسكول).

٣ ـ دير الحريق

جاء ذكره في بعض المراجع، فقال ياقوت: ـ سمي بذلك لأنه أحرق في موضعه قوم ثم دفن فيه قوم من أهل من أحرقه هناك وعمل ديرا. وهو بالحيرة قديم ووجدته بخط ابن حمدون بالخاء المعجمة في الشعر والترجمة، وفيه يقول الثرواني:

دير الحق فبيعة المزعوق ... بين الغدير فقبة الشنيق
أشهى إليّ من الصراة ودورها ... عند الصباح ومن وحي البطريق
فاغدوا بناكر من ذخائر عتبة ... الخمار من صافي الدنان رحيق
يا صاح واجتنب الملام أما ترى ... سمجا ملامك لي وأنت صديقي

وقال ابن فضل الله العمري: (دير الحريق قديم هو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر على ولد كان له. عدى عليه وأحرقه فيه، وإلى جانبه قبة تعرف بقبة السنيق، وتعرف بقبة غصين، وهما راهبان نسبتا إليهما، وهما بديعتا البناء، وفي الدير وفيها يقول الثرواني:

دير الحريق وقبة السنيق ... مغنى لحلف مدامة وفسوق
وطن لفرقته شرقت بدمعتي ... ولرحلتي عنه غصصت بريقي

حكى حمزة بن أبي سلامة، قال: كان الثرواني جاري بالكوفة، وكان كثير الإلمام بالديرة فباكرني في يوم شعانين، وقال لي: اعزم بنا اليوم على الشرب في دير الحريق، لأنه يوم سيقصده فيه خلق ولي به صديق من رهبانه، ظريف مليح القلاية،

جيد الشراب فهلم ننزه أعيننا فيها نراه من الجواري والغلمان ثم نعدل إلى قلاية صديقنا، فنشرب على سطحها المشرف على الرياض، فخرجنا فرأينا من النساء والوصائف والولدان في الحلى والحلل، ما لم أر مثله قط. فلم يزل يعبث ويتعرض ويقبل ويعانق، وكان معروفاً بذلك فما أحد ينكر عليه فعله إلى بعد الظهر. ثم أتينا قلاية صديقه الراهب فلقيه بالإكرام والترحيب، فدخلنا قلايته فما رأينا أنظف من آلاتها ولا أنضر من بستانها. ثم قدم لنا شيئاً من طعامه فأصبنا منه، ثم صعدنا وجلسنا ننظر إلى منظر يبهر حسناً وجمالاً، من رياض وغدران وطير تصفر. ونحن نشرب حتى ثملنا ونمنا هناك. وغدونا على الكوفة فقلت له تترك هذا اليوم مع حسنه عاطلاً من حلى شعرك؟ فقال: لا والله، ولقد عملت في ليلتي هذه الأبيات ثم أنشدني:

خرجنا في شعانين النصارى ... وشيعنا صليب الجاثليق
فلم أر منظراً أحلى بعيني ... من المتقينات على الطريق
حملنا الخوص والزيتون حتى ... بلغن به إلى (دير الحريق)
أكلناهن باللحظات عشقا ... وأضمرنا لهن على الفسوق

أما الشابشتي، فقد ألمح باسمه، ولم يتحدث عنه بشيء.

مراجع البحث

الديارات/ ٢٣٠ .
مسالك الأبصار ١/ ٣١٥.
معجم البلدان ٢/ ٥٠٥ .
موسوعة العتبات ق النجف ١/ ٣٠ - ٣١.

٤ - دير حنظلة

قال ياقوت: - دير حنظلة . . . آخر وهو بالحيرة، منسوب إلى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة بن مالك بن ربى بن نمارة بن لخم بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد. وفيه يقول الشاعر:

بساحة الحيرة دير حنظلة عليه أذيال السرور مسبله
أحييت فيه ليلة مقتبلة وكأسنا بين الندامى معمله
والراح فيها مثل نار مشعلة وكلنا منتقد ما خوّله
فما يزال عاصياً من عذله مبادراً قبل تلاقي أجله

وذكره ابن فضل الله العمري، فقال: - دير حنظلة، هو بالحيرة على نحو فرسخ منها إلى المشرق، وموضعه حسن لما فيه من جنينات رهبانه وأشجارهم، وما يلبسه الربيع من الرياض. وأنشد الخالدي فيه لغيره شعراً منه:

طرقتك سعدى بين شطى بارق نفس الفداء لطيفها من طارق
يا دير حنظلة المهيج في الهوى هل تستطيع صلاح قلب العاشق

وقد أتى بذكره أبو الفرج الأصفهاني. وأنشد لبعض الشعراء فيه رجزاً منه: (بساحة الحيرة دير حنظلة) وذكر بيتين من الأبيات التي ذكرها ياقوت.

ولم يتطرق الشابشتي إليه. ودير حنظلة هذا غير حنظلة الواقع بالقرب من شاطىء الفرات، من الجانب الشرقي بين الدالية والبهسنة، أسفل من رحبة مالك بن طوق معدود، من نواحي الجزيرة. منسوب إلى حنظلة بن أبي غفر بن النعمان بن حية بن سعنة بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سفر بن هنيّ بن عمرو بن الغوث بن طيء.

المراجع

مسالك الأبصار ٣١٦/١.
معجم البلدان ٥٠٧/٢.
موسوعة العتبات ق النجف ٤٨/١.

٥ ـ دير حنة الصغير

قال ياقوت الحموي، عند ذكره للديارات. . . دير حنة، وهو دير قديم بالحيرة منذ أيام، بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع. تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القائم لبني أوس بن عمرو بن عامر. وفيه يقول الثرواني:

يا دير حنة عند القائم الساقي إلى الخورنق من دير ابن براق
ليس السلو وإن أصبحت ممتنعاً من بغيتي فيك من شكلي وأخلاقي
سقياً لعافيك من عاف معالمه قفر وما فيك مثل الوشم من باق

ودير حنة الذي قيل فيه (يا دير حنة من ذات الأكيراح) هذا أيضاً بظاهر الكوفة والحيرة. لا أدري أهو هذا المذكور هنا أم غيره، وقد ذكر شاهده في الأكيراح. . . بالقرب منها ديران، يقال لأحدهما (دير عبداً) وللآخر (دير حنة) وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض. وفيه يقول أبو نواس:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي
يعتاده كل مجفو مفارقة من الدهان عليه سحق أمساح
في فتية لم يدع منهم تخوفهم وقوع ما حذروه غير أشباح
لا يدلفون إلى ماء بباطية إلّا اغترافاً من الغدران بالراح

قرأت بخط أبي السكري، حدثني أبو جعفر أحمد بن أبي الهيثم البجلي، قال: رأيت الأكيراح وهو على سبعة فراسخ من الحيرة ما يلي مغرب الشمس من الحيرة، وفيه ديارات فيها عيون وآبار محفورة يدخلها الماء. وقال بكر بن خارجة:

دع البساتين من آس وتفاح واقصد إلى الشيخ من ذات الأكيراح
إلى الدكاسر فالدير المقابلها لدى الأكيراح أو دير ابن وضاح
منازل لم أزل حيناً ألازمها لزوم عاد إلى اللذات رواح

وقال ابن فضل الله العمري: (دير حنة بالحيرة من بناء نوح هكذا نقلته، ولا أعرف من هو وإلى جانبه قائم. حكى أحمد بن عمر الكوفي، قال: كان بالكوفة رجل أديب ضعيف الحال مهما وقع في يده من شيء أتى به إلى دير حنة، فيشرب فيه حتى يسكر ثم ينصرف إلى أهله، ويقول: يعجبني من الغراب بكوره في طلب الرزق، وربما بات به ويقول:

تطاول ليلك بالزاوية وكان المبيت بها عافيه
ومن تحت رأسك آجرّه وجنبك ملقى على باريه
وذلك خير من الإنصراف فتحكم فيك بنو الزانيه

وتصبح إمّا رهين السجون وإما قتيلاً على ساقيه

قال: فوجد والله أيام قتيلا على ساقيه، وهو القائل:

ما لذة العيش عندي غير واحدة هي البكور إلى بعض المواخير
لخامل الذكر مأمون بوائقه سهل القياد من الفره المدابير
حتى يحل على دير ابن كافرة من النصارى ببيع الخمر مشهور
كأنما عقد الزنّار فوق نقا واعتم فوق دجى الظلماء بالنور

وفيه قال الثرواني:

يومي بهيكل دير حنة لم يزل غبر السحاب تجود فيه وتمرع
متجوش طوراً وطوراً شاهراً بيض السيوف ودارة يتدرع

وكذلك قال فيه بكر بن خارجة الكوفي:

ألا سقى الخورنق من محل طريف الروض معشوق أنيق
أقمت بدير حنته زماناً بسكر في الصبوح وفي الغبوق
ومنا لابس إكليل زهر ومختضّب السوالف بالخلوق
كأن رياضه حسناً ونوراً سحائب ذهّبت بسنا البروق
كأن تقاطر الأشجار فيه إذا غسق الظلام قطار نوق
وماذا شئت من در الأقاحي هناك ومن يواقيت الشقيق

وقد ذكر دير حنة أبو الفرج الأصفهاني، وقال: ذكره أبو نواس في شعره، يعني في قوله: (يا دير حنة من ذات الأكيراح) قال: والأكيراح بلد نزه كثير البساتين والرياض والمياه. قال: وبالحيرة أيضاً موضع يقال له الأكيراح فيه دير. والأكيراح قباب صغار يسكنها الرهبان. يقال للواحد منها الكرح.

مراجع البحث

أعيان الشيعة ١٢٦/٢٤.
عقد الفريد ٣٦/٧.
مسالك الأبصار ٢٩٥/١ ـ ٢٩٦.
معجم البلدان ٥٠٧/٢.
موسوعة العتبات ق النجف ٣٢/١ ـ ٣٥.

٦ ـ دير حنة الكبير

لم يهتد ياقوت الحموي، عند ذكره لدير حنة من أنه واحد أم اثنين، كما نقلنا قوله في بحث دير حنة الصغير المتقدم فقال: (ودير حنة بالأكيراح الذي قيل فيه يا دير حنة من ذات الأكيراح. هذا أيضاً بظاهر الكوفة والحيرة، ولا أدري أهو هذا المذكور هنا أم غيره. وقد ذكر شاهده في الأكيراح) إلاّ أن ابن فضل الله العمري جعله إثنان، فذكر واحدا منهما باسم دير حنة الصغير، والثاني باسم دير حنة الكبير، فقال: (دير حنة الكبير):

قال الخالدي: هو بالحيرة في الأكيراح، غير دير حنة الذي قدمنا ذكره. يقال أنه بني حين بنيت الحيرة وكان من أنزه الديرة لكثرة بساتينه وتدفق مياهه.

حكى جحظة[1] عن بعض أهل الحيرة، قال: اجتاز عمر بن الفرج الرخجي[2] منصرفاً من الحج، فتلقيناه وأعظمناه، وسرنا معه فلما اجتاز بدير حنة، سألنا عنه فعرفناه به. فقال من ذا الذي يقول يا دير حنة من ذات الأكيراح...؟ فقال له الحسين بن هشام الحيري: هذا لأبي نواس افتحب أن أنشدك لشاعرنا الثرواني، شيئاً يقرب من هذا المعنى في هذا الدير؟ قال: قل، فأنشده:

على الريحان والراح ... وأيام الأكيراح
وابريق كطير الماء ... في لجة ضحضاح
سلام يسكر الصاحي ... وما فيه فتى صاحي
ومن لي فيه بالسكرة ... عن وجه ابن وضاح
غزال صيغ من فتنة ... أبدان وأرواح
إذا راح إلى البيعة ... في أثواب أمساح
ففي كفيه افسادي ... وفي كفيه إصلاحي

---

(١) أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحيى بن خالد بن برمك المتوفى ٣٢٤هـ. نديم أديب مغن. من بقايا البرامكة من أهل بغداد. متصرف في فنون من العلم، كاللغة والنجوم، مليح الشعر حاضر النادرة. عارف بالموسيقى. لم يكن أحد يتقدمه في صناعة الغناء.

(٢) عمر بن الفرج الرخجي... كان من أعيان الكتاب أيام المأمون إلى أيام المتوكل، شبيهاً بالوزراء وذوي الدواوين الجليلة.

قال: فاستحسن الأبيات وأمر كاتباً معه يكتبها، وخلع على الحسين بن هشام وأجازه.

وحكى جحظة، قال: زرت إبراهيم بن المدبر[١] وكان بالكوفة فأكرمني وأنس لي، وأقمت عنده ثلاثة أشهر، فجرى يوماً ذكر دير حنة. فقال ابن المدبر: والله إني لأحب أن أراه وأشرب فيه، فقد ذكر لي حسنه. فأين هو من الحيرة؟ فدلّه إسحاق بن الحسين العلوي، عليه وقال له: في هذه الأيام ينبغي أن يقصد لأنها أيام ربيع ورياض معتمة بالزهور والغدران، والبادية بقربه فلن نعدم أعرابياً فصيحاً يطير إلينا ونحن فيه، فيهدي إلينا بيض نعام، ويجني لنا الكمأة.

فتقدم ابن المدبر إلى غلمانه باعداد ما يحتاج إليه، وخرج وخرجت حتى وافيناه. فإذا هو حسن البناء والرياض محدقة به، ونهر الحيرة الذي يقال له الغدير بقرب منه. فضربت لنا خيام عنده وخرج إلينا رهبانه وحملوا إلينا مما عندهم من التحف واللطف فأكلنا وجلسنا نشرب. وغنيته بشعر أبي نواس المتقدم، فبينا نحن كذلك إذ اجتاز بنا غلام حسن عارضه، كأنه بدر على غصن، معه مصحف من مصاحف النصارى كامل العقل ساحر اللفظ واللحظ. فشرب ابن المدبر على وجهه رطلاً وسقاه قدحاً، واستأذنه الغلام في النهوض وقال: معي مصحف لا تتم لرهبان صلاة إلاّ بحضوره، وهذا وقت صلاتهم، وقد ضربوا الناقوس منذ ساعة. وأخذ عليه العهد في الرجوع إليه، وأمر له بمائة دينار وعملت شعراً صنعت فيه صوتاً، فما زال صوته طول مقامه وهو. . . وذكر الأبيات ثم قال: وأقمنا بمكاننا ثلاثة أيام ثم عدنا إلى الكوفة وقد عملت في تلك الأيام وغنيت فيه:

ويا الحيرة لي يوم ويوم بالأكيراح
إذا عزبنا الماء مزجنا الراح بالراح

وحكى الربيع، عن بعض أهل الحيرة قال: كان في دير حنة خمار يقال له

(١) أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر المتوفى ٢٧٩هـ. وزير من الكتاب المترسلين الشعراء من أهل بغداد. تولى ولايات جليلة، واستوزره المعتمد العباسي، لما خرج من سامراء يريد مصر عام ٢٦٩هـ. ومات ببغداد متقلداً ديوان الضياع للمعتضد.

مرعبدا، موصوف بجودة الخمر ونظافة الآنية وملاحة الحانة. فحكى مرعبدا، قال: ما شعرت يوماً وقد فتحت حانوتي وجلست إلى جانب الهيكل إلا بثلاثة فوارس قد أقبلوا من طريق السماوة في البر. حتى وقفوا علي وهم متلثمون بعمائم الخز، وعليهم حلل من القصب فسلموا علي، وأسفر أحدهم، وقال: أنت مرعبدا وهذا دير حنة؟ قلت: نعم. قال: قد وصفت لنا بجودة الشراب والنظافة فاسقني رطلاً. فبادرت فغسلت يدي ثم نقرت الدنان، ونظرت أصفاها فبزلته، فشرب ومسح يده وفمه بالمنديل، ثم قال: أسقني آخر. فغسلت يدي وتركت ذلك الدن، وذلك القدح، والمنديل، ونقرت دنا آخر. فلما رضيت صفاره بزلت منه رطلاً في قدح، وأخذت منديلاً جديداً فناولته إياه فشرب كالأول. ثم قال: أسقني رطلاً آخر فسقيته في غير ذلك القدح، وغير ذلك المنديل. فشرب ومسح يده وفمه، وقال لي: بارك الله فيك فما أطيب شرابك، وانظفك وأحسن أدبك. وما كان رأيي أن أشرب أكثر من ثلاثة أرطال، فلما رأيت نظافتك دعتني نفسي إلى شرب رابع فهاته.

فناولته إياه على تلك السبيل، فشرب، وقال: ولولا أسباب تمنع من بيتك لكان حبيباً إليّ جلوسي يومي هذا فيه. وولي منصرفاً في الطريق الذي بدا منه، ورمى إلى أحد الراكبين اللذين كانا معه بكيس، فقلت: وحق النصرانية لا قبلته حتى أعرف الرجل. فقال: هذا الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وصفت له فأقبل من دمشق حتى شرب شرابك، ورأى ديرك والحيرة. ثم انصرف فحللت الكيس فإذا هو أربعمائة دينار[1].

٧ ـ دير عبد المسيح

هذا الدير بناه عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بقيلة، واسمه الحارث بن سبين بن زيد بن سعد بن عدي بن نمر بن صوفة بن العاص بن عمرو بن مازن. وكان من أهل الحيرة هو وأهل بيته، وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن أهل الحيرة[2] وكان أحد المعمرين، يقال أنه عمّر ثلاثمائة وخمسين سنة.

---

(١) الأعلام ١/ ٥٦ و١٠٢.
الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣، ٢٩، ٣٣، ٣٩، ١٢٦.
(٢) جمهرة أنساب العرب /٣٧٤.

والدير يقع بظاهر الحيرة، بموضع يقال له الجزعة. قال ياقوت: (وعبد المسيح هو الذي لقي خالد بن الوليد رضي الله عنه، لما غزا الحيرة، وقاتل الفرس فرموه من حصونهم الثلاثة، حصون آل بقيلة بالخزف المدور. وكان يخرج قدام الخيل فتفر منه. فقال له ضرار بن الأزور: هذا من كيدهم فبعث خالد رجلاً يستدعي رجلاً منهم عاقلاً، فجاءه عبد المسيح بن عمرو، وجرى له معه ما هو مذكور مشهور. قال: وبقي عبد المسيح في ذلك الدير بعد ما صالح المسلمين، على مائة ألف حتى مات، وخرب الدير مدة فظهر فيه أزج معقود من حجارة فظنوه كنزاً، ففتحوه فإذا فيه سرير خام عليه رجل ميت، وعند رأسه لوح مكتوب ـ أنا عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة ـ.

حلبت الدهر أشطره حياتي ... ونلت من المنى فوق المزيد
فكافحت الأمور وكافحتني ... فلم أخضع لمعضلة كؤود
وكدت أنال في الشرف الثريا ... ولكن لا سبيل إلى الخلود(1)

وذكره ابن فضل الله العمري، قال: دير عبد المسيح، وهو بالحيرة بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة، ويقال أنه عمر دهراً طويلاً، ولحق خالد بن الوليد حين فتح الحيرة وله معه خبر طويل. وحكى بعض أهل الكلام قال: قرأت على حائطه مكتوباً:

رأيت الدهر للإنسان ضدا ... ولا ينجى من الدهر الخلود
ولا تنجي من الآجال أرض ... يحل بها ولا قصر مشيد

وحكى آخر قال: قرأت على حائطه أيضاً:

هذي منازل أقوام عهدتهم ... في خفض عيش خصيب ماله خطر
دارت عليهم صروف الدهر فانتقلوا ... إلى القبور فلا عين ولا بصر

وقد ذكره الأصفهاني، في أخبار لا حاجة فيها. وذكر عنه ما يشبه الذي في معجم البلدان، فدل ذلك على أن ياقوتاً نقل كلام أبي الفرج الأصفهاني، ولم ينسب

---

(1) معجم البلدان ٢/ ٥٢١.

إليه إلّا أن ابن فضل الله لم يذكر البيت الثاني[1].

٨ ـ دير العذارى

تفرّد بذكره ياقوت الحموي، فقال: عند تبيانه لعدة من ديارات العذارى... وبالحيرة أيضاً دير العذارى، ولم يزد على ذلك.

معجم البلدان ٢/٥٢٣. موسوعة العتبات ق النجف ١/٥٥.

٩ ـ دير علقمة

ويقال له أيضاً دير بني علقمة. قال ياقوت: دير علقمة بالحيرة منسوب إلى علقمة بن عدي بن الرميك بن ثوب بن أسس بن ربى بن نمارة بن لخم. وفيه يقول عدي بن زيد العبادي:

نادمت في الدير بني علقما ... عاطيتهم مشمولة عندما
كأن ريح المسك من كأسها ... إذا مزجناها بماء السما
علقم ما بالك لم تأتنا ... أما اشتهيت اليوم أن تنعما
من سرّه العيش ولذاته ... فليجعل الراح له سلما

وذكره ابن فضل الله العمري، بأخصر مما ذكره ياقوت الحموي.

المصادر

مسالك الأبصار ١/ ٣٢٥.

معجم البلدان ٢/ ٥٢٤.

موسوعة العتبات ق النجف ١/٤٨.

(١) الديارات /٢٣٨ ـ ٢٣٩. ماضي النجف ١/١٨. مسالك الأبصار ١/ ٣١٤. موسوعة العتبات ق النجف ١/٥٣.

١٠ ـ دير فاثيون

لم يذكر الدير هذا في المعاجم بشكل مستقل، رغم أن جاء في شعر الثرواني في قوله:

قلت له والنجوم طالعة ... في ليلة الفصح أول السحر
هل لك في مار فاثيون وفي ... دير ابن مزعوق غير مقتصر

فقال أبو الفرج الأصفهاني: ودير فاثيون أسفل النجف، ودير ابن مزعوق بحذاء قصر عبد المسيح، بأعلى النجف. وجاء في بعض المراجع فايثون، وقد يكتب أيضاً فثيون، وينطق به اليوم نصارى العراق بصورة بثيون، وبيثون.

أما دير فثيون الذي ذكره ياقوت الحموي، هو غير هذا فقد قال: هو دير بسر من رأى.

١١ ـ دير اللج

قال ياقوت الحموي: هو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس، في أيام مملكته، ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن بناءً منه، ولا أنزه موضعا. وفيه قيل:

سقى الله دير اللج غيثاً فإنه ... على بعده مني إلى حبيب
قريب إلى قلبي بعيد محله ... وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيج ذكراه غزال يحله ... أغن سحور المقلتين ربيب
إذا رجع الإنجيل واهتز مائداً ... تذكر محزون وحن غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته ... بلابل أسقام به ووجيب

وفيه يقول إسماعيل بن عمار الأسدي[1]:

(١) اسماعيل بن عمار بن عيينة بن الطفيل الأسدي، المتوفى نحو ١٥٧هـ. شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية، والعباسية. كان ينزل الكوفة فيسمع غناء قيان لرجل يدعى (ابن رامين) ويقول فيهن الشعر. اتهمه أمير الكوفة بأنه من الشراة، وأنهم يجتمعون عنده، وأنه من دعاة المختار الثقفي فسجنه. ثم أطلقه الحكم بن الصلت، لما ولي الكوفة، وأحسن إليه فأكثر من مدحه. وكان هجاءً مراً. الأعلام ١/ ٣١٧. الأغاني ١٠/ ١٣٦.

ما أنس سعدة والزرقاء يومهما   باللج شرقية فوق الدكاكين[١]

وذكره جرير، فقال: نقلته من خط ابن أخي الشافعي، وقال: هو بظاهر الحيرة.

يا رب عائدة بالغور لو شهدت   عزّت عليها بدير اللج شكوانا
إنّ العيون التي في طرفها مرض   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله أركانا
يا رب غابطنا لو كان يطلبكم   لاقى مباعدة منكم وحرمانا[٢]

وقال ابن فضل الله العمري: - دير اللج، هو بالحيرة مما بناه النعمان بن المنذر، وهو من أنزه دياراتها وأحسنها بناءً لما يطيف به من البساتين. وكان النعمان يأتيه يتعبد فيه ويستشفى به في مرضه، وفيه قيل:

يا ليلتي أطيب بها ليلة   لو لم يكن قصّرها الطيب
بتنا (بدير اللج) في حانة   شرابها في الكأس مكبوب
يديرها ظبي هضيم الحشا   يحبه الشبان والشيب
حتى إذا ما الخمر مالت بنا   جرت أمور وأعاجيب
فما ترى ظنك في شادن   بات إلى جانبه ذيب

وقد ذكره أبو الفرج، فقال: كان النعمان يركب كل أحد إليه، وفي كل عيد معه أهل بيته خاصة من آل المنذر، ومن ينادمه من أهل دينه، عليه حلل الديباج المذهبة وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنانير المحلاّة بالذهب المفصصة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب، فإذا قضوا صلاتهم انصرف إلى مستشرفه على النجف، فيشرب بقية يومه إلى أن يمسي، وخلع ووصل وحمل وكان ذلك أحسن منظر وأشرفه، وأنشد فيه قول الشاعر:

(١) من قصيدة مطلعها قوله:
هل من شفاء لقلب لج محزون   صب يغيب إلى ريم ابن رامين
إلى ربيحة أنّ الله فضلها   بحسنها وسماع ذي أفانين
الأغاني ١٠ /١٣٦.

(٢) معجم البلدان ٢/ ٥٣٠.

سقى الله دير اللج خيراً فإنه

وذكر بيتين مما ذكره ياقوت من الشعر فيه[١].

١٢ ـ دير مارت مريم

قال ياقوت الحموي، عن دير مارت مريم: ـ دير قديم من بناء آل المنذر بنواحي الحيرة، بين الخورنق، والسدير، وبين قصر أبي الخصيب، مشرف على النجف. وفيه يقول الثرواني:

فقصر أبي الخصيب المشـ ـرف الموفي على النجف
فأكناف الخورنق والسـ ـدير ملاعب السلف
إلى النخل المكمم والحـ ـمائم فوقه الهتف[٢]

وجاء في بعض المراجع، أنه يعرف بدير أتريب. وبدير مارت مريم. وبدير ماري مريم[٣].

أما ابن فضل الله العمري، فقد قال: ـ دير مارت مريم... هو بالحيرة من بناء المنذر، هما ديران متقابلان وبينهما مدرجة الحاج، وطريق السابلة إلى القادسية، وهما مشرفان على النجف. ومن أراد الخورنق عدل عن جادتها ذات اليسار. ومن شعر الثرواني فيها:

دع الأيام تفعل ما أرادت إذا جادت بندمان وكأس
ومارت مريم، والصحن فيه حديقتان من ورد وآس
وظبي في لواحظ مقلتيه نعاس من فتور لا نعاس
وخل لا يحول عن التصابي ذكور للمودة غير ناسي
ومحتضن لطنبور فصيح يغنيني بشعر أبي نواس[٤]

---

(١) مسالك الأبصار ١/ ٣٢٥. موسوعة العتبات ق النجف ١/ ٤٦.
(٢) معجم البلدان ٢/ ٥٣١.
(٣) الديارات /٢١٣. الهامش.
(٤) مسالك الأبصار ١/ ٣١٧.

وقد ذكره أبو الفرج، وقال: كان قس يقال له يحيى بن حماد، ويقال له يوشع، تألفه الفتيان ويشربون على سطحه وفي قلايته على قراءة النصارى وضرب النواقيس. وفيه قال بكر بن خارجة أو غيره:

بتنا بمارت مريم سقيا لمارث مريم
ولقسها يحيى المهيمن ثم بعد نوم النوم
وليوشع والخمره حمراء مثل العندم
ولفتية حفوا به يعصون لو اللوم
يسقيهم ظبي أغن لطيف غلق المعصم
يرمى بعينيه القلوب كمثل رمى الأسهم[1]

وقال جعفر بن قدامة، قال: حدثني ميمون بن هارون، قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: لما خرجت مع الواثق إلى النجف، درنا بالحيرة ومررنا بدياراتها، فرأيت دير مريم بالحيرة فأعجبني موقعه وحسن بنائه فقلت:

نعم المحل لمن يسعى للذته دير لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماء غير ذي أسن وقاصرات كأمثال الدمى حور

فقال الواثق: لا نصطبح والله غدا إلاّ فيه. وأمر أن يعد فيه ما يصلح من الليل، وباكرناه فاصطبحت فيه على هذا الصوت. وأمر بمال ففرقه على أهل ذلك الدير. وأمر لي بجائزة[2].

١٣ ـ دير مرعبدا

ذكره ياقوت الحموي، في موضعين من كتابه، فقال: الأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم، يقال لواحدها كرح. بالقرب منها ديران، يقال لأحدهما دير مرعبدا، وللآخر دير حنة، وهو موضع بظاهر الكوفة.

---

(١) موسوعة العتبات ق النجف ١/٣٨.
(٢) الأغاني ٥/ ١٢٨: ماضي النجف ١/ ١٧.

وقال في موضع آخر: ـ دير مرعبدا بذات الأكيراح من نواحي الحيرة، منسوب إلى مرعبدا بن حنيف بن وضاح اللحياني. كان من ملوك الحيرة وهو دير ابن وضاح.

ولم أجد غير ما قدمناه.

١٤ ـ دير هند الصغرى

كانت هند بنت النعمان بن المنذر بن امرىء القيس بن النعمان اللخمية المتوفية نحو ٧٤ هـ من ربات النبل والشرف والشعر والأدب والحسن والجمال، عشقها عدي بن زيد، فخرجت في خميس الفصح، وهو بعد السعانين بثلاثة أيام تتقرب في البيعة، ولها حينئذ إحدى عشرة سنة، وذلك في ملك المنذر. ولدت ونشأت في بيت الملك بالحيرة. ولما غضب كسرى على أبيها النعمان وحبسه ومات في سجنه، ترهبت ولبست المسوح، وأقامت في دير بنته بين الحيرة والكوفة، عرف بدير هند الصغرى، للتمييز بين ديرها، ودير هند الكبرى بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي. وزال ملك اللخميين، ودخل خالد بن الوليد الحيرة فزارها في الدير، وعرض عليها الإسلام، فاعتذرت بكبر سنها عن تغيير دينها. فأمر لها بمعونة وكسوة. فقالت: ما لي إلى شيء من هذا حاجة، لي عبدان يزرعان مزرعة لي أتقوت منها. ودعت له.

ولما خرج من عندها جاءها النصارى فسألوها عما صنع بها؟ فقالت:

صان لي ذمتي وأكرم وجهي   إنما يكرم الكريم الكريم

وعاشت طويلاً وعميت. وكان ممن زارها المغيرة بن شعبة وأعجب بحديثها. وعبيد الله بن زياد. وهانىء بن قبيصة. ثم الحجاج، لما قدم الكوفة سنة ٧٤ وماتت في ديرها[1].

قال أبو الحسن الشابشتي، في تعريف دير هند الصغرى: بنت هند هذا الدير

(١) الأعلام ٩/ ١٠٦. أعلام النساء ٥/ ٢٥٩. العقد الفريد ٦/ ٩٦.

بالحيرة وترهبت فيه، وسكنته دهرا طويلا ثم عميت. وهـذا الدير من أعظم ديـارات الحيرة وأعمرها، وهو بين الخندق وخضراء بكـر. ولما قـدم الحجاج الكـوفة سنـة أربع وسبعين، قيل له أن بين الحـيرة والكوفـة ديراً لهـنـد بنت النعمان، وهي فيـه ومن رأيها وعقلها، فانظر إليها فإنها بقية. فـركب والناس معـه حتى أتى الديـر. فقيل لهـا: هذا الأمير الحجاج بالباب، فـاطلعت من ناحيـة الديـر. فقال لهـا: يا هنـد ما أعجب مـا رأيت؟ قالت: خروج مثلي إلى مثلك فلا تغتر يا حجاج بالدنيا، فإنا أصبحنا ونحن كما قال النابغة:

رأيتـك من تـعـقـد لـه جـل ذمـة ... من النـاس يا من سرحـه حيث أربعا[١]
ولم نمس إلاّ ونـحـن أذل النـاس ... وقـل مـا انـاء امتـلأ إلاّ انـكـفـا

فانصرف الحجاج مغضباً وبعث إليها من يخرجها من الدير، ويستأديها الخـراج، فأخرجت مع ثلاث جوار من أهلها. فقالت إحداهن في خروجها:

خـارجـات يـسقـن مـن ديـر هـنـد ... مـذعـنـات بـذلـة وهـوان
لـيـت شـعـري أأول الحشر هـذا ... أم محـا الـدهـر غـيرة الـفـتـيـان؟

فشد فتى من أهل الكوفة على فرسه، فاستنقـذهن من أشراط الحجاج، وتغيب فبلغ الحجاج شعرها، وفعل الفتى. فقـال: إن أتاني فهـو آمن، وإن ظفرنـا به قتلنـاه فأتاه الفتى. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: الغيرة. فوصله وخلاه.

وكان سعد بن أبي وقاص، حين فتح العراق أتى هنداً إلى ديرها، فخرجت إليه فأكرمها وعرض عليها نفسه في حوائجها. فقالت: سأحييـك بتحية كـانت أملاكنـا[٢] تحيا بها. . .(مستك يد نالها فقر بعد غنى، ولا مستك يد نالها غنى بعد فقر، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا نزع الله عن كريم نعمة إلاّ جعلك سببا لردها عليه[٣].

ثم جاءها المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة، فاستـأذن عليها. فقيـل لها:

---

(١) أحسبه النابغة الذبياني، لاتصاله بالنعمان بن المنذر صاحب الحيرة. إذ كان يفد عليـه فيمدحـه. ولم يكن النابغة الجعدي، أو النابغة الشيباني. وعلى الروايتين لم يكن البيت هذا في ديوانه المطبوع.

(٢) أي ملوكنا.

(٣) العبارة في زهر الآداب ٤/ ٢٤ هكذا (شكرتك يد نالتها خصاصة بعـد ثروة، وأغنـاك الله عن يد نـالتها ثروة بعد فاقة). وهي محذوفة في عبارة موسوعة العتبات ق النجف.

أمير هذه المدرة بالباب. فقالت: قولوا له من أولاد جبلة بن الأيهم أنت؟ قال: لا. قالت: فمن ولد المنذر بن ماء السماء؟ قال: لا. قالت: فمن أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت: فما حاجتك؟ قال: جئتك خاطباً. قالت: لو جئتني لجمال أو حال لأجبتك، ولكن أردت أن تتشرف بي في محافل العرب. فتقول: نكحت بنت النعمان بن المنذر. وإلاّ فأي فخر في اجتماع أعور وعمياء؟ فبعث إليها، قال: كيف كان أمركم؟ قالت: سأختصر لك الجواب.

(أمسينا مساء وليس في الأرض عربي إلاّ وهو يرغب إلينا ويرهبنا ثم أصبحنا وليس أحداً إلاّ ونحن نرغب إليه ونرهبه).

قال: فما كان أبوك يقول في ثقيف؟ قالت: اختصم إليه رجلان منهم في شيء، أحدهما ينتمي إلى أياد، والآخر إلى بكر بن هوازن. فقضى به للأيادي، وقال:

إنّ ثقيفا لم تكن هوازنا ولم تناسب عامرا ومازنا

فقال المغيرة: أما نحن فمن بكر بن هوازن فليقل أبوك ما شاء[1].

وقال ياقوت الحموي: (بالحيرة يقارب خطة بني عبد الله بن دارم بالكوفة مما يلي الخندق في موضع نزه، وهو دير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرقة.

قال هشام الكلبي: كان كسرى قد غضب على النعمان بن المنذر فحبسه، فأعطت بنته هند عهداً لله إن رده الله إلى ملكه أن تبني ديراً تسكنه حتى تموت. فخلى كسرى عن أبيها النعمان فبنت الدير وأقامت به إلى أن ماتت، ودفنت فيه. وهي التي دخل عليها خالد بن الوليد، لما فتح الحيرة فسلمت عليه، فقال لها لما عرفها: أسلمي حتى أزوجك رجلاً شريفاً مسلماً. فقالت: أما الدين فلا رغبة لي في غير دين آبائي. وأما التزويج فلو كانت فيَّ بقية لما رغبت فيه، فكيف وأنا عجوز هرمة أترقب المنية بين اليوم والغد.

فقال: سليني حاجة، فقالت: هؤلاء النصارى الذين في ذمتكم تحفظونهم. قال: هذا فرض علينا أوصانا به نبينا محمد ﷺ قالت: ما لي حاجة غير هذا، فإني

(١) الديارات /٢٤٤ ـ ٢٤٦. الأغاني ٢/ ٣١. المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ١٩٨.

ساكنة في هذا الدير الذي بنيته ملاصقاً لهذه الأعظم البالية من أهلي حتى ألحق بهم.

فأمر لها بمعونة ومال وكسوة. قالت: أنا في غنى عنه، لي عبدان يزرعان مزرعة لي أتقوت بما يخرج منها ويمسك الرمق، وقد اعتددت بقولك فعلاً وبعرضك نقداً. فقال لها: أخبرني بشيء أدركت. قالت: ما طلعت الشمس بين الخورنق والسدير، إلاّ على ما هو تحت حكمنا، فما أمسى المساء حتى صرنا خولاً لغيرنا. ثم أنشأت تقول:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فتباً لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

ثم قالت: إسمع مني دعاء كنا ندعو به لأملاكنا (شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا أزال عن كريم نعمة إلاّ جعلك سبباً لردها إليه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة. فتركها وخرج. فجاء النصارى وقالوا: ما صنع بك الأمير؟ فقالت:

صان لي ذمتي وأكرم وجهي ... إنما يكرم الكريم الكريم

وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا الدير. فقال الأمير معن بن زائدة الشيباني، وكان منزله قريباً منه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... لدى دير هند والحبيب قريب
فنقضي لبانات ونلقي أحبة ... ويورق غصن للسرور طيب

وهند هذه صاحبة القصة مع المغيرة بن شعبة[1].

وقال ابن فضل الله العمري: (دير هند، وهي بنت النعمان بن المنذر. بناه أبوها له ليتعبد فيه فلما فرغ خرجت من قصر أبيها تريده، فأقامت في الطريق سنة تضرب المضارب في نزه وصيد، والمسافة بين قصر أبيها وبينه نحو الفرسخ، وشق لها بشر بن مروان نهراً من الفرات، ولم يزل النهر يجري تحت خرب الدير. وحكى أن النعمان كان يصلي ويتقرب فيه، وأنه علق في هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضة.

(١) معجم البلدان ٢/ ٥٤١.

وكانت أدهانها في أعياده من زنبق، وبان وما شاكلهما من الأدهان. ويوقد فيه العود الهندي، والعنبر شيئاً يجل عن الوصف.

وفيها حكى الكلبي: أن النعمان دخله في بعض أعياده، فرأى إمرأة تأخذ قرباناً أخذت بقلبه. فدعا الراهب الذي قربها وسأله عنها. فقال: هي إمرأة حكم بن عمرو اللخمي. فلما انصرف النعمان دعا عدي بن زيد كاتبه وأوقفه على الخبر، وقال له: كيف الحيلة؟ فقال له: إذا كان بكرة غد وحضر الناس الباب فابدأه في الإذن وأجلسه معك على سريرك. ففعل النعمان ذلك، وأذن للناس بعده. فجعلوا يتعجبون وانصرفوا. فقال النعمان لعدي بن زيد: قد طال هذا. قال: إذا أصبحت فإن عندك عشر نسوة فطلق أبغضهن إليك. ثم قال له: قد طابت نفسي لك بما لم تطب به لولد ولا أخ. وقد طلقت لك فلانة فتزوجها. ففعل ذلك وخرج وهو لابس من حلل النعمان، ولديه ما حمل عليه. فجلس وحكم بين العرب، وعدي بن زيد، بالباب جالس.

فقال له اللخمي: ما أدري ما أكافىء به الملك، فعل معي وفعل؟ فقال عدي: ما أقدرك على مكافأته. قال: وما هو؟ قال: طلق إمرأتك كما طلق لك إمرأته. قال: قد فعلت. فانفذها إلى النعمان، وفي ذلك يقول:

علقتها حرة حوراء ناعمة ... كأنها البدر في داج من الظلم
ما في البرية من أنثى تعادلها ... إلا التي أخذ النعمان من حكم[1]

وقد ذكره أبو الفرج، وقال: هند بنت النعمان صاحبة هذا الدير، هي الحرقة، وهي التي دخلت على خالد بن الوليد. وذكر مختصر الخبر ثم قال: (وهذا الدير يقارب دار بني عبد الله بن دارم بالكوفة، مما يلي الخندق) وذكر بعد ذلك ما ذكره الشابشتي في كتابه الديارات[2].

(١) مسالك الأبصار ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٢) موسوعة العتبات ق النجف ١/٤٥. ماضي النجف ١/ ١٧.

١٥ ـ دير هند الكبرى

قال ياقوت الحموي: (وهو أيضاً بالحيرة، بنته أم عمرو بن هند، وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي. وكان في صدره مكتوباً: بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر. أمة المسيح، وأم عبده وبنت عبيدة وفي ملك الأملاك خسرو أنو شروان في زمن مارافريم الأسقف.

فالأله الذي بنت له الدير يغفر خطيئتها، ويترحم عليها وعلى ولدها، ويقبل بها، ويقومها إلى أمانة الحق، ويكون الله معها، ومع ولدها الدهر الداهر.

حدّث عبد الله بن مالك الخزاعي، قال: دخلت مع يحيى بن خالد، لما خرجنا مع الرشيد، إلى الحيرة وقد قصدناها لنتنزه بها ونرى آثار المنذر. فدخل دير هند الصغرى فرأى آثار قبر النعمان وقبرها إلى جنبه. ثم خرج إلى دير هند الكبرى، وهو على طرف النجف فرأى في جانب حائطه شيئاً مكتوباً فدعا بسلم وأمره بقراءته، وكان فيه مكتوباً:

إن بني المنذر عام انقضوا ... بحيث شاد البيعة الراهب
تنفح بالمسك ذفاريهم ... وعنبر يقطبه القاطب
والقز والكتان أثوابهم ... لم يجب الصوف لهم جانب
والعز والملك لهم راهن ... وقهوة ناجورها ساكب
أضحوا وما يرجوهم طالب ... خيراً ولا يرهبهم راهب
كأنهم كانوا به لعبة ... سار إلى أين بها الراكب
فأصبحوا في طبقات الثرى ... بعد نعيم لهم راتب
شر البقايا من بقي بعدهم ... قل وذل جده خائب

قال: فبكى حتى جرت دموعه على لحيته، وقال: نعم هذه سبيل الدنيا.

وقال أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري: أنّ هنداً صاحبة هذا الدير هي التي تعرف بحرقة ويقرأ بحريقة وهي التي دخلت على خالد بن الوليد، لما افتتح الحيرة، فقال لها: أسلمي حتى أزوجك رجلاً شريفاً من المسلمين. قالت: أما الدين

فلا رغبة بي عن ديني ولا أبتغي به بدلاً. وأما التزويج فلو كانت فيّ بقية لما رغبت فيه، فكيف وأنا عجوز هامة اليوم أو غد؟ فقال لها: سليني حاجة. فقالت: هؤلاء النصارى الذين في أيديكم تحفظونهم. فقال: هذا فرض علينا وقد وصانا به نبينا. قالت: ما لي حاجة غير هذه.

أنا ساكنة في دير بنيته ملاصق هذه الأعظم البالية من أهلي حتى ألحق بهم. فأمر لها بمعونة ومال وكسوة. فقالت: ما لي إلى شيء من هذا حاجة. لي عبدان يزرعان مزرعة لي أتقوت منها ما يمسك رمقي. وفيه يقول أبو حيان.

يا دير هند لقد أصبحت لي أنسا ... كنت لي يا دير ميشاسا
سقيا لذلك ديرا كنت آلفه ... فيه أعاشر رهبانا وشيماسا

وقال أبو الفرج الأصفهاني: إن هند كانت تهوى زرقاء اليمامة، وإنها أول إمرأة أحبت إمرأة في العرب، فإن الزرقاء كانت ترى الجيش من مسيرة ثلاثين ميلاً، فغزا قوم من العرب اليمامة، فلما قربوا من مسافة نظرها، قالوا: كيف لكم بالوصول مع الزرقاء فاجتمع رأيهم على أن يقتلعوا شجراً تستر كل شجرة منها الفارس إذا حملها، فقطع كل واحد منهم بمقدار طاقته، وساروا بها فأشرفت كما كانت تفعل، فقال لها قومها: ما ترين يا زرقاء وذلك في آخر النهار؟ قالت: أرى شجراً يسير، فقالوا: كذبت أو كذبتك عينك واستهانوا بقولها، فلما أصبحوا صبحهم القوم فاكتسحوا أموالهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا الزرقاء فقلعوا عينها فوجدوا فيها عروقاً سودا، فسئلت عنها، فقالت: إني كنت أديم الإكتحال بالأثمد، فلعل هذا منه وماتت بعد ذلك بأيام. وبلغ هندا خبرها فترهبت ولبست المسوح، وبنت ديراً يعرف بدير هند إلى الآن فأقامت فيه حتى ماتت.

وجاء أن المغيرة لما ولاه معاوية الكوفة، مر بدير هند فنزله ودخل على هند بنت النعمان، بعد أن استأذن عليها فأذنت له وبسطت له مسحاً فجلس عليه. ثم قالت: ما جاء بك؟ قال: جئتك خاطباً،قالت: والصليب لو علمت أن فيّ خصلة من جمال أو شباب رغبتك فيّ لأجبتك، ولكنك أردت أن تقول في المواسم ملكت مملكة النعمان بن المنذر، ونكحت ابنته فبحق معبودك أهذا أردت؟ قال: إي والله. قالت:

فلا سبيل إليه. فقام المغيرة وانصرف وقال فيها:

أدركت ما منيت نفسي خاليا لله درك يا ابنة النعمان
فلقد رددت على المغيرة ذهنه إن الملوك نقية الأذهان

ويظهر أن الدير هذا كان قائماً إلى سنة سبع وعشرين ومائة (١٢٧) فقد ذكر ابن الأثير في حوادث عام ١٢٧ هـ عند ظهور عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، بالكوفة والدعوة إلى نفسه ما نصه:

(وبلغ الخبر عبد الله بن عمر فأرسل إليهم أخاه عاصماً فأتاهم وهم (بدير هند) فألقى نفسه بينهم، وقال: هذه يدي لكم فاحكموا. فاستحيوا ورجعوا وعظموا عاصماً وشكروه. فلما كان المساء أرسل عبد الله بن عمر إلى عمر بن الغضبان بن القبعثري بمائة ألف فقسمها في قومه بني همام بن مرة بن ذهل الشيباني، وإلى ثمامة بن حوشب بمائة ألف قسمها في قومه، وأرسل إلى جعفر بن نافع بمال، وإلى عثمان بن الخيبري بمال).

هذا وفي المراجع العربية القديمة ثلاثة مواضع عرفت بدير هند.

الأول، دير هند الصغرى وهو بالحيرة، وقد عقدنا له فصلاً في بحثنا.

الثاني، دير هند الكبرى. من ديارات الحيرة وتحدثنا عنه أيضاً هنا.

الثالث، دير هند من قرى دمشق، وهو خارج عن نطاق بحثنا، ولسنا بصدد البحث عنه.

مصادر البحث

الأغاني ٢/٣٣.
الديارات /٣٩٠ - ذيل كتاب الديارات.
الكامل في التأريخ ٥/٣٢٥.
معجم البلدان ٢/٥٤٢.
معجم ما استعجم /٣٦٤.
موسوعة العتبات ق النجف ١/٤٥.



منظر جوي لمدينة كربلاء المقدسة

البناء العام
لمدن لواء كربلاء المهمة [1]

(١)

إن المدينة الحديثة من حيث امتداد أجزائها المبينة، وتباين استغلال الأراضي للأغراض المدنية، والاقتصادية، تظهر ترتيباً إقليمياً حول وسط المدينة. إلا أن مدن العالم على اختلاف درجاتها لها ما يخصها من ظروف طوبوغرافية وتأريخية تحاول مجتمعة أو منفردة أن تظهر الترتيب الاقليمي المذكور.

ومن ثم يظهر التباين جلياً في البناء العام بين مدينة ومدينة عدا تلك التي تتشابه في ظروفها الطبيعية والتأريخية، وسأذكر لمحة عن تأريخ تخطيط وبناء مدن لواء كربلاء الثلاث المهمة، إذ لا بد من ذلك للتعرف على التغيرات التي حصلت على شكل البناء، ومعرفة ما إذا كان هناك بعض نماذج من أسلوب البناء الماضية قد تتكرر في الحاضر.

فنحن لو أمعنا النظر في مدينة كربلاء لوجدناها مقسمة من حيث العمران إلى قسمين، يسمى الأول بـ«كربلاء القديمة» وهو قائم على أنقاض كربلاء العريقة، وقد

(١) كتب الأستاذ محسن عبد الصاحب المظفر بحثاً تناول فيه حدود النجف، في الماضي والحاضر نشر في مجلة «الإيمان» العدد ٣ ـ ٤ من السنة الثانية.
والعدد ٥ ـ ٦ من السنة نفسها ص ٦٠ ـ ٦٥ وص ١٥٦ ـ ١٩١، وهو فصل من كتابه «جغرافية اللواء المقدس». وقد أثبتناه لأهميته.

وسعها سليمان القانوني سنة ٩٤١ هـ «١٥٣٤م»، أما القسم الثاني فيدعى بـ«كربلاء الجديدة» وقد خطط في عهد ولاية مدحت باشا في عام «١٢٨٥هـ» «١٨٦٧م»، وبني بعد عام ١٣٠٠هـ على طراز يختلف عن الطراز القديم، وقد تهدم قسم كبير منه بسبب المياه الجوفية «النزيز» التي أكلت الأسس والجدران.

وكانت مدينة كربلاء ولا تزال مقسمة إلى أطراف أو محلات عدة تشكل اليوم كربلاء القديمة حتى سنة ١٣٠٠هـ، ومن هذه المحلات، باب السلالمة الواقعة إلى شمال المرقد الحسيني، ومحلة باب بغداد الواقعة إلى الشمال من مرقد العباس(ع)، ومحلة باب الطاق الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، ومحلة باب الخان في الجانب الشرقي منها، ومحلة العباسية الواقعة في جنوبيها والعباسية مقسمة إلى قسمين أولاهما يدعى بالعباسية الشرقية، وثانيهما يدعى بالعباسية الغربية، وإلى الجنوب الغربي من المرقدين المقدسين تقع محلة المخيم.

«أما النجف فقد أفادت الشواهد المتعددة بأنها الظهر المعبر عنه بلسان البر كما في كتب التأريخ والأدب ويكون بين السدير والغدير حتى يصل البطن، فما قرب من الفرات سمي الملطاط وما قرب من البطن سمي النجاف»[1]. وعند الفتح الإسلامي كانت النجف مأهولة بالسكان «العرب» وهم أهل زراعة، أي أن النجف كانت مستغلة للسكنى والزراعة أيام التنوخيين والمناذرة يوم كانت الحيرة عاصمتهم.

وقد ذكرت كتب التأريخ الباحثة عن النجف وتأريخها، أن علياً(ع) لما استشهد، دفن في مكان قريب من النجف، وقد يكون ذلك عند حدودها، عند أطراف المنازل، (أي في موضعه الحالي). وبعد دفنه (ع) اتسعت المدينة حول القبر وأصبحت التسمية تطلق على كل المنطقة المسكونة قديمها وحديثها آنذاك، ونشأت النجف تظهر أهميتها عند ظهور القبر الشريف أي أنه ما إن تأكد الناس من موقعه حتى شرعوا يختطون منازلهم حوله، وقطن النجف بعد ذلك ناس كثيرون.

وللنجف خريطة متقنة وضعها نيبوهر Niobuhr ووضح عليها محلاتها، وقد

(١) من ماضي النجف وحاضرها ـ ج١/ ص٧ ج٢/ ٣٢٨. للعلامة الشيخ جعفر محبوبة ـ رحمه الله.

كانت محلات صغيرة[١]، ظلت تحتفظ بأسمائها حتى الآن. وهي تؤلف مدينة النجف القديمة ضمن السور الذي تهدم ولم تبق منه إلا جوانب شاخصة بسيطة تدل عليه، وأطراف النجف القديمة هي أربعة أطراف رئيسية، الطرف الأول هو البراق، ويحتل الجانب الشرقي من المدينة، والثاني هو طرف العمارة الذي يحتل الجانب الغربي منها، والثالث هو طرف المشراق الذي يحتل الجانب الشمالي، أما الرابع فهو طرف الحويش، ويحتل الطرف الجنوبي، ولا تزال هذه الأطراف متكونة من منازل ضيقة منخفضة تؤدي إليها أزقة ضيقة بعضها لا يرى الشمس، حيث تطل عليه من المنازل شرفات (شناشيل) فتحجب النور والهواء عنه تماماً كما هي الحال في مدينة كربلاء المتميزة بضيق الأزقة المؤدية إلى منازل محلاتها القديمة. والمدينتان النجف وكربلاء وجدتا متنفسا حين أحيطت المراقد المقدسة فيهما بشوارع دائرية. ففي النجف حول المرقد المقدس شارع دائري يدعى «بدورة الصحن» تتصل به شوارع رئيسية تخترق أطراف المدينة القديمة وفي كربلاء هناك شارع دائري حول مرقد الإمام الحسين(ع) وشارع دائري آخر حول مرقد الإمام العباس(ع) ويصل بينهما شارع مستقيم هو شارع علي الأكبر.

وقد وصف العلامة ماسينون في كتابه خطط الكوفة وشرح خريطتها. محلات النجف القديمة إذ قال من جملة ماقال، أن المشراق طرف يقع في الشمال ما بين باب البحر الذي يسمى بباب الثلمة، وباب الصغير. وهناك ثلاثة أطراف أخرى وهي العمارة وتشتمل على الجامع وسوق القاضي، وتحتل الجانب الجنوبي الغربي من المدينة، والحويش الصغير والكبير يحتل الجنوب منها، والبراق مع سوق الكبير يحتل الشرق منها.

وإن الذين سكنوا النجف آنذاك ليسوا في مأمن من غزوات الأعراب، ولأن النجف كانت بعيدة عن مخافر الحكومة ذات الأهمية من حيث السيطرة والإشراف على حماية المدينة، ظهرت الضرورة الماسة إلى تحصينها بأسوار عالية، وقد قامت لها أربعة

---

(١) راجع خطط الكوفة وشرح خريطتها للعلامة ـ ماسنيون ـ ترجمة ت المصعبي مطبعة العرفان ـ ١٩٤٦ـ ص ٣٤.

أسوار تمتاز بشكلها الدائري وحصانتها والذي جاء في كتاب عقيدة الشيعة[١] هو أن النجف كانت تحيطها أسوار مربعة. ولا يفهم من هذا أن الأسوار كانت قائمة كلها وفي آن واحد، بل أنه كان يهدم سور ليقام وراءه سور آخر، فتزداد المدينة سعة. وذكر أن المرقد الشريف كان يحتل وسط المدينة القديمة التي أخذت شكلاً دائرياً على وجه العموم، ويمثل خط محيطها الدائري سورها الرابع المنهدم الذي نشهد اطلاله شاخصة لتذكرنا بالمآسي التي كان يعانيها آباؤنا وأجدادنا.

أما الكوفة فقد سميت كذلك لاستدارتها، وهي على هذه الحال دائرية الشكل بنيت في مكان غرب الفرات، يتميز بأنه منبسط عذب الهواء لا يفصل بينه وبين العاصمة مسطح مائي، وقع اختيار سعد بن أبي وقاص وجماعته عليه وذلك للأغراض الحربية، فأمر سعد أبا الهيجاء عمر بن مالك فأختطها سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) وأن أول شيء اختطه فيها هو مسجدها وحوله فراغ عرضه رمية سهم، وعينت بعد ذلك حدود المدينة لتحيط بالمسجد، فاختط الناس منازلهم، واستقرت القبائل كل في الجانب الذي عين لها. وفي خريطة تخطيطية لمدينة الكوفة موجودة في كتاب تأريخ الكوفة للبراقي نقلا عن خطط الكوفة لماسنيون ظهرت المدينة بشكلها الدائري الواضح، أما الميدان والجامع الذي قربه وكذلك القصر، تحتل مركز المدينة المدورة، وتتفرع من هذا المركز عدة طرق وتنتهي بحدود المدينة أو محيطها، ومن هنا تبدو هذه الطرق كأنها أنصاف أقطار في دائرة تامة؛ ومن هذه الطرق الطريق الذي يتجه باتجاه شمالي غربي نحو كربلاء وبإتجاه غربي نحو النجف وباتجاه جنوبي شرقي نحو البصرة، وباتجاه جنوبي شرقي نحو الحيرة، وباتجاه شمالي شرقي نحو بغداد وكانت تحيط الكوفة كما يبدو من الخارطة هذه والتي تعود إلى القرن السابع أو الثامن الميلادي، فترات تستدير باستدارتها.

وقد تغيرت هيئة بناء مدينة الكوفة القديمة تغيراً تاما حتى أننا لو قارنا ما كانت عليه الكوفة سابقاً من بناء بما تكون عليه اليوم لما وجدنا ثمة تشابه أو تطابق.

والمدينة أية مدينة كانت لا ينشئها الناس إلا أن تكون هناك عوامل كثيرة

(١) عقيدة الشيعة ـ تأليف دارت م. رونلدسن تعريب ع.م. مطبعة السعادة مصر ص ٧٠ ـ ٨١.

اقتصادية وطبيعية وتأريخية منفردة أو مجتمعة تحثهم إلى تخطيطها وإنشائها. وفي موضوع سابق نشرناه في مجلة النشاط الثقافي كنا قد تناولنا ظاهرة التوزيع الجغرافي لمناطق السكنى في لواء كربلاء، وبيّنا فيه من جملة ما بيّنا العوامل الرئيسية الداعية إلى تأسيس كل مدينة من مدن اللواء في مكانها الحالي، وكانت العوامل بمجموعها عوامل طبيعية واقتصادية وتأريخية، كل منها لعب دوراً بارزاً في نشوء مدن اللواء وتوسعها وعلى كل حال، فإن هناك عوامل رئيسية ومهمة تراعي في تخطيط ما يراد تخطيطه وإنشاؤه من مدن وقد علق ابن خلدون على هذا الأمر حيث قال: «. . . أما الحماية من المضار فيراعي لها أن يدار على منازلها سياج الأسوار وأن يكون ذلك في متمنع الأمكنة»[1] وكان يراعى تبعاً لذلك طيب الهواء وجودة المرعى.

وإنه لم يراع الظروف الطبيعية والاقتصادية في تخطيط مدينتي الكوفة والنجف، سوى أن الذي روعي في إنشائها هو الظروف التأريخية والعسكرية، وإلى عدم استساغة مثل هذه المراعاة وجه ابن خلدون الانظار أيضاً حين قال «وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، وأن يراعي ما هو أهم على نفسه وعلى قومه ولا يذكر حاجة غيره كما فعله العرب الأول في المدن التي اختطوها بالعراق وأفريقيا فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك، كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب، ما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية. . .»[2].

وهكذا كان يلاحظ العرب عند تخطيطهم المدن الأهم من الظروف التي تتناسب ومصالحهم، تلك الظروف التي لا تدفع مهندسي المدن اليوم إلى التفكير في اتخاذها عوامل معتبرة، وعلى هذا النحو نكون قد وقفنا على ما قد أغفله الناس من عوامل رئيسية طبيعية واقتصادية عندما اختطوا مدنهم. خذ مثلاً على ذلك، النجف التي نشأت وهي بعيدة عن مورد طبيعي مهم هو الماء، وإن كانت هناك بعض القنوات

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون ـ مطبعة الكشاف ـ بيروت ـ ص٣٤٩.

البسيطة لكنها لا تفي بحاجة السكان الذين ظلوا يعانون قلة الماء وقد اضطروا لـ
هـذا النقص إلى حفر الكهاريز داخل الأرض ليجري خلالها الماء من الكوفة
النجف ومن ثم تتصل بالكهاريز آبار عميقة، منها وبواسطة (الحبل والدلو) يحص
على الماء. ويتبين لنا من هنا أن النجف كانت فيما سبق وقبل أن ينشأ لها جهاز لاسا
الماء، تعاني نقص ضرورة لا تستقيم دونها الحياة. وأمر آخر مهم لا ينبغي لنا إهماله
التغاضي عنه هو عامل الحصانة، فان النجف لم يراع عند إنشائها عامل الحصا
ذلك على اعتبار ما ذكره لنا التأريخ في أن مدينة النجف كانت معرضة إلى هجم
الأعراب التي تسبب الرعب والهلع لسكانها الذين عاشوا ولم يتذوقوا طعماً من الراد
والاطمئنان، حتى أحاطوا مدينتهم بسور ضخم، جاهدوا لتحقيقه اضطراراً، و
حفروا فيما وراءه خندقاً ليكون مع السور حاجزاً صاداً يمنع هجمات الأعرا
وغزواتهم، ونحن لو تحدثنا عن الظروف الإيجابية التي لعبت دورها في نشوء النج
وتوسعها فيما بعد لكانت دون أدنى شك ظروف تأريخية أو دينية، وهناك ظروف أخر
ذكرت في كتب التأريخ إلا أنها ليست من الأهمية بمكان حتى تحتل صدارة العوام
المحفزة على بناء مدينة النجف، منها النجف كانت مصيفاً جميلاً ومنتزهاً، ينبت
النبات ويرعى الحيوان.

أما الكوفة فقد روعي في تخطيطها الظروف الصحية (طيب الهواء) والظرو
الطبيعية (توفر الماء) والظروف الحربية (سهولة الاتصال البري) وقد احتلت الكو
منزلة سامية في العالم الإسلامي وهي من بعد تاريخ زاخر بالمجد وعصر ذهبي تليد
أخذت تميل إلى دور سبات عميق، فاختفت معالم ذلك البناء، ولم يبق إلا بيت ا
الذي ظل شامخاً مذكرنا بالسلف الراحل وأمام واجهة المسجد اليوم أي في الجه
الشرقية منه منازل متفرقة، أما الجهات الأخرى التي تحيط المسجد فخالية من المنازل
لم تستغل للأغراض المدنية والسكنية، والكوفة اليوم آخذة باستعادة شيء من مجد
العظيم الغابر ذلك لأن التقدم في العمران ينبىء على أن الكوفة سوف لا تظل خراب
وربما كان ما أصاب الكوفة من خراب عائداً إلى أثر بعض ما ذكره ابن خلدون
مقدمته في باب «ما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة».

أما كربلاء فقد كانت في ازدهار مر العصور، ولما أصبحت مدينة إسلامي

مهمة، وبعد أن دفن فيها العباس والحسين عليهما السلام تفاقمت عظمتها وأضحت مدينة مقدسة، وكربلاء بنيت على أرض منبسطة طيبة الهواء قريبة إلى الماء كثيرة الزرع والخيرات.

(٢)

إن طبقات السهل المنبسط هي طبقات العصر الحديث المعروف «بالبلوستوسين» وهي أحدث الطبقات الجيولوجية في العراق، وطبقات الامتدادات للسهل الرسوبي المنبسط في لواء كربلاء شأنها شأن باقي أجزاء السهل الرسوبي في العراق، إذ تتكون من مواد صخرية وطينية نشأت نتيجة لإنجرافهـا بواسطة الأنهار المنحدرة من المرتفعات في شمال العراق فتماسكت وتكتلت بفعل المواد الجيرية. وقد انتشرت مكونات الفترة البختيارية بقسميها الأعلى والأسفل في الحافة الشرقية للهضبة.

أما طبقات البليوسين وطبقات المايوسين العليا وهي من فترة الترستري التي يبلغ عمرها حوالي ٦٠ مليون سنة في العراق فتكون جزءاً آخر من سطح لواء كربلاء إذ تتكون من أحجار وحصى تماسك بعضها مع البعض بواسطة الصلصال الجيري بينما مواد الجبس وحجر الكلس والغرين والصلصال الأخضر والأحمر؛ والأحجار الكلسية والرملية الكثيرة المسام مع بعض المتحجرات، تنتشر في شرق الهضبة الصحراوية وهي من مكونات «الميوسين الأسفل» أو فترة ـ فارس الأسفل ـ وهذه تدخل في تكوين جميع جهات لواء كربلاء الغربية.

ولقد وردت روايات تأريخية كثيرة تنص على ذكر الكثير من الأحداث الطبيعية المتعلقة بتكوين أرض لواء كربلاء وخاصة أرض النجف منه، حتى ذهب بعضهم مغالياً في وصف طبيعة أرض النجف والأرض التي تكتنفها ووصف طبيعتها الطبيوغرافية حيث قال أن النجف كانت أعظم جبل في العالم ومن تلك الأحاديث والروايات يمكن استنباط ما كانت عليه تلك الأرض وما جاورها من تكوين أو بنية فقد ورد:

إن النجف كانت جبلاً وهو الذي قال عنه ابن نوح ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ ولم يكن على وجه الأرض جبل أعظم منه فأوحى عز وجل إليه يا جبل

أيعتصم بك مني؟ فتقطع قطعاً قطعاً إلى بلاد الشام وصار رملاً دقيقاً وصار ب
بحراً عظيماً يسمى ذلك البحر ببحر (ني) كما أن بعضهم أراد أن يبحث ع
الذي اشتقت منه كلمة «النجف» فعلل أن البحر هذا لما جف قالوا إن «ني»
فسميت المنطقة بـ «ني جف» ثم صار بعد ذلك نجف لأنه أخف على الألسن.

وروي أن الغري هي قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكلي
عليه عيسى تقديساً واتخذ عليه إبراهيم خليلاً ومحمداً حبيباً وجعله للنبيين مس

وإن النجف بل لواء كربلاء جميعه والهضبة الصحراوية كلها كانت منط
«أي تغطيها مياه البحر» وقد أيّدت الحقائق الجيولوجية هذه الروايات التي
كتب التاريخ حيث أن هذه المنطقة كانت فيما سبق بحراً عظيماً وهذا البحر
كان يسمى بحر «تشس Tethys» وهو يمتد حتى يصل إلى جهات سوريا ولبنا
من البحر المتوسط ومعظم جهات العراق وإيران، ويمتد أيضاً إلى الشرق
شمال الهند، وكان معظم سطح تركيا يرتفع عن مستوى سطح هذا البحر، و
الرواية مؤيدة بحقائق ثابتة أشارت إلى أن البحر الذي كان يسمى «ني» مـ
تلك الفترة وهو دون جدال جزء من بحر تشس وتسميته بني تسمية محلية
بالجزء المجاور إلى النجف من هذا البحر العظيم «تشس» وهذا التطابق والمو
الروايات والحقائق الجيولوجية لا شك فيه إذ أن البحر العظيم وبحر ني يتص
ويمتدان كبحر واحد نحو الغرب إلى بلاد الشام، وقد ذكرنا أن بحر تشس
أقسام من شرق البحر المتوسط.

كان هذا البحر يغطي في أواخر الزمن الأول أو العصر «البرمي» معظ
العراق وبما أن جهات العراق قريبة من كتلة هضبة جزيرة العرب كانت أ
للحركات الاستوائية نظراً لإمتداد صخور الهضبة الصلبة ولذلك حافة
انبساطها.

إن قسم العراق الذي يسمى اليوم بالهضبة الصحراوية يشكل أغلب
لواء كربلاء، ولوقوعه على حافة قارة «كوندوا نالند»(*)، كانت الحركات الأرض

(*) قارة قديمة تضم شبه جزيرة العرب، وهضبة الدكن، وأجزاء من قارتي استراليا وأمريكا الجنو

تأثيرها عليه بغمر ماء البحر له فترة من الزمن وانسحابه عنه في فترة أخرى بحيث غطته طبقات عديدة من الصخور الرسوبية التي ترسبت نتيجة هذا الغمر والانسحاب ويستدل أيضاً على صحة هذا الغمر والانسحاب بأن هذه الصخور الرسوبية البحرية المتكونة تعود إلى عصور مختلفة، وقد انحسرت مياه بحر تشس عنها نهائياً دون عودة، هكذا لا نستغرب عندما نلاحظ كثيراً من البقايا البحرية في جوانب من الهضبة، فالمحار والاصداف وغيرها في جهات كربلاء الهضبية خير دليل على أن أرض اللواء وما جاورها من الغرب على وجه العموم كانت تغمرها مياه البحر العظيم السالف الذكر.

هكذا بمنظار الدراسات الجيولوجية المتفحص في الآثار والبقايا الجيولوجية نتوصل إلى صحة ما قيل في أرض النجف بأنها بحر كان يسمى «ني».

أما القسم الثاني من الرواية الناص على أن النجف كانت جبلاً عظيماً لا يوجد على وجه الأرض جبل أعظم منه، القول صحيح سوى أنه قد بولغ في ذكر الحقائق والمبالغة لا تخرج الرواية المتناقلة عن كونها صحيحة تصف مظهراً جغرافياً حقيقياً. ويصلح ما ورد في كتاب السير وليم ويلي كوكس أن يكون مرشداً لصحة ما تناقله الرواة، وهذا هو نصه: «ومما يجب الانتباه له إنه لم يكن يفهم سكان وادي الفرات ولا سكان وادي النيل» لفظة «كورة» القديمة، التل كما أنه لا يفهم هذا المعنى من لفظة «جبل» فكلا هاتين اللفظتين تدلان على الصحراء لا الجبل بمعناه الحقيقي وذلك لأنه لا يمكن أن يغمر الماء البالغ ارتفاعه أربعة وعشرين قدماً أرضاً عالية أو جبلاً بالمعنى الصحيح، نعم، يمكن أن يغمر هذا القدر من الماء السهول الصحراوية فقط، فالمقصود على هذا من عبارة «خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال، هو خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الأراضي الصحراوية»

وهذا الخطأ ناشيء من أن المترجمين العبريين الذين نقلوا العهد القديم إلى اللغة العربية لم يفهموا المعنى المقصود من هذه الكلمة... ويقصد بكلمة جبل في اللغة العربية الفصحى كل مرتفع سواء أكان تلاً بسيطاً أم جبلاً شاهقاً. ولكن في اللغة المصرية العامية وفي بلاد العرب نفسها تطلق هذه الكلمة على «الصحراء»... وقد ذكرت هذه القصة للكولونيل رمزي المقيم البريطاني في بغداد والمستر وان إيس عضو

البعثة التبشيرية في البصرة اللذين كانا معي في رحلة على ظهر زورق صغير في أهوار مدينة النجف، فاتفقنا على أن نتحقق ما إذا كان هذا الاصطلاح ينطبق على العراق أيضاً فلما اقتربنا من الشنافية لاحت لنا من بعيد أرض صحراوية واطئة فسألت الملاحين فقالوا في الحال: إنها «الجبل». وفي الحقيقة لم تكن تلك الأرض أكثر من تل بسيط فإن قيل بأن النجف كانت جبلاً عظيماً فيقصد من ذلك أنها كانت حافة هضبة صحراوية مرتفعة نسبياً آنذاك.

والطوفان العظيم الذي حدث، وحدثنا التأريخ عن عظمته حدث في وادي الفرات ولو أن سكان النيل شاهدوا طوفانات عديدة،سوى أن النيل لا يندفع كاندفاع الفرات في طغيانه، وحدث الطوفان في العراق دون غيره من جهات العالم بسبب انحدار أراضيه آنذاك إنحداراً شديداً وقد صنع نوح لنفسه فلكاً من خشب الحور الذي تكثر أشجاره على ضفاف الفرات.

وتذكر الكتب الدينية والذخائر التأريخية بأن الله عز وجل أمر نوحاً بذلك فأدى ما أمره به فنجا ومن معه من نقمة المياه الفائضة الجارفة التي أغرقت الذين استحقوا نقمة الله وسخطه بعد أن عاثوا في الأرض فساداً.

وروي أن نوحاً كان نجاراً وقد صنع سفينته في مسجد الكوفة «ذكرت ذلك معظم كتب التأريخ القديمة».

«ونحن نجد أن الكثير من الأقوام الذين ذكر عنهم في سفر التكوين كانوا يعتقدون أن الطوفان لم يكن مقصوراً على أراضي الفرات ودجلة ودلتاهما وإنما كان طوفاناً عاماً يشمل كل العالم، هو أنهم رأوا أن كتلاً بشرية كبيرة من الناس الذين يسكنون البلاد المجاورة للوادي أخذوا يهجرون أماكنهم ويلجأون إلى هذا الوادي بعد أن أعيد إليه النظام والاستقرار من جديد فلم تكن لديهم وسيلة لتفسير ذلك غير غرق العالم»[1].

ولقد كان نهر الفرات يتفرع إلى أربعة فروع رئيسية في شمال شرقي مدينة كربلاء يسمى الأول فيشون ويشتمل على منخفض الحبانية وهور أبي دبس الواقعين

(١) جنة عدن ص ١٩ ـ ٢٠ لويلي كوكس.

بين الرمادي وكربلاء واللذين تغمرهما الفيضانات، وكان الاعتقاد السائد قديماً ان هذين المنخفضين متصلان ولكن المسح والتسوية اللذين أجريا أخيراً أتيا خلاف ذلك والنهر الثاني هو جيحون ـ نهر الهندية الحالي ـ والذي كان يسمى في زمن الاسكندر بالاكوباس، وكان يسمى في عهد الخلافة الإسلامية بنهر الكوفة، والثالث كان يعرف بإسم حداقل (دقل) أو دجلة وهو فرع الصقلاوية الحالي والرابع الفرات وهذا النهر غني عن التعريف، وهو نهر بابل نفسه.

وكان البابليون يعتقدون ان نهر فيشون هذا يشمل كل أرض الحويلة وهي المنطقة الواسعة الممتدة من حدود مصر إلى بلاد آشور وذلك لأنهم شاهدوا في جوار هذه المنخفضات مئات من الأميال المربعة من الصحراء وهي مغطاة بالماء فظنوا إن هذه المياه تمتد إلى مسافة طويلة في جزيرة العرب ويرى الناظر اليوم في هذه المنطقة طبقات كثيفة من المحار والصدف الفراتي تغطي الأرض من حدود النهر إلى مسافة تبلغ خمسين ميلاً داخل حدود الصحراء. فالمنطقة كما بينا كانت تغمرها مياه البحر وبعد أن انحسرت عنها، ظهرت الأراضي، وكان الفرات في فترة من الفترات الماضية شديد الانحدار، ولهذا السبب فاض وحصل الطوفان المذكور في التأريخ، وظهرت نتيجة لما تقدم منخفضات، وكانت هناك وإلى مسافات بعيدة عنها أو قريبة منها ضمن الصحراء جهات مليئة بالماء سوى أنها ضحلة.

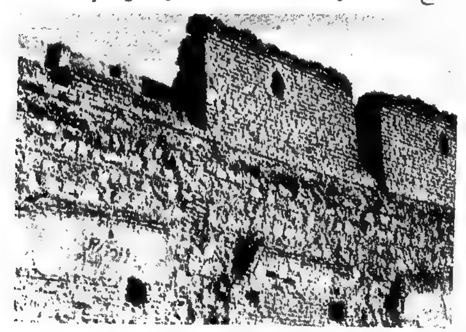
إن معظم الفروع التي تأخذ مياهها من الفرات منذ الزمن القديم قد اندثرت آثارها بسبب الترسبات وانقطاع المياه الجارية عنها، حتى انتهى بها الأمر في تلك الأيام أن صار نهر الفرات البابلي مجرى صغير لا أهمية له وصارت معظم مياهه تنحدر إلى أهوار النجف.

فإلى الغرب والجنوب الغربي من النجف وضمن جهات صحراوية هضبية كانت هناك مساحات واسعة مملوءة بالماء وتشكل أهواراً حتى أن ويلي كوكس وجماعته مثلاً كانوا يركبون زورقاً ليجوبوا في أرجاءها متنزهين، واليوم لا تجد في غرب النجف سوى بحيرة صغيرة تتسع وقت زيادة مناسيب المياه في نهر الفرات، إن معظمها جف وتحول إلى أراضي زراعية خصبة يسقيها جدول بحر النجف المقبل من جهات أبي صخير.

بينما المسطحات المائية غرب مدينة كربلاء مثل بحر الملح وهـور أبي دبس كانت منخفضاً ممتداً غرب الفرات من الرمادي حتى مـدينة النجف، وهـذا المنخفض يشمل بحيرة الحبانية ويعتقد أنه كان يتصل بوادي الثرثار ذي التصريف الـداخلي. وقـد كان نهر الفرات يسلك هذا المنخفض من الـرمادي حتى كـربلاء ثم غـير مجراه ويعتقـد أن هذا المنخفض الطويل الممتد من الثرثار حتى هـور أبي دبس وطولـه ٦٠٠ كلم قد نشـأ بسبب انكسار أو هبوط في القشرة الأرضية ثم حدثت حركات باطنية أدت إلى تجزئته، ولم يكن هذا ببعيد وقد عرفنا بأن هذه الجهات المطلة على السهـل الرسـوبي قد مـرت بـظروف جيولـوجية مضـطربة، غـير أن ويليم كوكس بـيّن في كتابـه (جنة عـدن) ان الاتصال بين الحبانية ومنخفض أبي دبس غير حاصل وهو مجرد اعتقاد كان سائـداً وهو غير صحيح لأن المسح والتسوية اثبتت عكس ذلك، وقد ذكرنا فيما تقدم من حديث.

بينما فوتي Voute صاحب كتاب:

(History of the Abu Dibbis Depression) يعتقـد بأن الفـرات كان متصـلاً ببحيرة الحبانية وهور أبي دبس وبوادي جاف غرب مدينة كربلاء ومتصلاً بهـور النجف أيضاً، وأن جميع هذه المظاهر السطحية كانت متصلة على شكل وادي.



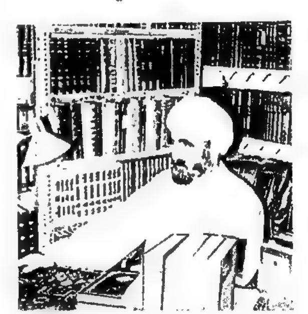
سور النجف القديم

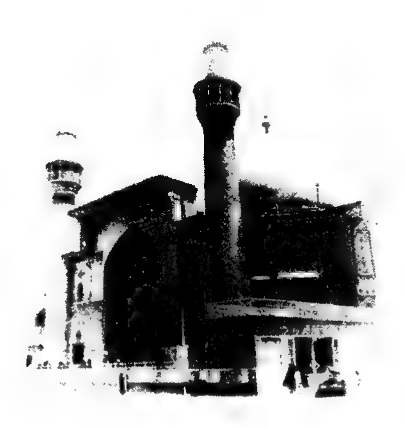


اسماء النجف

في الحديث واللغة والتأريخ

للدكتور الشيخ محمد هادي الأميني





لقطة فنية لمرقد الإمام علي(ع)

ليس في وسع الباحث تحديد وقت تأريخي معين، لتأسيس الكوفة، ودحوها على وجه الطبيعة، لأنها قديمة كقدم بقية البلدان التي وجدت على صفحة التأريخ، ولم يحدد لها وقتاً وعهداً خاصاً يتمشى مع الواقع والحقيقة، لذلك نجد اختلافات شاسعة في آراء الباحثين، وتضارباً في أقاويلهم، غير أنه من الواقع الذي لا امتراء فيه أن عهد مدينة الكوفة، يعود إلى ما قبل حياة نوح عليه السلام، بعد أن ورد إسمها في الكتاب المقدس عند ذكره لحادثة الطوفان بصورة وافية، والتعريف بها باللغة التي كانت سائدة يومذاك بين طبقات الشعوب، مع الإختلاف الواقع في قصة الطوفان، بين الذي جاء في الكتاب المقدس... وبين ما يحدثنا عنها القرآن الكريم... وعلى امتداد التأريخ عرفت بقعة منها التي كانت ظهر الكوفة بعدة أسماء أخرى، منها ما وردت في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، وما كان متعارفاً على ألسنتهم... ومنها ما كانت متداولة بين اللغويين، والمؤرخين، خاصة لشهرتها، وكثرة وقوعها في كلامهم، وإن كانت تلكم الأسماء قيل لبقاع مختلفة سعة وضيقاً، يجمعها ظهر الكوفة، وأما اليوم فإنها أسماء لمدينة النجف الأشرف فحسب.

ومهما يكن من أمر فقد يطول بنا المقال إذا حاولنا دراسة هذه الجوانب إلاّ أننا حاولنا في هذا الفصل تبيان أسماء النجف حسب ترتيب الحروف المتداول، مع بيان الشواهد لها من الأحاديث، واللغة، والتأريخ. كل ذلك أن لهذه البقعة الشريفة من ظهر الكوفة المعروفة بالنجف، لها كبعض البلدان أسماء أخرى، وإن اختلف بعضها في مبناها، ومنحاها مع التأريخ، إلاّ أن ذكرها هنا ولو باختصار مما يجعل البحث ذات قيمة أوسع، لجمعها الأحاديث من كافة أطرافها، سواء كانت هذه الأخبار دينية ذات ارتباط بالعقيدة المجردة، أم علمية ذات علاقة بالتأريخ، والأدب، والمنطق، والعقل.

١ ـ بانقيا:

قال الحموي: بكسر النون، ناحية من نواحي الكوفة ذكرها في الفتوح. وفي أخبار إبراهيم الخليل عليه السلام، خرج من بابل على حمار له ومعه ابن أخيه لوط، يسوق غنماً، ويحمل دلواً على عاتقه حتى نزل بانقيا، وكان طولها إثنى عشر فرسخاً. وكانوا يزلزلون في كل ليلة، فلما بات إبراهيم عندهم لم يزلزلوا. فقال لهم شيخ، بات عنده إبراهيم عليه السلام: والله ما دفع عنكم إلّا بشيخ بات عندي فإني رأيته كثير الصلاة، فجاؤوه وعرضوا عليه المقام عندهم، وبذلوا له البذول، فقال: إنما خرجت مهاجراً إلى ربي. وخرج حتى أتى النجف، فلما رآه رجع أدراجه، أي من حيث مضى، فتباشروا وظنوا أنه رغب فيما بذلوا له، فقال لهم: لمن تلك الأرض؟ يعني النجف، قالوا: هي لنا. قال: فتبيعونيها؟ قالوا: هي لك فوالله ما تنبت شيئاً.

فقال: لا أحبها إلا شراء، فدفع إليهم غنيمات كن معه بها. والغنم: يقال لها بالنبطية نقيا. فقال: أكره أن آخذها بغير ثمن، فصنعوا ما صنع أهل بيت المقدس بصاحبهم وهبوا له أرضهم. فلما نزلت بها البركة رجعوا عليه. وذكر إبراهيم عليه السلام: أنه يحشر من ولده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد.

ولما رأى عليه السلام غدرهم به تركهم، ومضى نحو مكة في قصة لها طول. وقد ذكرها الأعشى، فقال:

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذا راح مفعما
بأجود منه نائلاً إنّ بعضهم إذا سئل المعروف صد وجمجما

وقال أيضاً:

قد سرت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم تكراري وتسياري[1]

وقال أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي البلاذري، المتوفى سنة تسع وسبعين ومائتين (٢٧٩): لما قدم خالد بن الوليد العراق، بعث بشير بن سعد أبا النعمان بن

(١) بحار الأنوار ١٠٠/٢٢٦. سفينة البحار ١/١٠٧.

بشير الأنصاري، إلى بانقيا فلقيته خيل الأعاجم عليها فرخبنداذ، فرشقوا من معه بالسهام، وحمل عليهم فهزمهم، وقتل فرخبنداذ، ثم انصرف وبه جراحة انتقضت به، وهو بعين التمر فمات منها. ويقال: أن خالداً ألقى فرخبنداذ بنفسه، وبشير معه. ثم بعث خالد جرير بن عبد الله البجلي إلى أهل بانقيا، فخرج إليه بصبهرى بن صلوبا، فاعتذر إليه من القتال وعرض الصلح فصالحه جرير على ألف درهم وطيلسان. ويقال: أن ابن صلوبا أتى خالداً، فاعتذر إليه وصالحه هذا الصلح.

وقال: ليس لأحد من أهل السواد عهد إلاّ لأهل الحيرة، واليس، وبانقيا، فلذلك قالوا: لا يصلح بيع أرض دون الجبل إلاّ أرض بني صلوبا، وأرض الحيرة. وذكر إسحاق بن بشير أبو حذيفة فيما قرأته، بخط أبي عامر العبدري بإسناده إلى الشعبي، أن خالد بن الوليد، سار من الحيرة حتى نزل بصلوبا، صاحب بانقيا، وسميا، على ألف درهم وزن ستة، وكتب لهم كتاباً فهو عندهم إلى اليوم معروف. قال: فلما نزل بانقيا على شاطىء الفرات قاتلوه ليلة حتى الصباح.

وفي رواية أخرى أن خالداً لما نزل الحيرة، صالح أهلها، ولم يقاتلوا. وقال ضرار بن الأزور الأسدي، يذكر بانقيا وجرحه بها أيام الفتح(١):

أرقت ببانقيا ومن يلق مثلما لقيت ببانقيا من الجرح يأرق

والصواب أنهم قاتلوه فلما رأوا أنه لا طاقة لهم بحربه، طلبوا إليه الصلح، فصالحهم وكتب لهم كتاباً فيه (بسم الله الرحمن الرحيم... هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن بصهبرى، ومنزله بشاطىء الفرات، إنك آمن بأمان الله على حقن دمك) في إعطاء الجزية عن نفسك، وجيرتك، وأهل قريتك بانقيا، وسميا، على ألف درهم جزية، وقد قبلنا منك ورضي من معي من المسلمين بذلك، فلك ذمة الله وذمة النبي

(١) أبو بلال ضرار بن مالك (الأزور) بن أوس بن جذيمة بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد ابن خزيمة، المتوفى بالكوفة بعد ١٢هـ. أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام. وكان شاعراً مطبوعاً له صحبة. وهو الذي قتل مالك بن نويرة، بأمر خالد بن الوليد. حضر وقعة اليرموك، وفتح الشام، والعراق، وقاتل يوم اليمامة أشد قتال، حتى قطعت ساقاه، فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل والخيل تطأه. ومات بعد أيام.
الاستيعاب ٢/٢١١ هامش الإصابة. أسد الغابة ٣/٣٩. الإصابة ٢/٢٠٨. خزانة الأدب ٢/٨. طبقات ابن سعد ١/٢٩٢.

محمد ﷺ، وذمة المسلمين، على ذلك. شهد هشام بن الوليد، وجرير بن عبد الله ابن أبي عوف، وسعيد بن عمرو، وكتب سنة ١٣، والسلام) ويروى أن ذلك كان سنة ١٢[١].

أما ابن الأثير فقال في حوادث سنة اثنتي عشرة: ـ ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق، وصلح الحيرة ـ في هذه السنة في المحرّم منها، أرسل أبو بكر خالد بن الوليد، وهو باليمامة يأمره بالمسير إلى العراق. وقيل: بل قدم المدينة من اليمامة فسيره أبو بكر إلى العراق، فسار حتى نزل ببانقيا، وبار، وسما، وأليس، وصالحه أهلها. وكان الذي صالحه عليها ابن صلوبا، على عشرة آلاف دينار، سوى حرزة كسرى، وكانت على كل رأس أربعة دراهم، وأخذ منهم الجزية. ثم سار حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع أياس بن قبيصة الطائي. وكان أميراً عليها بعد النعمان بن المنذر، فدعاهم خالد إلى الإسلام، أو الجزية، أو المحاربة، فاختاروا الجزية فصالحهم على تسعين ألف درهم. فكانت أول جزية أخذت من الفرس في الإسلام هي والقريات التي صالح عليها[٢].

ومهما يكن من أمر فالنصوص التأريخية، والدينية، تدل بصراحة أن بانقيا قرية بالكوفة، والمراد به ظهر الكوفة، وهو الغري[٣].

٢ ـ الجودي:

ورد هذا الإسم في عدة أحاديث، جاءت على لسان أهل البيت عليهم السلام، عند تفسيرهم لآية ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾[٤] فقالوا: المراد من (الجودي) جبل في النجف استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، لما نضب الماء

---

(١) فتوح البلدان/٢٤٦ـ ماضي النجف ١/٨.
الكامل في التأريخ ٢/٣٨٤. مجمع البحرين ٥/١٤١.
(٣) سفينة البحار ١/١٠٧ـ القاموس المحيط ٤/٣٩٧.
(٤) سورة هود/٤٤.

وأصبح علماً لهذه البقعة الشريفة، وليس غيره ومن ذهب إلى غير هذا المعنى فلا يعبأ بقوله لأنه الأصح[١].

وذهب جمع من المفسرين، واللغويين، أنه جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي، من دجلة من أعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح(ع)، مستدلين على صحة قولهم بما جاء في سفر التكوين، من الكتاب المقدس، ولفظه: (ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه، وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء. ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً، وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه. واستقر الفلك في الشهر السابع، في اليوم السابع عشر، من الشهر على جبال أراراط. وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر، وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال[٢].

فذكروا أنه بديار بكر من الموصل، في جبال تتصل بجبال أرمينية، وقد سماه في التوراة أراراط. قال في القاموس: والجودي، جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويسمى في التوراة (أراراط[٣]).

قال بطرس البستاني، في كلامه عن جبل (أراراط) وموقعه الطبيعي: ومن الموافق أن نذكر آراء العلماء بخصوص الموضع الذي استوت عليه الفلك بعد الطوفان كما هو مذكور في سفر التكوين. فقد ذهب بروزس الكلداني، معاصر الإسكندر الأكبر، أن الفلك استوت على جبال كردستان، وهو حد أرمينية الجنوبي، ووافقته في ذلك النسخ السريانية، والكلدانية التي ذكرت جبال الأكراد عوضاً عن أراراط. ووافقه أيضاً القرآن الشريف[٤]، ولا تزال الروايات تشير إلى أن الجودي كان مركز الحادثة المذكورة، وهي تسند هذا الرأي الذي ذكره بروزس إلى وجود آثار الفلك على قمة ذلك الجبل.

(١) مجمع البحرين/٣/٢٩.
(٢) سفر التكوين من الإصحاح الثامن/١٣ط ١٨٨٧م.
(٣) القاموس المحيط ١/٢٨٥. تفسير الميزان ١٠/٢٧١.
(٤) ليس في القرآن الكريم ما يثبت وجود جبل أراراط (الجودي) في موضع خاص.

وإذا كان بروزس الموما إليه من أهالي سهول، ما بين النهرين كان انتخابه لجبل الجودي كمحل استواء الفلك من الأمور الطبيعية، لأنه يظهر للناظر من تلك السهول أن الجودي، حد لا تمكن مجاوزته. فإن دجلة يجري بين مرتفعاته التي تحصره فيما بينها حصراً تاماً، ويعلوه منها أحادير قائمة بحيث لا يمكن العبور بين الجبل والنهر إلاّ في الصيف.

وذكر يوسيفوس أن نقولا الدمشقي، ذهب إلى ـ أن جبل باريس الموجود وراء ميناس، هو الذي استقرت عليه الفلك. وقيل: أن هذا الجبل هو نفس جبل فاراز الذي ذكر القديس مرتينوس، إنه إلى الشمال من بحيرة وان. ومما يبين أن هذه الحادثة المهمة نسبت في الزمان القديم، إلى أعلى وأعظم جبل في تلك البلاد، قول يوسيفوس أن المكان الذي خرج فيه نوح من الملك، اتخذ إسماً موافقاً لتلك الحادثة. وهذا الجبل يسميه الأرمن ماسيس، والأتراك أكرى طاغ أي الجبل ذا الأحدور، والفرس قوة نوح أي جبل نوح، فهو في سهل الرس، وينتهي بقمتين مخروطيتين، تسمى إحداهما أراراط الأكبر، والأخرى أراراط الأصغر، وتبعد الواحدة عن الأخرى نحو سبعة أميال. وارتفاع أراراط الأكبر، عن سطح البحر ١٧٢٦٠ قدماً، وعن سطح سهل الرس نحو ١٤ ألف قدم، وهو يعلو عن أراراط الأصغر ٤ آلاف قدم[١].

(١) دائرة المعارف البستاني ٧٤٩/٢ ـ ٧٥٣.

ومهما يكن من أمر فالحديث عن جبل الجودي: جبل أراراط، على حد قول بعض من المؤرخين طويل جاء في مصنفاتهم بصورة مفصلة، مع ذكر كثير من النظريات، والأقوال المتضاربة، وخشية الإطالة فلنثن عنان القلم ونعود إلى تبيان ما ورد في كتب الحديث، والأخبار الدينية، المفصلة عن (الجودي) الذي يعتبر من أسماء لبقعة النجف.

عن أبي القاسم جعفر بن محمد عن محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري، عن أبيه عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن محمد بن سنان، عن مفضل بن عمر الخثعمي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إن الله عز وجل أوحى إلى نوح، أن أصنع سفينة وأوسعها، وعجل عملها، فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها. قال المفضل: ثم انقطع حديث أبي عبد الله(ع) عند زوال الشمس، فقام أبو عبد الله فصلى الظهر، والعصر، ثم انصرف من المسجد، فالتفت عن يساره وأشار بيده إلى موضع دار الدارين، وهي موضع دار ابن حكيم وذلك فرات اليوم. فقال، يا مفضل: وها هنا نصبت أصنام قوم نوح، يغوث، ويعوق، ونسر. . . ثم مضى حتى ركب دابة فقلت جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته؟ قال: في دورين. قلت: وكم الدوران؟ قال: ثمانين سنة. قلت: فإن العامة يقولون: عملها في خمسمائة عام، فقال: كلا كيف والله يقول: ووحينا. قال: قلت فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ فأين كان موضعه، وكيف كان؟ فقال: كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد. فقلت له: فأين ذلك؟ قال: موضع زاوية باب الفيل اليوم. ثم قلت له: وكان بدو خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال: نعم إن الله عز وجل أحب أن يري قوم نوح آية.

ثم إنَّ الله تبارك وتعالى، أرسل عليهم المطر يفيض فيضاً والعيون كلهن فيضاً فغرقهم الله عز وجل وأنجا نوحاً، ومن معه في السفينة. فقلت له كم لبث نوح في السفينة، حتى نقب الماء وخرج منها؟ فقال: لبث فيها سبعة أيام ولياليها، وطاف بالبيت أسبوعاً ثم استوت على الجودي، وهو فرات الكوفة. فقلت له: مسجد الكوفة كان؟ قال: وهو مصلى الأنبياء[1].

(١) تفسير البرهان ٢/٢١٧.

عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام، استوت على الجودي، هو فرات الكوفة[١].

وفي حديث آخر عن الفضل، قال: قلت لأبي عبد الله(ع) أرأيت قول الله: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ ما هذا التنور؟ وأين كان موضعه؟ وكيف كان؟ فقال: كان التنور حيث وصفت لك، فقلت: فكان بدو خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال: نعم، إن الله أحب أن يرى قوم نوح الآية. ثم إن الله بعد أرسل عليهم مطراً يفيض فيضاً وفاض الفرات أيضاً، والعيون كلهن فيضاً، فغرقهم الله وأنجا نوحاً ومن معه في السفينة. فقلت له: فكم لبث نوح(ع) ومن معه في السفينة حتى نضب الماء وخرجوا منها؟ فقال: لبثوا فيها سبعة أيام ولياليها، وطاف بالبيت ثم استوى على الجودي، وهو قرب الكوفة. فقلت له: إن مسجد الكوفة لقديم؟ فقال: نعم وهو مصلى الأنبياء، ولقد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث انطلق به جبرائيل على البراق، فلما انتهى به إلى واد السلام، وهو ظهر الكوفة، وهو يريد بيت المقدس، قال له: يا محمد هذا مسجد أبيك آدم، ومصلى الأنبياء فانزل فصل فيه[٢].

وبعد أن ذكر العلامة المجلسي، الحديث هذا قال، أقول: يظهر من بعض الأخبار أن الجودي كان بقرب الكوفة، وربما أشعر بعض الأخبار بأنه الغري[٣].

وجاء: أن الله عز وجل أوحى إلى نوح(ع) وهو في السفينة أن يطوف بالبيت أسبوعاً فطاف بالبيت كما أوحى الله تعالى إليه. ثم نزل في الماء إلى ركبتيه فاستخرج تابوتاً فيه عظام آدم عليه السلام، فحمله في جوف السفينة حتى طاف ما شاء الله أن يطوف. ثم ورد إلى باب الكوفة في وسط مسجدها، ففيها قال الله تعالى للأرض: ﴿ابلعي ماءك﴾ فبلعت ماءها من مسجد الكوفة كما بدأ الماء منه، وتفرق الجمع الذي كان مع نوح عليه السلام في السفينة، فأخذ نوح(ع) التابوت فدفنه في الغري. وهو قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وقدس عليه عيسى تقديساً، واتخذ

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٢٣. تفسير العياشي ٢/١٥٠.
(٢) بحار الأنوار ١١/٣٣٣.
(٣) بحار الأنوار ١١/٣٣٩. ماضي النجف ١/٨. تفسير الصافي/٢٥٩.

عليه ابراهيم خليلاً، واتخذ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً[١].

٣ ـ الربوة

وهذا الإسم (الربوة) جاء أيضاً في أخبار أهل البيت عليهم السلام، عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿**وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾[٢] فقد أورد المفسرون في تفاسيرهم أحاديث صحيحة، بأسانيد حسنة، دالة على أن المراد من (الربوة) ظهر الكوفة النجف... كما أن المقصود من (المعين) الفرات كما صرّح بذلك أيضاً بعض اللغويين[٣] وإليك ما جاء على لسان الأئمة عليهم السلام:

حدثنا المظفر بن جعفر المظفر العلوي السمرقندي رضي الله عنه، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن مسعود، عن أبيه، عن الحسين بن أشكيب، عن عبد الرحمن بن حماد، عن أحمد بن الحسن، عن صدقة بن حسان، عن مهران بن أبي نصر، عن يعقوب بن شعيب، عن سعد الإسكاف، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿**وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾ قال: الربوة، الكوفة. والقرار، المسجد، والمعين الفرات[٤].

وقال الصادق عليه السلام، في تفسير الآية المذكورة: الربوة، نجف الكوفة. والمعين، الفرات[٥].

حدثني علي بن الحسين بن موسى، عن علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه عن علي بن الحكم، عن سليمان بن نهيك، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿**وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾ قال: الربوة، نجف الكوفة. والمعين، الفرات[٦].

---

(١) تهذيب الأحكام ٦/٢٣.
(٢) سورة المؤمنون/٥٠.
(٣) مجمع البحرين ١/١٧٤. ماضي النجف ١/٨.
(٤) معاني الأخبار/٣٧٢ط. بحار الأنوار ١٠٠/٢٢٧. تفسير البرهان ٣/١١٣.
(٥) روضة الواعظين ٢/٤٠٨.
(٦) كامل الزيارات/ ٤٧ ـ ٤٨. بحار الأنوار ١٠٠/٢٢٨.

وقال أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: ﴿وآويناهما إلى ربوة﴾ أي جعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً مستوياً واسعاً، يقال آوى إليه يأوي أوياً، وأواه غيره يؤويه إيواء أي جعله مأوى له. والربوة التي أويا إليها هي الرملة من فلسطين عن أبي هريرة. وقيل: دمشق، عن سعيد بن المسيب. وقيل: مصر عن ابن زيد. وقيل: بيت المقدس عن قتادة وكعب، وهي أقرب الأرض إلى السماء. وقيل: هي حيرة الكوفة وسوادها. والقرار، مسجد الكوفة. والمعين الفرات[1].

وقال علي بن إبراهيم، في قوله: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾. إلى قوله: ﴿ومعين﴾ قال: الربوة: الحيرة. وذات قرار ومعين: أي الكوفة[2].

وقال أبو القاسم جعفر بن محمد، عن علي بن الحسين بن موسى، عن علي بن الحكم، عن سليمان بن نهيك، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله عز وجل: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ قال: الربوة، نجف الكوفة. والمعين: الفرات[3].

٤ ـ الطور

وجاء (طور سيناء) وهو أيضاً من الأسماء التي وردت في أحاديث العترة الطاهرة(ع)، وقصدوا به بقعة النجف... وتناقلت كتب الحديث، هذه الروايات، وصححوا أسانيدها، وأخبتوا على توثيقها، واستدلوا بها وأذعنوا إليها، وإليك بعضاً من نصوصها، مع تبيان أسانيدها الثابتة، وان نقلها بعضهم في بحوثهم مع حذف الأسانيد، وهذا ما لا أستسيغه لأن ذكر السند، ورجال الحديث، يزيد في درجة الحديث واعتباره من ناحية الصحة، والوثاقة.

وبهذا الإسناد أخبرني الفقيه نجيب الدين يحيى بن سعيد أحسن الله إليه، عن محمد بن عبد الله بن زهرة الحسيني، عن محمد بن الحسن الحسيني، عن سعيد بن هبة

(١) مجمع البيان ١٠٨/٧.
(٢) تفسير القمي ٩١/٢.
(٣) تهذيب الأحكام ٣٨/٦.

الله القطب الراوندي، عن ذي الفقار بن معبد، عن المفيد محمد بن محمد بن النعمان، عن محمد بن أحمد، قال: أخبرنا أبو علي محمد بن أحمد بن زكريا المعروف بابن أبي دينار، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا الحسن بن علي بن فضال، قال: حدثنا عمرو بن إبراهيم، عن خلف بن حماد، عن حماد، عن عبد الله بن حسان، عن الثمالي (أبو حمزة) عن أبي جعفر عليه السلام، في حديث حدث به أنه كان في وصية أمير المؤمنين عليه السلام، إن أخرجوني إلى الظهر، فإذا تصوبت أقدامكم فاستقبلتكم ريح فادفنوني، وهو أول طور سيناء، ففعلوا ذلك(١).

حدثنا أبي رحمه الله، قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار. قال: حدثنا أحمد بن محمد بن خالد، قال: حدثني أبو عبد الله الرازي، عن الحسن بن علي بن أبي عثمان، عن موسى بن بكر، عن أبي الحسن موسى بن جعفر، عن أبيه عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله ﷺ إن الله تبارك وتعالى اختار من البلدان أربعة: فقال عزو جل: ﴿**والتين، والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين**﴾ التين: المدينة، والزيتون: بيت المقدس، وطور سينين، الكوفة. وهذا البلد الأمين: مكة(٢).

عن محمد بن القاسم، عن محمد بن زيد، عن إبراهيم بن محمد بن سعد، عن محمد بن فضيل، قال: قلت لأبي الحسن الرضا(ع) أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**والتين والزيتون...**﴾ إلى آخرالسورة... فقال: التين، والزيتون الحسن، والحسين. قلت: وطور سينين؟ قال: قال ليس هو طور سينين، ولكن طور سيناء، قال: فقلت طور سيناء، فقال: نعم هو أمير المؤمنين(ع)(٣).

علي بن إبراهيم، في معنى السورة قوله: ﴿**والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين**﴾ التين المدينة، والزيتون بيت المقدس، وطور سينين الكوفة، وهذا البلد الأمين مكة(٤).

---

(١) فرحة الغري/٥٠. موسوعة العتبات ق النجف ١/٧٣. بحار الأنوار ٤٢/٢١٩.
(٢) معاني الأخبار/٣٦٤. تفسير البرهان ٤/٤٧٧. بيان السعادة ٤/٢٦٤.
(٣) تفسير البرهان ٤/٤٧٧.
(٤) المصدر السابق ٤/٤٧٨.

وسينين، وسيناء واحد، ومعناه الجبل المبارك الحسن بلغة النبط(١).

ومعنى طور سيناء جبل البركة. وهو ما بين مصر وايلة، وفي أخبارنا إشارة إلى أن طور سيناء نجف الكوفة، وأنه الموضع الذي فيه مشهد أمير المؤمنين عليه السلام(٢).

وقال مؤلف كتاب (معارف الرجال) عند ترجمته للمولى عبد الله اليزدي النجفي المتوفى ٩٨١هـ، والمعروف المتسالم عليه أنه أتى به السلطان الشاه عباس الأول الصفوي الموسوي من إيران إلى العراق، ليتولى نقابة الحرم المقدس، وسلمه مفاتيح الحرم والخزانة الكبيرة... وبنى له الشاه عباس مدرسة في النجف في الجانب الشمالي الغربي منها، وسماها بمدرسة الأخوند، تقع في محلة المشراق، حوالي دور السادة آل كمونة، والمدرسة اليوم أعني سنة ١٢٩٥هـ اندرست آثارها، وجلب له الطيور من الهند المعروفة عند العامة في النجف بطيور (الحضرة) تارة و(الطورانية) أخرى... نسبة إلى قطعة جبل يسمى بجبل الطور عند قدماء النجفيين، حيث أن هذه الطيور كانت تألف له دائماً. يقع هذا الجبل حول بلد النجف من شرقيه إلى الشمال، يقرب من خندق سور النجف الأخير غطاه تراب عمارة البلد اليوم(٣).

وهذا وقد جاءت الأخبار السالفة في بقية كتب التفاسير العربية، والفارسية، وتناقلتها بألفاظها ضربنا عن ذكرها صفحاً حذراً من التكرار والإطالة.

٥ ـ ظهر الكوفة

من الأسماء المعروفة المتداولة، بين أرباب الرواية، والدراية، واللغويين،

---

(١) مجمع البيان ١٠/٥١١.
(٢) بيان السعادة ٣/٩٢.
(٣) معارف الرجال ٢/٥. وجاء في كتاب ماضي النجف وحاضرها ١/١٢٦ ما لفظه:
أخذت هذه المدرسة نصيباً وافراً من الدرس والتدريس، وكانت زاهرة بأهل العلم ـ موقعها في محلة المشراق اليوم، ويعين محلها وموقعها بعض المتبعين للآثار من النجفيين، وهي الآن دار لبعض السادة الأشراف من آل كمونة. وكانت معرساً لأهل العلم يوم كانت المجرة للمقدس الأردبيلي (ره) ومن كان بعده من العلماء. وقفت صك مؤرخ سنة ١٢٧٣ فيه بيع دار من دور الملالي والمشترى من آل معلة، ويحد الدار بالخربة المعروفة بالمدرسة القديمة. وهذه الخربة اليوم هي دار لبعض الأشراف من السادة.

والمؤرخين، لشهرته الكبيرة الواسعة وكثرة وقوعه في كلامهم، ويمتاز بإشاعته ووروده في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، وفي كتب المتقدمين... وإليك ما جاء في هذا الباب من الأحاديث الصحيحة الثابتة، ومن ورائها كلمات اللغويين، والمؤرخين:

قال غياث الدين السيد ابن طاووس: رأيت في كتاب عن الحسن بن الحسين ابن طحال المقدادي، قال: روى الخلف عن السلف، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: يا علي، إن الله عز وجل عرض مودتنا أهل البيت على السموات، فأول من أجاب منها السماء السابعة، فزينها بالعرش والكرسي. ثم السماء الرابعة، فزينها بالبيت المعمور. ثم سماء الدنيا فزينها بالنجوم. ثم أرض الحجاز فشرفها بالبيت الحرام. ثم أرض الشام فشرفها ببيت المقدس. ثم أرض طيبة فشرفها بقبري. ثم أرض كوفان، فشرفها بقبرك يا علي.

فقال يا رسول الله: أقبر بكوفان العراق؟ فقال: نعم يا علي، تقبر بظاهرها قتلاً بين الغريين، والذكوات البيض. وهذا خبر حسن كاف في هذا الموضع ناطق بالحجة والبرهان[1].

روى أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن عبد الرحمان العلوي الحسيني، في كتاب (فضل الكوفة[2]) بإسناد رفعه إلى عقبة بن علقمة أبي الجنوب، قال: اشترى أمير المؤمنين علي(ع) ما بين الخورنق إلى الحيرة إلى الكوفة من الدهاقين، بأربعين ألف درهم، وأشهد على شرائه. قال: فقيل له يا أمير المؤمنين، تشتري هذا بهذا المال، وليس تنبت قط؟ فقال: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: كوفان يرد أولها على آخرها، يحشر من ظهرها سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، واشتهيت أن يحشروا في ملكي.

أقول: هذا الحديث فيه إيناس بما نحن بصدده، وذلك أن ذكره ظهر الكوفة، إشارة إلى ما خرج عن الخندق، وهي عمارة آهلة إلى اليوم، وإنما اشترى أمير المؤمنين(ع) ما خرج عن العمارة إلى حيث ذكروا. والكوفة مصرت سنة سبع عشرة من

(١) بحار الأنوار ١٩٧/٤٢. فرحة الغري/٢٧.
(٢) فضل الكوفة وفضل أهلها... يوجد الجزء الأول منه في المكتبة الظاهرية بدمشق. الذريعة ٢٧٢/١٦.

الهجرة، ونزلها سعد في محرمها. وأمير المؤمنين دخلها سنة ست وثلاثين، فدل على أنه اشترى ما خرج عن الكوفة الممصرة بدفنه بملكه أولى، وهو إشارة إلى دفن الناس عنده. وكيف يدفن بالجامع ولا يجوز أو بالقصر، وهو عمارة الملوك ولم يكن داخلاً في الشراء لأنه معمور من قبل[١].

خاتم العلماء نصير الدين، عن والده، عن السيد فضل الله الحسني الراوندي، عن ذي الفقار بن نعبد عن الطوسي، ومن خطه نقلت عن المفيد، عن محمد بن أحمد بن داود، عن محمد بن بكار، عن الحسن بن محمد الفزاري، عن الحسن بن علي النحاس، عن جعفر الرماني، عن يحيى الحماني، عن محمد بن عبيد الطيالسي، عن مختار التمار، عن أبي مطر، قال: لما ضرب ابن ملجم الفاسق أمير المؤمنين(ع) قال له الحسن(ع): أقتله؟ قال: لا، ولكن احبسه، فإذا مت فاقتلوه. فإذا مت فادفنوني في هذا الظهر في قبر أخوي، هود، وصالح[٢].

علي بن محمد، عن علي بن الحسن، عن الحسين بن راشد، عن المرتجل بن معمر، عن ذريح المحاربي، عن عباية الأسدي، عن حبة العرني، قال: خرجت مع أمير المؤمنين إلى ظهر الكوفة، فوقف بوادي السلام، كأنه مخاطب لأقوام، فقمت بقيامه حتى أعييت، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولاً، ثم جلست حتى مللت ثم قمت وجمعت ردائي، فقلت يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة ثم طرحت الرداء ليجلس عليه فقال يا حبة: إن هو إلاّ محادثة مؤمن أو مؤانسته. قال: قلت يا أمير المؤمنين، وإنهم لكذلك؟ قال: نعم لو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً، محتبين يتحادثون. فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: أرواح وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا قيل لروحه، الحقي بوادي السلام، وإنها لبقعة من جنة عدن[٣].

عن سهل، عن الحسن بن علي، عن أحمد بن عمر، رفعه عن أبي عبد الله(ع)

(١) بحار الأنوار ١٠٠/٢٣١. فرحة الغري ٢٨.
(٢) فرحة الغري /٣٨. بحار الأنوار ٤٢/٢١٨.
(٣) بحار الأنوار ١٠٠/٢٣٤.

قال: قلت له إن أخي ببغداد، وأخاف أن يموت بها، فقال: ما تبالي حيث ما مات أما أنه لا يبقى مؤمن في شرق الأرض وغربها، إلاّ حشر الله روحه إلى وادي السلام. فقلت له: وأين وادي السلام؟ قال: ظهر الكوفة، أما إني كأني بهم حلق حلق قعود يتحدثون[1].

أقول: روى السيد علي بن عبد الحميد في كتاب الغيبة[2] بإسناده إلى الفضل ابن شاذان، من أصل كتابه بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة، قال: خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى ظهر الكوفة فلحقناه، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، فقد ملئت الجوانح مني علماً، كنت إذا سألت أعطيت، وإذا سكت ابتديت، ثم مسح بيده على بطنه، وقال: أعلاه علم، وأسفله ثفل. ثم مر حتى أتى الغريين فلحقناه، وهو مستلقى على الأرض بجسده، ليس تحته ثوب فقال له قنبر: يا أمير المؤمنين ألا أبسط تحتك ثوبي؟ قال: لا هل هي إلا تربة مؤمن ومن أحمته في مجلسه فقال الأصبغ: تربة المؤمن قد عرفناها كانت أو تكون، فما من أحمته بمجلسه؟ فقال: يا ابن نباتة لو كشف لكم لألفيتم أرواح المؤمنين في هذه حلقاً حلقاً يتزاورون ويتحدثون. إن في هذا الظهر روح كل مؤمن، وبوادي برهوت روح كل كافر. ثم ركب بغلته[3].

عن بدر بن خليل الأسدي، عن رجل من أهل الشام، قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه، أول بقعة عبد الله عليها ظهر الكوفة، لما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجدوا على ظهر الكوفة[4].

وروى أن أمير المؤمنين(ع) نظر إلى ظهر الكوفة فقال: ما أحسن منظرك وأطيب قعرك، اللهم اجعل قبري بها.

ومن خواص تربته إسقاط عذاب القبر، وترك محاسبة منكر ونكير للمدفون هناك، كما وردت به الأخبار الصحيحة عن أهل البيت[5].

---

(١) الكافي ٣/٢٤٣.

(٢) الصحيح: السيد علي بن عبد الكريم بن عبد الحميد الحسيني النيلي النجفي. الذريعة ١٦/٧٧. رياض العلماء ٤/١٢٤.

(٣) بحار الأنوار ١٠٠/٢٣٤.

(٤) تفسير العياشي ١/٣٤. بحار الأنوار ١٠٠/٢٣٢. المناقب للخوارزمي /٢٨٤.

(٥) ارشاد القلوب ٢/٤٣٩. بحار الأنوار ١٠٠/٢٣٢. فرحة الغري /٣١ - ٣٢.

وبالإسناد عن جعفر بن محمد بن قولويه، قال: حدثني محمد بن محمد بن الحسن، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن عمير، عن الحسين الخلال عن جده، قال: قلنا للحسن بن علي(ع) أين دفنتم أمير المؤمنين(ع)؟ فقال: خرجنا به ليلاً حتى مررنا على مسجد الأشعث حتى خرجنا إلى ظهر ناحية الغري[١].

أخبرني الوزير السعيد العلامة نصير الملة والدين محمد بن أبي بكر محمد بن الحسن الطوسي، عن والده عن السيد فضل الله العلوي الحسني، عن ذي الفقار بن معبد الطوسي، عن المفيد، عن محمد بن أحمد بن داود القمي. قال: أخبرنا محمد بن علي بن الفضل الكوفي، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن روح القزويني، من لفظه بالكوفة. قال: حدثنا أبو القاسم النقاش بقزوين، قال: حدثني الحسين بن سيف عن عميرة، عن أبيه سيف، عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قال أبو جعفر(ع): مضى أبي علي بن الحسين(ع) إلى قبر أمير المؤمنين(ع) بالمجاز وهو من ناحية الكوفة فوقف عليه ثم بكى وقال...[٢].

عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم، عن صفوان الجمال، قال: كنت أنا، وعامر، وعبد الله بن جذاعة الأسدي الأزدي، عند أبي عبد الله(ع) قال: فقال له عامر، جعلت فداك إن الناس يزعمون أن أمير المؤمنين(ع) دفن بالرحبة؟ قال: لا، قال: فأين دفن؟ قال: إنه لما مات احتمله الحسن(ع) فأتى به ظهر الكوفة قريباً من النجف يسرة عن الغري، يمنة عن الحيرة، فدفنه بين ذكوات بيض. قال: فلما كان بعد ذهبت إلى الموضع فتوهمت موضعاً منه، ثم أتيته فأخبرته، فقال لي: أصبت رحمك الله ـ ثلاث مرات ـ[٣]

محمد بن أحمد بن علي بن يعقوب، عن علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه،

---

(١) فرحة الغري /٣٧ وجاء في موسوعة العتبات ق النجف ١/٧١ ـ ٧٢ الحديث بلفظه مكررا ثلاث مرات في موضع واحد، من غير زيادة أو نقصان في اللفظ أو السند.

(٢) فرحة الغري /٤٠.

(٣) الكافي ١/٤٥٦. كتاب الحجة. مواليد أمير المؤمنين(ع) الحديث رقم ٥: كامل الزيارات /٣٣. بحار الأنوار ١٠٠/٢٤٠.

عن الحسن بن الجهم، قال: ذكرت لأبي الحسن(ع) يحيى بن موسى، وتعرضه لمن يأتي قبر أمير المؤمنين(ع) وأنه كان ينزل موضعاً كان يقال له الثوية، يتنزه إليه ألا وقبر أمير المؤمنين(ع) فوق ذلك قليلاً، وهو الموضع الذي روى صفوان الجمال أن أبا عبد الله(ع) وصفه له، قال: له فيما ذكر إذا انتهيت إلى الغري ظهر الكوفة، فاجعله خلف ظهرك، وتوجه على نحو النجف، وتيامن قليلاً، فإذا انتهيت إلى الذكوات البيض والثنية أمامه، فذلك قبر أمير المؤمنين(ع) وأنا آتية كثيراً(١).

وبالإسناد عن الشريف أبي عبد الله، قال: حدثنا ميمون بن علي بن حميد، قال: أخبرنا إسحاق بن محمد المقري، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن مالك، عن يعقوب بن الياس، عن أبي الفرج السندي، قال: كنت مع أبي عبد الله جعفر بن محمد، حين تقدم إلى الحيرة، فقال: ليلة اسر جوالي البغل. فركب وأنا معه، حتى انتهينا إلى الظهر فنزل فصلى ركعتين، ثم تنحى فصلى ركعتين، ثم تنحى فصلى ركعتين. فقلت: جعلت فداك، رأيتك تصلي في ثلاثة مواضع. فقال: أما الأول، فموضع قبر أمير المؤمنين(ع) والثاني، موضع رأس الحسين(ع)، والثالث، موضع منبر القائم(ع).

أقول: وقد روى ذلك في أخبارنا بعبارة أخرى، رويته عن العم السعيد رضي الدين عن الحسن الدربي، عن محمد بن علي بن شهراشوب، عن جده، عن الطوسي، عن المفيد، عن جعفر بن قولويه، عن محمد بن يعقوب الكليني، عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن ابراهيم بن عقبة، عن الحسن الخراز، عن الوشا أبي الفرج، عن أبان بن تغلب، قال: كنت مع أبي عبد الله(ع) فمر بظهر الكوفة، فنزل فصلى ركعتين، ثم تقدم قليلاً فصلى ركعتين، ثم سار قليلاً فصلى ركعتين، ثم قال: هذا موضع قبر أمير المؤمنين، قلت: جعلت فداك والموضعين اللذين صليت فيهما؟ قال: موضع رأس الحسين(ع)، وموضع منبر القائم عجل الله فرجه(٢).

---

(١) بحار الأنوار ١٠٠/٢٤٢. كامل الزيارات /٣٥.
(٢) فرحة الغري /٥٦ ـ ٥٨.

وأخبرني الوزير السعيد المعظم الخواجة نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، عن والده، عن فضل الله الراوندي، عن ذي الفقار بن معبد عن الطوسي، عن المفيد، عن محمد بن أحمد بن داود، عن محمد بن تمام، قال: أخبرنا محمد بن محمد، عن علي بن محمد، قال: حدثني أحمد بن ميثم الطلحي، عن الحسن بن علي ابن أبي حمزة عن أبيه، عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله(ع): أين دفن أمير المؤمنين(ع)؟ قال: دفن في قبر أبيه نوح. قلت: وأين قبر نوح؟ إن الناس يقولون أنه في المسجد، قال: لا ذلك في ظهر الكوفة[1].

وذكر ابن همام في(الأنوار)[2] أن الإمام علي بن موسى الرضا(ع) أمر شيعته بزيارته، ودل على أنه بالغريين بظاهر الكوفة[3].

حدثنا الحسن بن محمد بن سعيد الهاشمي بالكوفة، قال: حدثنا فرات بن ابراهيم بن فرات الكوفي، قال: حدثني علي بن حامد الوراق، قال: حدثنا أبو السرى إسماعيل بن علي بن قدامة المروزي، قال: حدثنا أحمد بن علي بن ناصح، قال: حدثني جعفر بن محمد الأرمني، عن موسى بن سنان الجرجاني، عن أحمد بن علي المقرىء، عن أم كلثوم بنت علي(ع) قالت: آخر عهد أبي إلى أخوي(ع) أن قال: يا بني إن أنا مت فغسلاني، ثم نشفاني بالبردة التي نشفتم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفاطمة(ع)، ثم حنطاني، وسجياني على سريري، ثم انتظرا حتى إذا ارتفع لكما مقدم السرير فاحملا مؤخره.

قالت: فخرجت أشيع جنازة أبي، حتى إذا كنا بظهر الغري، ركز المقدم فوضعنا المؤخر ثم برز الحسن بالبردة التي نشف بها رسول الله، وفاطمة، ونشف بها أمير المؤمنين(ع) ثم أخذ المعول فضرب ضربة فانشق القبر عن ضريح...[4].

وقال أبو جعفر الصدوق ابن بابويه القمي المتوفى ٣٨١ هـ: إذا أتيت الغري

---

(١) بحار الأنوار ٢٤٨/١٠٠. فرحة الغري /٦٤.
(٢) الأنوار في تأريخ الأئمة الأطهار، للشيخ أبي علي محمد بن أبي بكر همام بن سهيل الكاتب الاسكافي ٢٥ ـ ٣٣٦هـ. إيضاح المكنون ٢٧٥/٢. الذريعة ٤١٢/٢. أعيان الشيعة ١٣١/٤٧ط ١٣٧٩.
(٣) فرحة الغري /١٠٥.
(٤) بحار الأنوار ٢١٦/٤٢. فرحة الغري /٣٤.

بظهر الكوفة فاغتسل وامش على سكون ووقار حتى تأتي أمير المؤمنين عليه السلام. فتستقبله بوجهك وتقول. . .[١].

وأخبرني المقرىء عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر الحنبلي، عن أبي الفرج الجوزي الحنبلي، عن إسماعيل بن أحمد السمرقندي، عن أبي منصور، عن عبد العزيز العكبري، عن الحسين بن بشران، عن أبي الحسين بن الأشناني، عن أبي بكر بن أبي الدنيا، ونقلته من نسخة عتيقة عليها طبقات كثيرة وهي عندي. قال: أخبرنا عمر، قال: أخبرنا عبد الله قال: أخبرنا عبد الله، قال: حدثنا أبي، عن هشام بن محمد، قال: قال لي أبو بكر بن عياش. سألت أبا حصين، والأعمش، وغيرهم فقلت: أخبركم أحد أنه صلى على أمير المؤمنين(ع) أو شهد دفنه؟ قالوا: لا فسألت أباك محمد ابن السائب، فقال: اخرج به ليلاً وخرج به الحسن، والحسين(ع)، ومحمد بن الحنفية، وعبد الله بن جعفر، وعدة من أهل بيته فدفن في ظهر الكوفة.

وبالإسناد المتقدم إلى الشريف أبي عبد الله، قال: حدثنا محمد بن جعفر التميمي النحوي، قال: أخبرنا محمد بن علي بن شاذان، أخبرنا حسن بن محمد بن عبد الواحد، أخبرنا محمد بن أبي السري، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، قال قال أبو بكر بن عياش: سألت أبا حصين، وعاصم، والأعمش، وغيرهم. فقلت: أخبركم أحد أنه صلى على علي، وشهد دفنه؟ فقالوا لي: قد سألنا أباك محمد ابن السائب الكلبي، قال: اخرج به ليلاً خرج به الحسن، والحسين، وابن الحنفية، وعبد الله بن جعفر، في عدة من أهل بيته، ودفن ليلاً في ذلك الظهر، ظهر الكوفة. قال: قلت لأبيك لم فعل به ذلك، قال: مخافة الخوارج وغيرهم[٢].

قال صاحب الوصية، محمد بن علي الشلمغاني[٣]: أنه عليه السلام دفن بظهر الكوفة، قال: فيما أوصى إلى الحسن أن يحفر حيث تقف الجنازة، فإنك تجد خشبة محفورة كان نوح(ع) حفرها له ليدفن فيها[٤].

(١) من لا يحضره الفقيه ٣٥٢/٢.
(٢) فرحة الغري /١٢٣ ـ ١٢٥. بحار الأنوار ٢٢٢/٤٢.
(٣) أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني، ويعرف بابن أبي العزاقر المتوفي ٣٢٢هـ. متكلم ادعى أن اللاهوت قد حل فيه فقتل، واحرقت جثته. تنقيح المقال ١٥٦/٣. فهرست النديم/١٦٤. الكنى والألقاب ٣٦٥/٢.
(٤) فرحة الغري /١٣٠.

وروى يعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن رجاله، قال: قيل للحسين بن علي(ع) أين دفنتم أمير المؤمنين؟ فقال: خرجنا به ليلاً على مسجد الأشعث، حتى خرجنا به إلى الظهر بجنب الغريين فدفناه هناك[1].

ذكر الحسن بن محمد بن جعفر التميمي، في كتاب تاريخ الكوفة[2] قال: أخبرنا أبو بكر الدارمي، عن إسحاق بن يحيى، عن أحمد بن صبيح، عن صفوان، قال: خرجت أنا، وصاحب لي من الكوفة، ودخلنا على جعفر بن محمد(ع) فسألناه عن قبر أمير المؤمنين(ع)، فقال لنا: هو عندكم بظهر الكوفة في موضع كذا، فوصف لنا قال: فجئت أنا، وصاحبي، فطلبناه فوجدناه. قال: ثم لقيناه في موضع كذا، قال: نعم هو ذاك عند الذكوات البيض[3].

عن عمر بن سعد، عن ابن طريف، عن ابن نباته، قال: مرت جنازة على علي، وهو بالنخيلة فقال علي: ما يقول الناس في هذا القبر؟ - وفي النخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله - فقال الحسن بن علي: يقولون هذا قبر هود النبي(ع) لما أن عصاه قومه جاء فمات ها هنا. فقال: كذبوا لأنا أعلم به منهم، هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بكر يعقوب. ثم قال: ها هنا أحد من المهرة؟ قال: فأتي بشيخ كبير، فقال: أين منزلك؟ قال: على شاطىء البحر. قال: أين من الجبل الأحمر؟ قال: قريباً منه، قال: فما يقول قومك فيه؟ قال: يقولون قبر ساحر. قال: كذبوا ذلك قبر هود. وهذا قبر يهودا بن يعقوب، يحشر من ظهر الكوفة سبعون ألفاً على غرة الشمس يدخلون الجنة بغير حساب[4].

أخبرني نجيب الدين يحيى بن سعيد، عن محمد بن أبي البركات الصنعاني، عن الحسين بن رطبة، عن أبي علي الطوسي، نقلاً من خطه من التهذيب، عن المفيد، عن محمد بن أحمد، عن أبيه، قال: حدثنا الحسن بن علي بن فضال، قال: حدثنا عمر

(١) الإرشاد للمفيد /١٩. بحار الأنوار ٢٣٤/٤٢. وج ٢٤٠/١٠٠.
(٢) الصحيح: أبو الحسن محمد بن جعفر بن محمد بن هارون بن فروة التميمي النحوي. الذريعة ٢٨٢/٣.
(٣) بحار الأنوار ٢٥٠/١٠٠. فرحة الغري/٧١.
(٤) بحار الأنوار ٢٥٠/١٠٠. وقعة صفين/١٢٦ط ١٣٨٢.

ابن ابراهيم، عن خلف بن حماد، عن اسماعيل عن أبي عبد الله(ع) قال: نحن نقول بظهر الكوفة قبر ما يلوذ به ذو عاهة إلا شفاه الله. والشيخ المفيد ذكره في مزاره ولم يسنده. وقال: يعني قبر أمير المؤمنين(ع)[1].

وبالإسناد عن الشريف أبي علي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، قال: حدثنا عبيد بن بهرام الضرير الرازي، قال: حدثني حسين بن أبي العيفاء الطائي، قال: سمعت أبي ذكر أن جعفر بن محمد(ع) مضى إلى الحيرة ومعه غلام له على راحلتين، وذاع الخبر بالكوفة، فلما كان اليوم الثاني قلت لغلام لي إذهب فاقعد لي في موضع كذا وكذا في الطريق، فإذا رأيت غلامين على راحلتين، فتعال إليّ فلما أصبحنا جاءني فقال: قد أقبلا فقمت إلى بارية فطرحتها على قارعة الطريق، وإلى وسادة وصفرية جديدة، وقلتين فعلقتها في النخلة وعندها طبق من الرطب وكانت النخلة صرفانه. فلما أقبل تلقيته وإذا الغلام معه فسلمت عليه فرحب بي. ثم قلت: يا سيدي يا ابن رسول الله رجل من مواليك تنزل عندي ساعة، وتشرب شربة ماء بارد، فثنى رجله فنزل واتكأ على الوسادة ثم رفع رأسه إلى النخلة فنظر إليها، وقال: يا شيخ ما تسمون هذه النخلة عندكم؟ قلت: يا ابن رسول الله صرفانه... فقال: ويحك هذه والله العجوة، نخلة مريم القط لنا منها فلقطت فوضعته في الطبق الذي فيه الرطب فأكل منها فأكثر. فقلت له جعلت فداك بأبي وأمي هذا القبر الذي أقبلت منه قبر الحسين؟ قال: أي والله يا شيخ حقاً ولو أنه عندنا لحججنا إليه. قلت: فهذا الذي عندنا في الظهر أهو قبر أمير المؤمنين(ع)؟ قال: أي والله يا شيخ حقاً، ولو أنه عندنا لحججنا إليه. ثم ركب راحلته ومضى[2].

هذا ولو توخينا استقصاء كافة الأحاديث الدينية الواردة بخصوص (ظهر الكوفة... لطال بنا المقام والمقال، ففيما ذكرناه كفاية لمن كان له نظر ودراية وكرامة، والله الموفق للصواب. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[3].

(١)بحار الأنوار ١٠٠/٢٦١. التهذيب ٦/٣٤. فرحة الغري /٩١.
(٢) فرحة الغري/٦٠ - ٦١.
(٣) ورد ذكر بعض هذه الأحاديث المدرجة في الفصل مع حذف الأسانيد، في موسوعة العتبات ق النجف ٦٧/١ - ٨٧.

قال أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح بن أزهر الشافعي اللغوي المتوفى ٣٧٠هـ ـ النجفة التي بظهر الكوفة، وهي كالمسناة تمنع ماء السيل أن يعلو منازل الكوفة ومقابرها(١).

وقال مجد الدين الفيروزآبادي الشيرازي: النجف محركة وبهاء (النجفة) مكان لا يعلوه الماء مستطيل منقاد، ويكون في بطن الوادي، وقد يكون ببطن من الأرض جمعه نجاف. أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها. والنجف محركة التل... والمسناة، ومسناة بظاهر الكوفة، تمنع ماء السيل أن يعلو مقابرها ومنازلها(٢).

وقال أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي المطرز الخوارزمي الحنفي اللغوي المتوفى ٦١٠هـ في كتابه المغرب ـ: النجف بفتحتين، كالمسناة بظاهر الكوفة على فرسخين منها، يمنع ماء السيل أن يعلو منازلها ومقابرها(٣).

وقال سعيد بن عبد الله بن ميخائيل بن الياس بن يوسف الشرتوني الخوري المتوفى ١٣٣٠هـ ـ: النجف محركة، مكان لا يعلوه الماء مستطيل منقاد ويكون في بطن الوادي، وقد يكون ببطن من الأرض. النجفة محركة النجف للمكان المذكور والمسناة. ومسناة بظواهر الكوفة تمنع ماء السيل أن يعلو مقابرها ومنازلها(٤).

وقال ياقوت الحموي البغدادي المتوفى ٦٢٦هـ ـ: النجف بالتحريك. قال السهيلي: بالفرع عينان يقال لأحداهما الربض، وللأخرى النجف، تسقيان عشرين ألف نخلة. وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها. وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٥).

وقال أبو الفرج الأصفهاني، في أخبار حنين الحيري: لما حج هشام بن عبد الملك، وعديله الأبرش الكلبي، فوقف له حنين بظهر الكوفة ومعه عوده وزامر له،

(١) موسوعة العتبات ق النجف ١/١٠.
(٢) قاموس المحيط ٣/١٩٧.
(٣) مجمع البحرين ٥/١٢٢.
(٤) أقرب الموارد ٢/١٢٧٥.
(٥) معجم البلدان ٥/٢٧١.

وعليه قلنسوة طويلة فلما مر به هشام عرض له، فقال: من هذا؟ فقيل حنين، فأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره، وسير به أمامه وهو يتغنى:

أمن سلمى بظهر الكو　　فة الآيات والطلل
يلوح كما تلوح على　　جفون الصيقل الخلل

فلم يزل هشام يستعيده حتى نزل به النجف فأمر له بمائتي دينار[1].

وذكر أبو دلامة زند بن الجون ظهر الكوفة في شعره، فقال:

قف بالديار وأي الدهر لم تقف　　على المنازل بين الظهر والنجف
وما وقوفك في أطلال منزلة　　لولا الذي استدرجت من قلبك الكلف
إن كنت أصبحت مشغوفاً بساكنها　　فلا وربك لا تشفيك من شغف
دع ذا وقل في الذي قد فاز من مضر　　بالمكرمات وعز غير مقترف[2]

قال أبو الفرج: وروى علي بن سليمان الأخفش، قال: خرج المغيرة بن شعبة، وهو يومئذ على الكوفة، ومعه الهيثم بن التيهان النخعي، غب مطر يسير في ظهر الكوفة، والنجف. فلقى ابن لسان الحمرة، أحد بني تيم الله بن ثعلبة، وهو لا يعرف المغيرة، ولا يعرفه المغيرة، فقال له: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من السماوة. قال: كيف تركت الأرض خلفك؟ قال: عريضة أريضة[3]. . .

وهناك شواهد تأريخية أخرى، تركناها لضيق المقام، واكتفينا بما أوردناها.

٦ ـ الغري، أو الغريان

يعتبر في طليعة الأسماء المتداولة الشائعة، لبقعة النجف عند كافة طبقات أهل الفضل والمعرفة، لكثرة وروده في معاجم الحديث، وقواميس اللغة، وكتب التأريخ، والأدب إلى جانب ما في اللغة العربية على قسمبها، الدارجة، والفصحى، في

(١) الأغاني ١٢١/٢. ط التراث العربي.
(٢) المصدر السابق ١٣٦/٩.
(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢٤٠/١٢.

التحدي، والبحث، والشعر على اختلاف أغراضه وفنونه... بالإضافة إلى أن الكثيرين من أهالي مدينة الغري المقدسة، منذ القدم يضيفون ألى أسمائهم كلمة (الغروي) و(النجفي) ويتخذوه لقباً لهم ولعائلتهم وذراريهم، ليشعروا الآخرين والأجيال، من أنهم ينتسبون إلى بلد الغري، أما من جهة الولادة، أو من ناحية الدراسة، والتوطن والإقامة... فكما يقال على سبيل المثال: الرازي... الأصفهاني... اللبناني... السوري... نسبة إلى البلدة، كذلك النسبة إلى الغري، والنجف، وهذا ما لا مشاحة فيه ولا يفتقر إلى توضيح وشرح.

ونهجنا في متابعة هذا الفصل، تبيان بعض الروايات الدينية التي جاءت بخصوص (الغري) أو (الغريان) وأن المراد منه بعقة النجف. ومن ثم عرض كلمات اللغويين، والمؤرخين، والأدباء فيه.

روي أن أمير المؤمنين(ع) لما حضرته الوفاة قال للحسن، والحسين(ع): إذا أنا مت فاحملاني على سرير، ثم اخرجاني واحملا مؤخر السرير، فإنكما تكفيا مقدمه ثم أتيا بي الغريين، فإنكما ستريان صخرة بيضاء فاحتفروا فيها فإنكما تجدان فيها شيئاً فادفناني فيه. قال: فلما مات اخرجنا وجعلنا نحمل بمؤخر السرير، ويكفي مقدمه وجعلنا نسمع دوياً وحفيفاً حتى أتينا الغريين فإذا صخرة بيضاء تلمع نوراً[(١)].

حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد العزيز بن عامر الدهان، قال: حدثنا محمد بن أحمد بن عيسى بن أخي الحسن بن يحيى، قال: حدثنا محمد بن الحسن الجعفري، قال: وجدت في كتاب أبي، حدثتني أمي عن أمها أن جعفر بن محمد(ع) حدثها أن أمير المؤمنين(ع) أمر إبنه الحسن، أن يحفر له أربعة قبور في أربعة مواضع في المسجد، وفي الغري، وفي دار جعدة بن هبيرة، وفي الرحبة. وإنما أراد بهذا أن لا يعلم أحد من أعدائه موضع قبره[(٢)].

وبالإسناد عن جعفر بن محمد بن قولويه، قال: حدثني محمد بن محمد بن الحسن، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن أبي

---

(١) بحار الأنوار ٤٢/٢١٧. روضة الواعظين ١/١٣٦.
(٢) فرحة الغري /٧٢. بحار الأنوار ٤٢/٢١٤.

عمير، عن الحسين الخلال عن جده، قال: قلنا للحسن بن علي(ع) أين دفنتم أمير المؤمنين(ع)؟ فقال: خرجنا به ليلاً حتى مررنا على مسجد الأشعث، حتى خرجنا إلى ظهر ناحية الغري[1].

أخبرني عبد الرحمن بن أبي البركات الحنبلي، عن محمد بن ناصر السلامي الحنبلي، قال أخبرنا أبو الغنائم محمد بن ميمون البرسي، قال: أخبرنا الشريف أبو عبد الله محمد بن علي، عن الحسن بن علي بن الحسين بن عبد الرحمان الشجري، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجعفي، وأبو الحسن محمد بن الحسن بن غزال الوراق المحاربي، قالا: أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني الحافظ، قال: أخبرنا يحيى بن الحسن العلوي، قال: وحدثني يعقوب بن يزيد، قال: حدثني ابن أبي عمير يعني الثقفي، عن حسين الخلال، عن جده قال: قلت للحسن بن علي(ع) أين دفنتم أمير المؤمنين(ع)؟ قال: خرجنا ليلاً حتى مررنا به على مسجد الأشعث حتى خرجنا إلى الظهر بجنب الغري[2].

وذكر حسن بن الحسين بن طحال المقدادي، أن زين العابدين(ع) ورد إلى الكوفة، ودخل مسجدها وبه أبو حمزة الثمالي، وكان من زهاد أهل الكوفة ومشايخها، فصلى ركعتين، قال: أبو حمزة فما سمعت أطيب من لهجته فدنوت منه لأسمع ما يقول، فسمعته يقول: إلهي إن كان قد عصيتك فإني قد أطعتك في أحب الأشياء إليك الإقرار بوحدانيتك مناً منك علي لا مناً مني عليك. والدعاء معروف ثم نهض.

قال أبو حمزة: فتبعته إلى مناخ الكوفة، فوجدت عبداً أسود معه نجيب وناقة، فقلت: يا أسود من الرجل؟ فقال: أو تخفى عليك شمائله هو علي بن الحسين. قال أبو حمزة: فأكببت على قدميه أقبلهما فرفع رأسي بيده، وقال: يا أبا حمزة إنما يكون السجود لله عز وجل. قلت: يا ابن رسول الله ما أقدمك إلينا؟ قال: ما رأيت ولو علم الناس ما فيه من الفضل لأتوه ولو حبواً. هل لك أن تزور معي قبر جدي علي ابن أبي طالب(ع)؟ قلت: أجل فسرت في ظل ناقته، يحدثني حتى أتينا الغريين، وهي

(١) فرحة الغري/ ٣٧. شرح ابن أبي الحديد ٦/١٢٢.
(٢) بحار الأنوار ١٠٠/٢٤٥. فرحة الغري /٣٩. مقاتل الطالبيين /٢٦.

بقعة بيضاء تلمع نوراً، فنزل عن ناقته ومرغ خديه عليها. وقال: يا أبا حمزة هذا قد قبر جدي علي بن أبي طالب(ع) ثم زاره بزيارة وودعه، ومضى إلى المدينة ورجعت أنا إلى الكوفة[١].

وأخبرني نجم الدين الفقيه أبو القاسم جعفر بن سعيد رحمه الله، عن الحسن ابن الدربي، عن شاذان بن جبرئيل، عن جعفر الدوريستي، عن جده، عن المفيد رحمه الله، قال: وروى محمد بن عمار، قال: حدثني أبي عن جابر بن يزيد، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر(ع) أين دفن أمير المؤمنين؟ قال: دفن بناحية الغريين، ودفن قبل طلوع الفجر[٢].

وأخبرنا الذراع، قال: حدثنا صدقة بن موسى أبو العباس، قال: حدثنا أبي عن الحسين بن محبوب عن هشام بن سالم، عن حبيب السجستاني، عن أبي جعفر محمد بن علي، قالا: مضى أمير المؤمنين سنة أربعين من الهجرة ونزر الوحي على رسول الله ﷺ ولأمير المؤمنين(ع) اثنتا عشرة سنة، وهو ابن خمس وستين سنة... ثم أقام بعدما توفى رسول الله ثلاثين سنة، وكان عمره خمساً وستين سنة، قبض في ليلة الجمعة، وقبره بالغري، وهو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة[٣].

وأخبرني الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الحربي، عن عبد العزيز بن الأخضر، سنة أربع وستمائة، عن الحافظ أبي الفضل بن ناصر، قال: أخبرنا محمد بن علي بن ميمون البرقي، وهو المعروف بأبي العباس، قال: أخبرنا الشريف أبو عبد الله محمد بن علي ابن الحسن بن علي بن الحسين بن عبد الرحمان القسري بن القاسم بن الطحاوي بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني، قال: أخبرنا جعفر بن محمد بن عيسى بن علي بن محمد الجعفري، قال: أخبرني أبي إملاءً، قال: أخبرنا جعفر بن مالك، قال: حدثنا محمد بن الحسين الصايغ، قال: أخبرنا عبد الله

---

(١) بحار الأنوار ١٠٠/٢٤٥. فرحة الغري /٤٦.
(٢) فرحة الغري/٥٠. بحار الأنوار ٤٢/٢٢٠. أعيان الشيعة ٣/ق ٢/٢٦١.
(٣) بحار الأنوار ٤٢/٢٢١. فرحة الغري/٥٤. نظم درر السمطين /١٣٨.

ابن عبيد بن زيد، قال: رأيت جعفر بن محمد، وعبد الله بن الحسن، بالغري عند قبر أمير المؤمنين(ع) فأذن عبد الله، وأقام للصّلاة وصلى مع جعفر بن محمد، وسمعت جعفراً يقول: هذا قبر أمير المؤمنين(١).

وقال الباقر(ع) دفن أمير المؤمنين(ع) بناحية الغريين، ودفن قبل طلوع الفجر(٢).

أخبرني الفقيه أبو القاسم بن سعيد، عن السعيد شمس الدين فخار الموسوي، عن شاذان بن جبرئيل عن محمد بن القاسم الطبري، عن الحسن عن أبيه محمد بن الحسين، عن محمد بن محمد المفيد، عن محمد بن علي بن بابويه، عن محمد بن علي ما جيلويه، عن محمد بن محمد بن أبي القاسم، عن محمد بن محمد بن خالد، عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن صفوان عن الصادق(ع) قال: سار (ع) وأنا معه في القادسية حتى أشرف على النجف. فقال: هو الجبل الذي اعتصم به ابن جدي نوح، وقال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾(٣) فأوحى الله عز وجل إليه: أيعتصم بك مني أحد؟ فسار في الأرض وتقطع إلى الشام. ثم قال عليه السلام: أعدل بنا فعدلت به فلم يزل سائراً حتى أتى الغري، فوقف على القبر فساق السلام من آدم على نبي نبي(ع) وأنا أسوق السلام معه، حتى وصل السلام إلى النبي(ع) ثم خر على القبر فسلم عليه وعلا نحيبه. ثم قام فصلى أربع ركعات، وفي خبر آخر ست ركعات، وصليت معه، وقلت: يا ابن رسول الله ما هذا القبر؟ قال: هذا قبر جدي علي بن أبي طالب(ع)(٤).

قال الشيخ الحسن بن أبي الحسن الديلمي، روى عن أبي عبد الله(ع) أنه قال: الغري قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وقدّس عليه عيسى تقديساً، واتخذ عليه إبراهيم خليلاً. ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً(٥).

---

(١) فرحة الغري/٥٦. بحار الأنوار ٢٤٦/١٠٠.
(٢) روضة الواعظين ١/١٣٧.
(٣) سورة هود/٤٣.
(٤) بحار الأنوار ٢٤٢/١٠٠. فرحة الغري/٩٩. كامل الزيارات/٣٥. من لا يحضره الفقيه ٢/٣٥١. موسوعة العتبات ق النجف ١/٥٧٤ في موضعين مكررا. بحيان الشيعة ٣ق ٢/٢٦٢.
(٥) ارشاد القلوب ٢/٢٣٧. بحار الأنوار ٢٣٢/١٠٠.

قال عبد الله بن طلحة الهندي، دخلت على أبي عبد الله(ع) فذكر حديثاً فحدثناه. قال: فمضينا معه يعني أبا عبد الله حتى انتهينا إلى الغري، قال: فأتى موضعاً فصلى[1].

أخبرني عمي رضي الدين عن الحسن بن الدربي، عن محمد بن علي بن شهراشوب، عن جده، عن الطوسي، عن المفيد، عن جعفر بن محمد، عن محمد بن يعقوب، عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن عيسى، عن الحسن بن علي بن فضال، عن عبد الله بن بكير، عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله(ع) أنه سمعه، يقول: لما قبض أمير المؤمنين(ع) أخرجه الحسن، والحسين، ورجلان آخران، حتى إذا خرجوا من الكوفة وتركوها عن أيمانهم ثم أخذوا في الجبانة حتى مروا به إلى الغري، ودفنوه وسووا قبره وانصرفوا[2].

حدثني أبي عن سعد بن عبد الله، عن الحسن بن موسى الخشاب، عن علي بن أسباط، رفعه قال، قال أبو عبد الله(ع): إنك إذا أتيت الغري رأيت قبرين قبراً كبيراً، وقبراً صغيراً، فأما الكبير فقبر أمير المؤمنين. وأما الصغير فرأس الحسين بن علي(ع)[3].

حدثني محمد بن جعفر الرزاز، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب الزيات، عن الحسن بن محبوب عن إسحاق بن جرير، عن أبي عبد الله(ع) قال: إني لما كنت بالحيرة عند أبي العباس كنت آتي قبر أمير المؤمنين(ع) ليلاً وهو بناحية النجف، إلى جانب الغري النعمان، فأصلي عنده صلاة الليل وأنصرف قبل الفجر[4].

وروى أصحابنا عن أيوب بن نوح، قال: كتبت إلى أبي الحسن موسى بن جعفر(ع) أن أصحابنا قد اختلفوا في زيارة قبر أمير المؤمنين(ع) فقال: بعضهم بالرحبة. وقال: بعضهم بالغري. فكتب زره بالغري[5].

---

(١) روضة الواعظين ٢/٤١٠.
(٢) بحار الأنوار ٤٢/٢٢٢. فرحة الغري/٩٠. كشف الغمة ٤٣٧/١.
(٣) بحار الأنوار ١٠٠/٢٤١. كامل الزيارات/٣٥. أعيان الشيعة ٣ق ٢/٢٦٣.
(٤) بحار الأنوار ١٠٠/٢٤٤. فرحة الغري /٧١. كامل الزيارات/٣٧. أعيان الشيعة ٣ق ٢/٢٦٣.
(٥) فرحة الغري/١٠٣.

حدثني أبي عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت الرضا(ع) فقلت: أين موضع قبر أمير المؤمنين(ع)؟ فقال الغري[1].

أحمد بن محمد، عن ابن أبي عمير، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن سنان، قال: أتاني عمر بن يزيد، فقال لي: اركب فركبت معه فمضينا حتى أتينا منزل حفص الكناسي، فاستخرجته فركب معنا ثم مضينا حتى أتينا الغري فانتهينا إلى قبر، فقال: انزلوا هذا قبر أمير المؤمنين(ع) فقلنا: من أين علمت؟ فقال: أتيته مع أبي عبد الله(ع) حيث كان بالحيرة غير مرة وخبرني أنه قبره[2].

وقال الغزالي: ذهب الناس إلى أن علياً(ع) دفن على النجف، وأنهم حملوه على الناقة فسارت حتى انتهت إلى موضع قبره، فبركت فجهدوا أن تنهض فلم تنهض فدفنوه فيه[3].

هذا وفي كتب الحديث المئات من الروايات التي تخص بالغري، أو الغريين... الواردة على لسان الأئمة(ع) ولا مجال لذكرها لأن جمعها وتأليفها تحتاج إلى مجلدات، غير أننا أوردنا هنا نتفاً منها كشاهد لما نحن فيه من بيان أسماء النجف، ومنها الغري، أو الغريان في الحديث... والآن ننتقل إلى تبيان ما جاء عنه في معاجم اللغة، والتأريخ، والأدب.

قال مجد الدين الفيروزآبادي الشيرازي: ـ والغراء الحسن وكغنى الحسن منا ومن غيرنا، والبناء الجيد ومنه الغريان بناءان مشهوران بالكوفة[4].

وذكر أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي المتوفى ١٢٠٥هـ فقال: والغراء الحسن، ومنه الغري كغنى الحسن الوجه منا، والحسن من غيرنا. والغري البناء الجيد، ومنه الغريان، وهما بناءان مشهوران بالكوفة عند الثورية حيث قبر أمير المؤمنين علي بن أبي

(١) بحار الأنوار ٤٢/٢١٨. كامل الزيارات/٣٧.
(٢) الكافي ١/٤٥٦ كتاب الحجة. مولد أمير المؤمنين(ع).
(٣) بحار الأنوار ٤٢/٢٣٦.
(٤) قاموس المحيط ٤/٣٦٩.

طالب رضي الله عنه. زعموا أنها بناهما بعض ملوك الحيـرة(١).

ويقول ياقوت الحموي بهذا الصدد: ـ الغريان تثنية الغري، وهو المطلي بالغراء ممدود. وهو الغراء الذي يـطلى به. والغـري فعيل بمعنى مفعـول. والغري الحسن من كـل شيء يقال رجـل غري الـوجه، إذا كـان حسناً مليحـاً. فيجوز أن يكـون الغري مـأخوذاً من كـل واحد من هـذين. والغري نصب(٢) كـان يـذبـح عليـه العـتائر(٣) والغريان طربالان، وهما بناءان كالصومعتين بالكوفة قرب قبر عـلي بن أبي طالب رضي الله عنه. إلى أن قال بعد حديث طويل:

وأن الغريين بظاهر الكوفة، بناهما المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء، وكان السبب في ذلـك أنه كـان له نـديمان من بني أسـد، يقال لأحـدهمـا خـالـد بن نضلة، والآخر عمرو بن مسعود، فثملا فراجعا الملك ليلة في بعض كلامه فـأمر وهـو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة، ودفنهما حيين. فلما أصبح استدعاهما فأخـبر بالـذي أمضاه فيهما فغمه ذلك، وقصد حفرتيهما وأمر ببناء طربـالين عليهـما، وهما صـومعتان. فقال المنذر: ما أنا بملك إن خالف الناس أمري. لا يمر أحد من وفود العرب إلا بينهما وجعـل لهما في السنـة في يوم بؤس، ويـوم نعيم. يذبـح في يوم بؤسـه كل من يلقـاه، ويغرى بدمه الطربالين فإن رفعت له الوحش طلبتها الخيل، وإن رفع طائر أرسل عليه الجوارح، حتى يذبح ما يعن ويطليان بدمه. ولبث بذلك برهة من دهره، وسمى أحد اليومين يـوم البؤس وهو اليـوم الذي يقتـل فيه مـا ظهر لـه من إنسان وغـيره، وسمي الآخر يوم النعيم يحسن فيه إلى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم.

وبعد أن ذكر قصة طويلة عن المنذر قال:

وروى الشرقي بين القطامي، قـال: الغري الحسن من كـل شيء. وإنما سميـا الغـريين لحسنهـما. وكان المنـذر قد بنـاهما عـلى صورة غـريـين كـان بعض ملوك مصر

(١) تاج العروس ٥٨٧/٤.
(٢) النصب: حجر كانوا يتصبونه في الجاهلية ويتخذونه صنماً فيعبـدونه، ويـذبحون عليـه فيحمر بـالدم. النهاية في غريب الحديث ٦٠/٥.
(٣) العتـائر، ج العتيرة، وهي الذبيحـة التي كانت تـذبح لـلأصنام، فيصب دمهـا على رأسهـا. النهـايـة ١٧٨/٣.

بناهما. وقرأت على ظهر كتاب شرح سيبويه للمبرد، بخط الأديب عثمان بن عمر الصقلي النحوي الخزرجي[1] ما صورته: وجدت بخط أبي بكر السراج، رحمه الله على ظهر جزء من أجزاء كتاب سيبويه، أخبرني أبو عبد الله اليزيدي، قال: حدثني ثعلب، قال: مر معن بن زائدة بالغريين فرأى أحدهما وقد شعث وهدم فأنشأ يقول:

لو كان شيء له أن لا يبيد على ... طول الزمان لما باد الغريان
ففرّق الدهر والأيام بينهما ... وكل ألف إلى بين وهجران[2]

ويظهر من نصوص بعض كتب السير والتأريخ، أن أحد البناءين هدم أمر بهدمه المنصور لكنز توهم أنه تحتهما فلم يجد شيئاً. ولم يبق حتى اسمه، وبقي الآخر وهو القائم المائل كما في بعض الأحاديث والقائم المنحني كما في بعض آخر، وهو الوجه في تسمية البقعة باسم (الغري) بالأفراد[3].

وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني المتوفى ١١٠هـ، وهو آخر من مات من الصحابة. يذكر الغريين:

ألا طرقتنا بالغريين بعد ما ... كللنا على شحط المزار جنوب
أتوك يقودون المنايا وإنما ... هدتها بأولانا إليك ذنوب
ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار القرار نصيب[4]

وروي أن الفرزدق نزل بالغريين، فعراه بأعلى ناره ذئب فأبصره مقعياً يصيء، ومع الفرزدق مسلوخة فرمى إليه بيده فأكلها، فرمى إليه بما بقي فأكله، فلما شبع ولّى عنه فقال:

---

(١) أبو عمر وجمال الدين عثمان بن أبي بكر بن يونس الكردي الأسنائي المالكي الصقلي الدويني المعروف بابن الحاجب ٥٧٠ ـ ٦٤٦هـ. فقيه نحوي مقرىء أصولي صرفي عروضي.
بغية لوعاة/٣٢٣. الدارس ٢/٣. شذرات الذهب ٥/٢٣٤. طبقات القراء ١/٥٠٨. مرآة الجنان ٤/١١٤ هدية العارفين ١/٦٥.

(٢) مروج الذهب ٣/٣٢٩ط ١٣٨٤ بلفظ أوسع مما ذكره الحموي. معجم البلدان ٤/١٩٦ ـ ٢٠٠. موسوعة العتبات ق النجف ١/٢٨ ـ ٢٩.

(٣) ماضي النجف ١/١٠ نقلا عن نهاية الارب ١/٣٧٤ط ٢.

(٤) أعيان الشيعة ٢٧/١٠ط٢. أخبار شعراء الشيعة/٢٤.

وليلة بتنا بالغريين ضافنا ... على الزاد موشي الذراعين أطلس
تلمسنا حتى أتانا ولم يزل ... لدن فطمته أمه يتلمس
فلو أنه إذا جاءنا كان دانياً ... لألبسته لو أنه يتلبس
ولكن تنحى جنبة بعدما دنا ... فكان كقاب القوس أو هو أنفس
فقاسمته نصفين بيني وبينه ... بقية زاد والركائب نعس
وكان ابن ليلى إذ قرى الذئب زاده ... على طارف الظلماء لايتعبس[1]

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي، في جيشه بالغري، وبالحاير، فلم يعرّج على واحد منها ولا دخل ولا وقف[2].

وقد جاء ذكر (الغري) وأنها مدفن الإمام أمير المؤمنين(ع) في الأدب العربي بصورة مبسوطة أودعها الشعراء في قصائدهم خلال القرون المتمادية، وتراهم في أشعارهم يحنون إليها ويتشوقون إلى معاهدها، ويتمنون لشم تربتها المقدسة، والتوطن والمجاورة بها، من حيث الفضل والقداسة والبركة والرحمة والمغفرة والإحسان والمحبة، والفضيلة المتجمعة فيها لتضمنها البدن المعظم.

وإليك بعض الشواهد من الشعر القديم على سبيل المثل، لا على سبيل الانتقاء والاختيار وعلى سبيل الإحصاء والجمع، ذلك لأن تأليف وجمع ما ورد عن اسم الغري، والنجف، والمشهد، ووادي السلام... كناية وتصريحاً لتعجز عن جمعه دواوين ضخمة لا نظننا قادرين على جمعها هنا، وسيأتي بصورة أوسع في فصل النجف في شعر أعلام الأدب... إن شاء الله.

قال أبو محمد سفيان بن مصعب العبدي الكوفي... من الشعراء المجيدين والمكثرين ومن حملة الحديث ورواة نوادره، وفي طليعة رجال الرواية، ومن أصحاب الإمام الصادق(ع) وزميل السيد الحميري المولود سنة ١٠٥ والمتوفى ١٧٨هـ. وكان السيد الحميري، يقول: أنا أشعر الناس إلّا العبدي. في قصيدته البائية.

---

(١) أمالي السيد المرتضى ٢/٢١١ط ١٣٧٣.
(٢) شرح ابن أبي الحديد ١٠/١٤ وجاء في الهامش: (الغري واحد الغريين، وهما بناء أن كالصومعتين كانا بظهر الكوفة قبر علي عليه السلام.

يـا راكبـا جسرة تـطوي منـاسـمهـا ... مـلاءة البيـد بـالـتقـريـب والخبب
تـقـيـد المـغـزل الأدمـاء في صعـد ... وتـطلع الكـاسر الفتحـاء في صبب
بلغ سـلامي قبـراً بـالغـري حـوى ... أو في الـبريـة من عجم ومن عـرب
واجعـل شعـارك لله الخشـوع بـه ... ونـاد خير وصي صنـو خير نبـي
اسمـع أبـا حسن إن الأولى عـدلـوا ... عن حكمـك انقلبـوا عن شر منقلب
مـا بـالهم نكبـوا نهج النجـاة وقـد ... وضحتـه واقتفـوا نهجـاً من العـطب
ودافعـوك عن الأمـر الـذي اعتلقـت ... زمـامـه من قـريش كف مغتصب(١)

وقال أبو علي دعبل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، المقتول ظلماً وعدواناً سنة ٢٤٦هـ:

سـلام بـالـغـداة وبـالـعشي ... عـلى جـدث بـأكنـاف الغـري
ولا زالت عـزالى النـوء تـزجي ... إلـيـه صبـابـة المـزن الـروي
ألا يـا حـبـذا تـرب بـنـجـد ... وقـبر ضـم أوصـال الـوصي
وصي محـمـد بـأبي وأمـي ... وأكـرم من مشى بعـد النبي
سنـان محمـد في كـل حـرب ... إذا نهلت صـدور الـسمـهـري
وأوّل مـن يجـيـب إلى بـراز ... إذا زاغ الـكـمـي عـن الـكـمـي
مشـاهـد لم تفـل سيـوف تيم ... بهـن ولا سيـوف بـني عـدي
لئـن حـجـوا إلى الـبـلد الـقصي ... فحجي مـا حييت إلى عـلي(٢)

الصاحب كافي الكفاة إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد ابن إدريس الطالقاني، المتوفى ٣٨٥هـ وكان في طليعة الأمراء، والفقهاء، والمحدثين، والشعراء، والفصحاء، والبلغاء. أفرد غير واحد من رجال التأليف كتاباً في ترجمته. فقد ذكر الغري في أرجوزتين له، قال في واحدة:

يـا زائرا قـد قصـد المشـاهـدا ... وقـطع الجبـال والفـدافـدا
فـأبـلغ النبي مـن سـلامي ... مـا لا يـبـيـد مـدة الأيـام

(١) الغدير ٢/٢٩١.
(٢) ديوان دعبل الخزاعي/ ٣١٤ت الأستاذ عبد الصاحب الدجيلي.

حتى إذا عدت لأرض الكوفة البلدة الطاهرة المعروفة
وصرت في الغري في خير وطن سلم على خير الورى أبي الحسن

وقال في أخرى:

يا زائرين اجتمعوا جموعا وكلهم قد أزمعوا الرجوعا
إذا حللتم تربة المدينة بخير أرض وبخير طينة
فأبلغوا محمد الزكيا عني السلام طيباً زكيا
حتى إذا عدتم إلى الغري فسلموا مني على الوصي
ويعد بالقيع في خير وطن أهدوا سلامي نحو مولاي الحسن[(١)]

وقال أبو الحسن علي بن حماد بن عبيد الله بن حماد العدوي العبدي البصري المتوفى... وهو علم من أعلام الأدب، ومن حفظة الحديث، وقد أدركه النجاشي أحمد بن علي المتوفى ٤٥٠هـ:

يا راكباً أُجُداً تخب وتوضع في سرعة والشوق منها أسرع
لله ما أخطأك من رجل له عند الغري لبانة لا تمنع
يجلى عليك من الهداية مشرق ومن الإمامة والولاية مطلع
جدث به نور الهدى مستودع في ضمنه العلم البطين الأنزع
جدث يدل عليه طيب نسيمه قبل الورود وضوء نور يلمع
جدث ربيع المؤمنين بربعه فقلوبهم أبداً له تتطلع
جدث به الرضوان والغفران والإ يمان والفضل الذي تتوقع
جدث تحج إليه أملاك السما إذ في جوانبه المناسك أجمع
بعض قيام خاضعون لفضله أبداً وبعض ساجدون وركع
فإذا وصلت إليه فالثم تربه في مدمع يجري وقلب يخشع[(٢)]

وقال ابن المدلل... وقد عده ابن شهراشوب، من الشعراء المجاهرين، ومن الشيعة الإمامية، وقال ابن المدلل الحسيني الموصلي كان أعمى نفي من الموصل:

(١) الغدير ٦٧/٤. مناقب ابن شهراشوب ٣٢٠/١. موسوعة العتبات في النجف ١٠٠/١.
(٢) الغدير ١٥٠/٤.

زر بالغري العالم الرباني ... علم الهدى ودعائم الإيمان
وقل السلام عليك يا خير الورى ... يا أيها النبأ العظيم الشان
يا من الأعراف يعرف فضله ... يا قاسم الجنات والنيران
نار تكون قسيمها يا عدتي ... أنا آمن منها على جثماني
وأنا مضيفك والجنان لي القرى ... إذ أنت أنت مورد الضيفان[1]

وقال الشريف الرضي ذو الحسين أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى ٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ في قصيدته البائية التي مطلعها (ألا لله بادرة الطلاب):

سقى الله المدينة من محل ... لباب الماء والنطف العذاب
وجاد على البقيع وساكنيه ... رخى الذيل ملآن الوطاب
وأعلام الغري وما استباحت ... معالمها من الحسب اللباب
وقبر بالطفوف يضم شلوا ... قضى ظمأ إلى برد الشراب[2]

وقال أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي البغدادي المتوفى ٤٢٨هـ، وكان أرفع راية للأدب العربي منشورة بين المشرق والمغرب. في قصيدته اللامية التي مطلعها قوله:

إن كنت ممن يلج الوادي فسل ... بين البيوت عن فؤادي ما فعل

فقال بعد أبيات:

يا راكباً تحمله عيدية ... مهوية الظهر بعضات الرحل
ليس لها من الوجا منتصر ... إذا شكا غاربها حيث الإطل
تشرب خمساً وتجر رعيها ... والماء عد والنبات مكتهل
إذا اقتضت راكبها تعريسة ... سوفها الفجر ومناها الطفل
عرج بروضات الغري سائفاً ... أزكى ثرى وواطئاً أعلى محل

(١) مناقب ابن شهراشوب ٣/٣١٧.
(٢) ديوان الشريف الرضي ١/٩٠ ـ ٩٣. الغدير ٤/٢١٢.

وأد عـني مـبـلغـاً تحـيـتي خير الوصيين أخا خير الرسل
سـمعـاً أمير المؤمنين أنها كناية لم تـك فيها متحـل(1)

وقال السيد المرتضى علم الهدى، ذو المجدين أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى ٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ. في قصيدته الرائية التي أولها قوله:

لـو لم يعـاجله النـوى لتحـيرا وقصـاره وقد انتـأوا أن يقصرا

فقال بعد عدة أبيات:

يـا راكباً رقصت بـه مهـريـة أشبت لساحته الهموم فأصحرا
عـج بـالغـري فـإن فيـه ثـاويـاً جبلاً تطأطأ فاطمأن به الثرى
واقـر السـلام عليـه من كلف بـه كشفت له حجب الصباح فأبصرا
ولـو استطعت جعلت دار إقـامتي تلك القبـور الزهـر حتى اقبـرا(2)

وقال أبو المعالي سالم بن علي بن سليمان بن علي المعروف بابن العودي التغلبي النيلي ٤٧٨ ـ ٥٥٨هـ. وكان من الشعراء الذين اشتهر شعرهم، وقلت أخبـار سيرهم فهو كوكب من كواكب الأدب:

بفنـا الغـري وفي عـراص العلقم تمحـا الذنـوب عن المسيء المجرم
قـبران قـبر لـلوصي وآخـر فيه الحسين، فعج عليه وسلم
هـذا قتيل بـالطفـوف على ظمـأ وأبـوه في كـوفـان ضرّج بـالـدم
وإذا دعـا داعي الحجيـج بمكـة فـإليهـما قصـد التقي المسلم
فـاقصدهمـا وقل السـلام عليكـما وعلى الأئـمـة والنبـيّ الأكـرم
أنتم بنـو طـاهـا وقـاف والضحى وبنـو تبـارك والكتاب المحكـم(3)

وقال أبو الفتح محمد بن عبيد الله البغدادي المعـروف بابن التعـاويذي، ويسبط ابن التعاويذي ٥١٩ ـ ٥٨٤هـ. كان شاعـر العراق في وقتـه، وكاتبـاً بديـوان الأقطاع ببغداد. وعمي في آخر عمره:

(1) الغدير ٤/٢٥٣.
(2) المصدر السابق ٤/٢٦٤.
(3) الغدير ٤/٣٧٨.

سأهدي للأئمة من سلامي وغر مدائحي أزكى هدي
سلاماً أتبع الوسميّ منه على تلك المشاهد بالولي
واكسو عاتق الأيام منها حبابر كالرداء العبقري
لطيبة، والبقيع، وكربلاء وسامراء، تغدو والغريّ
وزوراء العراق، وأرض طوس سقاها الغيث من بلد قصي
فحي الله من وارته تلك القـ ـباب البيض من حبر تقي
وأسبل ثوب رحمته دراكاً عليها بالغدو وبالعشي(١)

وقال بهاء الدين أبو الحسن علي بن فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الإربلي البغدادي المتوفى ٦٩٢هـ. أوحدى من نياقد علماء الأمة بعلمه الناجع، وأدبه الناصع، ومؤلفاته القيمة. في قصيدته الرائية التي مطلعها:

وإلى أمير المؤمنين بعثتها مثل السفاين غمن في تيار

إلى أن قال:

عرج على أرض الغري وقف به والثم ثراه وزره خير مزار
واخلع بمشهده الشريف معظماً تعظيم بيت الله ذي الأستار
وقل السلام عليك يا خير الورى وأبا الهداة السادة الأبرار
يا آل طاها الأكرمين الية بكم وما دهري يمين فجار
إني منحتكم المودة راجياً نيل المنى في الخمسة الأشبار
فعليكم مني السلام فأنتم أقصى رجاي ومنتهى إيثاري(٢)

وقال عز الدين عبد الحميد بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني المعتزلي ٥٨٦ ـ ٦٥٥هـ. شارح كتاب نهج البلاغة. في قصيدته السادسة، من قصائده السبع العلويات:

يا برق إن جئت الغري فقل له أتراك تعلم من بأرضك مودع

---

(١) الغدير ٥/٣٩٥. نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر ٢/٤٠٠ نسخة مخطوطة بمكتبتي الخاصة.
(٢) الغدير ٥/٤٤٤. كشف الغمة ١/٢٧٠ط ١٣٨١.

فيك ابن عمران الكليم وبعده عيسى يقفيه وأحمد يتبع
بل فيك جبريل، وميكال، واسر أفيل، والملأ المقدس أجمع
بل فيك نور الله جل جلاله لذوي البصائر يستشف ويلمع
فيك الإمام المرتضى، فيك الو صي المجتبى، فيك البطين الأنزع
هذا ضمير العالم الموجود عن عدم وسر وجوده المستودع
هذا الأمانة لا يقوم بحملها خلقاء هابطة وأطلس أرفع
تأبى الجبال الشم عن تقليدها وتضج تيهاء وتشفق برقع
هذا هو النور الذي عذباته كانت بجبهة آدم تتطلع (١)

وقال عبيد الله الحسيني، عده ابن شهراشوب من شعراء الشيعة المجاهرين:

يا طيب نفح النسيم في سحر عرج على طيبة بتغليس
وزر بقيعاً تجد هناك به رسماً من الدين جد مطموس
واغزهما بالغري رازمة تثلم أضحاكها بتعبيس
وطف بها بالطفوف مدلجاً وحيها ضحوة بتشميس(٢)

والشيخ عبد الرضا بن أحمد بن خليفة المقري الكاظمي المتوفى حدود ١١٢٠هـ. من علماء وأفذاذ القرن الثاني عشر الهجري:

عج بالغري فثم سرّ مودع ليست تكيف ذاته وتمثل
واخلع نعالك غير ما متكبر فيه وأنت مكبر ومهلل
وقل السلام عليك يا من حبه للدين فيه تتمة وتكمل
فهناك عين الله والسر الذي قد دق معنى والأخير الأول
الحاكم العدل الذي حقاً يرى ما العبد من خير وشر يعمل(٣)

هذا ويجد القارىء الكريم... في المجاميع والدواوين الشعرية، الكثير من أمثال هذه الأبيات والقصائد، بحيث يكاد لا يخلو منه ديوان شاعر، من القديم،

(١) القصائد السبع العلويات/ ٩١ ـ ٩٢.
(٢) معالم العلماء / ١٣٨. مناقب ابن شهر اشوب ١/ ٣٢٠.
(٣) الغدير ١١/ ٣٥٩.

والحديث. ولقد طال بنا المقام في اسم (الغري) فلنثن عنان اليراع خوف الملل، وننتقل بحول الله إلى البحث عن اسم آخر من أسماء النجف.

٧ ـ اللسان

من أسماء النجف غير المشهورة ولا المتداولة، ولم يكن عنه أثر ولا ذكر في الأحاديث الدينية، وكتب التأريخ والأدب، وإنما تفرد به بعض اللغويين، والمؤرخين، مع العلم بأنه لم يكن مستعملاً كغيره من أسماء النجف الأشرف. وإليك النصوص الواردة بشأنه:

قال ياقوت الحموي: (وظهر الكوفة يقال له اللسان، وهو فيما بين النهرين إلى العين عين بني الجراء. فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط، وما كان يلي البطن منه فهو النجاف.

واللسان، لسان البر الذي أدلعه في الريف عليه الكوفة اليوم، والحيرة قبل اليوم. قالوا: لما أراد سعد تمصير الكوفة أشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان.

وسميت هذه الأرض المتعادية التي منها النجف (النجاف) وكأنه جمع النجفة، وهي التي تلي الصحراء، ويقابلها مما يلي الفرات الملطاط[1].

وقال في موضع آخر: (الملطاط بالكسر ثم السكون، وتكرير الطاء المهملة. قال ابن النجار، في كتاب الكوفة: وكان يقال لظهر الكوفة اللسان، وما ولي الفرات منه الملطاط) وأنشد لعدي بن زيد:

هيج الداء في فؤادك حور ... ناعمات بجانب الملطاط
آنسات الحديث في غير فحش ... رافعات جوانب الفسطاط
ثانيات قطائف الخز والديـ ... ـباج فوق الخدور والأنماط
موقرات من اللحوم وفيها ... لطف في البنان والأوساط

(١) ماضي النجف ١/٩. معجم البلدان ٥/١٦. موسوعة العتبات ق النجف ١/١٢.

شد ما ساءنا حداة تولوا حين حثوا نعالها بالسياط
فرّق الله بينهم من حداة واستفادوا حمى مكان النشاط
مثل ما هيجوا فؤادي فأمسى هائماً بعد نعمة واغتباط[1]

وقد جاء ذكر الملطاط في خطبة علي عليه السلام، عند المسير إلى الشام فقال: أما بعد فقد بعثت مقدمتي وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتى يأتيهم أمري) فقال ابن أبي الحديد: الملطاط شاطىء الفرات[2].

وذكره ابن الأثير عز الدين، فقال في حوادث سنة ثلاث وثلاثين: ـ وفي هذه السنة سير عثمان نفراً من أهل الكوفة إلى الشام. وكان السبب في ذلك أن سعيد بن العاص، لما ولاه عثمان الكوفة، حين شهد على الوليد بشرب الخمر أمره أن يسير الوليد إليه، فقدم سعيد الكوفة، وسير الوليد وغسل المنبر، فنهاه رجال من بني أمية كانوا قد خرجوا معه عن ذلك فلم يجبهم واختار سعيد وجوه الناس وأهل القادسية، وقرأ أهل الكوفة فكانوا هؤلاء دخلته إذا خلا، وأما إذا خرج فكل الناس يدخل عليه فدخلوا عليه يوماً فبيناهم يتحدثون، قال حبيش بن فلان الأسدي: ما أجود طلحة ابن عبيد الله؟ فقال سعيد: إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً. والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله به عيشاً رغيداً. فقال عبد الرحمن بن حبيش، وهو حدث: والله لوددت أن هذا الملطاط لك يعني لسعيد وهو ما كان للأكاسرة على جانب الفرات الذي يلي الكوفة[3].

* * *

٨ ـ المشهد

هذا الإسم وإن كان مشتركاً بين بقعة النجف، وبين بقاع أخرى إلّا أنه أصبح خاصاً بالنجف لشهرته وكثرة وقوعه في الكلام. والمشهد، معناه مجمع الخلق ومحفلهم، وكل مكان يشهده الإنسان وتحتشد فيه الجموع، ولما كانت المراقد المقدسة في كل بقعة

(١) ماضي النجف ٩/١. معجم البلدان ١٩٢/٥.
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠٠/٣. النهاية ٣٥٧/٤.
(٣) الكامل في التأريخ ١٣٧/٣ ـ ١٣٨.

وبلدة، مزدحمة بـالوافـدين، ومحتشدة بـالزائـرين من جميع النقـاط والجهات الشـاسعة والقريبة، عرفت بالمشـاهد، فيقـال: مشهد الإمـام أمير المؤمنـين(ع)، ومشهد الإمـام الحسين(ع)، ومشهد الإمام موسى بن جعفر(ع)، ومشهد الإمـام الرضـا(ع)، غير أن إطلاق كلمة المشهـد على النجف أكـثر، وإطلاقـه عليه أظهـر، كما جـاء في الأحاديث الدينية، بحيث كـاد أن يختص به. ولهـذا يقال في النسبـة إليه المشهـدي، كما يقـال: الغروي، والنجفي[1].

وقد كان الإسم هذا (المشهد) متداولاً وشائعاً في التأريخ قديماً وحديثاً، وجاء في أحاديث المحدثـين، والرواة، وقصـائد الشعـراء، وكلمات المؤرخين، والأدبـاء بصورة واضحة. وإليك النصوص الدينية، والتأريخية، والأدبية الناطقة به.

حدثني الحسين بن محمد بن مصعب الزراع، وأخبرني أبو الحسـين زيد بن عـلي ابن محمـد بن يعقوب بن زكـريا بن حـرب الشيباني الخـلال، قراءة عليـه، في رحا أبي أيوب بالكوفة. قال: أخبرني الحسين بن محمد، عن مصعب إجازة عنه، قـال الحسين ابن مصعب الزراع: حدثني محمد بن الحسين بن أبي الخـطاب، قال: حـدثني صفوان ابن علي البزاز، قال: حدثني صفوان الجمال، إنـه قال: خـرجت مع الصـادق(ع) من المدينة أريـد بالكـوفة، فلما جـزنا بـاب الحيرة، قـال يا صفـوان: قلت لبيك، يـا ابن رسول الله، قال: تخرج المطايا إلى القائم وجـد الطريق إلى الغـري. قال صفـوان فلما صرنا إلى قائم الغري، أخرج رشاء معه دقيقاً قد عمل من الكنبار ثم تبعـد من القائم مغرباً خطى كثيرة ثم مد ذلك الرشاء حتى انتهى إلى آخره. فوقف ثم ضرب بيده إلى الأرض فأخرج منها كفاً من تراب فشمه ملياً، ثم أقبل يمشي حتى وقف عـلى موضـع القبر الآن، ثم ضرب بيده المباركة إلى الـتربة فقبض منهـا قبضة ثم شهق شهقـة حتى ظننت أنه فارق الدنيا، فلما أفاق، قال: ها هنا والله مشهد أمير المؤمنين(ع).

ثم خط تخـطيطاً، فقلت: يـا ابن رسول الله مـا منع الأبـرار من أهـل بيتـه من إظهار مشهده؟ قال: حذراً من بني مروان، والخوارج أن تحتال في أذاه.

---

(١) ماضي النجف ١/١١. نقلاً عن مجمع البحرين في شهد، وليس في المجمع ما يشير إلى هذا المعنى.

وذكـر محمد بن المشهـدي، في مزاره أن الصـادق(ع) علم محمـد بن مسلم الثقفي، هذه الزيارة، وقال: إذا أتيت مشهـد أمير المؤمنين، فاغتسل غسل الزيارة والبس أنظف ثيابك(١).

وقال ابن أبي الحديد، عند ترجمته لأبي القاسم علي بن الحسين المغربي: قال أبو جعفر (يحيى بن محمد بن زيد العلوي نقيب البصرة) وكان أبو القاسم المغربي، ينسب في الأزد، ويتعصب لقحطان على عدنان، وللأنصار على قريش... فقد كتب القادر إلى شرف الدولة بإلقاء القبض عليه اتصل الخبر بأبي القاسم قبل وصول الكتاب إلى شرف الدولة، فهرب ليلاً ومعه بعض غلمانه وجارية كان يهواها ويتحظاها، ومضى إلى البطيحة ثم منها إلى الموصل، ثم إلى الشام، ومات في طريقه. فأوصى أن تحمل جثته إلى مشهد علي، فحملت في تابوت ومعها خفراء العرب حتى دفن بالمشهد، بالقرب منه عليه السلام(٢).

وقد عبر عز الدين علي بن محمد بن الأثير، عن النجف في كثير من مواضع تأريخه بالمشهد، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإسم هذا كان متداولاً ومعلوماً عند الأقدمين قال:

- في شوال اشتدت علة عضد الدولة، وهو ما كان يعتاده من الصرع فضعفت قوّته عن دفعه فخنقه فمات منه ثامن شوال ببغداد، وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام فدفن به(٣).

- في هذه السنة (٣٧٩) توفى الملك شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة مستسقياً، وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام فدفن به(٤).

- وكان الوزير أبو الحسن المغربي، قد سار من مشهد علي عليه السلام، إلى العزيز بمصر، وأطمعه في حلب فسير جيشاً(٥).

(١) بحار الأنوار ١٠٠/٢٣٦. فرحة الغري/ ٩٢. موسوعة العتبات ق النجف ١/٨٤.
(٢) شرح إبن أبي الحديد ٦/ ١٤.
(٣) الكامل في التأريخ ٩/١٨.
(٤ - ٥) المصدر السابق ٩/٦١، ٨٩.

ـ وفيها (أي سنة ٤٠٠) مرض أبو محمد بن سهلان، فاشتد مرضه فنذر إن عوفي بنى سوراً على مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، فعوفي فأمر ببناء سور عليه[1].

ـ في هذه السنة (٤٠٣) توفي بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة... وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، فدفن عند أبيه عضد الدولة[2].

ـ وخرج (بدر بن حنسويه) فجلس على تل فثاروا به فقتله طائفة منهم تسمى الجورقان، ونهبوا عسكره، وتركوه وساروا. فنزل الحسين بن مسعود، فرآه ملقى على الأرض فأمر بتجهيزه وحمله إلى مشهد علي عليه السلام، ليدفن فيه ففعل ذلك[3].

ـ وكان (جلال الدولة) يزور الصالحين ويقرب منهم، وزار مرة مشهدي علي، والحسين عليهما السلام. وكان يمشي حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما، نحو فرسخ يفعل ذلك تديناً[4].

ـ وتوفي أسامة بمشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، في رجب سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة[5].

ـ وفي المحرم أيضاً توفي أبو جعفر الطوسي، فقيه الإمامية بمشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[6].

ـ في هذه السنة (٥٣٣) في صفر توفي الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد، معزولاً ببغداد، وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه، ودفن في داره. ثم نقل إلى الكوفة فدفن في مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[7].

ـ وفيها (٦١٠) في جمادى الأولى، توفي معز الدين أبو المعاني سعد بن علي المعروف بابن حديد، الذي كان وزير الخليفة الناصر لدين الله، وكان قد ألزم بيته، ولما توفى حمل تابوته إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة[8].

(١ ـ ٤) المصدر السابق/٩ ٢١٩، ٢٤١، ٢٤٨، ٥١٦.

(٥ ـ ٦) الكامل في التأريخ ١٠/٤٢، ٥٨.

(٧ ـ ٨) المصدر السابق ١١/ ٧٠ وج ١٢/٣٠٢.

ونجد لذة هاتيك العبارات في مطاوي بقية معاجم التأريخ، ولا حاجة إلى التكرار. كما ورد اسم (المشهد) هذا في الأدب العربي، ونجده في قصائد الشعراء، ومنها القصيدة التي قالها أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني الصابي المتوفى ٣٨٤هـ، في مدح عضد الدولة عند زيارته لمرقد الإمام(ع) في النجف ومطلعها قوله:

توجهت نحو المشهد العلم الفرد ... على اليمن والتوفيق والطائر السعد
تزور أمير المؤمنين فيا له ... ويا لك من مجد منيخ على مجد
فلم ير فوق الأرض مثلك زائراً ... ولا تحتها مثل المزور إلى اللحد
مددت إلى كوفان عارض نعمة ... يصوب بلا برق يروع بلا رعد
وتابعت أهليها ندى بشوية ... فرحت إلى فوز وراحوا إلى رفد[1]

ومنها قول علي بن حماد بن عبيد الله بن حماد العدوي العبدي البصري... من شعراء القرن الرابع الهجري:

صلى الله على عليّ ذي العلى ... ما نال طيراً أو علا أغصانا
وسقى المدينة، والبقيع، ومشهدا ... حل الغري الطهر من كوفانا
وسقى قبوراً بالطفوف منيرة ... وسقى قبوراً ضمنت بغدانا
وسقى مقابر (سر من رأى)والذي ... من طوس أصبح ثاوياً نوقانا[2]

ومنها ما قاله صدر الدين السيد علي خان المدني الشيرازي ابن نظام الدين أحمد ابن محمد معصوم بن أحمد نظام الدين ١٠٥٢ ـ ١١٢٠هـ، لما ورد إلى النجف الأشرف مع جمع من حجاج بيت الله الحرام، من قصيدة طويلة مطلعها قوله:

يا صاح هذا المشهد الأقدس ... قرّت به الأعين والأنفس
والنجف الأشرف بانت لنا ... أعلامه والمعهد الأنفس
والقبة البيضاء قد أشرقت ... ينجاب عن لألئها الحندس

(١) يتيمة الدهر ٢/ ٢٩٥.
(٢) مناقب ابن شهرآشوب ١/٣١٨.

حضرة قدس لم ينل فضلها لا المسجد الأقصى ولا المقدس
حلت بمن حل بها رتبة يقصر عنها الفلك الأطلس
تود لو كانت حصا أرضها شهب الدجى والكنس الخنس
وتحسد الأقدام منا على السعي إلى أعتابها الأرؤس
فقف بها والثم ثرى تربها فهي المقام الأطهر الأقدس(١)

كما قال الفقيه الكبير الشاعر النحرير الشيخ إبراهيم بن صادق بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن سليمان المخزومي العاملي الخيامي الطيبي ١٢٢١ ـ ١٢٨٨هـ مؤرخاً عام زيارة محمد علي باشا أمير اللواء إلى النجف بقوله:

ألا قل لندب حوى المكرمات وفوق عروش الفخار استوى
محمد علي العلي المقام عميد النظام أمير اللوا
حثثت ركاب السرى في المسير مجداً بحيث يشاء الهوى
فوافيت مشهد قدس به إمام الأنام علي ثوى
فنلت لدى رمسه ما نويت وللمرء من عمل ما نوى
فداوى الجوى بثراه فذاك لداء الجرائم نعم الدوا
ونعليك فاخلع بأعتابه فإنك منها بوادي طوى(٢)

هذا ومن بيوتات النجف العلمية، نجد أسرة عريقة عرفت ببيت (المشهدي) وهم غصن من أغصان شجرة عربية، وفنن من أفنان دوحة عراقية بارزة، وهم من ربيعة، ومن إحدى فصائلها (الشحمان) الغنية بسمعتها وشأنها.

قطن بعض رجالهم النجف أوائل القرن الثاني عشر الهجري، واشتهر بلقبه (المشهدي) على عهد الشيخ الكبير الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن يحيى بن مطر بن سيف الدين آل كاشف الغطاء ١١٥٦ ـ ١٢٢٨هـ. فإن أحد آبائهم كان يسمى الشيخ إبراهيم، وهو أحد تلامذة الشيخ كاشف الغطاء، وكان يشاركه في درسه كما

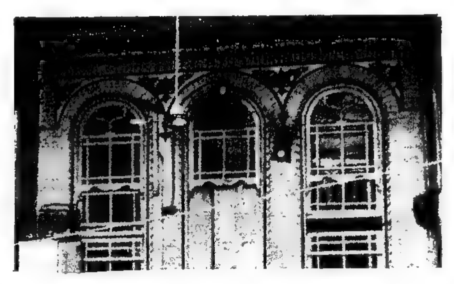
(١) الغدير ١١/ ٣٥٠.
(٢) شعراء الغري ١/١٠٦. ماضي النجف ١/٢٣٢.

يشاركه في اسمه الشيخ ابراهيم العاملي، فلقب الأستاذ تلميذه هذا بالمشهدي، تمييزاً له عن سميه العاملي، فلازمه هذا اللقب ولذريته ومن يمت به.

توقفك آثارهم على مفاخر العرب وعلو مجدهم... يمثلون لك العروبة بأجلى مظاهرها، من الكرم وحسن الخلق، والترحيب بالضيف. تعدد رجال العلم فيهم وأخذوا منه بنصيب وافر. وكانت لهم في محلتهم (البراق) في النجف شأن واعتبار وتقدير واحترام، ولهم فيها دور واسعة كبيرة، وهي محل درسهم وتدريسهم ومأوى ضيوفهم وهي باقية حتى اليوم.

انقرض العلم في عصرنا هذا من هذه الأسرة، ولم يبق فيهم طالب علم، ولا من تزيا بزي أهله، والموجود منهم يتكسب بالمكاسب الدارجة، وبعضهم لقب بغير لقبهم هذا فعرف به واشتهر، حتى لا يعرف أنه من هذه الأسرة (بيت المشهدي) فانطوى لقبهم السابق ضمن لقبهم الحديث.

ونجد تراجم رجالات هذا البيت (المشهدي) في معاجم التراجم، وفيهم الكثير من أعلام الفقه والإجتهاد والورع والتقوى والأدب والشعر[1].



البيت النجفي القديم والروعة في بنائه الفني

(١) أعيان الشيعة ٧/ ٤١٠ و١٧٨/٩ و٢١٧/٤٢. ماضي النجف ٣/ ٣٥١. معارف الرجال ١/ ٢٠، ٨٤، ٨٦. معجم رجال الفكر والأدب في النجف /٤١٤. معجم المؤلفين ٢/ ٦١، ٨/ ٢١٠. نقباء البشر ١/ ١١٧، ٩٨٨.

٩ ـ النجف

يكاد أن لا تعرف تربة بقعة الإمام أمير المؤمنين(ع) باسم، من بين شتى أسمائها إلاّ بالنجف... منذ القدم إلى يومنا هذا، وإن اشتهارها به أظهر من بقية الأسماء السالفة، لذلك كان أكثر استعمالاً ووقوعاً في الأحاديث الدينية، وكلمات اللغويين، والمؤرخين، والرحالين، والشعراء، والأدباء، وعند سواد الناس من الرجال والنساء بصورة عامة، على اختلاف طبقاتهم، ونحلهم، ولغاتهم، وجنسياتهم. حتى أن أكثر المصنفات التي تناولت دراسة النجف، وتبيان تأريخها وجوانبها نجدها مشفعة عناوينها باسم النجف، مع ذكرهم لواحد من أسمائها، أمثال: كتاب شعراء الغري أو النجفيات... وفرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين(ع) في النجف... ومشهد الإمام أو مدينة النجف... إلى غيره من المؤلفات التي يطول بنا الحديث إذا ما توخينا ذكرها ففي كتب الفهارس نماذج مفصلة منها.

وإليك بيان بعض الأحاديث الدينية التي جاءت فيها اسم النجف...

محمد بن علي بن الحسن العلوي في كتاب (فضل الكوفة) بإسناد رفعه إلى عقبة ابن علقمة أبي الجنوب، قال: اشترى أمير المؤمنين(ع) ما بين الخورنق إلى الحيرة إلى الكوفة. وفي حديث ما بين النجف إلى الحيرة إلى الكوفة، من الدهاقين بأربعين ألف درهم وأشهد على شرائه[1].

ابن أبي قرة عن محمد بن عبد الله عن إسحاق بن محمد بن مروان، عن أبيه عن علي بن سيف بن عميرة، عن أبين عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر(ع) قال: كان أبي علي بن الحسين(ع) قد اتخذ منزله من بعد مقتل أبيه الحسين بن علي(ع) بيتاً من شعر، وأقام بالبادية فلبث بها عدة سنين كراهية لمخالطة الناس وملابستهم. وكان يصير من البادية بمقامه إلى العراق زائراً لأبيه وجده(ع). ولا يشعر بذلك من فعله. قال محمد بن علي: فخرج سلام الله عليه متوجهاً إلى العراق لزيارة أمير المؤمنين(ع) وأنا معه وليس معنا ذو روح إلاّ الناقتين. فلما انتهى إلى النجف من بلاد الكوفة،

(١) بحار الأنوار ١٠٠/٢٣١. فرحة الغري /٢٩.

وصار إلى مكان منه فبكى حتى اخضلت لحيته بدموعه[١].

أبو القاسم بن سعيد، عن شمس الدين فخار الموسوي، عن شاذان بن جبرئيل، عن محمد بن القاسم، عن الحسن، عن أبيه محمد بن الحسن، عن المفيد، عن الصدوق، عن ماجيلويه، عن عمه، عن البرقي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن صفوان عن الصادق(ع) قال: سار وأنا معه في القادسية حتى أشرف على النجف، فقال: هو الجبل الذي اعتصم به ابن جدي نوح(ع) فقال: (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء) فأوحى الله عز وجل إليه، أيعتصم بك مني أحد؟ فغار في الأرض وتقطع إلى الشام. فقال (ع): اعدل بنا فعدلت به فلم يزل سائراً حتى أتى الغري، فوقف على القبر، وقال: هذا قبر جدي علي بن أبي طالب(ع)[٢].

حدثنا علي بن أحمد بن محمد رضي الله عنه، قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي، عن موسى بن عمران النخعي، عن عمه الحسن بن يزيد النوفلي، عن علي ابن أبي حمزة، عن أبي نعيم، عن أبي عبد الله(ع)، قال: إن النجف كان جبلاً، وهو الذي قال ابن نوح: (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء) ولم يكن على وجه الأرض جبل أعظم منه، فأوحى الله عز وجل إليه، يا جبل أيعتصم بك مني؟ فتقطع قطعاً قطعاً إلى بلاد الشام، وصار رملاً دقيقاً وصار بعد ذلك بحراً عظيماً. وكان يسمى ذلك البحر (ني) ثم (جف) بعد ذلك، فقيل: ني جف فسمي بنجف. ثم صار الناس بعد ذلك يسمونه نجف، لأنه كان أخف على ألسنتهم[٣].

هذا وإن أكثر الأحاديث الدينية التي وردت في اسم الغري، هي بعينها التي جاءت في إسم النجف... وقد أثبتناها في حقل (الغري) ولا حاجة إلى التكرار المؤدي إلى الملل والإطالة، كما نجده في موسوعة العتبات المقدسة في النجف، بحث (النجف في الحديث) لذلك ننتقل إلى قواميس اللغة، لنقرأ كلمات اللغويين، والمؤرخين في هذا الإسم.

(١) بحار الأنوار ١٠٠/٢٦٦. فرحة الغري /٤٣.
(٢) فرحة الغري/٩٩. بحار الأنوار ١٠٠/٢٨١. كامل الزيارات/٣٥. من لا يحضره الفقيه ٢/٣٥١. وجاء في موسوعة العتبات المقدسة ق النجف ١/٧٤ و٧٥ مكررا بلفظ واحد.
(٣) علل الشرائع ١/٣١ط ١٣٨٥. ماضي النجف ١/٩.

النجف اسم عربي، ومعناه (المنجوف) كالعدد بمعنى المعدود. قال ابن فارس: النون، والجيم، والفاء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على تبسط في شيء مكان أو غيره. والآخر يدل على استخراج شيء. فالأول، النجف مكان مستطيل منقاد، ولا يعلوه الماء، والجمع نجاف. ويقال: هي بطون من الأرض في أسافلها سهولة تنقاد في الأرض، لها أودية تنصب إلى لين من الأرض، ويقال: لابط الكثيب نجفة الأرض. ومن الباب النجيف من السهام العريض، ونجفت السهم بريته. كذلك وأصلحته، وسهم منجوف ونجيف وغار منجوف واسع[1].

قال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: النجف، والنجفة بالتحريك، مكان لا يعلوه الماء مستطيل منقاد، والجمع نجاف[2] وأورد بعد ذلك كبعض ما نقلناه آنفاً.

وقال أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: وفي بطن الوادي نجفة ونجف، وهي مكان مستطيل كالجدار لا يعلوه الماء[3].

وجاء في لسان العرب: النجفة أرض مستديرة مشرفة، والجمع نجف ونجاف.

ابن سيده: النجف، والنجاف شيء يكون في بطن الوادي، شبيه بنجاف الغبيط جنداً، وليس بجد عريض له طول منقاد من بين معوج ومستقيم الماء، وقد يكون في بطن الأرض... والنجفة شبه التل... وقال الليث: النجفة تكون في بطن الوادي، شبه جدار ليس بعريض... ابن الأعرابي: النجفة، المسناة، والنجف التل. قال الأزهري: والنجفة التي بظهر الكوفة، وهي كالمسناة تمنع ماء السيل أن يعلو منازل الكوفة ومقابرها.

وقال الفيروزآبادي: النجف، محركة وبهاء (النجفة) مكان لا يعلوه الماء، مستطيل منقاد، وقد يكون في بطن الوادي، وقد يكون ببطن من الأرض، جمعه نجاف أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها. والنجف محركة، التل، والمسناة،

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة ق النجف ١/٩. المقاييس في اللغة ٥/٣٩٥.
(٢) الصحاح في اللغة ٣/٤٥٨.
(٣) أساس البلاغة ٢/٣٢١.

ومسناة بظاهر الكوفة تمنع ماء السيل أن يعلو مقابرها ومنازلها[١].

وقال المطرزي، في المغرب: النجف بفتحتين كالمسناة بظاهر الكوفة على فرسخين منها، يمنع ماء السيل أن يعلو منازلها ومقابرها. ومنه قول القدوري: كان الأسود إذا حج قصر من النجف وعلقمة من القادسية[٢].

وقال ابن الأثير: وفي الحديث، أي رب قدمني إلى باب الجنة فأكون تحت نجاف الجنة... قيل: هو اسكفة الباب. وقال الأزهري: هو درواندة. يعني أعلاه. والنجفة: شبه التل. وفي حديث عمرو بن العاص، أنه جلس على منجاف السفينة. قيل: هو سكانها الذي تعدل به. سمي به لارتفاعه[٣].

وقال الخوري الشرتوني: النجاف بالكسر مصدر. وفي الأساس على بابه نجاف، وهو ما بنى فوق الباب مشرفاً عليه كنجاف الغار. ونجاف الغار، صخرة ناتئة تشرف عليه. النجف: محركة مكان لا يعلوه الماء مستطيل منقاد، ويكون في بطن الوادي، وقد يكون في بطن من الأرض. والنجفة: محركة النجف، للمكان المذكور والمسناة. ومسناة بظواهر الكوفة، تمنع ماء السيل أن يعلو مقابرها ومنازلها[٤].

وقال ياقوت الحموي: النجف بالتحريك... وهو بظهر الكوفة كالمسناة، تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها. وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه. وقد ذكرته الشعراء في أشعارها فأكثرت[٥].

وقال أبو الفداء الملك المؤيد إسماعيل بن علي. في وصف الحيرة: ـ والحيرة مدينة جاهلية كثيرة الأنهار، وهي عن الكوفة على نحو فرسخ. والحيرة على موضع يقال له النجف، زعم الأوائل أن بحر فارس كان يتصل به وبينها اليوم مسافة بعيدة[٦]

(١) القاموس المحيط ١٩٧/٣.
(٢) مجمع البحرين ١٢٢/٥.
(٣) النهاية في غريب الحديث ٣٦٣/٤ و٢٢/٥.
(٤) أقرب الموارد ١٢٧٥/٢.
(٥) معجم البلدان ٢٧١/٥.
(٦) تقويم البلدان /٢٩٩.

وفذلكة الأقوال أن النجف إنما سمي بهذا الإسم (النجف) لأنه يعني أرضاً عالية معلومة تشبه المسناة، تصد الماء عما جاورها، وينجفها الماء من جوانبها أيام السيول، ولكنه لا يعلوها فهي كالنجد، والسد، وتغلب على شكلها الإستطالة دون الإستدارة التي أشار إليها بعض اللغويين، لأنها ضد الإستطالة ولأن صفة النجف الحالية في استطالة أرضه تؤيد ذلك. وأما الإستدارة التي ظنها بعض اللغويين في (النجف) فهي مستندة إلى استدارة قطعة تكون في النجف اتفاقاً لا دوماً وتسمى (الرحا) جاء في لسان العرب: ـ والرحا قطعة من النجفة مشرفة على ما حولها، تعظم نحو ميل والجمع أرحاء. وقيل: الأرحاء قطع من الأرض غلاظ دون الجبال تستدير وترتفع عما حولها.

ابن الأعرابي: الرحا من الأرض مكان مستدير غليظ يكون بين رمال. قال ابن شميل: الرحا القادرة الضخمة الغليظة وإنما رحّاها استدارتها وغلظها وإشرافها على ما حولها، وأنها أكمة مستديرة مشرفة ولا تنقاد على وجه الأرض ولا تنبت بقلاً ولا شجراً. وقال الكميت:

إذا ما ألقف ذو الرحيين أبدى   محاسنه وأفرخت الوكور

وقال الفيروزآبادي: الرحا، الصدر... وقطعة من النجفة مشرفة تعظم نحو ميل[١].

ومما يؤيد ارتفاع أرض النجف ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني، أن حنيناً الحيري المغنى القائل:

أنا حنين ومنزلي النجف   وما نديمي إلاّ الفتى القصف

لما حج هشام بن عبد الملك سلك طريق الفرات، فوقف له حنين بظهر الكوفة، ومعه عود وزامر له وعليه قلنسوة طويلة، فقال هشام: من هذا؟ فقيل: هذا حنين الحيري. فأمر له فحمل في محل على جمل وعديله زامره، وسير به أمامه وهو

---

(١) قاموس المحيط ٤/٣٣٣. موسوعة العتبات ق النجف ١/١٠ ـ ١١.

يتغنى، فلم يزل هشام يستعيده حتى نزل من النجف فأمر له بمائتي دينار[١] فقوله: (حتى نزل من النجف) يدل على أنه نزل من أرض عالية أو مكان مرتفع كائناً ارتفاعه ما كان.

وسميت هذه الأرض المتعادية التي منها النجف (النجاف) وكأنه جمع النجفة، وهي التي تلي الصحراء ويقابلها مما يلي الفرات (الملطاط) كما أسلفنا القول عنه في (اللسان) من أسماء النجف.

وعند الفتح الإسلامي، كانت ساحة النجف مأهولة بالعرب وهم أهل زراعة ووقعت عليها عدة معارك تأريخية مهمة. منها ما كان عند فتح الحيرة سنة ٢٠ هـ فقد نزلها خالد بن الوليد، وكانت معسكراً له ووقعت بينه وبين أهل الحيرة مناوشات كثيرة، قتل بعض المسلمين في النجف. فقال القعقاع بن عمرو[٢] يذكر القتلى في النجف:

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة ... وأخرى بأثباج النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا ... وبالثنى قرنى قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كان عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا ... غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا ... إلى الريف من أرض الغريب المقانف[٣]

وقال الشيخ كمال الدين الدميري: أن خالد بن الوليد، لما تحصن أهل الحيرة بالقصر الأبيض وغيره من قصورهم، نزل بالنجف وأرسل إليهم أن ابعثوا إلي رجلاً من عقلائكم، فأرسلوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة

(١) الأغاني ٢/١٢٠. ماضي النجف ١/٦.
(٢) القعقاع بن عمرو التميمي الجرمي. كان من أشجع الناس وأعظمهم بلاءً. شهد مع أمير المؤمنين(ع) الجمل وغيرها من حروبه. سكن الكوفة ومات بها. أصحاب ورواة امير المؤمنين(خ).
(٣) تأريخ الطبري ٣/١٥ حوادث سنة ١٢هـ. ماضي النجف ١/١٨.

الغساني، وكان من المعمرين، عمر أكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة، فقاوله المقالة المشهورة[١].

ونزلها عصمة بن عبد الله الضبي (أحد قواد خالد بن الوليد) سنة ١٢هـ، عند وقعة البويب وهو موضع الكوفة اليوم[٢].

وأغار عليها سواد بن مالك التميمي، واستاق من ماشية العرب النازلين بها ثلاثمائة دابة، من بين بغل، وحمار وثور وأوقرها سمكاً، وصبح العسكر فقسمه بين الناس[٣].

والذي يمكن القول بصراحة أن النجف كانت ساحة حرب يتبادل النزول بها المسلمون والفرس. قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٤: خلال أمر القادسية (ولما نزل رستم بالنجف رأى كأن ملكاً نزل من السماء ومعه النبي ﷺ وعمر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبي ﷺ فدفعه النبي ﷺ إلى عمر فأصبح رستم حزيناً.

وأرسل سعد السرايا، ورستم بالنجف، والجالينوس بين النجف والسيلحين، فطافت في السواد فبعث سواداً وحميضة في مائة مائة فأغاروا على النهرين[٤].

إلى غيره من النصوص التأريخية الدالة على أن النجف وساحتها، كانت منذ القدم مأهولة بالعرب وهم أهل زراعة ومواشي، وقد وقعت على أرضها عدة معارك دامية مهمة.

هذا أما القول من أن النجف كان قريباً من البحر، فقد ذكر ابن الدبيثي[٥] في

(١) حياة الحيوان ٢٧٧/١.
(٢) الكامل في التاريخ ٣٨٤/٢.
(٣) المصدر السابق ٤٥٨/٢.
(٤) نفس المصدر ٤٦٠/٢.
(٥) أبو عبدالله محمد بن سعيد بن يحيى بن علي بن حجاج الدبيثي الواسطي الشافعي ٥٥٨ - ٦٣٧هـ محدث حافظ مؤرخ فقيه له خبرة بالعربية والأدب والشعر.
تذكرة الحفاظ ١٩٩/٤. شذرات الذهب ١٨٥/٥. طبقات السبكي ٢٦/٥. طبقات القراء ١٤٥/٢. مرآة الجنان ٩٥/٤.

تأريخه أن عبد الجبار بن معية العلوي، قال: خرج قوم من أهل الكوفة يطلبون الأحجار الغروية يجمعونها لأيام الزيارات والمعيشة بها، وبالكوفة من يعمل ذلك إلى اليوم، وأبعدوا في الطلب إلى النجف وساروا فيه حتى خافوا التيه فوجدوا ساجة كأنها سكان مركب عتيقة، وإذا عليها كتابة فجاؤوا بها إلى الكوفة فقرأناها، فإذا عليها مكتوب ـ سبحان مجري القوارب، وخالق الكواكب، المبتلي بالشدة امتحاناً، والمجازي بالإحسان إحساناً، ركبت في البحر في طلب الغنى، ففاتني الغنى وكسر بي، فأفلت على هذه الساجة، وقاسيت أهوال البحر وأمواجه، ومكثت عليها سبعة أيام ثم ضعفت عن مسكها فكتبت قصتي بمدية كانت معي في خريطتي فرحم الله عبداً، وقعت هذه الساجة إليه فبكى لي وامتنع عن مثل حالي(١)

وعلى ذكر قرب النجف من البحر، ودعوى صحة قصة الفريق المذكور ينبغي توجيه ذلك أو نفيه، فكيف كان البحر يبلغ النجف أو يتصل بأرضه المطمئنة. وفي أخبار الحيرة في صدر الإسلام ما يؤيد وجود البحر هناك، منها ما ذكره الشريف المرتضى في التحاور الواقع بين خالد بن الوليد، وعبد المسيح بن بقيلة الغساني. قال له خالد: كم أتى لك؟ قال: ستون وثلاثمائة سنة. قال: فما أدركت؟ قال: أدركت سفن البحر ترفأ في هذا الجرف، ورأيت المرأة تخرج من الحيرة، وتضع مكتلها على رأسها لا تزود إلّا رغيفاً واحداً حتى تأتي الشام. ثم قد أصبحت خراباً يباباً، وذلك دأب الله في العباد والبلاد(٢).

قال ابن واضح اليعقوبي، في الكلام على الكوفة: ـ والحيرة منها على ثلاثة أميال، والحيرة على النجف، والنجف كان ساحل بحر الملح، وكان في قديم الدهر يبلغ الحيرة وهي منازل آل بقيلة وغيرهم(٣).

وأريد بالبحر أحياناً الفرات نفسه. جاء في لسان العرب مادة (بحر) وقال عدي ابن زيد:

---

(١) الروض الانف ٣١٩/٢.
(٢) أمالي السيد المرتضى ٢٦١/١. ط ١٣٧٣هـ.
(٣) البلدان /٧٣ط النجف.

وتـذكـر ربّ الخـورنـق إذ أشر ف يـومـاً ولـلـهـوى تـذكـير
سرّه مـالـه وكـثرة مـا يمـ لك والبحر معرضاً والسدير

أراد بالبحر ها هنا الفرات، لأن رب الخورنق كان يشرف على الفرات. كما أن ياقوت الحموي في كلامه على الحيرة قال: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا أن بحر فارس كان يتصل بـه[1].

وقال المسعودي، عند حديثه عن (نهر الفرات): وقد كان الفرات الأكثر من مائة ينتهي إلى بلاد الحيرة، ونهرها بين إلى هذا الوقت، وهو يعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم، وهي وقعة القادسية فيصب في البحر الحبشي، وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت تتقدم هناك سفن الصين، والهند ترد إلى ملوك الحيرة. وقد ذكرنا سلام عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني، حين خاطب خالد بن الوليد، في أيام أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، حين قال له ما تذكر؟ قال: أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون، فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر براً فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة. ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا[2].

كما إن إسحاق بن إبراهيم الموصلي ذكر البحر هذا في قصيدته بقوله:

لم ينزل الناس في سهل ولا جبل أصفى هواء ولا أغذى من النجف
حفت ببر وبحر في جوانبها فالبر في طرف والبحر في طرف
وما يزال نسيم من يمانية يأتيك منها برياً روضة أنف[3]

وقد وصف (المستر بارلو) هذا القسم من نهر الفرات كما شاهده في سنة ١٨٨٩م ١٣٠٦هـ فقال: إن النهر المسمى نهر الهندية يجري في الجهة اليمنى من الفرات، وهو يحمل نصف مياه الفرات فيترك مدينة كربلاء على جهته الغربية،

(١) معجم البلدان ٢/٣٢٨.
(٢) مروج الذهب ١/١٠٣.
(٣) معجم الأدباء ٦/٣٠.

وأطلال بابل في الجهة الشرقية، ثم يصل إلى مدينة النجف فيصب هناك في بحيرة تسمى (بحر النجف) يبلغ طولها ٦٠ ميلاً، وعرضها ٣٠ ميلاً.

والمياه بعد أن تتجمع في بحر النجف تتغلب عليها المواد المعدنية، وتغدو مياهها كمياه البحر مالحة وغير صالحة للإفادة منها، ولكن هذا البحر كان خير طريق للمواصلات بين النجف، وسائر الجهات العراقية، بل وحتى بين النجف وخارج العراق. فقد ذكر (المستر بارلو) أن أكثر الزائرين الذين يقدمون من الهند لزيارة الأماكن المقدسة، في كربلاء، والنجف، كانوا يسلكون طريق الفرات (فالعطشان) فشط (الشنافية) وإن سفناً كثيرة ذات حمولة خمسين طناً، تمر من هذا الطريق النهري الذي ينتهي بالنجف.

ومن المحاولات الأخيرة التي جرت في سد تلك الفتحات النهرية التي تتسرب منها مياه الفرات إلى بحر النجف محاولة وقعت سنة ١٣٠٥/ ١٨٨٧ وقد تم بها إحكام السدود، وانقطاع المياه عن بحر النجف. وتحولت من هناك مراسي السفن إلى الكوفة التي أطلق عليها اسم (شريعة الكوفة) لهذا السبب.

ولم تمر بضع سنوات حتى تدفقت المياه مرة أخرى من جانب (القرنة) وكانت أراضي البحر الجاف هذا قد استصلحت وزرعت، وأنتجت عدداً كبيراً من النخيل والأثمار، وسدت حاجة النجف من الخضر فغمرها البحر، وقضى على جانب كبير من مزروعاتها، الأمر الذي دعا إلى مضاعفة الجهود لإحكام السدود في تلك المواضع من نهر الفرات. ومنذ أكثر من أربعين سنة، وبحر النجف يجف نهائياً بسبب تقدم الفن الهندسي، ومعالجة السدود معالجة فنية[1].

ومهما يكن من أمر فإن الشواهد التأريخية، تدل على أن النجف كان قريباً من البحر، وهناك شواهد أخرى أيضاً يجدها القارىء في كتب التأريخ.

هذا واسم النجف جاء كثيراً ما في الأدب العربي، قديماً وحديثاً، وذكره الشعراء في قصائدهم بصورة وافرة لا سبيل إلى إحصائها، ولا طريق إلى جمعها، غير

---

(١) موسوعة العتبات ق النجف ١/ ١٥ ـ ١٦.

أننا نكتفي بذكر بعض الشواهد على سبيل المثال، لا على نهج الانتفاء والاختيار، وذلك من شعر المتقدمين فحسب.

قال أبو الحسن علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد الشهيد العلوي الحماني المتوفى ٢٦٠هـ:

فيا أسفي على النجف المغرى وأودية منورة الأقاحي
وما بسط الخورنق من رياض مفجرة بأفنية فساح
ووا أسفي على القناص تغدو خرائطها على مجرى الوشاح[1]

وقال بعض الشعراء:

تسح سحائب الرضوان سحاً كجود يديه ينسجم انسجاما
ولا زالت رواة المزن تهدي إلى النجف التحية والسلاما[2]

وقال أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج البغدادي النيلي المتوفى ٣٩١هـ في مطلع قصيدته الفائية:

يا صاحب القبة البيضاء في النجف من زار قبرك واستشفى لديك شفي
زوروا أبا الحسن الهادي لعلكم تحظون بالأجر والإقبال والزلف
زوروا لمن تسمع النجوى لديه فمن يزره بالقبر ملهوفاً لديه كفي
إذا وصلت فأحرم قبل تدخله ملبياً واسع سعياً حوله وطف
حتى إذا طفت سبعاً حول قبته تأمل الباب تلقا وجهه فقف[3]

وذُكره أبو الحسين محمد بن القاسم المعروف بمان الموسوس البغدادي، وكان شاعراً لين الشعر رقيقه لم يقل شيئاً إلا في الغزل في قصيدة أولها قوله:

أقفر مغنى الديار بالنجف وحلت عما عهدت من لطف
طويت عنها الرضى مذممة لما انطوى غض عيشها الأنف

(١) ماضي النجف ١/٣١.
(٢) الفصول المهمة /١٣١.
(٣) الغدير ٤/٨٨.

حللت عن سكرة الصبابة من ... خوف إلهي بمعرك قذف
سئمت ورد الصبا فقد يست ... منى بنات الخدود والخزف
سلوت عن نهد نسبن إلى ... حسن قوام واللحظ في وطف
يددن حبل الصبا لمن ألف ... رجلاه فيه المجون والدنف(١)

وقال أبو دلامة زند بن الجون الكوفي، المتوفى سنة ١٦١هـ، مراسلاً العباس بن المنصور العباسي من مطلع قصيدة له:

قف بالديار وأي الدهر لم تقف ... على المنازل بين الظهر، والنجف
وما وقوفك في أطلال منزله ... لولا الذي استدرجت من قلبك الكلف
إن كنت أصبحت مشغوفاً بساكنها ... فلا وربّك لا تشفيك من شغف
دع ذا وقل في الذي قد فاز من مضر ... بالمكرمات وعزم غير مقترف(٢)

١٠ ـ وادي السلام

من أسماء النجف المشهورة، هذا الإسم الذي ورد في بعض الأحاديث الدينية، وعلى لسان بعض الأئمة عليهم السلام، وقد اختصت هذه البقعة المقدسة بفضل الدفن فيها، والتختم بحصبائها، وجوارها المقدس. وثبت لها مزية على سائر بقاع الأئمة(ع) من رفع عذاب القبر عمن دفن بها وعدم سؤال منكر، ونكير في البرزخ، وأنها محشر أرواح المؤمنين. . . وطار صيتها في آفاق الشيعة في حياة أمير المؤمنين(ع)، وبعد وفاته أخذت الشيعة باختلاف فرقها، تقبر موتاها بتلك التربة الطاهرة، قبل أن يقبر بها مشرفها(ع) وتنقلهم إليها من الأقطار النائية، رغم وعثاء السفر ومشقة الطريق، ومؤونة النقل، فهم مع هذه المشاق والمتاعب يتفانون في نقل موتاهم إليها طمعاً في خلاصهم من العذاب ورجاء لشفاعته (ع) لهم.

لذلك يمكن القول بصراحة أن وادي السلام، من أكبر وأوسع مقابر العالم، وأن النجف بمجموعها مقابر ومدافن، وسراديب البيوتات القديمة وغرفها مكتظة

(١) الأغاني ٢٠/٨٤ والقصيدة ١٢ بيتاً. ماضي النجف ١/٣٢.
(٢) الأغاني ٩/١٣٦.

بالأموات، وقد حدث هذا خلال محاصرة الروم للنجف سنة ١٠٣٢هـ، حين تحصن أهلها داخل البلد، وأغلقوا الأبواب ومنعوا من الدخول والخروج، أخذت الناس تقبر موتاهم في بيوتهم، وكذلك خلال الحوادث الدامية التي اجتازت النجف في القرون الأربعة الأخيرة[١].

وقد ورد عن بعض الأئمة(ع) أنه ما من مؤمن يموت في شرق الأرض وغربها إلا قيل لروحه الحقي بوادي السلام. قيل له(ع): أين وادي السلام؟ قال: هو ظهر الكوفة كأني بهم حلق حلق كثيرة يتحدثون على منابر من نور[٢]. وفي الحديث عن أمير المؤمنين(ع) وادي السلام، وأنها البقعة من جنة عدن[٣].

علي بن محمد، عن علي بن الحسن، عن الحسين بن راشد، عن المرتجل بن معمر، عن ذريح المحاربي، عن عباية الأسدي، عن حبة العرني، قال: خرجت مع أمير المؤمنين إلى الظهر فوقف بوادي السلام، كأنه مخاطب لأقوام فقمت بقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت، ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولاً، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت وجمعت ردائي، فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام، فراحة ساعة ثم طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال: يا حبة إن هو إلاّ محادثة مؤمن أو مؤانسته، قال: قلت يا أمير المؤمنين وأنهم لكذلك؟ قال: نعم لو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً محتبين يتحادثون. فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: أرواح، وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا قيل لروحه الحقي بوادي السلام[٤].

وبإسناده عن أحمد بن عمر، رفعه عن أبي عبد الله(ع) قال: قلت له إن أخي ببغداد، وأخاف أن يموت بها، فقال: ما تبالي حيثما مات. أما إنه لا يبقى مؤمن في شرق الأرض وغربها، إلاّ حشر الله روحه إلى وادي السلام. قال له: وأين وادي السلام؟ قال: ظهر الكوفة[٥].

---

(١) ماضي النجف ٣١٩/١ ـ ٣٤٠.
(٢) ماضي النجف ١٥/١. تحفة العالم ٢٥٦/١.
(٣) بحار الأنوار ٢٣٤/١٠٠.
(٤ ـ ٥) بحار الأنوار ٢٣٤/١٠٠. تحفة العالم ٢٥٧/١.

إن الأخبار هذه، هي التي دعت الشيعة إلى حمل موتاهم من كل فج عميق وواد سحيق إلى النجف، حتى صار ذلك من أظهر شعائر الإمامية، وأخص ما يعرفون به، وأصبح وادي السلام كمدينة عامرة تحتوي على المباني العالية، والغرف المزدهرة، بأنواع الأحجار القاشانية إلى جانب مختلف الأوراد والأزاهر، وما يروق الناظر ويستنشق منها النسيم العاطر. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طيب تربتها، لأننا لم نجد فيها الوحشة والإنقباض، وإنما هي من أطيب المنتزهات لأهالي النجف. وإلى هذا المعنى يشير العلامة الشاعر الشيخ علي الشرقي المتوفى ١٣٨٤هـ في قصيدته (وادي السلام) وستوافيك في آخر كتاب (وادي السلام).

ومن الأحاديث التي جاءت بخصوص (وادي السلام) ما عن المفضل، قال: قلت لأبي عبد الله(ع) أرأيت قول الله: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ ـ ما هذا التنور؟ وأين كان موضعه؟ وكيف كان؟ فقال: كان التنور حيث وصفت لك، فقلت: فكان بدو خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال: نعم إن الله أحب أن يرى قوم نوح الآية. ثم إن الله بعد أن أرسل عليهم مطراً يفيض فيضاً، وفاض الفرات أيضاً والعيون كلهن فيضاً، فغرقهم الله وأنجا نوحاً ومن معه في السفينة. فقلت له: فكم لبث نوح(ع) ومن معه في السفينة حتى نضب الماء، وخرجوا منها؟ فقال: لبثوا فيها سبعة أيام ولياليها. وطافت بالبيت ثم استوى على الجودي وهو فرات الكوفة.

فقلت له: إن مسجد الكوفة لقديم؟ فقال: نعم وهو مصلى الأنبياء، ولقد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث انطلق به جبرائيل على البراق، فلما انتهى به إلى وادي السلام، وهو ظهر الكوفة، وهو يريد بيت المقدس قال له: يا محمد هذا مسجد أبيك آدم، ومصلى الأنبياء، فانزل فصل فيه فنزل رسول الله، فصلى ثم انطلق به إلى بيت المقدس، فصلى ثم إن جبرائيل(ع) عرج به إلى السماء[١].

وعن أبي عبد الله جعفر بن محمد الحميري، قال: حدثني أحمد بن جعفر، قال: حدثني علي بن محمد، يرفعه إلى أمير المؤمنين في صفة القائم، كأنني به قد عبر من وادي السلام، إلى مسجد السهلة، على فرس محجل له شمراخ يزهو ويدعو[٢].

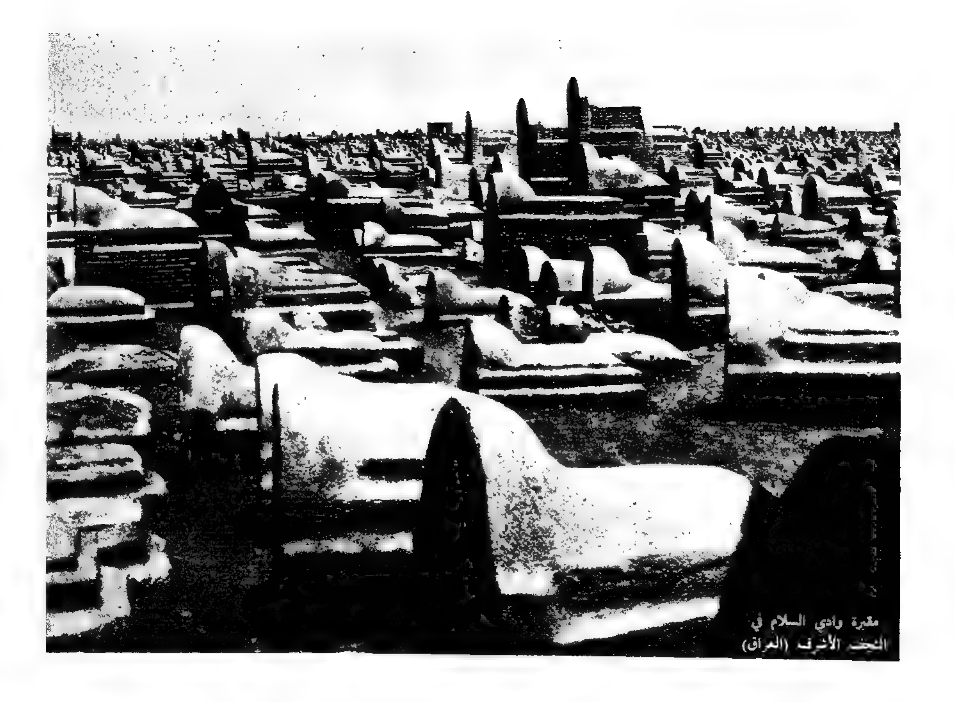
---

(١) بحار الأنوار ١١/٣٣٣. تفسير البرهان ٢/٢٢١.
(٢) دلائل الإمامة /٢٤٤ط ١٣٨٣هـ.

هذا وقد أفرد صديقنا الأستاذ محسن بن الشيخ عبد الصاحب المظفر النجفي، كتاباً خاصاً حول وادي السلام، وقد طبع في ١٩٦٤م تناول فيه دراسة وادي السلام، من الناحية التأريخية، والدينية، والأدبية، وأتى بمواضيع قيمة نادرة تغنينا عن الإطالة هنا.



مشهد سفينة نوح كما يبدو من الداخل وعلى اليسار مدخل للمحراب الأثري القديم



مقبرة وادي السلام في
النجف الأشرف (العراق)



وادي السلام

محسن عبد الصاحب المظفر

إن الخوف بهذا المعنى، مقصور على الإنسان فقط، يقول شبنهاور في هذا المجال: «الخوف من الموت هو رأس الحكمة وخاتمة كل عقيدةٍ دينية». وللخوف حدود قد تسلك بالإنسان طريقاً يحفظه ويحفظ من حوله.

كفانا من هذه الحياة ما نستمتع به، وكفاها ما خدعتنا!، كفانا متعة وكفاها خدعة. . . .

لقد تنفسنا فيها نقي الهواء، وشربنا عذب الماء، وأكلنا لذيذ الطعام وأطايبه، وأنشدنا حتى مللنا، . . ألهينا أسماعنا بشجي الألحان. . ولبسنا من الثياب أفخرها، وافترشنا من الأرض أنظرها وأخضرها، بين ورد شذي، وعطر ندي. . ونخل باسق، تلفّنا ظلاله. . على ضفاف الأنهار. . نصغي أسماعنا إلى خرير الماء. . ونغم الطيور. . لقد أخذنا من كل طيبات الحياة ما بُذل منها وما ندر. ولكننا ـ وبكل أسف ـ لم نأخذ منها الدروس والعبر ـ أخذنا جانب النعيم الزائل فيها، وتركنا الاعتبار بما ينفعنا في دار البقاء منها.

والسؤال الآن أوجهه إليك. . إلى كل إنسان. ربما أنت لم تستوعب سؤالي لأنك لا زلت رافلاً بالنعمة. . نعمة الحياة التي اتخذتها طريقاً لإشباع ملذاتك وشهواتك ونزواتك.

أما الذين ماتوا. . الذين كرست نفسي هذه الفترة الوجيزة للبحث عنهم هنا وهناك بين المقابر واللحود والشواهد. . أسألهم. . أقول لهم ـ أقول للإنسان الذي لم يأخذ من دنياه هذه سوى كفنه وحنوطه ـ إذا قدّر له ذلك ـ ولم يبق من آثارها إلا شاهد قبر أو صخرةٍ أو كومة تراب، أقول له: يا بن آدم، أيها الإنسان. . . الجدث الماكث في أطباق الثرى. . قل لي بربك هل دامت لك النعمة في دنياك. . يا أرباب القصور والدور. . . أجيبوني أين أنتم. . هل تسمعون صوتي. . أقول لكم: أين الترف الذي عشتم فيه. . أين البهجة التي لفّتكم في قصوركم ودوركم وأبراجكم. . هل أنتم لا زلتم مسرورين مبتهجين. . ما لكم لا تجيبون أجل. . إنكم لا تستطيعون الجواب، ولكن قبوركم تجيبني عنكم فتقول:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم   غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبروا أين الأسرّة والتيجانُ والحُلَل
أين الوجوه التي كانت منعمةً؟ من دونها تُضربُ الأستارُ والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوهُ عليها الدود يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا وأصبحوا بعد طولِ الأكل قد أُكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحتْ منازلهم قفراً معطلةً وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا[1]

نعم، إن الإنسان لا محالة زائل، وإن القبر هو مقره الأخير مهما زهت بعينيه الحياة.. بل كل ما في الكون إلى زوال، وصدق الله عز وجل حيث يقول: ﴿كلُّ من عليها فان ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام﴾.

ولقد أبدع الشيخ صالح الحريري في هذا المجال حيث يقول:

كل يوم لك رزق أي فرخ لا يزق
فلكم قبلك عاشت أمم شتى وخلق
مرت الدنيا عليهم مثلما قد مر برق

... إلى قوله:

سوف تأتيك المنايا بغتة فالموت حق
أيها المغرور رفقا ليس بعد الموت رفق
لك في أنفك يوماً من تراب الأرض نشق
وقصارى الخلق يوماً لهم لحد يشق[2]

ولقد نبه الخالق الكريم جل وعلا أولئك الذين غرتهم الحياة الدنيا بملذاتها بقوله: ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾[3] الآية الكريمة. فالحياة دار فناء والآخرة

(١) منسوب للإمام علي الهادي (ع) فيمجلس المتوكل الأنوار البهية ص ٢٤٤ وما بعدها.
(٢) شعراء الغري ٤/٣٠١.
(٣) سورة التكاثر، الآية (١،٢).

دار خلود وبقاء، وإذا كان لا محيص لنا عن القبر وإننا لا بد ساكنوه، فلنصفه إذن ولنمجد ذكراه بمقال نعد له، فقد قال عنه الشاعر:

عدل القبر بيننا في حظوظ ميزتنا والقبر أعدل حاكم
حل فيه على الضعيف أخو البطـ ش، وساوى الفقير رب الدراهم
وتخلى عن سيفه كل غاز وسلا عن حبيبه كل هائم
الرفات السحيق فيه ينادي: اذكروا الموت. ما من الموت عاصم
ههنا المالكون للدور ملك وعظام الورى عظام رمائم
والوجوه الصباح شاهت كأن لم تك بالأمس ناضرات نواعم

كيف يواري الناس أمواتهم

ألا، تجد أن الإنسان تفنن في هذا المجال، واختلف في كيفية مواراة سوأة أخيه، فالإنسان الأول تعلم من الغراب حين شاهده يبحث في الأرض ليخفي جثة غراب آخر. لقد حذا حذوه حين أدرك نفع هذه العملية في تخليص البشرية مما يتساقط منها من جهة وصون كرامة الجسد من جهة ثانية، جاء في الكتاب الكريم: **﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه، قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي، فأصبح من النادمين﴾**[1].

قالوا: هابيل أو ميت من الناس، وكان قتله أول جريمة في تاريخ الإنسان وتم دفنه ومواراته بعد التعلم من الغراب الذي أرسله الله ليعلم الإنسان عندما عجز عن مواراة سوأة أخيه.

وهناك جماعات بشرية نحت اليوم منحى آخر في مواراة موتاهم، فالصينيون يحرقون موتاهم بالنار، وأخيراً استخدموا الكهرباء، وهم يجمعون رماد ميتهم ليضعونه في قنينة صغيرة، يعلقونها على الجدار تحت صورة المتوفى المعلقة أيضاً. وهم قد صنعوا

(١) سورة المائدة: الآية ٢٩ ـ ٣١.

مواقد لحرق الجثث كما نصنع نحن مغاسل لتغسيلها، وبعض الهنود يذرون رماد ميتهم في ماء نهر الكنج المقدس.

أما قبائل الدوجون في أفريقيا، فإن مراسيم الجنازة عندهم معقدة وطويلة، تبدأ بزيارة رئيس السحرة، ثم تبدأ التراتيل بلغة سحرية، ثم حمل الجثمان يمنة ويسرة، وتستمر مراسيم الجنازة عدة أيام، وذلك لإعداد الثياب لها من الألياف، وتعقد حلقات الرقص والترتيلات الدينية وينصب محراب لكل ميت في مسكن الأسرة الأصلي، ويتولى إدارته كبير الأسرة. وهم يكرمون جثث موتاهم لأنها تشع عليهم قوى روحية مقابل التكريم(١).

أما البانتو في أفريقيا فقد أجمع رأيهم على أن يأكلوا لحم الميت ليلة مأتمه، ثم يثنوا بحرق عظامه لينتفعوا بقواه الحيوية بإدماج لحمه في أبدانهم. وفي الوقت نفسه يكونوا قد محوه من الوجود بإحالته رماداً، وضمنوا استحالة عودته إليهم لينغص عليهم حياتهم(٢).

أما الشنتويون والبوذيون في اليابان، وغيرها، فإنهم يضعون الميت في حوض من زهر، ثم يلف في قماش أبيض، ثم يشيع إلى أن توضع الجثة على المحراب، ويمر أمامها المشيعون فرداً فرداً. ثم توضع الجثة في التنور حتى تصير رماداً. وعقيدة الياباني في الموت هي النهاية الطبيعية للحياة لا يعقبها ثواب ولا عقاب(٣).

وبعض عبدة النار لهم منهج خاص في مواراة سوأة ميتهم، إذ أنهم يتركون جثث موتاهم تأكلها العقبان في موضع خاص، لا شك بعيد عن مكان سكناهم.

أما اليهود والمسيحيون فهم يدفنون موتاهم في طيات الأرض كالمسلمين، غير أن وضعهم لميتهم في قبره يختلف أسلوبه عما اقتفاه المسلمون في جعل وجه المتوفى شطر بيت الله الحرام. واختلفوا أيضاً عن المسلمين في مجال إعداد قبورهم وتنسيقها، حتى غدت مقابرهم بسبب عنايتهم، تشبه إلى حد ما الحدائق العامة والمتنزهات الجميلة. وطريقتهم أنهم يضعون صخرة على القبر، وغالباً تلصق عليها صورة المتوفى، وحولها ألوان من

(١) راجع كتاب الديانات في أفريقيا السوداء.
(٢) نفس المصدر.
(٣) جولة في ربوع آسيا ـ محمد ثابت ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٦.

الزهر، والشجر، شاهدت مقابرهم في بغداد فوجدتها آية في التنسيق الجميل والتنظيم البديع.

وأنا لا أريد أن أطيل الحديث في هذا الباب من الكتابة لأنه قد صارت للناس عقائد وعادات عدّة في إعداد أمواتهم يوم توديعهم إلى مثواهم الأخير، فكل له طقوس وتقاليد بعضها لا يخرج عن كونه عادات متوازنة، وبعضها يمت إلى الدين بصلة. والراغب في الاستزادة من هذا الموضوع إذا أراد التتبع والبحث فإنه سوف يجد أن أساليب إعداد لوازم الأموات عند البشر متفاوتة، وكذلك أساليب التخلص من الجثث ويمكنه إملاء كتاب كامل في ذلك.

وبنو الإنسان أعدوا من الأرض قطعاً دعوها مقابر، واتسعت المقابر، وتحدث الناس عن أوسعها، قالوا في الصين مقبرة واسعة، ونشرت المجلات العربية عن بعض المقابر إذ ذكرت مجلة العربي في أول عدد صدر منها عن مقبرة في البحرين تضم مليون قبر في الصحراء تقع جنوب البحرين، وعدت تلك المقبرة بأنها أكبر مقبرة في الشرق العربي، كان عدد القبور مليوناً وأخذ الرقم يتضاءل إلى الآلاف وفي هذه المقبرة مثوى حضارات كانت فيما مضت أزهر حضارات من عهد الأشوريين والبابليين والكلدانيين إلى الفينيقيين إلى اليونان إلى الفرس وأخيراً إلى العرب. وتذكر المجلة أن هذه القبور قد حيرت خبراء الآثار في العالم... إنها عبارة عن تلال رملية صغيرة، ارتفاعها يتراوح بين اثني عشر قدماً وأربعين قدماً، كل تل منها يختلف عن غيره، وبعض هذه التلال مبني من طابقين على هيئة بناية مشيدة من كتل مرصوصة رصاً منتظماً، وإن معظم هذه القبور نبشت وسرقت محتوياتها.

وفي جنوة من إيطاليا مقبرة واسعة جداً أخبرني عنها بعض أصدقائي الذين شاهدوها، بأنها تحفة رائعة، كأن قبورها منحوتة نحتاً، وأهلها يعيدون بناء ما أوشك من قبورها على الأنهار، وقد شجروها، وزرعوا فيها الأزهار، وقالوا عنها: أنها تعد أوسع مقابر العالم قاطبة، وأجودها تنسيقاً وتنظيماً وجمالاً.

وفي أصفهان من مدن إيران مقبرة إسمها «تخت فولاد» هي آية في الروعة والتنسيق والتنظيم، تضم عدداً كبيراً من قبور الشيعة، وتعد من آثار المدينة الشاخصة،

التي لا بد لكل زائر يؤم المدينة من زيارتها، والتطلع على نظامها والتزود بالحكمة من سكونها والاعتبار بسكانها.

أما مقبرة وادي السلام التي هي مادة بحثنا فإنها ربما احتلت المرتبة الثانية بين مقابر العالم من حيث السعة والتنظيم، وسوف نتحدث عنها ما أمكننا الحديث مبتدئين بالتمهيد عنها ذاكرين ما يجري خلالها من أعمال وعادات.

إن هذه المقبرة «مقبرة وادي السلام» تقع في مدينة النجف الأشرف، المدينة العامرة التي تحيط بمشرفها الإمام علي(ع) فهي مدينة مشرفة تضم بين جوانحها الجسم الزكي الطاهر جسم أمير المؤمنين علي عليه السلام، ولهذا احتلت مكانة قدسية ودينية كبرى في نفوس المسلمين بعد دفن الإمام علي(ع) فيها توالى الدين فيها وجلبت الأجساد لترقد إلى جواره من جهات قريبة إلى النجف، ودفنت أيضاً أجساد الذين سكنوا إلى جوار الإمام(ع). وأخيراً أخذت تؤم النجف من كل حدب وصوب حتى من الأقاصي الإسلامية أجساد تتبعها أجساد لتنال من لدن الإمام شفاعة يوم حساب.

وقد تسألني أخيراً؛ ما الذي حدا بك أن تكتب في هذا الموضوع؟ والجواب هو أنني لم أجد موضوعاً مستقلاً قد كتب عن المقبرة، غير أن هناك فقرات صغيرة قصيرة متناثرة هنا وهناك في كتب التاريخ، مع العلم أن للمقبرة هذه على سعتها أثراً بارزاً بالغ الأهمية في اقتصاديات المدينة ومكانتها الدينية، فراود ذهني أن أجوب بين أكنافها تارة وبين طيات الكتب تارة أخرى، وأسطر موضوعاً علّه يفي بالمراد، فبدأت باهتمام مفصحاً عن أثر صمت المقبرة وهدوئها وما يحدث فيها من عمليات دفن وعادات تجري عند وبعد توديع الموتى، وما يجري لتخفيف وحشتهم وغربتهم، وقلت أن المقبرة في هدوئها وصمتها حكمة بالغة، وذكرت بعد ذلك شيئاً عن تأريخها، وتساءلت عن أول إنسان دفن فيها، وشكل المقبرة قديماً وحديثاً، وبينت التطور الملموس في أشكال القبور. وستجدني قد وافيتك أيضاً عن السراديب التي تضمها المقبرة، والمقامات المشرفة فيها وأفصحت لك عن سر اختيار هذه البقعة بالذات مكاناً للدفن، وسر تسميتها بوادي السلام، وأوجزت شيئاً عن تربتها وهوائها، والشارع الملتوي المار خلالها هل له من أثر في ظهور بنايات حديثة؟! وستجد أن الكتاب قد وصف المقبرة وصفاً جغرافياً وتأريخياً، وهناك في وسط الموضوع ونهايته مواضيع فرعية تزيد في تكامله تقريباً منها: ـ

* المداخل الرئيسية إلى المقبرة.
* مراسيم التغسيل والدفن.
* المشتغلون فيها.
* عملهم خدمة إنسانية.
* هل في عملهم احتكار؟
* العوائل المتفرغة للاشتغال في المقبرة.
* المقبرة مقسمة والأعمال كذلك.
* الصحن الشريف ومشكلة الدفن فيه.
* إحصائيات.
* مشاكل لا بد من حلها.
* الأموات الذين يودعون في الخارج ثم يجلبون إلى النجف من بعد حين من الإيداع.
* هل للمواصلات من أثر؟!
* الدفن في سراديب المنازل.
* الصخور المنحوتة الموضوعة على واجهات القبور فن رائع أبدعته أيدي نجفية.

وغير ذلك من المواضع الكثيرة يمكن للقارىء التعرف عليها من قراءة الفهرست الموضوع في صدر الكتاب. ولقد ذكرت أن مواضيع فرعية مثل هذه تزيد في تكامل الموضوع تقريباً حيث اني لم أكن قد تناولت جوانب الموضوع كله وباستيعاب.

* * *

المقبرة في هدوئها وصمتها حكمة بالغة

عدت بعد أن أمضيت وقتاً طويلاً في مقبرة تعد اليوم من أوسع مقابر العالم إن لم تكن أوسعها على الإطلاق، عدت أتعثر لشرود ذهني وارتخاء أعضاء جسمي إثر خشوع دبَّ في أوصالي، كنت أرى قبوراً متزاحمة في أجوافها أناسٌ نائمة، نائمة إلى يوم بعث وحساب، تتمدد أجسادهم جنباً إلى جنب وكان مصيرهم واحد من حيث الشكل، ولكن أرواحهم يبقى سرُّها عند بارئها، إذ أن أعمالهم ولا شك متباينة فمنهم من انتقل إلى رحمة الله وجواره وبمشيئته حاملاً سجل أعماله مفعماً بأعمال الخير وبالصلاح فهو من المفلحين، وآخرون دون ذلك بدرجات

هدوءٌ ساكنٌ يخيّم على مقبرةٍ واسعة الأرجاء، مترامية الأطراف، هاأنذا أرى قريباً مني قبراً قديماً عفى عليه الزمن لرجلٍ مات منذ سنين طويلة، بينما على مسافة أمتار مني أرى قبراً آخر لم يجف ماء بنائه بعد.. إنه قبر جديد.. وفي هذه الأثناء سمعت بكاءً وآهات بعيدة تأملت هنيهة ـ ثم نظرت وإذا هي إمرأةٌ تجري وراء رجل يحمل أخاها إلى مثواه الأخير وهي تنوح وتبكي وتتعثر بأذيالها، وحامل الجنازة يجري مسرعاً غير مبالٍ بها ، وكأنه يتعمد ذلك لأنه يرى أن لا فائدة في التمهل، فالإسراع بمواراة الميت في خبايا الثرى خيرٌ من بقائه، لأنه قد يتفسخ ويتعفن.. هذه إذن هي نهاية الإنسان المغرور الذي يملأ الدنيا ضجيجاً، ثم ما يلبث بعد ذلك حتى يقذف إلى أعماق الأرض.. فيهدأ ويستكين وكأنه اشتاق للعودة إلى أمه الأرض.

ومن بعيد، شاهدتُ ثلةً من نساءٍ وهنّ في حالة صراخ وبكاء، وعرفت بعد ذلك أنه قد مرّ على فقيدهن أربعون يوماً، فجئن بالنادبة الناعية التي تدعى بـ«الملاّ» لينهضْن بعد قليل ويكوّن حلقةً يجول في وسطها أقربهن صلةً بالفقيد، وبعد الانتهاء وقراءة الدعاء حسب العادة، توزع الحلوى والسكائر على الجميع، ثم تقرأ الفاتحة على روح المرحوم، وبعد ذلك تبدأ الأحاديث، وتفتر الشفاه ضاحكةً وكأن شيء لم يكن وكأن الجميع يقولون حسب ما تبديه سمات وجوههم، الموت حق ونتيجة لا مندوحة منها حتمها الخالق على الأحياء في دار الفناء، وهو درب سلكه السابقون، ولا محالة من سلوك الأحياء له، فهم لاحقون وايم الحق لاحقون. وبينما أنا في هذه الحال

تراودني وتخالجني أفكار وأفكار في شأن الدنيا وغرورها، ومصير الإنسان المحتوم، وما كدت أن أتمم تلاوة البيتين اللذين تذكرتهما وقد كانا في صدد وصف الحياة والإنسان والممات وهما:

وأرى الممات لدى الحياة محطة وكأنما هو في الحياة قطار
ركبت عليه حياته فجرى بها فكأنما الأنفاس منه بخار

حتى سمعت صوتاً مزق الصمت والوجوم، جذبني إليه، وهو قريب جداً يقول: اللهم أنزله منزلاً حسناً مباركاً وأنت خير المنزلين... وإذا بادرتني بالسؤال عن ذلك الصوت وتلك التلاوة، أقول لك: إن هناك عملية دفن إنسان ودع الدنيا، وهذا الرجل الواهن الجسم، الكبير السن هو الملقن... يلقن الموتى، ويكسب رزقه... وأخذ الملقن يتلو ويذكّر: «هل أنت على العهد الذي فارقتنا عليه من شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله وسيد النبيين وخاتم المرسلين، وأن علياً أمير المؤمنين، وسيد الوصيين إمام افترض الله طاعته على العالمين، وأن الحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والقائم الحجة المهدي صلوات الله عليهم أئمة المؤمنين وحجج الله على الخلق أجمعين وأئمتك أئمة هدى أبرار، يا فلان إذا أتاك الملكان المقربان رسولين من عند الله تبارك وتعالى، وسألاك عن ربك، وعن قبلتك وعن أئمتك فلا تخف، وقل لهما بلسان فصيح: الله ربي ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيي، والإسلام ديني، والقرآن كتابي، والكعبة قبلتي، وأمير المؤمنين علي(ع) بن أبي طالب إمامي...) ويستمر معدداً الأئمة جميعاً... يذكره بهم ثم يستمر ليملي عليه كيفية الإجابة على أسئلة منكر ونكير «... واعلم يا فلان بن فلان ـ ذاكراً اسم المتوفى ـ أن الله تبارك وتعالى نعم الرب وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نعم النبي وأن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب(ع) وأولاده الأئمة الأحد عشر نعم الأئمة وأن ما جاء به محمد حق، وأن الموت حق، وسؤال منكر ونكير في القبر حق، والبعث حق، والنشور حق، والصراط حق، والميزان حق وتطاير الكتب حق، والجنة حق، والنار حق، وإن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور...».

لقد كنت أسمع هـذا النوع من التلقـين، فيضطرب قلبي، وتـرتجف أوصالي، حتى أتخيـل أن هذا الميت أنـا، وبعد قليـل سأكــون تحت التراب حيث لا جليس ولا أنيس. وإن هـذا الشيخ الهـرم يعطيني درسـاً يمكن أن ينفعني به في أول يـوم من أيام الآخرة:

لقد كانت تلاوة ذلك الشيخ العجوز ـ بـالإضافـة لما فيهـا من الخشوع ـ تضم مزيجاً من الدعاء بالرحمـة للميت، مع تقـديم البشرىٰ لـه بملاقـاة الرب الـرحيم (جل وعلا) والنبي الكريم ﷺ.

لا شـك أنك سـوف تضطرب كـما اضطربت أنـا لـو رأيتَ وسمعتَ كـما رأيتُ وسمعتُ: إنـه وداع حبيب أو عزيـز لمثواه الأخـير. . فهـا هـو القـبر يُحفـر، وهـا هم المشيعون وقد لفّهم الصمت والوجوم، وها هي الحسرة واللوعة وقد بدت على قسمات وجـوه ذوي الفقيد تفصح عنها دمـوعهم وآهاتهم وحسراتهم، تشيـع جوّاً من الحـزن والأسى لدى الحاضرين.

إنك حين ترى كل هذا سوف ترتعد ولا شك، لأنك سـوف تدرك أن هـذا هو المصير المحتوم الذي ينتظره كل إنسان.

وسوف تدرك حينئـذٍ أنك من تـراب وسوف تعـود إلى التراب! ستعـود إلى هذه الأرض الأم التي كانت ولا تزال إحدى المصادر الهامة لحياة الإنسان.

ألم تسمع أمية بن الصلت الشاعر العربي القديم حيث يقول:

الأرض معقلنـا وكـانت أمنـا   فيهـا مقـابـرنـا ومنهـا نـولـد

وفي مكان آخر قال:

هي القـرارُ فما نبغي بهـا بدلاً   ما أرحم الأرض إلا أننا كفـر
منها خلقنا وكانت أمنا خلقت   ونحن أبناؤها لو أننا شكـر(١)

(١) الأرض والـتربة الحسينيـة ـ محمد حسـين آل كاشف الغـطاء ـ الطبعـة الخامسـة ـ مطبـوعات النجاح في القاهرة ـ ص ١٧٦.

وأشار ابن جبير إلى هذا في حديثه عن الكوفة، فقال:«إن هذه الأرض هي أعظم آيات الله الباهرة، نمر عليها ليلاً ونهاراً ونحن عنها معرضون، ولو عرفنا اليسير من نعمها وخيراتها، وما هذا البشر إلا غرس من غرسها وشجرة نامية من أشجارها أولدتنا على ظهرها وغذتنا من منتوجاتها، وتردنا إلى أحشائها وفي الحديث النبوي: «أن الأرض برة بكم تتيممون منها وتصلون عليها في الحياة وهي لكم كفات في الممات، وذلك نعمة من الله وله الحمد والفضل...»[1].

وعدت مرة ثانية لأشاهد من بعيد نسوة يبكين، ورجالاً واجمين، لم ينبس أحدهم ببنت شفة، نعم كنت أسمع منهم زفرات وآهات، كأنهم يقولون إن من مات مات، ولن تبقى منه سوى الذكريات، ذكريات الماضي الذي لن يعود.

وإذا ابتغيت التوغل في وادي السلام مقبرة النجف، فسوف لن تجد مندوحة من قراءة ما كتب على واجهات القبور، على صخور نحتتها أيدي نجفية، من شعر ونثر، يملي عليك الحكمة، ويحبب إليك الصلاح، ويبغض فيك مفاتن الدنيا وغرورها. وإليك ما دونت من بعض ما قرأت:

إن في الوادي جملة من قبور كتب على واجهتها سور قصيرة،أو بعض آيات من الكتاب الكريم أذكر منها ما يلي: هذا قبر كتب على واجهته:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم: تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾.

* * *

وهناك قبر كتب على واجهته هذه الآيات:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي...﴾ صدق الله العلي العظيم وصدق رسوله ﷺ الكريم.

* * *

---

(١) رحلة ابن جبير.

وبناية قائمة هناك كتب على واجهتها:

﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. . .﴾.

وبناية أخرى كتب على واجهتها:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾.

* * *

وكتبت سور كثيرة من القرآن على واجهات قبور كثيرة، جلها سورة الفاتحة والإخلاص وياسين. والواقع أن هذا العمل وما يشابهه ليس هو الهدف والغاية التي نزل القرآن من أجلها بل إن القرآن الكريم دستور للبشرية جمعاء فيه خير الإنسان ديناً ودنيا. إن القرآن يجب أن يعتمد عليه الرئيس في إدارة بلاده، والموظف في عمله، والحاكم في حكمه، والمدرس في تنشئة جيله، وبطريقة أوضح أن القرآن يجب أن لا ينزوي عن الحياة في المسجد، وهو للحياة خير نظام، لأنه يرجع إليه للتزود من مناهل الفضيلة، ويرجع إليه في شؤون العبادة والحكم ففيه السداد، ومنه الرشاد، وهو يشير إلى سر كنه الوجود والخليقة والغاية.

* * *

أما الآن فسأقرؤك جملة من أقوال منظومة ومنثورة مأثورة، دونتها لك نقلاً من واجهات القبور، وسيكون ولا شك ما يخالجك وأنت تقرأ مختلفاً تماماً عما خالجني واستحوذ عليّ وأنا أجوس وأكتب لك وقت الظهيرة من أيام شتاء سنة ١٩٦٤، ذلك الوقت الذي عينته لهذا الغرض.

كان السكون جاثماً على المقبرة، غير أن للهواء حفيفاً وهو يداعب الأوراق التي كنت أمسك بها كما كان للقلم معها صرير عند تدوين منظوم ومنثور من واجهات القبور. ولكن ذلك الوجوم وذلك الصمت لم يدوما، فما كان إلا أن سمعت طرق معول لشق لحد جديد، وهناك تردد صوت تلاوة يرتفع معها النشيج.

غير أني لم آبه بهذا وذاك، فلا بد من إتمام ما عزمت عليه، فهممت إلى

انتقاء الأقوال وتدوينها، فلاح لي قبر فرحت أمعن النظر فيما كتب عليه، فوجدت أن ما احتوت عليه صخرته من قول، إنما هو طلب للدفن إلى جوار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأدركت أن الإنسان في حياته يرى، دون أدنى ريب، إن في رقدة القبر عزلة ووحشة، لذلك هو يطلب في آخر ساعة من حياته التي أوشكت على الأفول، الدفن قريباً من أحبائه وأئمته الأبرار إلى جوار إخوته المؤمنين الأخيار، وكأنه بذلك يحصل على الاطمئنان والأمان والرقود الهادىء... وهكذا ندرك فحوى ومحتوى الأبيات التي دونت على واجهات قبور كثيرة ضمتها مقبرة النجف هي:

إذا مت فادفني مجاور حيدر ... أبي شبر أعني به شبير
فلست أخاف النار عند جواره ... ولا أتقي من منكر ونكير
فعار على حامي الحمى وهو في الحمى ... إذا ضاع في المرعى عقال بعير

فهو فوق ذلك لا يخاف من النار لأنه جاور علياً عليه السلام ولجأ إلى حماه، أولست يا قارئي تحمي من يلوذ بك ويطلب حماك من خطر خاف مداهمته؟ ألا تساعد من دخل دارك يستجير بك، ستجيب طبعاً بنعم. هذا وأنت معرض للخطأ والزلل، فكيف لا يحمي الإمام المعصوم من استجار به وجاوره، راقداً في حماه...

***

وقررت أن أمعن النظر ملياً في أبيات لمحها بصري وهي: -

أشدد حيازيك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حل بناديكا
ولا تغتر بالدهر ... وإن كان يواتيكا
كما أضحكك الدهر ... كذاك الدهر يبكيكا

كان هذا بعد ابتعادي بخطوات عن ذلك القبر الذي كنت عنده، وقد نقشت هذه الأبيات نقشاً جميلاً، فوقفت عندها وجلاً.

والحقّ، أن هذه الأبيات لن تملي علي درساً جديداً غاب عني، بل أنبهتني إلى ما كنت أعرف ويعرف غيري أن الموت ملاقينا، وأطلت النظر إلى القبر الذي ازدانت

واجهته بهذه الأبيات لما فيها من إرشاد وتذكير «فالذي تنفع المؤمنين». نعم، ها آنذا لا أرى سوء بناءٍ، ولكن دون هذا البناء رِمّة بالية عفى عليها الزمان، فقلت في نفسي، عجباً من أمر هذه الدنيا ولهوها وزهوها، وخداعها، ترى أي شيء يذكر هذا القابع بين أطباق الثرى من ملذاته، أي شيء يذكر من دنيا؟ هل يذكر طيب عيشها - إن كان عيشه قد طاب - أم يذكر ما لقي فيها من بلاء؟ هل يذكر ما جنته يداه واقترفه لسانه؟ أين هو الآن من دنيانا.. هل عاشها مثلما نعيشها نحن الآن، وهل ترك ما يستوجب الترحم عليه، أم العكس؟.

وفي هذه اللحظات شعرت أني عاجز عن الاستمرار في مهمتي، فلقد خارت قواي واحمرت عيناي، وكدت أن أسقط فما رأيت نفسي إلا وأنا جالس على الأرض، فقلت: اللهم بك نستعين، وإنا إليك راجعون، اللهم ارحمنا وثبتنا على الإيمان. ولممت طرفي ونهضت من جلستي التي حدثت دون إرادتي في تلك الفنية التي جست خلالها هواجس الأفكار. واندفعت أجوب الوادي أبحث عن قول آخر أدونه.

* * *

وها أنذا أشرفت على قبر كبير واسع الفناء دوّن على واجهته أبيات باللغة الدارجة هي:

تبجي الدار والدلة عليهم   دَهِلّن يا دمع عيني عليهم
إكرام ويعتب الخاطر عليهم   ويا وسفه غِدْو حدر الوطية[1]

ألا ترى معي أن في هذا القول ما يثير الأشجان، ويهيج الأحزان، ليس بالنسبة للموت فقط فالموت أمر محتوم، ولكن لهذا الرجل الكريم المضياف، الذي غادر داره العامرة إلى غير رجعة، فها هي الدار تبكيه، وها هو الموقد اللذي طالما أُججت ناره لإنضاج القهوة وتقديمها إلى الضيوف سواء في الأفراح أو الأتراح. أو للضيفان القاصدين لأجل الراحة أو حل مشكل - إنه فارق صاحبه الذي كان يفيض شهامةً وكرماً... إنه يبكي عليه.. وحقٌ أن يرثيه كل ذي شعور وخاطر، وأن يبكيه

(١) الدلة: إناء القهوة، الوطية: الأرض.

أولئك الذين أعطاهم وأغدق عليهم، ويطلقون عليهم آهاتهم وزفراتهم.

لن يبقى في هذه الدنيا كريم ولا بخيل، ولا غني ولا فقير، ولا ممتلىء ولا جائع، ولا طلق الوجه ذو البسمة، ولا الجلف الجافي.. فالكل إلى زوال.. إلى سفر بعيد!

* * *

وعلى هذا القبر أبيات أخرى زادت فيها دار في فكري تثبيتاً وقد كتبت على صخرة مرمر بخط حسن جميل:

وكم من عيون فيه قرت فقرحت لفرقته أجفانها والمآقيا
أرى كل رام قد تطيش سهامه وسهم المنايا ليس تخطي المراميا
فصبراً جميلاً واعتباراً بما مضى فلا شيء إلا سوف يصبح فانيا

أجل لن تخطىء أسهم المنايا، ولن يتأخر لحظة من جاء أجله، بل كل شيء إلى زوال وفناء، فأين نحن إذن من طول الأمل والرجاء، والعجب كل العجب ممن يبني القصور الشامخة فيتملكه الغرور وينسى أنه ولا شك سيكون من أهل القبور.

* * *

وأعجب من ذلك ما تنطق به أبيات هذا القبر الذي دنوت منه، وتقصدت زيارة فنائه الواسع الظليل، له قبّة صغيرة ملوّنة، ومنارتان صغيرتان أنيرتا بالكهرباء، واندفعت متسائلاً كأني أخاطبه: هل مت منذ زمان أيها الميت؟! ارتبكت الكلمات في فمي وتلجلج لساني، وأدركت أنه لا يجيب إن سألته، وانتبهت بعد ذلك إلى أنه يمكن معرفة ما رمت إليه، بقراءة تأريخ وفاته على صخرة في واجهة قبره... وذكر على الصخرة أنه قتيل، وأن هذا القتيل الشاكي قد وافاه القدر واحتواه القبر منذ زمان بعيد جداً، ومعنى ذلك أن الذين قتلوه ماتوا أيضاً على أقرب تقدير. هذه نتيجتهم أيضاً فلماذا قتلوه؟ لكن متى ننسى الطمع والجشع، متى نعزف عن حب الظهور بالبطولة والقوة باتباع القسوة... فصاحب القبر هذا قتله إخوته من أبيه الذين حسبهم ورعه الواقية وأحبائه، يا ليته لم يحسبهم هكذا فاسمع واصغ إلى ما يقول:

يـا زائـراً قــبري من الأحيـاء قتلوني الإخــوان مـن آبـائي
قـد كنت أحسب أنهم لي جُنّة ما كنت أحسب إخوتي أعدائي

وما فتئت أسير على مهل أتطلع إلى تلك الآثار الشاخصة حتى حاذيت هذا القبر الـذي يطلب صاحبه ـ حسب مـا نصت عليه الأبيـات المـدونـة عـلى واجهته ـ من كـل مستطرق قليلاً من الترحم عليه، وفي القول تحذير وعبرة وتذكير، فهو كان يزور القبور على الدوام، كما نفعل نحن الأحيـاء، ولكن لا عجب إن أصبح من أهـل القبور. . . وهكذا أنت أيها الزائر، فلا تغرنك الحياة بـل عش بها فـترة حياتـك لباسـك الفضيلة وشيمتك المحبة والتعاون، إنه يقول بلسان الحال كما دون على واجهته:

أيها الزائر قبري قف على قبري شويْ[1] واقـرأ القـرآن عنـدي رحمة تنـزل علـيْ
طـالما زرت قبـوراً وأنـا مثلك حـيْ لا تغرنـك حيـاتـك إنمـا الـدنيـا كفيْ

فقلت في نفسي لقد صدقت قولاً، وأمعنت في الإرشاد سنكـون يومـاً مثلك ولا يبقى لنا في الدنيا غير الصالح من الأعمال تتناقله عـبر الزمن الأجيـال وما تتلوهـا من أجيال.

* * *

وهذا آخر يبلغ الأحياء بأبيات غير مـوزونة ربمـا سقطت منهـا عند النحت عـلى الصخرة كلمات أو حروف أذكرها إليك نصاً، يقول:

يــا قـارىء ألفـاظ السطور[2] اترك الدنيـا ودع فيها الغـرور
إنــي كنـت شبـابــاً مــترفــاً ها أنا أصبحت من أهل القبور

لا ينـافي يا من اختـارك الله إلى جواره، كـونك كنت مـترفـاً ولا ينـافي ذلـك سـواك من الفقـراء أيضاً. ومعنى ذلـك أنه لا منـافاة في أن يكـون الفتى مترفـاً متنعماً وهـو نظيف القلب، سالم النية رداؤه الفضيلة والمثل العليا، يحب للناس ما يحب لنفسه ويكـره لهم ما يكـره لنفسـه، ورضاء الله عنـه برضـائهم عنه. ومـا أحسب الموت يتـأخر عن اللحـظة التي

(١) شوي: قليلاً.

(٢) لعل الصحيح ـ قارىء الألفاظ في هذي السطور.

أرادهـا الله سـواء أتى لشـاب أم لشيـخ. إلا إني أصيـح معـك هـل يـرعـوي الشباب عن الغي والغرور بمفاتن الدنيا.

* * *

وصـدفت عن القبر مكفهـر الوجـه مقـطب الجبـين، منتفـخ الأوداج، مـرتعـد الأوصال، لا يرتاح لمرآي بال، صائحاً بصوت متهدج، سـوف لا تغريني أيتهـا الدنيـا مهما أوتيتي من بهجة وجمال. ورنوت إلى المدينة صاخياً إليها سمعي، وقلت شتـان بين صمتكم أيها الموتى وعجيج وضجيج المدينة... لا شك أنكم ملأتموها قبلنا. وبينا أنا في أرجوحة الأفكار، لاح لعيني شعاع القبـة الذهبيـة المشرفة الـذي سرعان مـا أفاض بنـوره على الـوادي وكأنها تضيء لمن لاذ بصـاحبها، وفي هـذه اللحظات الغـامرة بـدأ الأمل يدبّ فيّ من جديد وتعود البسمة إلى شفتي، فرحتُ أتمتم مهنئاً هؤلاء الـراقدين حول إمامهم إمام المسلمين علي عليه السلام، وسرعان ما شاهدت وأنا في هذه الغمرة قبراً كتب عليه قول مسجوع هو:

عـلي حبـه جنـة قسيم النـار والجنة
وصي المصطفى حقاً إمـام الإنس والجِنَّة

* * *

وأنت إذا زرت صديقاً لك، أو لبّيت دعوتـه إلى الطعـام، فهل يحسن منـك أن تحمل زادك معك؟ بالطبع لا، فإن ذلك مما يستقبح، ويتنافى مع العرف السائد عنـدنا سيما إذا كان المزور أو الداعي معروفاً بالكرم وحسن الضيافة.

فههنـا قبر لمست أن صـاحبه يشكـو دهـره، فهـو لا يملك الـرصيـد الكـافي من الحسنات وزاد التقوى فاستمع إلى ما كتب على الصخرة الملصقة على واجهة قبره:

وفـدت على الكـريم بغـير زاد من الحسنـات والقلب السليم
فحمـل الزاد أقبح كـل شيء إذا كـان الوفـود على الكـريم

* * *

وعلى قبر آخر خطت أبيـات من الأبوذيـة العراقيـة، والظاهـر أن العبارات التي

جاءت فيها غير واضحة وغير منسجمة مع بعضها ولكنها على كل حال عبرت عن مشاعر الأم الحنون التي فقدت وليدها فأنّت له،وشكت من نوائب دهرها، فهي بالجهد الجهيد صيرت منه إبناً كبيراً، وإذا به وقد أرداه الأجل، فأفلت من بين يديها ليضمه التراب، اسمعها تقول وقد دونت ما تقول على واجهة قبر إبنها:

بغياب ابني أظن دهري وحالي ... سوه يبني رحت أنت وحالي
وياك ابذلت مجهودي وحالي ... كل هذا ورحت من بين ايديه

* * *

وهذه عبارات أخرى تسفر عما يجول في قلب أم رؤوم أخرى من الأسى وهي تنعي ابنتها وفلذة كبدها، حيث غادرت الدنيا وهي بعدُ في ريعان الشباب وعمر الورد. . . العبارات المدونة هنا تدل على لوعة الأم الحانية الحنونة، وحزنها المرير، تهيج شجن من يقرأ ويمعن في معنى ما يقرأ، كتبت:

دعوني على ابنتي أبكي وأندب ... ففي القلب نار بالفراق تلهب
ومـا كان ظني أن يفرق بيننا ... وسرعة هذا الموت ما كنت أحسب

* * *

ولوعة الأم الحزينة تلك لا تختلف عن لوعة هذا الذي يبكي فقيده، ويؤرخ عام وفاته بأبيات تنم عن أسفه ووله لفقيده الذي هو كالغصن الغض والذي لوته يد الردى فدوّن على واجهة قبره:

أبكي شبابك يا سمير مسامرا ... شهب الدجى أرِقاً بقلب والهِ
غصن لوته يد الردى أم انه ... أرّخت (بدراً غاب بعد كماله)

* * *

وأطللت بعدئذ على حشد من قبورٍ أبكاني ولاء من ضمت واحتوت، ذلك الولاء الجم المتأصل لناصري دين الرحمن، أئمتنا الأبرار الذين كان إصرارهم وكانت تضحيتهم بأرواحهم وأبناءهم وما يملكون تدل على صدق وصية جدهم العظيم ﷺ لهم برفع راية الإسلام من بعده ونشرها بين الأنام. فهذا المحب كتب على واجهة قبره:

مودتي لأمير النحل تكفيني بعد الممات وتجهيزي وتكفيني

نعم تكفيك المودة والمحبة والولاء لوصي رسول الله ﷺ علي(ع)، ولكن لا تظهر محبتك، ولا يبرز ولاؤك إلا باتباعك ما أوصى به وبلغ، تكفيك حقاً هذه المودة لدخول الجنة مع المؤمنين الأخيار الخالدين.

* * *

وإلى جنبه قبر دوّن على واجهته:

وطينتي عجنت من قبل تكويني بحب حيدر كيف النار تكويني

وآخر:

بقربك لذنا والقبور كثيرة ولكن من يحمي الجوار قليل

* * *

وآخر كتب على واجهة قبره يرجو من الأحياء المارين على قبره الترحم عليه والدعاء له بقراءة الفاتحة له ولباقي الموتى المؤمنين الرحمة والغفران، وهو يعلن طلبه بأبيات من «الأبوذية العراقية» والظاهر أن هذه الأبيات غير موزونة:

كل من يود حيدر بنيته على اليسقي من الكوثر بنيته
يخوتي على الدرب كَبري بنيته رجائي الفاتحة من اليمر بيه

وهذا قبر على منواله إذ كتب على واجهته:

بنيتم قبري على الطريق أرجو الفاتحة من الصديق

* * *

وهذه نخبة من شباب يافع، دان جني ثمارهم، وهم في مرحلة القوة بين ضعفين... فإذا بعودهم الصلب الرشيق ينثني، وماء شبابهم ينضب ولا مرد لأمر الله، وبأفول نجمهم الشارخ غدوا رهن التراب:

فهذا كتب على واجهة قبره:

يا قارىء كتابي أبكي على شبابي
بالأمس كنت حياً واليوم في التراب

وآخر كتب على واجهة قبره:

قف على قبري قليلاً ذاكراً من ربيع العمر أيام الشباب
ذهب العمر فأضحى حلماً وشبابي قد غدا رهن التراب

* * *

وآخر كتب على واجهة قبره:

برعم رقّ فيه ماء الشباب ولقد جف لهف نفسي عليه

وهذا قبر شاب قد عنى أهله به وهو طبيب عالج المرضى وأنقذهم من ويلات المرض، ولكن المنية لا مرد لها إن جاءت فهي تحيل الطبيب الصاحي البدن والرجل المريض المعتل البدن إلى رقود في عفر ثرى، كتب على واجهة قبره:

ها هنا يرقد في عفر الثرى المعي وهب الطب حياة

* * *

وعلى واجهات قبور كثيرة رثا الأحياء موتاهم وأرّخو وفاتهم مبشرين إياهم بالجنان والمغفرة من الرحمن المستعان، وقالوا لهم إن مفاجأة المنون لكم إن هي إلا رغبة خالقكم أن تكونوا إلى جواره وهي منّة ورحمة ورضوان، وأنه ليس في هذه الحبوة والحظوة ما يؤلم النفس ويهينها:

فهذا القبر كتب على واجهته:

فيا من قد ثوى في طي لحد لك البشرى بجنات النعيم
تفاجئك المنون بلا انتظار ولا داء أمضّ من القديم

وعلى قبر آخر:

هنا يرقد العبد المطيع لربه بخير وإحسان من الله يسعد
وحياه رضوان النعيم مبشراً بجنات عدن والشفيع محمد
دعاه إلى زهو الجنان مؤرخاً شهيداً مضى للزهد عبد موحد

وآخر كتب على واجهة قبره:

مـودتي لأمـير النحـل تـكفـيني بعـد المهات وتجهيـزي وتكفيني

نعم تكفيك المودة والمحبة والولاء لـوصي رسـول الله ﷺ علي(ع)، ولكن لا تظهر محبتك، ولا يبرز ولاؤك إلا باتباعك ما أوصى به وبلغ، تكفيك حقاً هذه المـودة لدخول الجنة مع المؤمنين الأخيار الخالدين.

* * *

وإلى جنبه قبر دوِّن على واجهته:

وطينتي عجنت من قبـل تكـويني بحب حيـدر كيف النـار تكـويني

وآخر:

بقـربـك لـذنـا والقبـور كثيرة ولكن من يحمي الجـوار قليـل

* * *

وآخر كتب على واجهة قبره يرجو من الأحياء المارين على قبره الترحم عليه والدعاء له بقراءة الفاتحة له ولباقي الموتى المؤمنين الرحمة والغفران، وهو يعلن طلبه بأبيات من «الأبوذية العراقية» والظاهر أن هذه الأبيات غير موزونة:

كل من يـود حيـدر بنـيتـه على اليسقي من الكوثـر بنيته
يخوتي على الـدرب كَبري بنيتـه رجـائي الفـاتحة من اليمـر بيـه

وهذا قبر على منواله إذ كتب على واجهته:

بنيتـم قـبري عـلى الطريـق أرجـو الفـاتحـة من الصـديق

* * *

وهـذه نخبة من شبـاب يـافـع، دان جني ثـمارهم، وهم في مـرحلة القـوة بين ضعفين. . . فإذا بعودهم الصلب الرشيق ينثني، وماء شبابهم ينضب ولا مرد لأمر الله، وبأفـول نجمهم الشارخ غدوا رهن التراب:

فهذا كتب على واجهة قبره:

يـا قـارىء كـتـابي أبـكـي عـلى شـبـابي
بـالأمس كـنـت حـيـاً والـيـوم في الـتراب

وآخر كتب على واجهة قبره:

قف على قبري قليلاً ذاكراً من ربيع العمر أيام الشباب
ذهب العمر فأضحى حلماً وشبابي قد غدا رهن التراب

* * *

وآخر كتب على واجهة قبره:

برغم رقّ فيه ماء الشباب ولقد جف لهف نفسي عليه

وهذا قبر شاب قد عنى أهله به وهو طبيب عالج المرضى وأنقذهم من ويلات المرض، ولكن المنية لا مرد لها إن جاءت فهي تحيل الطبيب الصاحي البدن والرجل المريض المعتل البدن إلى رقود في عفر ثرى، كتب على واجهة قبره:

ها هنا يرقد في عفر الثرى المعي وهب الطب حياة

* * *

وعلى واجهات قبور كثيرة رثا الأحياء موتاهم وأرّخو وفاتهم مبشرين إياهم بالجنان والمغفرة من الرحمن المستعان، وقالوا لهم إن مفاجأة المنون لكم إن هي إلا رغبة خالقكم أن تكونوا إلى جواره وهي منّة ورحمة ورضوان، وأنه ليس في هذه الحبوة والحظوة ما يؤلم النفس ويهينها:

فهذا القبر كتب على واجهته:

فيا من قد ثوى في طي لحد لك البشرى بجنات النعيم
تفاجئك المنون بلا انتظار ولا داء أمضّ من القديم

وعلى قبر آخر:

هنا يرقد العبد المطيع لربه بخير وإحسان من الله يسعد
وحياه رضوان النعيم مبشراً بجنات عدن والشفيع محمد
دعاه إلى زهو الجنان مؤرخاً شهيداً مضى للزهد عبد موحد

وآخر كتب على واجهة قبره:

ثوى أبا المهدي في مرقد يحكي شذاه جنة الخلد
يهنأ بالخلد فتأريخه بشراك في الخلد أبا المهدي

وهنا شيخ كذلك الشاب يصف لنا حياته التي قضاها قبل أن تعاجله المنية، انه كان شيخاً مطاعاً متبجحاً بجبروته، وكان زرعه لا يصفر، وخيره لا ينضب، وحياته دائمة... يقول حسبما تنطق به الألفاظ المدونة على واجهة قبره، إن الوسادة الحريرية لم تنفعه باتكاء، وأن صوته الصارخ في فقراء الناس كان له خفوت، ويده ماسكة السوط السارقة لمال الناس ها هي دونك رميم، ولسانه الثالب لعرض الناس الجاحد لنعم الله هل له من أثر؟!.. يقول:

يا قارىء ألفاظ السطور اترك الدنيا ودع فيها الغرور
إنني شيخاً نظيفاً مترفاً ها أنا أصبحت من أهل القبور[1]

* * *

وقرأت في مجال آخر وعلى قبر يروي قصة موت صاحبه، وكيف عاجلته المنية، وداهمته الأقدار وهو ذاهب لقضاء حاجة وكسب معاش، وكان ذلك وقت الظهيرة، فهو كان أطل على فجر الشباب، وإذا بشبابه الشارخ بحيويته ونضارته ويفاعه يغدو رهن التراب ويستحيل إلى رميم ورفات... وهو أثناء ذلك يرشد الأحياء من الناس أن يرعوا عن غيهم ويطلب منهم كبح جماح جبروتهم، وأن لا يمشوا في الأرض مترنحين بسلوك لا يرتضيه الله..

وهذا آخر مثله دهسته سيارة، وراح ضحية رعونة طائشة من سائق أغوته جلسته على مقعد سيارته، والنسيم العليل يداعب أجفانه وهو غارق في أماني الدنيا وأحلامها، ولكن بدهسه هذا الشاب عصفت أمانيه وأزفت أحلامه... كتب على واجهة قبر المدهوس هذا القول باللغة الدارجة:

جفن العين كلي وسطه دامي على الطيبات اركض واسطه دامي
شباب آنه يقاري وسطه دامي سيارة اجلبت ليَّ المنية

(١) ملاحظة: لقد آثرت أن أنقل ما كتب على واجهات القبور نصاً دون أدنى تحريف، فعذراً إن جاء في الشعر عدم انسجام ووزن. والمقصود بالشيخ هنا: شيخ عشيرة.

وهذا بيت من الشعر شاهدته مكتوباً على واجهات قبور كثيرة وهو يذكر الناس ويعظهم بأن لهم يوماً محتوماً لا شك ولا مرية فيه وإن طال العمر. . . إذ أنه لا مفر من حقيقة واقعة هي حقيقة الموت. . . وهو:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمول

* * *

وهذا يقول وكأنه هو المتكلم، موضحاً، أنه مات ليكون ضيفاً على الإمام علي عليه السلام:

إليك سلّمني من كان يعضدُني   بنور وجهك اعتقني من النار
نزلت في حفرة قفراء موحشة   من أهل بيتي وأولادي وأنصاري

* * *

وفي اللحظة هذه ولجت جانباً من المقبرة وسيع الأركان، اختلف في تنسيق قبوره، وتصميم بنائها عمن سواها، إنه للفرس، وإن واجهات هذه القبور، فوق ذلك عريضة مزينة بصخور كبيرة من المرمر مزدانة بآيات قرآنية. واغلب الصخور تكتب في أركانها العليا، فمثلاً هذه الصخرة كتب في الركن الأول العلوي منها كلمة «هو الحي» وفي الركن الثاني من الأعلى كلمة «هو الباقي» وبينهما البيتان اللذان سبق وأن ذكرناهما، وهما:

وفدت على الكريم بغير زاد   من الحسنات والقلب السليم
فحمل الزاد أقبح كل شيء   إذا كان الوفود على الكريم

* * *

وهذا القبر كتب على واجهته سورة ياسين جميعها، وكتبت فوق ذلك، أشعار باللغة الفارسية هي:

درر وز جزاكه جملة خلقان زده صف
دارند همه نامه أعمال بكف
دست من ودامان ثوريا شاه نجف

أفسوس كه ـ وح دربدن يست مرا
آن بلبل مست در چمن پست مرا
أيكة برما بكذري دامي كشان
از سر إخلاص باسيني بخوان

* * *

وهذا القبر كان إلى جوار سابقه وقد دون على صخرته ما يلي: ففي الركن الأول من صخرة المرمر كتب «يا منان» وفي الركن الثاني كتب «يا حنان» وفي الثالث «يا غفران» وفي الأخير «يا سبحان» وفي وسط الصخرة كتبت الأبيات الشعرية الفارسية التالية:

حاجية صفية خانم مقصوري برست
از محنت روزكا در خاك نشست
درسن جهل وينج بصدر نج وتعب
با حسرت دردل وجهان جشم بست
بلد ختر حاج علائي ارتقت
كز يزد بهند آمد وبيهار نجست
درر وزسه شنبه بسيت وهشم ورجب
سال يك سه، سذفت نه حق بيوست

* * *

وقبور أخرى كثيرة كتبت على واجهاتها أقوال منثورة فهذا القبر كتب على واجهته:

قد ارتحل من دار الفناء إلى دار البقاء.

* * *

وآخر كتب على واجهة قبره وعلى واجهات قبور كثيرة أخرى:

هو الباقي، هو الحي الذي لا يموت، يا الله يا محمد يا علي.

وآخر كتب على واجهة قبره:

قد انتقلت من دار المحنة والغرور... إلى دار الرحمة والسرور.

* * *

وآخر كتب على واجهته:

يا لك من أرض هي الأمان   لمن بها والفوز والرضوان
خط الياسمين وقد ارختـه   بها ضريح ملؤه ريحان

وآخر كتب على واجهة قبره:

إذا شئت النجاة فزر حسيناً   لكي تلقى الإله قرير عينِ
لأن النار ليس تمس جسماً   عليه غبار زوار الحسينِ

* * *

وقد رسم على واجهات بعض القبور أوانٍ تدل على كرم الميت وطيب نفسه كأن ترسم الدلة (إناء القهوة) أو المضيف لتدل على حسن ضيافته وأبائه وشهامته. أو قد ترسم السبحة الحسينية وإزائها التربة لتدل على تقوى المتوفى والتزامه جانب الدين بقوة، وقد يرسم حصان وسيف إلى جواره للإشارة إلى شجاعة المتوفى في حياته ونخوته وفروسيته.

والرسوم التي توضع على واجهات القبور تشير مرة إلى صفات المتوفى المعنوية ومُثُله المحمودة، وتارة أخرى توضع الرسوم لتشير إلى عمل ذلك الشخص المتوفى أثناء حياته فهذا المنجل المرسوم على واجهة هذا القبر يشير إلى أن صاحبه فلاح خدم أرضه المعطاء أجلَّ خدمة، فجاد وجادت بخير مغدق على مجتمعه، ولهذا فهو قد ودع الحياة وهو مرتاح الضمير راضٍ عن نفسه، فعسى الله يرضى عنه. وقد توضع على واجهات بعض القبور أدوات الحدادة والبناء والنجارة والخياطة لتدل أيضاً على نوع العمل الذي كان يحترفه المتوفى في مجرى حياته.

وأحياناً تشير بعض الرسوم الموضوعة على واجهات بعض القبور إلى أسباب

الوفاة أو الآلة التي أدت إلى الوفاة. فمثلاً هذا قتل، فوضع على واجهة قبره رسم سكين أو مسدس أو بندقية، وهذا دهس فرسمت على واجهة قبره سيارة... الخ.

عزيزي القارىء:

عذراً إذا كنت قد أطلت عليك في مقدمة بحثي هذا «مقبرة النجف» أوسع مقابر الشرق العربي والإسلامي، وأرجو أن لا أكون قد أجهدت أعصابك في الحديث والبحث عن واجهات القبور وما كتب عليها، فليس المقصود مني بث روح التشاؤم واليأس في نفسك، وحشك على ترك الملذات التي أحلها الله سبحانه لعباده حيث يقول: **﴿قل من حرّم زينة الله التي أحلّ لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا خالصةً في الحياة الدنيا﴾**.. ولكنني لم أجد خياراً آخر وأنا أدخل تلك المدينة الكبرى التي تضم ملايين الأجداث (وادي السلام) من أن أكتب ما جال في خاطري، وأرجو أن يكون لي ولك بذلك عبر وموعظة تنفعنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ونحن ما دمنا من الأرض خلقنا وإليها نعود، علينا أن نسير في حياتنا بخطىً ثابتةٍ متزنة هادئة ملتزمين بما أمر الله سبحانه، وسائرين وفق ما ترتضيه الأخلاق والمثل العليا التي جاء بها الأنبياء وأوصياؤهم. قال أبو العتاهية:

نعم الفراش الأرض فاقنعْ به وكن عن الشرِ قصير الخطى

والآن نعود لما بدأنا به بحثنا من القول «مقبرة النجف» أو «وادي السلام» حكمة بالغة في هدوئها وصمتها.

المقبرة في التأريخ

إن تأريخ هذه المقبرة بدأ، بعد كشف ومعرفة قبر الإمام علي عليه السلام، فحين خرج الرشيد ذات يوم، كما تنص على ذلك كتب التأريخ، إلى ظاهر الكوفة يتصيد، وكان هناك حمر وحشية وغزلان فكان كلما أرسل الصقور والكلاب عليها لجأت إلى كثيب رملي هناك، فترجع عنها الصقور والكلاب فتعجب الرشيد من ذلك ورجع إلى الكوفة وطلب من له علم بذلك فأخبره بعض شيوخ الكوفة، أنه قبر أمير المؤمنين علي(ع) فأمر الرشيد ببناء قبة عليه فبنيت، وأخذ الناس يزورونه ويدفنون موتاهم جواره[1].

وقد نظم هذه الرواية صاحب كتاب عنوان الشرف في وشي النجف شعراً وضمنها كتابه[2]:

وقال أيضاً خرج الرشيد	يصطاد في الغري ما يريد
وعنّ سرب فاقتفى لجؤذر	وأرسل الفهد وراه ينبري
فلاذ بين الربوات البيض	وما انبرى الفهد مع التحريض
بل انثنى من دونهن واقفاً	فظنه من قد رآه خائفاً
ثم عدا الجؤذر والفهد عطف	فعاود الجؤذر والفهد وقف
وهكذا فاستغرب الرشيد	من صنع فهد لم يزل يصيد
ثم دعا شيوخ تلك الناحية	فقال هذي الربوات ما هي
فقال شيخ منهم إن أؤمن	أقل بعلم الربوات البين
فقال قد أمنت من كل البشر	فلا تكن في خيفة ولا حذر
فقال هذا جدث ابن عمك	من لحمه مختلط بلحمك
قبر أمير المؤمنين المرتضى	قد زاره جل بنيه ومضى
وافيتهم أنا ووافاهم أبي	وجملة من قدماء العرب

(١) راجع كتاب الأنوار الحسينية والشعائر الإسلامية (مطبعة هود» بمبئي سنة ١٣٤٦ للشيخ العراقين عبد الرضا آل كاشف الغطاء النجفي).

(٢) عنوان الشرف في وشي النجف وللشيخ محمد بن الشيخ طاهر السماوي رحمه الله» ١٣٦٠هـ الطبعة الأولى ص ٢٩.

فاعتقد الرشيد في كلامه | وزاد ما شاء من إكرامه
ثم بنا قبته ابتداءً | وضم فيها جرة خضراء
وعرّف الناس بتلك التربة | وربما صلى هناك قربه
وانثالت المعاجز البوادي | لساكني البلدان والبوادي

ومنذ ذلك الحين بدأ تأريخ المقبرة التي اتخذت هذا المكان بالذات، ويقدر عمرها اليوم بـ(١٣٥٠ سنة) تقريباً، وتقدر مساحتها أيضاً بـ(٣٧ كم٢).

وروي أن أمير المؤمنين علي عليه السلام في حياته نظر إلى ظهر الكوفة فقال: ما أحسن منظرك وأطيب قعرك اللهم اجعله قبري[١].

وروي أيضاً أن أمير المؤمنين(ع) كان إذا أرادالخلوة بنفسه أتى إلى طرف الغري، فبينما هو ذات يوم هناك مشرف على النجف، وإذا برجل قد أقبل من البر راكباً على ناقته وقدامه جنازة، فحين رأى علياً عليه السلام قصده حتى وصل إليه وسلم عليه، فرد عليه السلام وقال له: من أين؟ قال: من اليمن قال وما هذه الجنازة التي معك، قال جنازة والدي أتيت لأدفنها في هذه الأرض. فقال له عليه السلام: لِمَ لا تدفنه في أرضكم؟ فقال: أوصى إليَّ بذلك، وقال: إنه يدفن فيها رجل يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر، فقال له (ع): أتعرف ذلك الرجل؟ قال له: لا، قال علي عليه السلام: أنا والله ذلك الرجل قم فادفن أباك[٢].

وبسبب تواتر الأخبار عن فضل هذه البقعة المقدسة وانتشار صيتها في حياة أمير المؤمنين عليه السلام، فقد دفن أناس كثيرون قبل أن يدفن فيها مشرفها الإمام علي بن أبي طالب(ع)[٣].

* * *

---

(١) راجع كتاب سفينة البحار جـ١، جـ٢.
(٢) إرشاد القلوب ـ للديلمي ص ١٣٣، وراجع سفينة البحار جـ١، جـ٢.
(٣) راجع ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ من كتاب ماضي النجف وحاضرها للمرحوم العلامة المؤرخ جعفر محبوبة.

لماذا سميت بوادي السلام؟

عندما نضع إسماً لشيء ما فلا بدُ أن يكون هناك علاقة بين الإسم والمسمى غالباً، فما هي العلاقة بين هذه المقبرة وبين السلام، وهل السلام سلام الأحياء أم سلام الأموات؟ لا شك أنك ستسأل عن سبب تلك التسمية؟

إن الأخبار المتواترة تذكر وتؤكد أن مقبرة النجف بذاتها عالم وسيع تجتمع فيه أرواح المؤمنين من أقطار الدنيا، وأن الأرواح الشريرة تنقل إلى وادي «برهوت».

ومن قصيدة للسماوي في كتابه «وشي النجف» نظمها معتمداً على ما ورد في هذا الصدد من الأخبار والأحاديث التي تنص على أن وادي السلام محشر تنقل إليه الملائكة كل المؤمنين والموالين لله ولرسوله والأخيار من الناس... قال:

ثرى إليه محشر الأموات   في الدفن بالنقل على الأوقات
فكم به من ملك نقال   أنشأه لذاك ذو الجلال

وهناك أيضاً مزية أخرى للدفن في هذا المكان المقدس، وهي أنه مدعاة للاطمئنان والسلام، فلقد ورد في الأحاديث أن الحساب يرفع عمن دفن فيها، ولا شك أن المقصود تخفيف العقاب عمن استجار بأمير المؤمنين(ع) أو جاوره، أو على الأقل تخفيف عذاب البرزخ!، قال السماوي أيضاً في كتابه السابق في ص ١٢:

ثرى به أمن عذاب البرزخ   من حيث جيء فرسخاً في فرسخ
فإن من يدفن خلف الخندقِ   عند علي لم يخف مما لقي

وتروي كتب التأريخ إن وادي السلام بمعنى «وادي السلامة» أنه آمن من كل آفة من آفات الأرض وحشراتها، وأن المقبرة بقعة من جنة عدن ودار سلام أو وادي سلام، ولا ريب أن الجنة ودار السلام موضع مجمع الأرواح الطيبة، لا يكون فيه أي صنف من عذاب، وإلا فليست هي بدار سلام على معنى الأمان والسلامة.

هل بامكان معرفة أول إنسان دفن في النجف؟

إن النجف كانت قبل دفن الإمام علي عليه السلام قرية صغيرة لا تأخذ شكلاً منتظماً، بل بيوتاً متفرقة وكان من عادة الناس دفن موتاهم في مكان لم يكن ناء جداً عن حيهم أو مكان سكناهم، والمعروف في كتب التأريخ بأن الإمام علي عليه السلام دفن في طرف من حافة هذه القرية، كما أن الرواة والمؤرخين، يذكرون في كتاباتهم الجمة بأن الإمام(ع) بعد أن تولى غسله الحسن والحسين وعبد الله بن العباس دفن في ليلته في الموضع الذي يزار به الآن، وقد أعده له أبوه نوح عليه السلام بين قبره وقبر آدم(ع)، وفي جوار هود وصالح(ع)[١].

فعندما تريد دخول الضريح الشريف للزيارة أو لطلب الشفاعة، تقرأ أولاً الدعاء وتطلب الإذن بالدخول من الرجل العظيم الراقد، ثم تبدأ بالزيارة فتقرأ فيها: السلام عليك وعلى ضجيعيك آدم ونوح وعلى جاريك هود وصالح.

وقد روى الثقات عن الإمام أبي عبد الله الصادق(ع) أنه قال: إن الله تبارك وتعالى أوصى إلى نوح(ع) وهو في السفينة أن يطوف بالبيت أسبوعاً فطاف بالبيت أسبوعاً كما أوصى الله إليه، ثم نزل في الماء إلى ركبته فاستخرج تابوتاً فيه عظام آدم(ع)، فحمل التابوت في جوف السفينة حتى طاف في البيت ما شاء الله أن يطوف ثم ورد إلى باب الكوفة في وسط مسجدها ففيها قال الله للأرض: ﴿إبلعي ماءك﴾ فبلعت ماءها في مسجد الكوفة كما بدأ الماء من مسجدها، وتفرق الجمع الذي كان مع نوح في السفينة فأخذ نوح التابوت فدفنه في الغري[٢]، أي في المكان الذي رقد فيه مولانا أمير المؤمنين(ع) بعد ذلك.

وفي مزار البحار أن النبي نوح(ع) يرقد إلى جوار أبينا آدم(ع) وقد قيل في هذا الصدد شعراً:

---

(١) الأنوار الحسينية «الجزء الرابع ص ٣٦».

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله جزء ١١ ص ٢٢٨.

وجاء نوح بعد فيض العالم إلى الغري في عظام آدم
ثم هو اختار الغري مدفنا لعلمه بدفن حيدر هنا

وقال السماوي في أرجوزته أيضاً:

علمت أن آدم ونوحاً قد كان عنده مضروحاً

ودفن بعدهما جماعة من أهل القرية والأطراف القريبة منها، وجاء الرجل اليماني بأبيه ليدفنه وقد شاهد دفنه علي(ع) ومقبرته تقع اليوم في الجانب الغربي من النجف عند حافة التل الذي تقع عليه المدينة أو عند حافة الهضبة الصحراوية، ومقبرته تدعى اليوم باسمه، وهي مقبرة صافي صفا أو مقبرة الصفا وإلى جوار قبره تقريباً مقام لزين العابدين(ع) ومقبرة الصفا تزار هذا اليوم وتدار. ويلذ لي أن أتحدث عن هذا الرجل، وكيفية معرفته بالإمام، وماذا دار بينه وبين الإمام، من مكاتبات وغير ذلك، معتمداً على مراجع قديمة. ولكن قبل ذلك، أذكر ما ورد في كتاب منتهى المقال، وهو أن أول من دفن في النجف ـ الذي هو ظهر الكوفة ـ خباب بن الأرث، من أصحاب رسول الله(ص)، وهو الذي شهد بدراً وما بعدها، وكان سادس ستة، وهو معدود في المعذبين في الله، نزل الكوفة، ومات بها، شهد مع علي(ع) صفين والنهروان، وصلى علي(ع) عليه، ووقف على قبره وقال: رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه أهوالا، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً[١]. ومثله في طبقات ابن سعد من القسم الأول في البدريين ص ١١٨، وقد ساق الحديث حتى أنهاه إلى ابن خباب قال: كان الناس يدفنون موتاهم بالكوفة في جبابينهم فلما ثقل خباب قال لي أي بني إذا أنا مت فأدفني بهذا الظهر فانك لو دفنتني بالظهر، قيل دفن بالظهر رجل من أصحاب رسول الله(ص) فدفن الناس موتاهم، فلما مات خباب(ره) دفن في الظهر فكان أول مدفون بظهر الكوفة.

وأعود لأتحدث عن صافي صفا، وقصته كما روت كتب التاريخ. فنحن بعد أن بينا جانباً من الرواية التي ملخصها

(١) راجع روضات الجنات ص ٢٤٧.

أن رجلاً من اليمن أوصى ابنه أن يدفنه في النجف، وجاء به، وصادف الإمام كان خارجاً للنزهة وقد جرى الحديث بين الرجل اليماني والإمام(ع)، وكان ختام الحديث أن أشار الإمام علي إليه بدفنه في ظهر الكوفة. وأضحى قبره اليوم يسمى باسمه وموقعه في جهة القبلة من البلدة وله خدم يتعاهدونه بالرعاية والعناية، وعلى قبره قبة قديمة العهد كما ظهر من صخرة قديمة العهد كتب عليها ما نصه: بذل الجهد، وسعى في إشادة هذه القبة الشريفة على مرقد مشيد الإسلام السيد المعظم علاء الدين بن محمد المدني المداج، بمشاهدة ملك الحاج المحتشم القهستاني في سنة أربع وخمسين وسبعمائة.

وهناك صخرتان عليهما شعر وتأريخ[١] باللغة العربية، تأريخهما يرجع إلى أوائل القرن الثاني عشر الهجري وقد ذكرناهما في باب آخر من هذا الكتاب هو «أدب الجدران».

كيف عرف صافي صفا أنه سيدفن في النجف إمام يدخل الناس في شفاعته؟ هل كان لصافي صفا لقاء مع الإمام(ع)؟ أكانت هناك مكاتبة بين الإمام وصافي صفا؟ ما هي منزلة وشأن هذا الرجل في اليمن؟ هل هو قائد؟ هل هو من سواد الشعب؟ قد تلج عالم الاستفسار لتقع على الصواب، كما بدأت أنا أبحث عن نوع الإتصال والمعرفة بينهما إن كانت هناك معرفة وإتصال، ما وسعني البحث، لكني لم أعثر على شيء سوى أني وجدت في كتاب مهج الدعوات لابن طاوس، دعاء يدعى بدعاء اليماني، كتبه الإمام علي(ع) لأحد رجال اليمن أذكر لك نص التعليق أو الرواية، وبعضاً من بداية الدعاء ونهايته، وربما أدى بك ما سأذكره لك إلى القول بأن اليماني هو صافي صفا بعينه ليس إلا.

يقول السيد ابن طاوس[٢]: حدثنا الشريف أبو الحسن زيد بن جعفر العلوي المحمدي، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن عبدالله بن السياط قرأته عليه، قال حدثنا المغيرة بن عمر بن الوليد الغروي المكي بمكة قرأته عليه، قال حدثنا أبو سعيد مفضل بن محمد الحسيني قرأته عليه، قال حدثنا فضيل بن غياض عن عطا بن

(١) ماضي النجف ص ١٥٩، وراجع مشهد الإمام ص ٩٥.
(٢) مهج الدعوات ـ لابن طاووس ص ١٤٢.

السايب عن طاوس عن ابن عباس، قال كنت ذات يوم جالساً عند أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب صلوات الله عليه نتذاكر فدخل ابنه الحسن صلوات الله عليه، فقال يا أمير المؤمنين بالباب فارس يطلب الإذن عليك، قد تضوعت منه رائحة المسك والعنبر، فقال أذنت له، فدخل رجل جسيم وسيم حسن الوجه والهيبة عليه لباس الملوك، فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال علي(ع) وعليك السلام، ثم أدناه وقربه، فقال يا أمير المؤمنين، إني صرت إليك من أقصى بلاد اليمن، وأنا رجل من أشراف العرب وممن ينتسب إليك، وقد خلفت ورائي مملكة عظيمة، ونعمة سابغة، وضياعاً فاشية، وإني لفي غضارة العيش وخفض من الحال، وبإزائي عدو يريد المزايلة والمغالبة على نعمتي، همته التحصن والمخاتلة لي، وقد نشر لمحاربتي ومناوشتي منذ حجج وأعوام، وقد أعيتني فيه الحيلة، وكنت يا أمير المؤمنين قمت ليلة، فهتف بي هاتف أن قم واذهب إلى خليفة الله أمير المؤمنين علي(ع) واسأله أن يعلمك الدعاء الذي علّمه إياه رسول الله(ص)، ففيه إسم الله الأعظم، وكلماته التامات، فإنك تستحق به من الله عز وجل الإجابة والنجاة من عدوك هذا المناصب لك فلما انتبهت لم أتمالك، ولا عرجت على شيء حتى شخصت نحوك في أربعمائة عبد وإني أشهد الله عز وجل، وأشهدك إني قد أعتقتهم لوجه الله عز وجل فإنهم أحرار، وقد أزلت عنهم الرق والملكة، وقد جئتك يا أمير المؤمنين من بلد شاسع وموضع بعيد وفج عميق، قد تضاءل في البلد ونحل فيه جسمي، فأمنن عليّ يا أمير المؤمنين بحق الأبوة والرحم الماسّة، وعلمني هذا الدعاء الذي رأيت في نومي أن أرتحل فيه إليك، فقال، نعم، ثم دعا بدواة وقرطاس، فكتب فيه وكتبت أنا أيضاً.

هذا هو الحديث الذي ذكر في كتاب مهج الدعوات مقدمة للدعاء اليماني، ولأن الدعاء اليماني طويل، لذا أذكر منه بعضاً من بدايته وبعضاً من نهايته. من الدعاء:

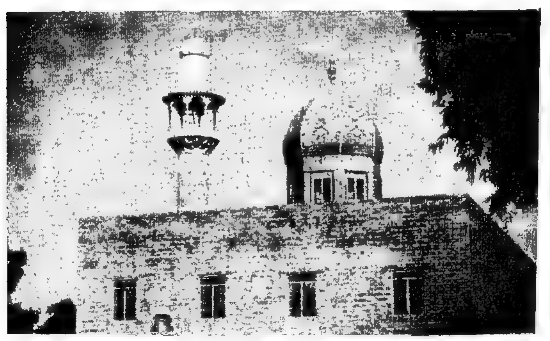
بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته أجمعين، اللهم إني أحمدك وأنت للحمد أهل على ما اختصصتني به من مواهب الرغائب وأوصلت إليّ من فضائل الصنايع.... إلى أن ينتهي الدعاء بـ....

وكن لي أنيساً من كل وحشة واعصمني من كل هلكة إنك لا تخلف الميعاد، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين»(١).

فقال الرجل يا أمير المؤمنين حققت الظن وصدقت الرجاء وأديت حق الأبوة، فجزاك الله جزاء المحسنين، ثم قال يا أمير المؤمنين إني أريد أن أتصدق بعشرة آلاف دينار فمن المستحقون لذلك يا أمير المؤمنين، قال أمير المؤمنين(ع): فرق ذلك في أهل الورع من حملة القرآن، فما تزكوا الصنيعة إلا عند أمثالهم، فيقوون بها على عبادة ربهم، وتلاوة كتابه، فانتهى الرجل إلى ما أشار به أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه.

وهنا نصل بالقول إلى أننا قد علمنا قصة الرجل اليماني الذي مات وجاء به ابنه ليدفنه في النجف ليدخل في شفاعة علي(ع)، وعرفنا بعد ذلك حديث ودعاء اليماني الذي انتصر على أعدائه وألدائه بفضل علي(ع) والذي لم تذكر كتب التاريخ إسماً له وليس من المستبعد أبداً أن يكون الرجل اليماني صاحب الدعاء هو صافي صفا نفسه.



مسجد الحنانة في النجف صار من المقابر المهمة وهو يحاذي وادي السلام

(١) للاطلاع على الدعاء يراجع نفس المصدر السابق ص ١٤٤ ـ ١٤٩.

موقع المقبرة

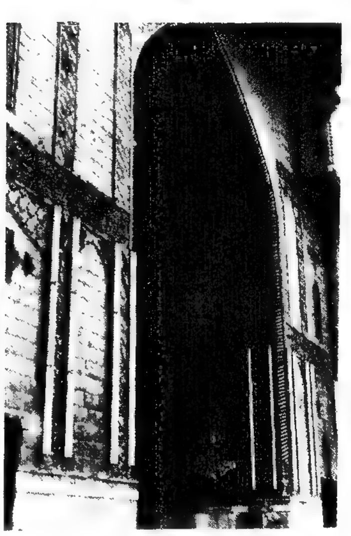
تقع المقبرة على العموم في شمال النجف حتى أنها على وجه الدقة تحوط النجف حتى الشرق بل وقبل فتح الشارع «نجف ـ كوفة» من خلالها كانت تمتد إلى الحافة الجنوبية الشرقية من المدينة.

شكل المقبرة قديماً وحديثاً
ولماذا اتخذت هذا المكان بالذات

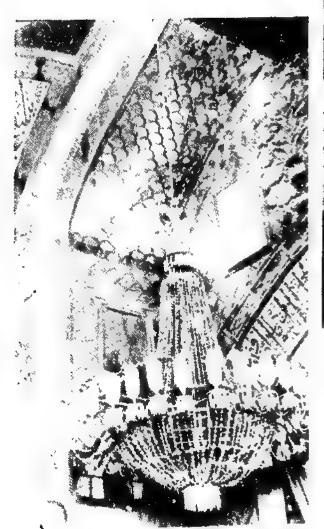
إن هذه البقعة الكبيرة لم تكن أول أمرها واسعة الأرجاء مكتظة بالموتى، كما نشاهدها اليوم بل كانت تضم قبوراً متفرقة وقريبة من المنازل التي أحاطت الضريح الشريف، وإذا أردنا الآن أن نقرر شكل المقبرة القديم، كان بإمكاننا أن نقول، بأنها كانت على شكل خط من قبور يبدأ من أقصى شمالي غربي النجف حتى شرقها، ومن ثم نبدأ لنتساءل من أية جهة بدأ الدفن هل كانت البداية من شمال غرب المدينة أم من شمالها أم من جهة أخرى؟!

إن الدفن في الواقع لم يكن البدء فيه من جهة معينة واحدة ليستمر ويشكل شكل المقبرة، بل بدأ الدفن من جهات متفرقة وقريبة تماماً من محيط المدينة القريب إلى الشكل الدائري، فتكونت قبور متفرقة ومتقاربة اتصلت مع بعضها وكونت خطاً مقوساً يوازي هذا المحيط.

كما لا يغرب عن بالنا، بأن الدفن آنذاك كان مستمراً في جهات ما بين المنازل وداخلها، وكذلك في الصحن الشريف، وأكثر عمليات الدفن كانت تجري عادة إلى الغرب من مدينة النجف الخالدة، والذي دعا إلى هذا أمور كثيرة وكثيرة، منها أن النجف كانت قديماً معرضة لهجمات الأعراب، ولم تكن مطمئنة فسوّرت للوقاية من الأخطار، ولم تكن آنذاك حكومات مركزية تشد أزرها. وعامل الخوف وعدم الاطمئنان جعل السكان في تلك الأيام، الأحياء منهم والأموات ضمن سورها، عدا الجهة الشمالية التي أخذ فيها خط القبور بالظهور فيما وراء السور. وقد اتسع الخط بعد أن قل الخوف من الغزوات المفاجئة.



جانب من رواق الروضة الحيدرية حيث دفن فيه جملة من العلماء والملوك



ويضاف إلى ذلك عامل عقائدي آخر هو أن معظم السكان كانوا ولا يزالون يرغبون الدفن في أقرب نقطة إلى الضريح الشريف وهذا العامل بنفس الوقت دليل يعزز لنا قولنا في ظهور المقبرة مباشرة بعد سورها، وعلى شكل يوازي محيطها دون ابتعادها عن المحيط، أو امتدادها منه نحو الشمال، لتشكل عاموداً بزاوية قائمة عليه، ومن هنا نجد المقبرة بسبب عدم ابتعادها عن المدينة الآخذة بالتوسع أصبحت عقبة أمام توسعها من جهة الشمال والشمال الغربي وبالإضافة إلى تلك العوامل يمكن أن يعد نقص المورد المائي عاملاً مباشراً آخر. فالنجف كانت تعاني نقص الماء بحكم موقعها البعيد عن مصادره، ويذكر أنه قد حفرت كهاريز من الفرات في الكوفة إلى النجف، وأخذ السكان يحفرون الآبار لتتصل بالكهاريز وليتاح لهم الحصول على الماء بواسطة «الحبل والدلو» وبهذه الطريقة يملأون الأحواض العميقة المعدة لخزن الماء، فيسدون بذلك حاجتهم من هذا المورد من بعد جهد جهيد، ولهذا فإن ابتعاد المقبرة عن المدينة يعني ابتعادها عن المورد المائي «الكهاريز» ومعنى ذلك أيضاً زيادة التكاليف المحتاجة إلى التغسيل وبناء القبور.

ونلاحظ أن المدينة حين بدأت تهدم سورها لزوال الحاجة إليه، أخذت بالاتساع، وشيدت لها «مغسلاً» قرب بحيرة النجف، وقرب نهاية الكهريز، وهذا المغتسل، واسمه الدارج «المغيسل» أصبح اليوم مهجوراً تماماً لتوفر الماء في كل جانب من النجف بسبب إسالته وضخه من الكوفة إليها.

وعامل عقائدي آخر ذكره لي أحد الإخوان، فحواه، أن الناس اختاروا هذه الجهة من النجف «أي الشمالية» لتكون مدفناً، لأنها تقع بين الحرمين، بين مرقد الإمام علي عليه السلام في النجف وبين مرقدي الحسين والعباس عليهما السلام في كربلاء.

وإن هذه الجهة تمتاز عن الجهات الأخرى، بأنصخورهارملية صلبة تسمح لحفر اللحود فيها، وهذا العامل مهم جداً، يضاف إليه استواءها وتعقدها، عكس الجهة الغربية والجنوبية من النجف.

وعامل استواء الأرض وسهولة المواصلات شجعا السكان البعيدين عن

النجف بالإسراع في دفن موتاهم إلى جوار أمير المؤمنين علي عليه انسلام، فأخذت المقبرة بالاتساع، ويعني هذا أنها بدأت تغير من شكلها القديم «الخط المنحني المتقطع» إلى شكل هلالي وقد سورت هذه المقبرة، ولكن هدم بعض جوانب سورها، وما ذلك إلا نتيجة حتمية لاتساعها المستمر.

التطور الملموس في أشكال القبور

إن القبور في تصاميمها تباينت على مر الزمان، منها القديم الذي بقي يحافظ على هيئته وتصميمه، بينما اتخذت أخرى تصاميم هندسية حديثة، فالشكل المألوف يمكن تشبيهه بأسد رابض على الأرض «جذع ورأس» وهذا الشكل في الواقع يدلنا على كيفية وضع الإنسان أثناء دفنه، واتجاه رأسه، وعند رأس القبر البارز وضعت قطعة من الصخر أو المرمر، نقش عليها اسم المتوفى وتأريخ وفاته عادة، والقبور في شكلها ووضعها تأخذ اتجاهاً واحداً نحو الغرب، ووضعها هذا يشير إلى أن رؤوس الأموات بهذا الاتجاه ووجوههم شطر القبلة «إلى الجنوب» باتجاه بيت الله الحرام.

وقد تطور الطراز القديم، بأن أصبح أكثر ارتفاعاً، وعلى شكل مدرج، وبهذا تكون تكاليف تشييد التصميم القديم على الصفة هذه، قد زادت، وأصبحت حوالي عشرة دنانير، بدلاً من ثلاثة أو أربعة.

وثمة شكل قديم آخر، يأتي بالدرجة الثانية من حيث السيادة على الأشكال، أو التصاميم الأخرى، وهو الذي يقرب لأن يكون متوازي المستطيلات.

أما القبور القببية فتأخذ نماذج يغلب عليها الطراز القديم في البناء «أقواس وزخرفة» وبمرور الزمن دخلت تصاميم حديثة منها مربعة الشكل، وأخرى على شكل بيت صغير، وقد دخل في البناء الحديد والإسمنت مع الجص والطابوق، وكل هذه النماذج متفرقة هنا وهناك وهي قليلة العدد بالنسبة للشكل الأول السائد المألوف المرغوب والأقل تكاليف. وأخيراً أخذت القبور تبلغ درجة من التطور الملموس بعضها لم يعد قبوراً بل قصوراً زخرفت واجهاتها وكتب على جدرانها بعض من الآيات القرآنية البينات، منها شيدت على شكل قبة وإلى جوارها منارة واحدة في بعض

المقابر، أو منارتان في أخرى، وسنوضح ذلك أكثر في باب مقبل من الموضوع.

ماذا قيل في أمر جواز البناء على القبور وعدمه؟[١]

ولنبدأ الحديث في هذا الباب عن شأن وطيء القبر والاتكاء عليه، فقد ضربت الروايات المنقولة بعضها البعض الآخر، فمثلاً قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام إذا دخلت المقابر فطأ القبور فمن كان مؤمناً استراح إلى ذلك ومن كان منافقاً وجد ألمه.

وعن النهاية للعلامة الحلي عن النبي ﷺ قال: لأن أطأ على جمرة أو سيف أحب إلي من أن أطأ على قبر مسلم.

وعن العلل لمحمد بن علي بن ابراهيم عن النبي ﷺ قال: من وطأ قبراً فكأنما وطيء جمراً.

وأوردت الأخبار أنه يكره الاتكاء أو المشي على القبور. أما فيما يخص البناء والتطيين والتجصيص فعن كتاب النهاية للعلامة الحلي عن النبي ﷺ جاء خبر ليس فيه أدنى ترغيب في التطيين والتجصيص فقد ذكر: أنه نهى أن يجصص القبر أو يبني عليه لأنه من زينة الدنيا فلا حاجة بالميت إليه[٢].

وروي عن الرسول ﷺ بأنه نهى أن يجصص القبر أو يصلى فيها. وذكر البعض في الأخبار أنه يكره تجصيصها، أو التظليل عليها والمقام عندها وتجديدها بعد اندراسها ولا بأس بتطيينها ابتداءً[٣].

وجاء في كتاب وسائل الشيعة ص ٨٦٩، باب خاص في كراهية البناء على القبور غير قبور النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام والجلوس عليها، وتجصيصها وتطيينها.

---

(١) كان الأوفق بالمؤلف أن يترك هذا البحث الفقهي لأهله أو يرجع القارىء إلى أهل الفتيا والاجتهاد.

(٢) سفينة البحار. ص ٣٩٦ «باب حكم تجصيص القبور والمشي عليها».

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

فهذا الخبر مثلاً بعد أن أسند إلى قائله، علي بن جعفر الذي قال: سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن البناء على القبر، والجلوس عليه، هل يصلح؟ قال: لا يصلح البناء عليه ولا الجلوس ولا تجصيصه ولا تطيينه.

وعن أبي عبد الله(ع)، قال: نهى رسول الله أن يصلى على قبر أو يقعد عليه أو يبنى عليه[1].

غير أن هناك خبراً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن قبر رسول الله محصب حصباء حمراء. ومنه يُستفاد جواز تجصيص المقابر وجواز نحت الأسماء عليها، وهو دليل على نفي التحريم فلا ينافي الكراهة، ويستحب عمارة وإعادة بناء قبور الأئمة والأنبياء عليهم السلام.

وذكر الرواة، ولربما صح ما رووا، وما نقلوا بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا تتخذوا قبري قبلة ولا مسجداً فإن الله لعن اليهود حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وجاء، وقد يصح ما جاء، أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن زيارة القبور وبناء المساجد فيها فقال: أما زيارة القبور فلا بأس بها، ولا يبنى عندها مسجد.

والظاهر أن هذه الأخبار التي تروى بهذا الشأن لا تؤيدها الأسانيد القوية حتى يسار على ضوئها، وإلا، لمنع أئمة المسلمين اليوم من البناء على القبور، وتجصيصها وكتابة الأسماء، ووضع الصور عليها، ونحن اليوم نلمس أهمية البناء في تشخيص القبور بعضها عن البعض الآخر.

أما بالنسبة لقبور الأئمة، فالمخلصون اليوم يهتمون اهتماماً متزايداً في تعلية قبورهم، وتخصيص مواسم معينة لزيارتها.

وذكر كتاب معجم القبور[2] أن عمارة قبور الأنبياء الكرام والأئمة عليهم السلام، وتشييدها وجعل الضرائح عليها من أعظم الشعائر الإلهية لأن في ذلك إبقاء لآثارهم، وسبباً لمجيء الزائرين وكسر شوكة المشركين[3]

(١) وسائل الشيعة جـ٢.
(٢) معجم القبور ص ١١ جـ١.
(٣) كان الأوفق بالمؤلف أن يترك هذا البحث الفقهي لأهله.

تربة المقبرة وهواؤها ومزية الدفن فيها

تربة المقبرة تربة رملية نقية ناعمة، هذا ما يخص القسم الأعلى منها، أما القسم الذي يلي ذلك بحوالي عشرين سنتيمتر عبارة عن منطقة صخرية متكونة من صخور رملية قوية تسمح لحفر اللحود فيها بصورة عامودية، وتسمح لإدخال الإنسان وتوديعه في مكان قد حفر بصورة أفقية وبطول المتوفى عند نهاية الحفر العمودي، وقد تبقى الصخور والتربة محافظة على تماسكها، ولكن بعد مدة ينهدم ما يحيط بالتجويف الأفقي الراقد فيه المتوفى فتضيع معالم التجويف.

وتتصف المقبرة بالجفاف التام لأنها جزء من الهضبة الصحراوية الجافة، فهي لهذا بقعة ذات رمال نقية وصخور رملية جافة لا تظهر فيها أية رائحة وأيّة عفونة، يقول ابن جبير في رحلته «وأصبحنا في النجف وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينها وبين الصحراء، وهو صلب من الأرض منفسح متسع للعين فيه مراد استحسان وانشراح»[1].

والحقيقة أن الكثير من أهالي النجف يتركون المدينة وأزقتها الضيقة، وشوارعها المزدحمة الصاخبة بضجيج الناس والسيارات ليتجولوا خلال شارع المقبرة الملتوي، أو بين القبور، غايتهم شم الهواء الطلق العذب النقيّ من فضائها الرحب.

وجاء في تحفة العالم، أن السيد جعفر بحر العلوم قال: إن أهالي النجف لم يجدوا الوحشة، والانقباض أبداً، بل إن وادي السلام من أحسن المنتزهات لسكان البلدة المقدسة الكريمة.

وقال اسحاق بن ابراهيم الموصلي يمدح الواثق ويذكر النجف[2].

ما إن أرى الناس في سهل ولا جبل ... أصفى هواء ولا أغذى من النجف
كأن تربته مسك يفوح به ... أو عنبر دافه العطار في صدف

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٧.
(٢) كتاب جغرافية العراق وتأريخه القديم ـ لعبد الرزاق سعيد البغدادي النجفي ص ١٢٠، المطبعة العلمية ١٩٣٩.

وما يـزال نـسيـم مـن أيـامـنـه يـأتيـك منـه بـريًـا روضـه الأنـف
تلقـاك منـه قبيـل الصبـح رائـحـة تشفي السقيم إذا أشفى عـلى التـلف
لـو حلّه مـدنف يـرجـو الشفـاء بـه إذا شفـاه من الأسـقـام والـدنـف

وقد قيل إن من خصائص تربة المقبرة إسقاط عذاب القبر وترك محاسبة منكر ونكير للمدفون فيها، كما ورد في الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام(١).

وضمن السماوي هذا الخبر والمعنى في أرجوزة منها(٢).

ثـرى بـه أمن عـذاب الـبرزخ من حيث جيء فرسخاً في فرسخ
فـإن من يـدفن خلف الخنـدق عـنـد عـلي لم يخف ممـا لـقي
جـاءت بمـا ذكـرتـه أخـبـار وعـاضـدتهـا في الـورى آثـار

وقال في فضل التربة الزكية(٣) الطاهرة أيضاً:

ثـرى تـرى النقـل إليـه يكـثر فـالميـت فـوق الميت فيه يقـبر
يمحـو من البـادي الأخير الأثـرا تنـافسـاً منهم عـلى ذاك الـثرى

وفي بـاب ذكر خصـائص المدفن في النجف، وحشر الأرواح فيـه قال العـلامـة المجلسي، طيب الله ثراه، في مزار البحـار: ومن خصائص الحـرم الشريف أن جميـع المؤمنين يحشرون فيه(٤).

وعن أحمـد بن عمر رفعـه عن أبي عبد الله عليـه السلام قـال قلت لـه أن أخي ببغداد وأخاف أن يموت بها فقـال ما تبـالي حيثما مـات أما أنـه لا يبقى مؤمن في شرق الأرض وغربها إلا حشر الله روحه إلى وادي السلام، قال له وأين وادي السـلام، قال: ظهر الكوفة، أما إني كأني بهم حلق، قعود يتحدثون(٥).

وفي الـروايات أن الأمـوات يتزاورون، ويعقـدون حلقات يتحـدثون فيهـا فيـما

(١) إرشاد القلوب ص ٤٣٥ جـ٢.
(٢ و٣) عنوان الشرف ص ١٤ ـ ١٥.
(٤) راجع إرشاد القلوب ص ٤٢٦ جـ٢، وراجع سفينة البحار ص ٧٩ ـ ٨٠ أيضاً.
(٥) تحفة العالم.

بينهم، وأي حـديث يكـون بـين أرواح تخلصت من أجسـادهـا العـاجـة بغـرائـزهـا ومتطلباتها، وإن مجالسهم وأحاديثهم ليست كمجالسنـا وأحاديثنـا، والرأي ليس كـما قال أحد الأدباء عندمـا أطل عـلى وادي السلام وهـو مغتبطٌ جـذلٌ بحلقات الـدرس ومجالس الأدباء في النجف:

سلام على أهل القبور الـدوارسِ كأنهم لم يجلسوا في «المجالس»[1]

وقـد وردت أخبارٌ كثـيرة، في أنه بـين النجف والكوفـة، يكون الأمـوات قعوداً يتحدثون على منابر من نور.

وعن عباية الأسدي، عن حبة العرني، قال: خرجت مع أمير المؤمنين علي عليه السـلام إلى الظهـر، فوقف بـوادي السلام كـأنه مخـاطب الأقوام، فقمت بقيـامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت ثم قمت وجمعت ردائي فقلت يـا أمـير المؤمنـين إني قـد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة. ثم طرحت الرداء ليجلس عليه فقال: يا حبة إن هو إلا محـادثة مؤمن أو مؤانسته، قال قلت: يـا أمير المؤمنـين وإنهم لكذلـك، قال: نعم، لو كشفت لـك لرأيتهم حلقـاً حلقاً محتبـين يتحادثـون، فقلت: أجسام أو أرواح، فقال: أرواح، وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا وقيل لـروحه الحقي بوادي السلام، وإنها لبقعة من جنة عدن[2].

ويعرف من هنا أن وادي السلام كان بقعة عظيمة مشرفة قبـل دفن الإمام عـلي عليه السلام فيها، لأنها كانت تضم جميـع الأرواح المؤمنة التي جـاءت لتحشر فيها من جهات الأرض القريبة والبعيدة فإنه عندما سـأل حبة العـرني الإمام (ع) عن المؤمنـين الذين تحدث عنهم، هل هم أرواح أم أجساد؟ كان جواب الإمام(ع)، أنهم أرواح.

وعليه فما من مؤمن في شرق الأرض وغربها، إلا وقد خوطبت روحه للالتحـاق بوادي السلام، والانحشـار مع الأرواح المؤمنـة الخيرة، ومـا على الأرواح إلا أن تلبي النداء، نداء الخالق العظيم.

---

(١) هكذا عرفتهم ـ جعفر الخليلي ص ٣١٦.

(٢) مزار البحار ص ٨٠.

وقال بن طاوس في كتابه بشارة الزائرين في صدد فضل النجف وتربتها: «فاعلم أن فضله لا ينكر وشرفه ذاتي، والعرض من طريق المعقول ظاهر جلي لذوي البصائر والعقول.من حيث اتخاذه مرقداً لسيد الوصيين صلوات الله عليه واختياره مدفناً لبدنه المقدس، واختيار نوح، وغيره من الأنبياء، والأوصياء عليهم السلام الدفن فيه، الكاشف ذلك عن شرفه الذاتي، وإلا كان اختيار الدفن فيه ونقل عظام آدم عليه السلام من سرنديب، أقصى الهند، بلا مخصص».

أما العلامة الطباطبائي قال في هذا الصدد، في الدرّة[1]:

أكثر من الصلاة في المشاهد　　خير البقاع أفضل المعابد
لفضلها اختيرت بمن بهن حل　　ثم بمن قد حلها سما المحل

وروي عن شرف النجف وفضل تربتها، عن أبي أسامة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال سمعته يقول: الكوفة روضة من رياض الجنة فيها قبر نوح وقبر ابراهيم وقبور ثلاثمائة وسبعين نبياً وستمائة وصياً وقبر سيد الوصيين(ع)[2].

وقصد بالكوفة، الكوفة نفسها وظهرها.

وقال الشاعر يمجد النجف وتربتها:

ما أمَّ قبر المرتضى راجياً　　يأمل كشف الضر إلا نجا
فطف به ملتثماً تربه　　ولذ به ما ليل همٍّ دجا
تجد به حرزاً منيعاً وفي　　أكنافه يرتع طرف الرجا

ومن بشارة الزائرين نقلاً عن البحار في باب فضل النجف وماء الفرات، عن أبي الحسن الحذّاء، قال: قال أبو عبد الله(ع): إن إلى جانبكم مقبرة يقال لها برثا[3] يحشر فيها عشرون ومائة ألف شهيد كشهداء بدر.

وعن الجارود، رفعه إلى علي صلوات الله عليه، أن إبراهيم عليه السلام مرَّ

(١) بشارة الزائرين ص ٥٨.
(٢) نفس المصدر السابق ص ٥٨.
(٣) البرث: الأرض السهلة والجبل من الرمل، أو أسهل الأرض وأحسنها والجمع: براث.

ببانقيا، فكان يزلزل بها، فبات بها، فأصبح القوم ولم يزلزل بهم، فقالوا ما هذا وليس حدثاً، قالوا نزل ها هنا شيخ ومعه غلام، قال: فأتوه، فقالوا له: يا هذا إنه كان يزلزل بنا كل ليلة، ولم يزلزل بنا هذه الليلة، فبت عندنا. فبات عندهم ولم يزلزل بهم، فقالوا أقم عندنا ونحن نجري عليك ما أحببت، قال: ولكن تبيعوني هذا الظهر ولا يزلزل بكم. قالوا: فهو لك قال لا آخذه إلا بالشراء، قالوا فخذه بما شئت فاشتراه بسبع نعجات وأربع أحمرة، ولذلك سمي بانقيا، لأن النعاج بالنبطية نقيا، قال: فقال له غلام: يا خليل الرحمن ما تصنع بهذا الظهر، ليس فيه زرع ولا ضرع، فقال له: اسكت، فإن الله عز وجل يحشر من هذا الظهر سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب يشفع الرجل منهم كذا وكذا[1]...

وقد ذكر في كتاب معجم البلدان فحوى الرواية السابقة وأكد، على أن تربة النجف لفضلها وعظيم شأنها اشتراها ابراهيم الخليل(ع)[2].

وبالإسناد إلى الأصبغ بن نباتة رحمه الله قال خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة فلحقناه، قال سلوني قبل أن تفقدوني، فقد ملئت الجوانح مني علماً، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتدأت ثم مسح بيده على بطنه وقال: أعلاه علم وأسفله ثقل، ثم مرّ حتى أتى الغريين فلحقناه وهو مستلقي على الأرض بجسده وليس تحته ثوب، فقال له قنبر يا أمير المؤمنين، ألا أبسط تحتك ثوبي؟ قال: هل هي إلا تربة مؤمن ومزاحمته.

ثم إن الأشخاص الذين يتجهون بجنائزهم لدفنها، في أية جهة من تلك البقعة الطاهرة إنما يقصدون ما لها من الفضل والحرمة والقداسة ببركات علي(ع).

وأخص بالذكر في هذا المجال، أن القائمين في خدمة الضريح الشريف كثيراً ما شاهدوا في منامهم أحلاماً يتعلق بعضها بخصوص الأموات، والضريح الشريف ومنها مثلاً أن أحد الصلحاء، من خدمة المشهد الطاهر، رأى أن كل واحد من القبور الموجودة

(١) إن الناس في السابق إذا أرادوا أن يعبروا عن الكثيرة ذكروا السبعين ويزيدون بها أكثر من ذلك بكثير.
(٢) راجع كتاب مشهد الإمام أو مدينة النجف لمحمد علي جعفر التميمي جـ١ ص ٩٠.

في المشهد الشريف وظاهره قد خرج منه حبل ممتد متصل بالقبة الشريفة، ويستظهر من حلم هذا الشخص، إن الذين دفنوا في حمى الإمام ولاذوا به قد حازوا على رعايته، وتكفله، وحمايته عليه أفضل السلام.

وقد وصف السماوي تربة المقبرة بقصيدة ضمنها فضل النجف وشرفه:

يا تربة يكثر فيها الدرر ... أأنت أم سما بنجم تزهر
ويا مقام قبره الممهد ... أأنت أم روضة قبر أحمد
ويا ضريحه بتلك التربة ... أأنت أم في البيت تزهو الكعبة
لقد زكت تربة قبر حيدر ... إذ قد حوت للطيب المطهر
وقد ذكت ولا تزال تذكو ... لو لم تكن بيضاء قلت مسك
مرَّ بها النسيم خلواً فامتزج ... بروحها ففاح طيباً وأرج
وهب أذكى من نسيم الورد ... طيباً وأقرى في الشذى من ند
وسقط الغبار فيها فسعد ... وصار كحلاً للنواضر الرمد
فكم شفى ذلك من سقام ... أشفى موافيه على الحمام
وكم تمسكت به من تعتصم ... فاستمسكت بعروة لا تنفصم
وكم تبركت به المنتهكة ... فحصلت على النما والبركة
وكم وكم ولا أعد كم وكم ... من يحسب القطر إذا الغيث ركم
ذلك كالروح توافي للبدن ... وكيف لا وهو ثرى أبي الحسن[1]

وقال أيضاً:

وفي القليل من كثير النقل ... بين أولي الفضل وأهل العقل
ما يطمئن خاطر الولي ... وكيف لا وهو ثرى علي

وقال الشيخ علي الشرقي من قصيدة عنوانها: وادي النجف[2]:

اللطف غبش سفحه الوا ... دي المنور بالشقائق

---

(١) ص ١٣- ١٤ من عنوان الشرف.

(٢) في مجلة الاعتدال.

والرمل مواج السبائك ... بالشذى القدسي عابق

وذكر كتاب ماضي النجف ج١ في ص ٢٤ ـ ٢٥، قصيدة للشاعر الأديب محمد السماوي النجفي وقد مدح فيها تربة النجف وأهلها:

ألم ـ على ذكوات النجف ... ولاحظ بطرفك تلك الطرف
هواءً نقياً تحف النفوس ... بطيب هدايا له أو تحف
وتربا زكياً يود الفؤاد ... يلاصقه من وراء الشغف
وعرفاً ذكياً بغير الكبا ... إذا الأنف ناشقه وائتنف

ومنها:

وعج بالحمى لترى رمله ... النقي وما رق فيه ورف
ترى الدر منتشراً بالرمال ... ينظمه الريح صفاً فصف
إذا باكرته السما بالحيا ... حسبت مدار النجوم انقصف
ترى مشرق النهر من حوله ... على جانب الغرب منه انعطف
كما طرح السيف في روضه ... فأومض افرنده واستشف
ترى الطير بين الورى آمناً ... يغرد للمرء فيها استخف
إذا ما تأملت تغريده ... ظننت هناك عروساً تزف
فأين يتاه بمن لم يعج ... بتلك الجنان وتلك الغرف
أيختار ربعاً سوى ربعها ... فيقلى اللئالي ويجبي الصدف

وقيل أيضاً في تربة النجف:

أتربة قدس أم شذى عنبر ... تضوع أم وادي الحمى فاح في الغري
نشدتك في زاكي ثراه المعطّر ... إذا مت فادفني مجاور حيدر
أبي شبر أكرم به وشبير ... ملاذ دخيل فاز من في ذماره
تحصن من هول المعاد وناره ... فأنزل به مولى ولاه وواره
فلست أخاف النار عند جواره ... ولا أتقي من منكر ونكير

وجاء في كشف الظنون ص ٣٤٤ جـ٢ أنه كانت تربة النجف يضرب بها المثل في طيبها ونقائها كما قال فيها بعض الشعراء:

حكمة أورثناها جابر عن إمام صادق القول وفي[1]
لوصي طاب في تربته فهو كالمسك تراب النجف

فلا أزيد أكثر مما بينت هذه الروايات التأريخية المسندة عن فضل هذه الأرض ومزية الدفن فيها، وما لها من الجلال والقدسية في نفوس المؤمنين، أثناء حياتهم وبعد مماتهم.

المراقد والمقامات المشرفة التي تضمها المقبرة

في جوانب عدة من المقبرة تشاهد مقامات ومراقد مشرفة بارزة في بنائها الضخم وقببها الرائعة، ومكانتها من قلوب الزائرين الذين يأتون النجف في كل حين، وما المقام إلا مكان وقف فيه نبيٌّ أو إمام أو وصي نبي أو صحابي للنبي أو قعد طلباً لراحة، أو ركع فيه أو سجد ابتغاء لمغفرة، فيشاد في ذلك المكان بناية، تبقى مرَّ الزمان تدار وتزار، وها أنا أوجز شيئاً عن بعضها:

١ ـ مقام المهدي عليه السلام

هناك في مكان رحب ليس بالقصي عن المدينة مقام القائم المنتظر عليه السلام يأخذ مجالاً وسطاً من المقبرة حتى أنه كان ولا يزال داراً لطلاب الراحة، أو مسجداً لمن داهمه وقت فريضة لله واجبة، ومنتدى لقصاد وادي السلام، وفيه تعقد النسوة حلقات الحزن حيث يجلن لاطمات موتاهن في فنائه الواسع.

وما بينه وبين الشارع الملتوي المار خلال الوادي أو في نصفه تقريباً، مجال قصير من القبور، بينها طريق فرعي ملتوي ضيق موصل بين المقام والشارع العام.

---

(١) المراد بجابر هو جابر بن حيان الكوفي المعروف بالصوفي الفيلسوف توفي سنة ١٦١ والإمام الصادق، هو استاذه الإمام جعفر بن محمد، أما الوصي: فهو علي عليه السلام.

والمقام تعلوه قبة زرقاء في جانبه الشرقي، ومقام القائم بالحق يدار ويزار، وهو بعناية عائلة تفرغت لخدمته، وقد خصص مكان فيه لخزن الماء كي يرتوي به كل من ساغ له أن يشرب، فزائروا الوادي، والعاملون فيه كثيراً ما يدفعهم العطش صوب المقام للارتواء من مائه العذب وأحياناً للنوم والتفيؤ في ظلال بنائه الوارفة.

وفي الأعياد وليالي الجمع يكون المقام عامراً والمسالك المؤدية إليه زاخرة بالناس الذين اعتادوا في مثل هذه الأيام زيارة القبور للترحم على أرواح المؤمنين، ولطلب المغفرة لهم، وحين تجنح الشمس إلى المغيب ينهي الناس ما أرادوا من زيارة وسلام ليعودوا جميعاً زرافات ووحداناً إلى المدينة.

ب ـ مرقدا هود وصالح

وعن يمينك في بدء ذهابك نحو مقام المهدي عليه السلام تلتفت فتشاهد بناية عامرة بارزة تخرج من وسطها غصون شجيرات نظرة.

والأخبار تذكر وتكرر لتؤكد أن الرسولين هوداً وصالحاً(ع) قد دفنا في هذا الحيز من الأرض وإن هذه البناية القائمة المذكرة بالرسولين المصلحين اللذين بعثهما الله جل شأنه لصلاح سكان الأرض وإرشادهم، تضم رفاتهم الطاهرة.

ومن الناس من لاذ بمرقديهما ومنهم من تفرغ لإدارة كل ما يتعلق بخدمتهما من كنس الأفنية وتنظيف الجدران وتصليح وترميم ما تداعىٰ أو تهدم. وكثيراً ما شاهدت بعض الزائرين يؤدون صلاة الظهر في فنائه الظليل.

وسنذكر بعض الأخبار الواردة في إثبات موضع قبريهما عليهما السلام، ففي كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي، أخبار تناقلتها الرواة عن بعضهم أناس من اليهود معهم ميت لهم، فقال أمير المؤمنين(ع) للحسن: انظر ما يقول هؤلاء في هذا القبر؟ فقال: يقولون هو هود عليه السلام، فقال: كذبوا، أنا أعلم به منهم، هذا قبر هودا بن يعقوب، ثم قال: من ها هنا من مهرة؟ فقال شيخ كبير: أنا منهم، فقال له: أين منزلك؟ فقال: في مهرة على شاطىء البحر، فقال: أين هو من الجبل الذي عليه الصومعة، فقال: قريب منه، فقال: ما يقول قومك فيه؟ فقال: يقولون:

قبر ساحر، فقال: كذبوا، أنا أعلم به منهم ذلك هو قبر هود، وهذا قبر يهودا»[١].

وكتاب بحار الأنوار يفصح عن مدى الاختلاف فيما ورد من أخبار مع ما ورد في مزار البحار من أخبار أخرى في بيان الموضع نفسه. والأخبار الواردة الكثيرة بعضها يذكر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، وإن قبر هود على تل من الرمل الأحمر بحضرموت وقيل أنه دفن في مكة، في الحجر، والأخبار الواردة في مزار البحار تدل على أنه دفن قريباً من أمير المؤمنين علي (ع) في الغري، ويرى بأنه يمكن الجمع بحمل هذا الخبر على الموضع الذي دفن فيه أولاً، ثم نقل إلى الغري كآدم (ع).

وعن أبي مطر قال: لما ضرب ابن ملجم لعنه الله أمير المؤمنين عليه السلام، قال الحسن: أقتله؟! قال: لا، ولكن احبسه فإذا مت، فاقتلوه، وإذا مت فادفنوني في هذا الظهر في قبر: أخويَّ هود وصالح عليهما السلام[٢].

وفي ماضي النجف وحاضرها[٣] «وفي جبانة النجف على الجهة الشمالية من البلد الأشرف قبر للنبي هود(ع) وللنبي صالح(ع) وهو من القبور المعلومة والمقامات المشهورة عليه قبة يتبرك بها، وتزار، شيدت في عصر العلامة الخبير بحر العلوم (ره) وهو الذي أظهره وبنى عليه قبة من الجص والحجارة ولم تزل باقية حتى أتى رجل من أهالي إيران فهدم تلك البنية وبنى عليه قبة مغشاة بالحجر القاشاني»[٤].

وفي كتاب عنوان الشرف قال السماوي في الفصل الثاني ص٥ في زيارة الأنبياء(ع) في النجف الأشرف مشيراً إلى قبور الأنبياء(ع):

وجاء نوح بعد فيض العالم	إلى الغري بعظام آدم
ثم هو اختار الغري مدفناً	لعلمه بدفن حيدر هنا
واختار ذاك صالح وهود	وليس ما تزعمه اليهود

---

(١) بحار الأنوار ج١١ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٢) بحار الأنوار جـ١١ ص ٣٧٩.

(٣) ماضي النجف وحاضرها ص ٦٦.

(٤) راجع كتاب مشهد الإمام أو مدينة النجف ص ٩٠.

فـإن هـوداً عنـدهم ذو الكفـل فـأوضح الحق وصي الـرسـل
عـنـد ذهـابـه إلى صـفـين وأعلن القـبرين بـالـتعـيين

ففي زحمة الأخبار والروايات الواردة نلمس تناقضاً وتضارباً جلياً، ولكن المؤرخ قد يصل إلى نتيجة يستنبطها من تلك الروايات والأخبار التأريخية المتباينة فيجمع بينها ويضع كل صنفٍ منها في نصابه الراجح وفق ما يقتضيه العقل والمنطق.

جـ ـ مراقد ومقامات أخرى

وهناك مراقد ومقامات كثيرة تضمها المقبرة، ففي الطرف الجنوبي الغربي من المقبرة مثلاً، مقام للإمام زين العابدين(ع) يزوره الناس في كثير من الأوقات ففي محلة العمارة من جهة الغرب مقام يعرف الآن بمقام الإمام زين العابدين عليه السلام، ويروى أن السجاد كانت إقامته في هذا المقام أثناء زيارته لمرقد جده الإمام الأعظم علي عليه السلام.

وللإمام السجاد(ع) مقام آخر ملاصق للصحن الشريف من الجانب الغربي وقد ضاعت آثاره بفتح الباب الغربي للصحن الطاهر[1].

وهناك في الجهة الجنوبية الشرقية قرب سور المدينة مقام يقال عنه أنه مقام بنت الحسن عليه السلام.

ومراقد أخرى لرجال أخيار دفنوا في المقبرة وبنيت لهم قبور عالية يزورها الناس للتبرك، وكثيراً ما يحصل الناس على ما يرجونه بزيارتهم تلك المراقد من خير وبركة وشفاء، يأتي ذلك نتيجة اعتقادهم المتأصل الراسخ في أن ليست هناك أية خيبة في طلب يرجونه من الله عز وجل عند مقام أو مرقد رجل صالح راقد إلى جوار ربه، وبعض الناس يرد الجميل بطعام يوزعه عند ذلك المقام أو المرقد عن روح صاحبه. أما الحناء وطليها على أبواب المراقد والمقامات، أو عليها، فإنه جارٍ تؤديه النساء، وقد اعتدن عليه.

(١) راجع كتاب ماضي النجف وحاضرها ص ٦٥.

ـ المشاهير الذين دفنوا في النجف

أنبياء. صحابة. ملوك. وزراء. علماء

أ ـ الأنبياء:

وقد تكلمنا عنهم في فصل سبق، وهم آدم ونوح وهود وصالح عليهم السلام.

ب ـ صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

كانت الكوفة عاصمة الدولة الإسلامية في عهد علي(ع) قال عنها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «الكوفة جمجمة العرب وكنز الإيمان». وقد سكنها نفر كبير من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والنجف هي ظهر الكوفة وقد ضم هذا الظهر أجداث الصحابة الذين وافاهم الأجل في الكوفة.

وقد قال عبد الرحمن بن علي الجوزي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧هـ في تأريخه المعروف بالمنتظم (... مات في الكوفة ثلاثمائة صحابي ليس قبر أحد منهم معروفاً إلا قبر أمير المؤمنين علي(ع) وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن)[١].

١ ـ أبو موسى الأشعري:

من مذحج واسمه عبد الله بن قيس، أول مشاهده خيبر نزل الكوفة وابتنى بها داراً وهو أحد الحكمين توفي بالكوفة سنة ٤٢هـ.

٢ ـ أبو كاهل الأحمسي:

من بجيلة واسمه قيس بن عائذ وقيل عبد الله بن مالك روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توفي أيام المختار.

---

(١) سيوافيك بحث (من دفن من الصحابة في الكوفة) في المجلد القادم إن شاء الله.

٣ ـ أبو جحيفة السوئي:

واسمه وهب بن عبد الله من بني سواءة بن عامر بن صعصعة توفي بالكوفة في ولاية بشر بن مروان سنة ٧٤.

٤ ـ الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي:

شهد مع علي عليه السلام صفين وله معه أخبار، ابتنى بالكوفة داراً في كندة ومات بها في زمن الحسن بن علي عليهما السلام وصلى هو عليه، وكانت ابنة الأشعث تحته، وقيل مات سنة ٤٢هـ وله ثلاث وستون سنة.

٥ ـ جرير بن عبد الله البجلي أبو عدو:

ابتنى بالكوفة في بجيلة وتوفي بالسراة أيام ولاية النعمان بن قيس على الكوفة سنة ٥١هـ وقيل سنة ٥٤ هـ.

٦ ـ جابر بن سمرة السوئي:

أبو عبد الله حليف بني زهرة بن كلاب ابتنى بالكوفة داراً في بني سواءة وتوفي بها في أول خلافة عبد الملك بن مروان، قال ابن حجر توفي أيام ولاية بشر على العراق سنة ٧٤.

٧ ـ خباب بن الأرت:

مولى لأم أنمار ابنة سباع بن عبد العزي أبو عبد الله، شهد بدراً وابتنى بالكوفة داراً في جهار سوج خفيس وتوفي بها أثناء ما كان الإمام علي عليه السلام منصرفاً من صفين سنة ٣٧هـ فصلى عليه ودفنه بظهر الكوفة.

٨ ـ خالد بن عرفطة:

كان سعد بن أبي وقاص ولاه القتال يوم القادسية ابتنى بالكوفة داراً وتوفي سنة ٦٠هـ وقيل ٦١هـ.

٩ ـ زيد بن أرقم الأنصاري أبو أنيس:

أول مشاهده مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم المريسيع ابتنى بالكوفة داراً في كندة وتوفي بها أيام المختار سنة ٦٨هـ.

١٠ ـ خريم بن الأخرم بن شداد بن عمرو:

كان ابنه أيمن بن خريم شاعراً فارسياً شريفاً مات في عهد معاوية.

١١ ـ سهل بن حنيف:

أبو عدي شهد بدراً ولاه علي عليه السلام المدينة المنورة توفي سنة ٣٨ بالكوفة وصلى عليه الإمام علي(ع) وكبّر عليه ستاً.

١٢ ـ سعيد بن حريث بن عدو بن عثمان:

شهد فتح مكة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن خمسة عشر سنة ثم تحول فنزل الكوفة مع أخيه عمرو بن حريث ومات بالكوفة.

١٣ ـ سمرة بن جنادة:

ابن جندب بن حجر بن رباب بن حبيب بن سوءة بن عامر بن صعصعة حليف بن زهرة، توفي سنة ٥٨ وقيل ٥٩ وقيل في أول سنة ٦١هـ.

١٤ ـ سعد بن بجير بن معاوية:

وهو الذي يقال له سعد حبته وهو من بجيلة، مات بالكوفة من ولده خنيس بن سعد صاحب شهار سوج خنيس بالكوفة ومن ولده أبو يوسف القاضي يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد وقد شهد سعد أحداً.

١٥ ـ عتبة بن فرقد:

وهو يربوع بن حبيب بن مالك بن أسعد بن رفاعة بن ربيعة من بيت بالكوفة يقال له الفراقد، ولاه عمر في الفتوح، فتح الموصل سنة ١٨هـ مع عياض بن غنم مات بالكوفة.

١٦ ـ عامر بن واثلة:

ابن عبد الله بن عمرو بن جحش أبو الطفيل الكناني توفي سنة ١١٠هـ وهو آخر من مات من الصحابة.

١٧ ـ عبد الله بن يزيد بن زيد الخطمي:

من الأنصار ابتنى بالكوفة داراً ومات في خلافة عبد الله بن الزبير وكان عبد الله ولاه الكوفة.

١٨ ـ عبد بن أبي أوفي علقمة:

أبو معاوية من أصحاب الشجرة، ابتنى بالكوفة داراً في أسلم وتوفي بها سنة ٨٦هـ.

١٩ ـ عدي بن حاتم الطائي:

أحد بني ثعل أبو ظريف، ابتنى بالكوفة داراً في طيء ولم يزل مع علي عليه السلام، وشهد معه الجمل وصفين، وذهبت عينه يوم الجمل مات بالكوفة سنة ٦٨هـ زمن المختار.

٢٠ ـ عدو بن حريث بن عدو بن عثمان أبو سعيد:

ابتنى بالكوفة داراً إلى جانب المسجد مات سنة ٨٥هـ.

٢١ ـ عدي بن عميرة الكندي:

أبو زرارة روى عن النبي ﷺ، توفي بالكوفة سنة ٤٠هـ.

٢٢ ـ قرضة بن كعب الأنصاري:

أحد العشرة من الأنصار الذين وجههم عمر إلى الكوفة ابتنى بها داراً في الأنصار ومات بها في خلافة الإمام علي عليه السلام وقد صلى عليه.

٢٣ ـ لبيد بن ربيعة:

ابن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة أبو عقيل مات بالكوفة في الليلة التي

نزل بها معاوية في النخيلة لما صالحه الحسن بن علي عليه السلام سنة ٤١هـ ودفن في صحراء بني جعفر بن كلاب.

٢٤ ـ مجمع بن جارية بن عامر بن مجمع:

وهو الذي روى الكوفيون أنه جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا سورة أو سورتين منه توفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

٢٥ ـ المغيرة بن شعبة:

أبو عبد الله شهد الحديبية وغيرها، توفي بالكوفة في شعبان سنة ٥٠هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان وهو ابن سبعين سنة دفن في الثوية.

٢٦ ـ وائل بن مجد الحضرمي:

قال أبو نعيم: أصعده النبي على المنبر وأقطعه وكتب له عهداً وقال هذا وائل سيد الأشبال ثم نزل وائل الكوفة وعقبه وبها توفي أيام خلافة معاوية.

٢٧ ـ هانىء بن أوس الأسلمي:

ابتنى بالكوفة داراً في أسلم، توفي أيام خلافة معاوية وفي أيام ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة.

بعض أصحاب أمير المؤمنين (ع)

لقد دفن بعض من أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام في الثوية ـ تل بالقرب من مسجد الحنانة ـ ومنهم:

ـ جويرية بن مسهر العبدي: قتله زياد ابن أبيه.
ـ كميل بن زياد النخعي: مات قتلاً سنة ٨٢ في أيام الحجاج.
ـ وخباب بن الأرت «مر الكلام عنه».
ـ والأحنف بن قيس.
ـ وسهل بن حنيف سنة ٣٨.
ـ وعبيد الله بن أوفى سنة ٨١ كان آخر من مات من الصحابة.
ـ وعبد الله بن يقطر: رضيع الحسين عليه السلام ورسوله إلى ابن زياد.

ولم يعرف لهؤلاء قبر إلا قبر ينسب إلى كميل بن زياد.

جـ ـ الملوك والوزراء والاشراف:

إن النجف مقبرة تأريخية أثرية تضم رفاة مجموعة من الأنبياء والصحابة والسلاطين والوزراء والأعيان والأشراف، ويعتمد في الوقوف على جملة من هؤلاء على كتابي مشهد الإمام وماضي النجف وحاضرها[1].

فقد جاء في ماضي النجف وحاضرها ص ١٥٩، أنه لما تواترت الأخبار في فضل البقعة المقدسة عن أهل البيت(ع) وثبت لها مزية على سائر بقاع الأئمة(ع) من رفع عذاب القبر عمن دفن بها وعدم سؤال منكر ونكير في البرزخ وأنها محشر أرواح المؤمنين ـ ولما طار صيتها في آفاق الشيعة في حياة أمير المؤمنين عليه السلام وبعد وفاته أخذت الشيعة تقبر موتاها بتلك التربة الطاهرة قبل أن يقبر بها مشرفها(ع)، وتنقلهم إليها من الأقطار النائية، مع ما يلقونه من وعثاء السفر ومشقة الطريق ومؤنة النقل، فهم مع هذه المشاق والمتاعب يتفانون في نقلهم إليها طمعاً في خلاصهم من العذاب، ورجاء شفاعته(ع) لهم، وهذه جملة من المشاهير الذين دفنوا في النجف:

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ص ١٥٩.

مدافن البويهيين

يذكر كتاب ماضي النجف وحاضرها عن مقابرهم فيقول: إن البويهيين بعد أن عمروا المرقد الشريف بنوا في ذلك المشهد المشرف مراقد عظيمة وجعلوا ينقلون موتاهم إليها ولم تزل تلك المباني موجودة من القرن الرابع الهجري، ولكن لم يوقف لها على عينٍ ولا أثر. وقد ذكر أن عمارة آل بويه قد احترقت إلا أن قبورهم بقيت ظاهرة لم تحترقْ[1]، وقد اطلع بعض النجفيين على بعضها في الصحن الشريف عند قلع صخور الأرض سنة ١٣١٦ هـ ولهم أيضاً مقابر في سراديب خارج البلدة، لم تزل معروفة بسراديب آل بويه. ومن هؤلاء:

١ ـ عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٣: ـ دفن عند رجلي الإمام علي عليه السلام وقد كتب على صخرته بوصية منه (هذا ما قاله عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ابن ركن الدولة أحبَّ مجاورة هذا الإمام المعصوم لطمعه في الخلاص يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وصلوات الله على محمد وعترّته الطيبين)[2] وكان هذا السلطان قد دفن أولاً في دار الملك ببغداد ومنها نقل إلى مديّنة النجف الأشرف.

٢ ـ شرف الدولة المتوفى سنة ٣٧٩: ـ صلى عليه أبو الحسن محمد بن عمر العلوي وحمل إلى المشهد بالكوفة[3].

٣ ـ بهاء الدولة: وهو ابن عضد الدولة توفى سنة ٤٠٣[4].

مدافن غير البويهيين

منهم:

ـ أبو الفضل العباس بن فسانجس:

توفي سنة ٣٤٢ بالبصرة وحمل إلى مشهد الإمام علي(ع).

---

(١) عمدة الطالب ص ٤٤.
(٢) مجالس المؤمنين ص ٣٧٩.
(٣) نفس المصدر ص ٣٧٨.
(٤) نفس المصدر ص ٣٧٨.

٢ـ فخر الملك أبو غالب:

وزيـر سلطان الدولـة توفي بـالأهواز سنـة ٤٠٦ ونقل إلى مشهـد أمـير المؤمنـين علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣ ـ الوزير شرف الدين أنوشيروان بن خالد:

توفي سنة ٥٣٣ هـ بعد عزله وحضر جنازته وزير الخليفـة فمن دونه، دفن أولاً في داره ثم نقل إلى مشهد الإمام علي(ع).

٤ ـ وزير شرف الدولة البويهي المغربي:

أبـو القـاسم حسـين بن عـلي بن محمـد بن يـوسف بن بجـر بن بهـرام بن مرزبان توفي سنة ٤١٨ وذكر عنه ابن خلكان بأنه مات في منتصف شهـر رمضان سنـة ٤١٨ فحمل إلى الكوفة بوصية منه ودفن بتربة مجاورة إلى قبر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

٥ ـ مجد الدين أبو سعد المستجدي المعروف بطاشتكين:

توفي سنة ٦٠٢ وكان والياً في شوشتر وطورستان والحلة[2].

٦ ـ يعقوب بن داود بن ظمآن على المعروف بأبي حديد:

توفي سنة ٦٦ هـ وكان وزيراً للخليفة الناصر لدين الله العباسي.

٧ ـ الملك عز الدين عبد العزيز بن جعفر النيسابوري:

توفي في بغداد سنة ٦٧٢، ونقل إلى النجف وكان يتولى حسكيـة (مديـر شرطة) واسـط، والبصرة، وكان حسن السيرة.

٨ ـ عماد الدين أبـو الحسين محمـد بن الوزيـر نصير الـدين ناصر بن مهـدي العلوي الحسيني النقيب:

(١) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد جـ٢ ص ٦.

(٢) آثار الشيعة الإمامية جـ٤ ص ٧٥.

كـان من البيت المعروف بـالنقابـة، وكان ممّن اعتقـل مع والـده فلما تـوفي عفي عنه، وسكن الحلة وتوفي عام ٦٦٠ بها، ونقل إلى مشهد علي عليه السلام.

٩ ـ عـماد الدين أبـو مظفـر ازبك بن عبـد الله يعرف بـالجويـدرا النـاصري البغدادي الأمير:

كان له اختصاص، وملازمة بحضرة الإمام الناصر لدين الله اخترمته المنية شابـاً في الكوفة وكانت من اقطاعاته، وقد سار في أهلهـا سيرة حسنـة، توفي سنـة ٦٠٨ هـ ودفن في المشهد الغروي.

١٠ ـ السيد النقيب الطاهر رضي الدين علي بن طـاوس:

توفي سنة ٦٦٤ ونقل إلى المشهد الشريف وكان قد دفن أولاً في الحلة.

١١ ـ وأخوه النقيب جمال الدين محمد بن طـاوس:

توفي سنة ٦٧٣، وأنه نقل إلى النجف ولـه مشهد أيضـاً معلوم مشيد كـأخيه في الحلة.

مدافن الحمدانيين

هم من ملوك الشيعة ولهم مواقف مشهورة في خدمة مذهبهم ولبعض آل حمدان ومنهم عبد الله بن حمدان شرف في المساهمة بتشييد ما استدار بالقبة التي يقال أنها قبر علي(ع). . وذكر أن آل حمدان ينقلون موتـاهم من الشام وحلب وديـار بكر والمـوصل وفارس وعراق العجم إلى النجف، وقد جاؤوا بهداياهم الجمة الثمينة إلى قبر علي عليه السلام.

مدافن الايلخانيين والجلائرين وغيرهم

الايلخانيون من الدول الشيعية التي حكمت العراق (٧٣٦ ـ ٨١٣) هـ، وممن حُمِل منهم إلى النجف:

١ ـ الشيخ حسن الكبير: توفي في بغداد سنة ٧٥٧.

٢ ـ الأمير قاسم أخو السلطان أويس: المتوفى سنة ٧٧٩ ودفن إلى جوار والده الشيخ حسن.

٣ ـ وعند قلع الصخور من ساحة الصحن الشريف ظهرت مقابر وسراديب تحت السراديب التي يدفن بها اليوم، وقد شاهدها كثير من الناس مكتوب على بعض قبورها:

٤ ـ «المبرور شاه زاده سلطان بايزيد طاب ثراه توفي في شهر جمادى الأول سنة ثلاث وثلاثين وثمان مائة هلالية».

٥ ـ وعلى آخر مكتوب «هذا ضريح الطفل السعيد سلالة سلاطين شاهزادة شيخ أويس طاب ثراه».

٦ ـ وعلى آخر «الله لا إله إلا هو، هذا قبر الشاه الأعظم معز الدين عبد الواسع أنار الله برهانه توفي في خامس عشر جمادى الأولى سنة تسعين وسبعمائة».

٧ ـ وعلى آخر «هذا قبر السعيدة المرحومة نابنده سلطان».

موقع هذه المقبرة بين مخلع الأحذية من الشمال وأواوين الصحن المتصلة بباب الطوسي.

٨ ـ وفي الصحن قبور أخرى بالقرب من إيوان العلماء له إشارة خاصة يحسبها البعض أنها قبور لبعض من دفن من البويهيين.

٩ ـ وعلى باب رواق عمران بن شاهين صخرة هي لثلاثة قبور أحدهما يضم رفاة الأمير نجيب الدين أحمد، والثاني محمود بن أحمد المهابادي والأخير قبر المرحومة سعيدة. وذكر أن هذه الأسماء الثلاثة تكون عائلة ملوكية من ملوك الفرس في القرن الثامن للهجرة.

١٠ ـ وممن نقل إلى النجف من الملوك السيد عز الدين زيد الأصغر ابن أبي نمى ملك سواكن فإنه لما أخرج من سواكن قطن العراق فتوطن بالحلة وتولى النقابة بالعراق توفي في عهد السلطان محمدخدابنده ونقل إلى النجف.

١١ ـ وإن قبر تيمورلنك في النجف بالقرب من قبر الشيخ الطوسي(ره) في سرداب في دار تحت الطاق ويتصل بالسرداب نفق ليس فيه من آثار يعتمد عليها وربما كان مدفن لعائلة تيمورلنك المتوفى سنة ٨٠٧ هـ وذلك الطاق المذكور قد تهدم.

من نقل على عهد الصفويين ومن بعدهم من السلاطين والوزراء

فممن نقل:

١ ـ وزير شاه عباس السيد علاء الدين حسين بن الصدر الكبير: المتوفى سنة ١٠٦٤ وقيل ١٠٦٦ هـ، وفي إيوان العلماء توجد صخرة لبعض أفراد العائلة الصفوية.

٢ ـ السلطان محمد القاجاري: المتوفى سنة ١٢١١ هـ وقد استقبلت جنازته في النجف استقبالاً مهيباً ودفن في الرواق من جهة الشمال في حجرة خاصة تسمى اليوم بحجرة السلاطين.

٣ ـ أبو الملوك كيومرث مرزا الملقب بسلك آراء ابن السلطان صح علي شاه القاجاري: توفي في عاشر ربيع أول سنة ١٢٨٨.

٤ ـ الصدر الأعظم ميرزا محمد شفيع: توفي سنة ١٢٣٤ ونقل نعشه إلى النجف.

٥ ـ آقا خان المحلاتي زعيم الفرقة الاسماعيلية: توفي سنة ١٢٩٨ ونقل نعشه إلى النجف.

وتوجد في خارج الصحن بين منازل المدينة مقابر مشهورة لكثير من السلاطين والأمراء والوزراء والأشراف والأعيان من العراق وسائر الأقطار، من البويهيين وملوك مصر ووزرائهم الفاطميين الأشراف، ومن أمراء الهند وملوك إيران. فمن مشاهير الهند والي ولاية رامبور محمد حامد علي خان المتوفى سنة ١٣٤٩ وقبره في الايوان الذي دفن فيه السيد كاظم اليزدي.

د ـ العلماء: ـ

إن عظمة هذه المدينة، وتاريخها مرتبطان بعظمة علمائها وتأريخهم، لذا يجدر بنا أن نذكر لمحةً وجيزةً عنهم.

لست مغالياً إن قلت أن مدينة النجف الخالدة أنجبت عبر التاريخ رجالاً أكفاء في شتى الميادين، لا سيما الميادين العلمية والفكرية والثقافية، كانوا يتذرعون بالإيمان بالله سبحانه عز وجل فقد انطوت قلوبهم على يقين بالله لا يتزعزع وعرفانٍ لا يداخله شك واضعين نصب أعينهم خدمة الدين الإسلامي الحنيف، وبذل الغالي والرخيص في سبيل الحفاظ على معطيات الشريعة الإسلامية الغراء، فكانت عزيمة الواحد منهم أقوى من كيد عصابةٍ أو جماعةٍ أو فئةٍ تريد السوء بهم وبمقدساتهم.

لقد كافح علماء النجف كل ألوان الاستعمار والاستبداد بقلوب لا تعرف الخوف ولا الوجل إلا من خالقها سبحانه، فهذه البلدة الطيبة المعطاء، قد تعرضت ـ وعلى مر العصور ـ لهجمات شرسة من جهات عدة، ولكنها بفضل مقاومتها المشروعة المشرفة بقيت صامدة شامخة.

وأوضح دليل على ذلك ما حصل في سنة ١٩٢٠ م حيث انطلقت الثورة منها بقيادة علمائها الأعلام وقادتها العظام، تلك الثورة التي خلدت بما أعطت، فلقد ثار العراق بقيادة النجف ضد أكبر أمبراطورية في العالم آنذاك، ضد بريطانيا العظمى «التي لا تغرب عنها الشمس» ومهما كانت النتائج فيما بعد، فإن النصر السياسي كان لها ولعلمائها وسيظل هكذا، لأن الحق باقٍ ما بقي طلابه وروائده.

وفي السنوات المتعاقبة، شهدت النجف ثورة أخرى من نوع آخر، تلك هي ثورة الفكر والعلم في وجه أكبر حملةٍ إلحادية وافدة، حيث تفشت الشيوعية في النفوس الضعيفة المتزلزلة ـ الشيوعية بمفهومها الإلحادي، لا الاقتصادي ـ مما حدا بعلماء النجف أن يطلقوا صرختهم ليوقظوا في تلك الضمائر التي هجعت ونامت في ظل بريق هذه الفكرة الهدامة، فأصدروا حكمهم المشهور: «الشيوعية كفر وإلحاد، أو ترويج للكفر والإلحاد..» مما جعل الأوراق تختلط ببعضها البعض وفوتوا الفرصة على أعداء الإسلام، والمصطادين في الماء العكر.

هذه هي النجف عبر علمائها، لقد كتب لها أن تكون في قمة الشرف والفداء والجهاد، مستمدةً قوتها من ربها سبحانه عز وجل ورسالته، ومن مشرّف تربتها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وسيبقى علماء النجف هكذا أبداً - بإذن الله - المنار الساطع اللامع في دنيا الإنسان والإسلام ملاذاً ومعاذاً، وجنّةً، يواسون الضعيف وينتصرون للمظلوم، ويقفون في وجه الظالم فسقياً لهم ولتلك الأرض المباركة.

ويكفي علماء النجف من شرف وفخر ما تركوا لنا وللمسلمين من ذخائر علمية نفيسة تعج بها مكتبات العالم الإسلامي، بل العالم كله، مما سيظل موضع فخر واعتزاز. رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

هذا، وسأحاول في هذا المجال اختيار أسماء، واحد أو اثنين من أسماء العلماء البارزين من كل عائلة وبيت، وبذلك نصل إلى ما احتوت مقبرة النجف من مشاهير العلماء. ففي الصحن الشريف إيوان للعلماء، وهو إيوان كبير ملاصق للرواق من الجهة الشمالية ويعرف قديماً بمقام العلماء دفن فيه عدد كبير من العلماء. وقد رتبت ذكرهم على حسب الحروف الهجائية بالنسبة إلى أسماء عوائلهم:

* العلامة محمد جواد بن الشيخ محمد الايرواني: توفي سنة ١٣٨٢ هـ، له كتابات في الرياضيات.

* العلامة أبو القاسم محمد تقي الأردبادي: توفي سنة ١٣٣٣ هـ، له القياسات في أصول الدين وكتب أخرى[(١)].

* العلامة الشيخ طارق بن الشيخ محمد أطيمش: توفي سنة ١٢٩٩ هـ، له ديوان شعر[(٢)].

* العلامة السيد حسين بن السيد عباس الأشكوري: توفي سنة ١٣٤٩ هـ، من مؤلفاته القضاء، ومباحث الألفاظ[(٣)].

---

(١) أعيان الشيعة، جـ٧، ص ١٣٦ سيد محسن الأمين العاملي (ره).
(٢) الحصون المنيعة، جـ١ - ص ٤٠٩ - للشيخ علي كاشف الغطاء. مخطوط.
(٣) أحسن الوديعة، جـ٢، ص ١٣٩ - للشيخ محمد مهدي الأصفهاني.

* العلامة الشيخ محمد كاظم الأخوند: توفي سنة ١٣٥٧ هـ، هو أستاذ الأصول ومن مؤلفاته كفاية الأصول[١].

* العلامة الشيخ جعفر بن الشيخ محسن الأعسم: توفي سنة ١٢٨٩ هـ، من مؤلفاته، شرح الشرائع.

* العلامة الشيخ مرتضى الأنصاري: توفي سنة ١٢٨١ هـ، له فرائد الأصول[٢].

* العلامة مير علي سيد عباس أبو طبيخ: توفي سنة ١٣٦١ ومن مؤلفاته ديوان شعر.

* العلامة المولى أحمد بن محمد المقدسي الأردبيلي: توفي ٩٩٠ هـ، له زبدة العباد[٣].

* العلامة محمد جواد بن الشيخ حسن البلاغي: توفي سنة ١٣٥٤ هـ، من مؤلفاته الرحلة المدرسية.

* العلامة السيد حسون البراقي: توفي سنة ١٣٣٢ هـ، من مؤلفاته تأريخ الكوفة[٤].

* العلامة الأشتياني دفن مع العلامة الشوشتري، وهو صاحب الحاشية على الرسائل، ودفن معه أيضاً العالم الشيخ عبد الله المازندراني.

* الحاج علي محمد النجفي آبادي: كان من الأعلام الزهاد توفي سنة ١٣٣٢ هـ.

* العلامة السيد محمد رضا بن أبو القاسم الأسترابادي النجفي: توفي سنة ١٣٤٦ هـ، من مؤلفاته الصوارم الحاسمة.

---

(١) الذريعة في تصانيف الشيعة جـ٦، ص ١٨٨ ـ أغا بزرك.
(٢) المستدرك جـ٣ ص ٣٢٨ الشيخ النوري.
(٣) معجم المؤلفين ـ عمر كحالة جـ٢، ص ٧٩.
(٤) مصفى المقال ـ أغا بزرك الطهراني، ص ١٧٩.

* العلامة محمد مهدي بن سيد مرتضى بحر العلوم: توفي سنة ١٢١٢ هـ، من مؤلفاته الدرة النجفية[١].

* العلامة الشيخ أحمد بن إسماعيل بن عبد النبي الجزائري: توفي سنة ١١٥١ هـ، من مؤلفاته آيات الأحكام.

* العلامة السيد مهدي بن السيد صالح الحكيم: توفي سنة ١٣١٢ هـ، من مؤلفاته مدارك الأحكام.

* العلامة الشيخ عبد الحسين الحلي: له مؤلفات جمة منها دين الفطرة «في جزأين».

* العلامة محمد سعيد بن سيد محمود الحبوبي: توفي سنة ١٣٣٣ هـ، له ديوان شعر.

* العلامة السيد حسين بن سيد علي الحمامي: توفي سنة ١٣٨٠ هـ، من كتبه هداية المسترشدين.

* العلامة السيد سعد بن سيد فرج الله الحلو: توفي في القرن الحادي عشر، له كتاب الخمس.

* العلامة الشيخ دخيل بن الشيخ طاهر الحجامي: توفي سنة ١٢٨٥ هـ، له تحفة اللبيب في شرح منطق التهذيب.

* العلامة الشيخ عبد الله حرز: توفي سنة ١٢٧٧ هـ، له حاشية في المنطق وديوان شعر[٢].

* العلامة جعفر بن الشيخ محمد الخضري: توفي سنة ١٣٠١ هـ، له ديوان شعر[٣].

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب ـ الشيخ محمد هادي الأميني.
(٢) معجم الأميني.
(٣) راجع الحصون المنيعة.

* العلامة حسين بن الشيخ عباس الخاقاني: توفي سنة ١٣٠٠ هـ، من مؤلفاته شرح الشرائع.

* العلامة محمد علي بن الحاج محمد حسن الخونساري: توفي سنة ١٢٥٤ هـ، له مؤلفات جمة.

* العلامة الشيخ حسين بن الخليلي: توفي سنة ١٣٢٦ هـ، له نجاة العباد.

* العلامة الشيخ محمد يحيى بن الشيخ حسين الخمايسي: توفي سنة ١١٦٢ هـ، له ديوان شعر.

* العلامة السيد جعفر بن السيد أحمد الخرسان: توفي سنة ١٣٠٣ هـ، له مجاميع أدبية.

* العلامة عمر بن حاج أحمد دعيبل: توفي سنة ١٣٢٨ هـ، من مصنفاته نور الأبصار.

* العلامة أحمد بن شيخ عبد الله الدجيلي: توفي سنة ١٢٦٥ هـ، له ديوان شعر.

* محمد رضا بن الشيخ محمود ذهب: توفي سنة ١٣٧٤ هـ، له ديوان شعر.

* العلامة الشيخ راضي بن الشيخ محمد آل راضي: توفي سنة ١٢٩٠ هـ، من مؤلفاته حاشية على نجاة العباد.

* العلامة الشيخ علي بن ياسين الفويشي: توفي سنة ١٣٣٤ هـ، له كتاب في المنطق.

* العلامة الشيخ حسن بن الشيخ محمد صالح زاير دهام: توفي سنة ١٢٩٩ هـ، له ديوان شعر.

* العلامة الشيخ محمد بن الشيخ أحمد سميسم: توفي سنة ١٣١٠ هـ، له ديوان شعر.

* العلامة الميرزا حسين بن الميرزا محمود الشيرازي: توفي سنة ١٣١٢ هـ، من مصنفاته اجتماع الأمر والنهي.

* العلامة السيد عبد الهادي السيد إسماعيل الشيرازي: توفي سنة ١٣٨٢ هـ، من مؤلفاته حاشية العروة الوثقى.

* العلامة السيد عبد الله شبر: توفي سنة ١٢٤٢ هـ، دفن في الرواق له مصنفات كثيرة منها حق اليقين.

* العلامة المولى محمد بن فضل علي الشربياني: توفي سنة ١٣٤٧ هـ، من مصنفاته حاشية المكاسب.

* العلامة السيد محمد باقر بن السيد علي الشخص: توفي سنة ١٣٨١ هـ، من مؤلفاته ديوان شعر.

* العلامة عبد الحسين بن سيد يوسف شرف الدين: توفي سنة ١٣٧٨ هـ، من مؤلفاته النص والاجتهاد.

* فخر الدين بن محمد علي الطريحي: توفي سنة ١٠٨٧ هـ، من مؤلفاته مجمع البحرين.

الطوسي

هو شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي، ولد بطوس في شهر رمضان سنة ٣٨٥هـ، ونشأ بها. هاجر إلى العراق، واستوطن بغداد سنة ٤٠٨هـ، وهو في الثانية والعشرين من عمره، هاجر إلى النجف سنة ٤٤٨هـ. وتقلد شؤون الطائفة الإمامية توفي في النجف ليلة الاثنين الثاني والعشرين من محرم سنة ٤٦٠هـ ودفن بداره بوصية منه[1].

ومؤلفاته كثيرة، منها: الاستبصار، الأمالي، التبيان في تفسير القرآن، التهذيب، الخلاف، تلخيص الشافي... الخ.

وإحياءً لذكرى مرور ألف عام على تأسيس الجامعة النجفية العلمية الكبرى، وعلى ميلاد مؤسسها شيخ الطائفة وسيد العلماء محمد بن الحسن الطوسي، التي ستقام سنة ١٣٨٥ هـ، قدمت هذا الكتاب.

---

(١) مصادر الدراسة عن الشيخ الطوسي ـ محمد هادي الأميني ص ٦٨.

* العلامة الشيخ حسين بن الشيخ علي العصامي: توفي سنة ١٣٠١هـ، ومن مؤلفاته شرح اللمعة للشهيد.

* العلامة الشيخ عبد الصاحب بن عباس الغريباوي: توفي سنة ١٣٤٥هـ، من مؤلفاته ديوان شعر.

* العلامة الشيخ ابراهيم بن الشيخ محمد الغراوي: توفي سنة ١٣١٠هـ، من مؤلفاته الكشكول[1].

* العلامة الشيخ موسى بن الشيخ سالم الفرطوسي: توفي سنة ١٣٦٣هـ، من مؤلفاته المنطق.

* العلامة الشيخ راضي بن الشيخ علي القرملي: توفي سنة ١٣٢٩هـ، من مؤلفاته ديوان شعر.

* العلامة الشيخ عباس بن الشيخ محمد تقي القرشي: توفي سنة ١٢٩٩هـ، من مؤلفاته ديوان شعر كبير.

* العلامة الشيخ قاسم بن الشيخ حمود قسام: توفي سنة ١٣٣١هـ، من مؤلفاته نور العين في أحكام الزوجين.

* العلامة الشيخ حسن بن الشيخ علي قفطان: توفي سنة ١٢٧٥هـ، من مؤلفاته أمثال القاموس.

* العلامة السيد خضر بن السيد علي القزويني: توفي سنة ١٣٥٧هـ، ومن مؤلفاته ديوان شعر كبير.

* العلامة السيد آغا حسين بن السيد محمود القمي: توفي سنة ١٣٦٦هـ، ومن مؤلفاته مجمع الرسائل.

* العلامة محمد حسين بن الشيخ علي كاشف الغطاء: توفي سنة ١٣٧٣هـ، من مؤلفاته الدين والإسلام.

---

(١) طبقات أعلام الشيعة ـ أغا بزرك ـ جـ١ ص ٢٣.

* العلامة السيد عبد الحسين بن السيد علي كمونة: توفي سنه ١٣٣٥هـ، من مؤلفاته نور الهداية.

* الحاج محمد حسن بن الحاج محمد صالح كبة: توفي سنة ١٣٣٣هـ، من مؤلفاته حاشية على كتاب الطهارة.

* العلامة السيد جعفر بن السيد محمد حسين كيشوان: توفي سنة ١٣٤٧هـ، من مؤلفاته ديوان شعر.

* العلامة الشيخ محمد ابراهيم بن محمد حسن الكرباسي: توفي سنة ١٢٦١هـ، من مؤلفاته الصحيح والأعم.

* العلامة الشيخ محمد حسين بن الحاج محمد حسن الكمباني الأصفهاني: توفي سنة ١٣٦١هـ، من مؤلفاته الأنوار القدسية[١].

* العلامة السيد جمال الدين بن السيد حسين الكلبايكاني: توفي سنة ١٣٧٧هـ، من مؤلفاته اجتماع الأمر والنهي.

* العلامة الشيخ محمد بن الشيخ ناصر لايذ: توفي سنة ١٣٢٦هـ، من مؤلفاته، اللؤلؤ المنضد في أخبار آل محمد.

* العلامة الشيخ حسن بن الشيخ عبد الله المامقاني: توفي سنة ١٣٢٣هـ، من مؤلفاته غاية الآمال.

* العلامة الشيخ حسين بن الشيخ محمد مبارك: توفي سنة ١٢٨٩هـ، له ديوان شعر كبير.

* العلامة الشيخ علي بن الشيخ مانع: توفي سنة ١٣٤٨هـ، من مؤلفاته مياه النجف.

* العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ علي محبوبة: توفي سنة ١٣٢٥هـ، من مؤلفاته ارجوزة في المنطق.

---

(١) الفوائد الرضوية للشيخ عباس القمي ص ٥٢٩.

* العلامة الشيخ شريف بن الشيخ محمد محي الدين: توفي سنة ١٢٤٦هـ، من مؤلفاته الشرايف الجامعة.

* العلامة الشيخ حسن بن الشيخ مطر: توفي سنة ١٣٢٩هـ، من مؤلفاته غاية المرام.

* العلامة الشيخ محمد حسن بن الشيخ محمد مظفر: توفي سنة ١٣٧٥هـ، من مؤلفاته دلائل الصدق.

* العلامة الشيخ محمد حسين بن الشيخ محمد مظفر: توفي سنة ١٣٨٠هـ، من مؤلفاته، الإمام الصادق.

* العلامة الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد مظفر: توفي سنة ١٣٨٣هـ، من أشهر مؤلفاته المنطق وأصول الفقه.

* العلامة الشيخ حسين بن حاج نجف: توفي سنة ١٢٥١هـ، من مؤلفاته الدرّة النجفية.

* العلامة الشيخ حسن بن الشيخ محمد نصار: توفي سنة ١٢٨٨هـ، له ديوان شعر.

* العلامة الشيخ محمد رضا بن الشيخ عبد الحسين آل ياسين: توفي سنة ١٣٧٠هـ، من آثاره سبيل الرشاد.

* العلامة السيد محمد كاظم بن السيد عبد العظيم اليزدي: توفي سنة ١٣٧٧هـ من مؤلفاته العروة الوثقى.

* العلامة الشيخ يعقوب بن الحاج جعفر اليعقوبي: توفي سنة ١٣٢٩هـ، له ديوان شعر.

هذا، وعند الحديث عن أدب الجدران «مما كتب على واجهات القبور من شعر ونثر» داخل المدينة، وفي حجرات الدفن في الصحن الطاهر ستَرِد أسماء نخبة أخرى من علماء النجف المجاهدين الأفذاذ، وأسماء طائفة من الرجال المرموقين الآخرين.

السراديب التي تحتويها المقبرة

السرداب: مكان واسع عميق، يحفره الإنسان عمودياً في الأرض، ثم يبني له جدراناً وسلماً، ويسقفه بعد أن يترك له فتحات لدخول النور والهواء. وسراديب الدفن في مقبرة النجف كثيرة جداً قرب الشارع الملتوي وعند الأماكن التي يكثر عليها الذهاب والإياب.

ويتراوح عمقها ما بين ثلاثة أمتار أو أربعة أمتار أو عشرة، وتضم هذه السراديب عادة أموات كل عائلة اختارت لنفسها سرداباً تجمع فيه الذين يتساقطون منها مر الزمان. ويمكن وصفها بأنها تتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق كل واحد منها يحتوي على صف من اللحود يتراوح عددها ما بين الخمسة والثمانية، وهي ضمن جدرانها. أما ساحات السراديب فقد يكون بعضها مرصوفاً كالفناء أو الساحة، وقد تكون معدة للدفن فيها أحياناً.

والسراديب قسمان من حيث السقوف، الأول مسقوف بسقف عادي، والآخر مبني عليه بنايات تضم عدة غرف، هي مكان يجلس فيه الزائرون من ذوي الفقداء وأصدقائهم.

والمعتاد أن ذوي كل مقبرة يعينون شخصاً يلازمها، لحراستها وقراءة القرآن عندها، بأجور زهيدة.

ومن السراديب ما بقي مهجوراً دون بناء وهو خطر على الزائرين أثناء تجوالهم في المقبرة.

أما الفتحات الموجودة في السرداب والمخصصة للدفن فإنها قسم تكوّن بمجموعها ما يشبه خلية النحل، حيث تغلق كل فتحة بعد أن يدفن فيها إنسان. وهذا النوع من السراديب أو القبور شائع في مقبرة النجف، وقد زاد الميل إلى حفر وبناء السراديب من قبل كثير من العوائل المتمكنة في الآونة الأخيرة حتى غدا عددها، الحديث منه والقديم، يبلغ المئات.

وإن سبب ظهور هذا الطراز والإكثار منه يمكن حصره بأمرين هما: زيادة وصايا

الذين قرب أجلهم إلى ذويهم لتحقيق هذا النوع من الدفن، ورغبة الأحياء في حفظ قبور موتاهم من الاندثار، ولتكون السراديب بنفس الوقت مرقداً معدًّاً لهم بعد موتهم. وهذا يعلل لنا كثرة السراديب في الأجزاء التي يكثر الدوس عليها، وبنوع خاص ما بين نهاية شارع الطوسي ومقام الإمام المهدي عليه السلام.

أما تكاليف حفر وبناء السرداب الواحد، فإنه يتفاوت بتفاوت سعة السرداب المراد حفره وبناؤه وعدد لحوده. وشكل وارتفاع البناء الذي يطلب تشييده فوق السرداب، فهي تتراوح ما بين ١٠٠ ـ ١٠٠٠ ديناراً.

الدفن في المنازل

إن الأكثرية من منازل مدينة النجف مبنية على قبور قديمة، لأن الأرض التي تحيط مرقد الإمام كانت كلها أو بعضها مدفناً، وقد حدثني البناؤون بأن كثيراً من منازل النجف القديمة التي هدموها لغرض إعادة بنائها من جديد، ولأجل حفر سراديب جديدة لها تساعد على التخلص من حر الصيف وهوائه اللافح. وجدوها تحتوي لحوداً ورمماً.

والدفن لا يزال جارياً في كثير من المنازل، ويتم ذلك بأن يعزل صاحب الدار حيزاً من داره، ويجعله مقبرة له ولعائلته، أو يحفر سرداباً خاصاً به، ويبني فوقه قبّة، وتكون البناية بعد ذلك بمجموعها منفصلة عن منزله.

والناظر من فوق مرتفع أو سطح عالٍ إلى مدينة النجف يشاهد قبباً خضراء وزرقاء متناثرة، أكثرها في جانب العمارة (الجهة الغربية من المدينة)، وقد أدى فتح الشوارع الجديدة إلى هدم وطمر قسم من المنازل وسراديب الدفن التي احتوتها.

والدافع الذي دعا بعض الأشخاص وحثهم على أن يوصوا في حياتهم بأن يدفنوا في منازلهم بعد موتهم هو رغبتهم في دوام قبورهم وتخلصها من الاندثار، ويضاف إلى ذلك رغبتهم في دفنهم بين ظهراني ذويهم وفي كنف من دارهم. ولربما أخافتهم وحشة الابتعاد في القبر عن الأهل والدار، فبلغوا وصيتهم ذويهم ليدفنوهم في قعر دارهم.

وفي هذه الخوالج المؤدية إلى توصية الذين قرب أفولهم للدفن في منازلهم بعض محاسن، غير أن مساوئها أكثر من محاسنها ومنافعها. لأن أحسن الدفن، إن صح رأيي، هو ما بعد عن المجال السكني.

من أدب الجدران
مما دوّن على واجهات القبور داخل المدينة

وانطلقت أجوس في أزقة المدينة، أتعرف على مدى استمرار الدفن في المنازل، وبينها، عرفت أن هذا النمط من الدفن لا يزال جارياً، وإن كل مكان يُعد خاصاً للدفن يدعى بمقبرة، فمثلاً هذه البناية مقبرة آل فلان وهذه، مقبرة بيت فلان في دارهم أو قرب مسجدهم. والعناية بهذه المقابر على أتمها، وقد لاحظت أن أكثر المقابر قد زينت واجهاتها بآيات بينات من القرآن الكريم، وبأبيات من الشعر رائعة المعاني، وجميلة الأداء. وقد خطر في ذهني أن أفتح صفحة في كتابي عنوانها أدب الجدران حيث أن كل الاعتماد في إتمامها على بعض ما كتب على واجهات القبور داخل المدينة من شعر ونثر:

فها أنذا مشرف على ضريح عامر بناؤه، قد أودع فيه فقيه من فقهاء النجف الكرام، عظيم المنزلة، رفيع المقام. وقد أرخ عام وفاته بهذه الأبيات التي دونت على واجهة مقبرته وهي:

هذا المقام ترفعت أعتابه ... شأناً وجازت مطلع الجوزاء
وضريح قدسٍ فيه أودع غرة ... الأيام سرُّ الملّة الغراءِ
هذا ملاذ الخائفين فلذ به ... أرّختُ مضجع أفقهِ الفقهاءِ

وإن في الطرف الشمالي الغربي والغربي من النجف حشداً من القبور بين المنازل، فهذا أحدها، لإمام فقيه من أئمة العصر قد أرخ الشاعر عام وفاته، وجلّى بعضاً من مكرماته، بأبيات كتبت على واجهة قبره هي:

هذه بقعة قدس ... هي للمهدي مشهد
هي للخائف كهف ... وهي للطائف معبد
حرم ينزل فيه الوحي ... والأملاك تصعد

لإمام العصر ارخ إنه في خير مرقد

* * *

وعلى واجهة هذا المرقد المنوّر تجلت بعض مزايا فحل من رجال الفكر الإسلامي، ببيتين قد كتبا بخط جميل هما:

أسرار أحمد فيه بل سرائره بين الأنام يتيمات جواهره
ذا مرقد الحسن الزالي الذي رحبت أسرار أحمد فيه بل سرائره

ويرقد هنا في ثرى مقبرة يطل جانب منها على الجهة الجنوبية من الشارع المحيط بمرقد الإمام علي عليه السلام، ضيفان على الإمام(ع). كان ارتحالهما قد أفاض قريحة الشاعر الذي قال يرثيهما، ويؤرخ عام وفاتهما:

خطب أطل فأودى القلب في شغل انحى على المجد فيه صارمَ الأجلِ
بني الأعاسم صبراً إن هوى بكم بدر تمام وبدرٌ غير مكتملِ
فحاتم وعزيز غاب نجمهما في الأربعين بحيث العهد لم يطلِ
فقلت مُذ رحلا رزءاً أؤرخه ضيفان حلّا لدى صنو النبي علي

* * *

وعلى واجهة جامع المحدث الفقيه الشيخ فخر الدين الطريحي الأسدي دونت أبيات توضح فضل ومكانة هذا العالم الذي أرداه المنون، فخسره عالم الإسلام، ومسجده يقع في طرف البراق في الجهة الجنوبية من النجف وهي:

رزء أصاب حشى الهدى والدين مذ فخره أودى بسهم منونِ
علم له علم العلوم وفضلهُ منشورة أعلامُه للدين
سل مجمع البحرين والدرر التي جمعت به عن علمه المخزونِ
وانظر لتأليفاته وبيانه الشافي بعين بصيرة ويقينِ

وهذا قبر مطل على شارع السور يبدو أنه لأحد الوجهاء المرموقين الذين انقادت لهم أسباب الدنيا، غير أن مؤرخ عام وفاته أفصح بأن الفقيد هجر الدنيا حين فتحت الجنان لروحه أبوابها فقد قال:

قد طلق الدنيا ثلاثاً راحلٍ من بعد ما انقادت له أسبابها
هذي جنان الخلد ارخ ناعياً فتحت لروح محمد أبوابها

وهذه أربعة أبيات رصينة الأسلوب جميلة المعنى كتبت على واجهة المقبرة التي ضم ثراها قسماً من علماء الشريعة والفكر وهي :

هذا مقام فيه قد ثوى الحسن سليل جعفر الإمام المؤتمن
ثم أخوه جعفرٌ من علمه قد شع كالغرة في وجه الزمن
وابن أخيه العلم المهدي والقائم بالحق فروعاً وسنن
ثم ابن موسى بن الإمام جعفر محمد الندب الرضا رب المنن

* * *

وعلى جدار هذه المقبرة المطلة على شارع السور في الجهة الشمالية من المدينة، كتبت أبيات تؤرخ عام وفاة فقيه مجاهد في الله، وتذكر بعضاً من فضائله وعلو شأنه وهي :

ذي حضرة تسطع أنوارها كأنها قد حوت التبر اللجين
حازت فقيه العلمِ فردَ التقى والعلم الفائز بالحسنين
لانفرد الشيخ بتأريخه بكَ نضجعُ العلمَ وعبد الحسين

* * *

وطالعتني حين وقفت إزاء جدار مقبرة طرف العمارة أبيات نقشت عليه بخط حسن جميل، وهي في غاية من الروعة من حيث رصانة الأسلوب ورفعة المعنى ولطافته. وقد أخبرتني هذه الأبيات عن رفعة مقام الذين رقدوا في المقبرة التي تجلت شامخة إزائي، فمنهم المفكر العظيم، ومنهم المجاهد الفقيه، ومنهم العالم الورع الزاهد، وهي :

يا لك من بقعة فخر حوت أعلام قدس في ذرى المجدِ
ابحر علم مدها جعفر أئمة تهدي إلى القصد
قد شاد مبناها أبو باقر فحاز فيها جمل الحمد

مدخراً فيها له مرقداً وتلك أقصى رتب الزهد
من طول العمر يناديه أن لا بد للسيف من الغمد
طوباه إذ يصبح مثواه في أخراه بين الأب والجَد

* * *

وكتب على واجهة مسجد الطوسي الواقع في طرف المشراق هذا القول: هذا مرقد أية الله العظمى صاحب الكرامات الباهرة السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي وأولاده الصلبيين خاصة تغمدهم الله برحمته ورضوانه جدد سنة ١٣٨٣هـ.

* * *

وعلى جدار جامع الطوسي الخلفي نفسه تأريخ لوفاة شيخ الطائفة الإمام الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ وهي:

يا مرقد الطوسي فيك قد انطوى محي العلوم فعدت أطيب مرقدِ
وبكى له الشرع الشريف مؤرخاً أبكى الهدى والدين فقد محمد

* * *

ونقل لنا الشيخ جعفر محبوبة في كتابه ص ٤٣ الأبيات التي كتبت على باب الطوسي من خارج الصحن الشريف:

يا زائراً جدث الوصي المرتضى لُذ في حماه وقف بجانب بابه
واخضع لعز جنابه والثم ثرى أعتابه وانشق عبير ترابه
وادخل بآداب السكينة واستلم أركانه عند الطواف بغابه
وقل السلام عليك يا من حبه كل الخطايا في غد تمحى به

وباب الصحن الشريف كان يسمى بالباب السلطاني في جهة الغرب، فتح في أيام عبد العزيز العثماني سنة ١٢٧٩، كتبت أبيات بالقاشاني على جبهة الباب من خارج الصحن.

وإن في جهة باب الكبير الشرقي إلى يمين الداخل إلى الصحن الشريف أبياتاً مكتوبة على الطاق من داخل الصحن الشريف وهي:

يا علي يا أمير المؤمنين ... أنت باب الله والحق المبين
خصك الله وصياً وأخاً ... للنبي المصطفى طه الأمين
كل من مات من الناس رأى ... عنده شخصك في عين اليقين
تورد الحوض مواليك غداً ... يا مقيلا عثرات المذنبين
لك من بين الوصيين حمى ... روضة العافين أمن الخائفين
جنة، جنة عدن دونها ... فأدخلوها بسلام آمنين

* * *

وهناك في مسجد صافي صفا، وقد مر الحديث عن هذا الرجل ومكان دفنه، صخرتان عليهما شعر مع تاريخ، والقصيدتان عربيتان يرجع تأريخهما إلى أوائل القرن الثاني عشر الهجري، على الصخرة الأولى دون:

هذا مقام الطهر مولى رقى ... أعلى مقامات العلى قدره
أعني به المولى التقي الذي ... في كل قطر قد فشا بره
ضمت به مجداً إلى مجدها ... (عصيدة) مذ عمها فخره
رب سخاء ما حلت بيضه ... في عينه يوماً ولا صفره
فيا له كم شاد من مسجد ... ينمو إلى يوم الجزا أجره
هذا مقام الطهر هذا الذي ... شيدت على أس التقى جدره
أعظم به من مسجد لم يزل ... يبدي لنا فيض المنى بحره
لو أنه عمّر قدماً كذا ... إيوان كسرى ما فشى سره
ولو درت جنة عدن به ... ودت بأن يصحبها نشره
يا أيها الزائر زر مسجداً ... بحطّةٍ عظّم له قدرُه
واشكر فتى عمره وادع أن ... يطول ما طال المدى عمره
لقد أتى تأريخ تعميره ... فيه (تقى) وواجب شكره

وعلى الصخرة الثانية دون:

فناهيك صرحا يزدري كل من رأى أناخ على العليا بأعظم كلكل
سما قدره أعلى المجرة رفعة وجر عليها ثوب مجد مرفل
تلافاه لما أن تداعى بناؤه وخر إلى أقصى الحضيض المهيل
همامٌ بني بيت الفخار على السهي فقات سماكاً رامحاً بعد أعزل
بهي جلا ديجور كل مهمةٍ أضاء ببادي نوره كل مجهل
جواد يفوت البحر جود يمينه ويزري بوكّافٍ من الغيث مسبل
فجدد من أكنافه كل هامد وقوم من أرجائه كل أميل
فمُذ زاره بانيه قلت مؤرخاً مقام الصفا قد شاد أركانه علي
تأريخه ١١٨٧ هـ

وهناك إلى جوار هاتين الصخرتين صخرة ثالثة عليها بيتان بالفارسية مؤرخان سنة ١١٦٥هـ حول هذا التجديد هما:

بخ از شريف وادي نجف است فيض درجهان بكربلا ونجف أست
كاه أرواح قدس دراين تأريخ برجاده صفه صفاي نجف أست
سنة ١١٦٥ هـ

وفي صفة الصفا مقام لعلي عليه السلام، قد كتب على محراب هذا المقام بيتان من نظم سيد حسين بن السيد مير رشيد النقوي:

هذا مقام الطهر حيدرة عين العلا والعطاء والعز والعظم
باب العلوم مصلى القبلتين مع المختار بيت المجد والكرم

أما عندما طرأت التصليحات على مرقدي هود وصالح عليهما السلام وأنشأت عمارة ثالثة ذلك سنة ١٣٣٧هـ، فقد دونت أبيات تؤرخ هذه العمارة وهي مكتوبة على واجهة الباب:

سما لضراح الأفق دون الضرايح ضريح علا سام بخير الأباطح
تود الثريا أن تكون ثرى إلى جوار علي خير هاد وناصح
فدع واحد الدنيا وارخ: مجدد ضريح الهدى هود الزكي وصالح

وذكر أن العلامة السيد نصر الله الحائري نظم بيتين ودونهما على مقام الحجة عجل الله فرجه وهما:

أيا صاحب العصر إن العدى أرونا الكواكب بالظلم ظهرا
فاطلع لنا فجر سيف به تجلى ظلام العنا المكفهرا

وهنا في طرف العمارة مرقد لسيد فاضل وعالم بارع كتبت على واجهة قبره أبيات تنعيه وتؤرخ وفاته هي:

مال الهدى مدرعاً أثواب الكسا وللمعالي علم قد نكسا
نعم قضى المهدي نجل صادق من شاد أركان الهدى وأسسا
هو الضراح شرفاً ورفعة فأرخوه بالضراح رمسا

وفي مقبرة السيد نور الياسري في طرف البراق كتب البيتان، وهما للسيد المرحوم رضا الهندي (نور الله ضريحه):

هذا ضريح فيه نور الهدى وهو بنور الله مغمورُ
وكيف يخشى ظلمات الثرى ارخ ضريح ملؤه نور

الصحن الشريف والدفن فيه

«كانت أرض الصحن وعرة لكثرة ما فيها من قبور ومحاريب. وكانت سائر المحاريب ظاهرة على وجه الأرض، وفي سنة ١٢٠٦ أسست ساحة الصحن. وعملت السراديب الخاصة بالدفن، وبلطت أرض الصحن بالصخور والمرمر، والتصليحات في ساحةالصحن جارية، والدفن فيه جارٍ لحد الآن[١]».

وفي سور الصحن الرباعي عدد من الأواوين وراء كل إيوان حجرة أعدت لتكون مقبرة، وقد دفن في تلك الحجرات عدد كبير من المشاهير.

(١) راجع كتاب ماضي النجف وحاضرها ـ الجزء الأول ـ «الطبعة الثانية».

من أدب الرثاء
الموجود في حجرات الصحن الشريف

إن الحجرة الأولى التي دخلتها هي مقبرة السيد «أبي الحسن الأصفهاني (ره) وهي الحجرة الواقعة على الجانب الأيسر بالنسبة للداخل إلى الصحن من الباب الرئيسي. وفيها دفن قسم من العلماء الذين جاهدوا جهاد الأبطال لرفع شأن العلم، ونشر راية الحق، ودافعوا عن الإسلام، وناصروا المستضعفين، وذلك بتجنيدهم عقولهم وأقلامهم، وألسنتهم، فكان سعيهم مشكوراً ولهم عند ربهم أجر وفير وهم:

السيد أبو الحسن الأصبهاني المتوفى سنة ١٣٦٥هـ.

والسيد حسن نجل السيد أبي الحسن، المتوفى سنة ١٩٤٩م بين فريضتي المغرب والعشاء وسط الصحن الشريف قتلاً ليلة الأحد السادس عشر من صفر.

والسيد مير الحسيني البادكوبي، المتوفى سنة ١٣٥٩هـ ليلة السابع من ذي القعدة.

والسيد حسين أصفهاني، المتوفى سنة ١٣٤٨هـ.

والعلامة الأخند الخراساني محمد كاظم، المتوفى سنة ١٣٢٩هـ.

والعلامة الشيخ مرزا حبيب الله الرشتي.

والعلامة الشيخ إسحاق الرشتي.

فالداخل إلى الحجرة يشاهد قبراً وسطها، مغشى بقماش أخضر عليه بعض الفوانيس، وعلى الجدار علقت صور كبيرة كتمثال لأولئك العباقرة الذين رمسوا فيها، أبرزها صورة السيد أبي الحسن (ره) وإلى الأسفل من صورته على نفس اللوحة، كتب تأريخ وفاته الذي نظمه الأديب الشيخ محمد السماوي:

تولى أبو الحسن المكرمات وأشغل فيهن أفكاره
ولما رأى طيب ذاك الجوار ارخ - أبو الحسن اختاره

وقرب صورته الباهرة المنورة، لوحة كتب عليها بخط حسن بديع، ما يشبه

الدعاء، أعد ليقرأه من يبتغي التسليم على أبي الحسن (ره)، ممن دخل حجرة مرقده رحمه الله، وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

رحمك الله يا أبا الحسن، عشت سعيداً، ومت سعيداً، وكان يومك مشهوداً، وفضلك معدوداً، فمن للعيون أن تفتح على ندك، ومن لهذه الأمة المفجوعة من بعدك، ما أقر عيون أجدادك برؤيتك، وما أشد وحشة أولادك وأحفادك لغيبتك، العلم بعد يومك متعطل، وحوائج الناس متروكة تغفل، لقد كنت لليتامى أباً كريماً وبالمؤمنين براً رحيماً، رقيقاً على الأرقاء، شديداً على الأشداء، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، قيامك بالله وقعودك لله، وعملك في الله، لا تأخذك في الحق لومة لائم ولا تخشى فيها تفعله سطوة معتد غاشم، الذليل عزيز عليك، والعزيز ذليل لديك، لا يطمع شريف في أن تحكم له، ولا ييأس ضعيف من أن تأخذ له، لو كانت إرادتك سيفاً لكانت صارماً: ولو كان كرمك شخصاً لكان حاتماً، جمعت العقل والرئاسة، وحسن الخلق والكياسة، منطق سهل وقول فصل، فقدناك فقد البدر في الظلماء، وأين البدر ما كان لك سنا وسناء، فهنيئاً لك الدار الأخرى، ولأجر الآخرة خير لك وأبقى، وجزاك الله عن هذه الأمة خير جزاء، وأحسن لها بفقدك العزاء ويسر لها من لطفه من يقوم مقامك بأمورها، وخار لها في تقرير مصيرها، السلام عليك يوم ولدت ويوم مت، ويوم تبعث حياً.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وللسيد الفاضل صادق الأعرجي البغدادي مؤرخاً وفاة السيد رحمه الله أيضاً:

وطائش فكر قال لي متعجباً لمن هذه الأجفان دمعها غرقى
ومن هو ميتاً زلزل الأرض والسما فقلت ارخ ـ هو العروة الوثقى

أما م. س الفاضلي فقد كتب هذه الخاطرة في رثاء فقيد الإسلام والمسلمين، ومروج العلم والدين، زعيم الطائفة الإمامية ومرجعها المطلق أستاذ العلم والعلماء، وقد علقت على الجدار هي الأخرى إلى جوار اللوحات السابقة وهي:

أبو الحسن الحاوي لكل فضيلة لك الدهر في حصر الفضائل يشهد

جدير بفضلك يوم كنت زعيمها وفي الدين والدنيا ملاذ ومقصد
رؤوف بنا قد كنت ترأس أمرنا جواد علينا بل من المزن أجود
فقدنا بك الإحسان والفضل كله ومثلك يا حامي الشريعة يفقد
فأتعبت أهل الفضل ممن تأخروا وانسبت من في الفضل قدماً تفردوا
فأمك حوراء النساء وحيدرٌ أبوك ونعم الجد جدك أحمد
ثويت قرير العين في بقعة الحمى وروحك في روض الجنان مخلد
عليك سلام الله يا أوحد التقى بمقدار ما يدعى الإله ويعبد

وقرب اللوحة الناطقة هذه التي أسلفنا، أخرى نظمها العالم المرحوم السيد رضا الهندي مؤرخاً عام وفاة العلامة الحجة السيد مير الحسيني البادكوبي:

بكى لك الدين بدمع غزير والشرك قد بات بطرف قرير
عز علينا يا نصير الهدى إن الهدى عز عليه النصير
قد كنت ما بين الورى كعبة يأمن فيها الخائف المستجير
وروضة تنفح أزهارها والجود من كفيك فيها غدير
بشراك إن بدلت دار العنا بعترة الهادي البشير النذير
وبت عند المرتضى أنساً بجنة الخلد وملك كبير
جاورت مثواه لذا أرخوا يثوى أمير في جوار أمير
١٣٥٩ هـ

وجوار ذلك، لوحة يؤرخ بها العلامة المرحوم السيد رضا الهندي أيضاً عام شهادة المرحوم السيد حسن نجل المرحوم آية الله السيد أبي الحسن الأصفهاني:

حييت وأنت في الدنيا سعيد ومت وأنت مظلوم شهيدُ
وما ضر من في الله يفنى ويبقى بعده الذكر الحميد
قضيت العمر في عمل وعلم ولم تبرح تفيد وتستفيد
وفي سن الصبا لازمت هديا شيوخ الفضل عنه لا تزيد
فلو عاش الندى لبكاك حزناً ولكني أراه هو الفقيد
ولو مثل الهدى لغدا يحلي ثراك لدمعه عقد فريد

أعيذ لجين جسمك أن أراه | نضاراً حين يقطعه الحديد
أعيذ جمال وجهك وهو بدر | منير أن يغيّبه الصعيد
أعيذ بني نزار وهم ملوك ا | لبرايا أن تُجد لها العبيد
أهون نكبتي أن ليس بيني | وبين منيتي أمدٌ بعيد
وأنك طبت في الفردوس عيشاً | وحاق بخصمك الخزي الشديد
بكى عام الفراق القلب شجواً | وارخه «مضى الحسن الشهيد»

ودخلت حجرة أخرى من حجرات الصحن الطاهر فيها قبر سردار أعظم ووالدته بنت ناصر دين شاه قاجاري، أحد ملوك إيران، قد نحت على صخرة قبره تمثال لشخصه، ثم إلى الأسفل من هذا التمثال كتبت قطعة شعرية باللغة الفارسية، ووضعت على تلك الصخرة الفاخرة، القناديل. أما الحجرة عموماً فقد فرشت بالسجاد، وعين لإدارتها شيخ واهن الجسم، يلازمها على الدوام.

* * *

وحجرة أخرى إلى جهة اليمين بالنسبة للداخل إلى الصحن من باب القبلة المنتهي بشارع الرسول، ضمت أجساد قسم من الصلحاء منهم:

أقاي حاجي أقا كمال الدين أصفهاني، المتوفى سنة ١٣٥٢هـ.
السيد حسن الموسوي الخلخالي ـ رحمه الله ـ.
اقاي السيد محمد خلخالي ـ رحمه الله.
السيد موسى الجصاني، المتوفى ١٣٦٠هـ.
السيد عبد الصمد الشوشتري الجزائري المتوفى سنة ١٣٣٧هـ.
السيد ابراهيم الجصاني ـ رحمه الله ـ.

وعلى جدران الحجرة علقت صور من ذكرت، وعلقت كذلك قطعة شعرية تؤرخ وفاة السيد موسى الجصاني وتذكر ما له من جلائل الأعمال والصفات التي عرفها الخاص والعام، تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جناته، قيل في ذلك تأريخان: هما:

التأريخ الأول:

يــا لــلأسى والحــزن من كــارثــة عمت بني الإيمـان بـالخـطب الجلل
حــتى مضى مــوسى وظــل قــومــه في خيبــة الـرجــاء وضيعـة الأمــل
بــالـبر والتقــوى قضى العمــر وكم قــد أيــد الــدين بعـلم وعـمــل
ومــذ دعــاه ربــه ارخ [وقــل طــوبى لــه قضى مــوسى الأجــل]

التأريخ الثاني:

الا أن آيــات مــوسى الـتي بهـا أودع الله أمـثـالــه
تـنــوح وتبــكــي عــلى فـقــده يـشـجــو ويـنــدب أفـعـالــه
مـا راح مـذ راح إلا لـكـي يـوفـيــه الله أعــمالــه
ولـمـا دعــاه لـمـيـقـاتـه فـأرخ [بـه اخـتــار مـوسى لـه]

وفي الحجرة الأولى، التي على يسار الخارج من باب الطوسي يرقد عدد من العلماء الأعلام، قد علقت صور أكثرهم على جدرانها المزدانة بأدب الرثاء الفارسي والعربي، المدون على صخر مرمر جميل، وممن دفن فيها:

ـ العلامة السيد أبو القاسم ـ الموسوي الأصفهاني.
ـ العلامة الشيخ محمد علي قسام توفي سنة ١٣٧٣ هـ.
ـ العلامة السيد محمد اليزدي الفيروزآبادي توفي سنة ١٣٥٤ هـ.
ـ العلامة السيد هاشم السيد حسين الحسيني توفي سنة ١٣٧٠ هـ.
ـ العلامة الشيخ مرزا علي محمد الشريف الأصفهاني المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ.
ـ العلامة السيد علي الحسيني الشاهروردي.
ـ العلامة المرحوم السيد محمد رضا شيرازي.
ـ العلامة محمد باقر القمي المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ.
ـ المرحوم أقاي بهادر السلطان بهبهاني المتوفى سنة ١٣١٩ هـ العلامة الشيخ كاظم علي بيك.
ـ العلامة الشيخ موسى قسام المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ.

وإلى الأسفل من صورة العلامة المفضال الشيخ كاظم علي بيك دونت هذه الأبيات المفصحة عن مكانته وفضله:

يا مثال الفضل ما زلـ ... ـت بذكراك مخلد
غبت عنا فتوارى ... من سما العلياء فرقد
وسما قبرك تبقي ... جوهر الفضل المجرد
بشذى مشواه ارخ ... «طاب للكاظم مرقد»

أما ما دون تحت صورة العالم الفاضل الشيخ موسى قسام رحمه الله فهو:

أعجب لموسى ففي تمثاله العجب ... لما بدا بارزاً بالمنظر الحسن
عصاه تبطل سحر الساحرين وذا ... تمثاله ببديع الحسن اسحرني

وفوق مرقد العلامة محمد باقر القمي رحمه الله، صخرة نحتت عليها هذه الأبيات المجلية عن مقامه السامي ومكانته الرفيعة:

ثوى في الثرى روضة الناظر ... وقد غاض بحر الندى الزاخر
فذا باقر العلم مهدي الورى ... أمام الهدى العلم الظاهر
قضى طيباً طاهراً برده ... وقد ضاع منه شذا عاطر
وخير مقام به قد ثوى ... فمن دونه الفلك الدائر
مقام نود ذكا أنها ... ثوت فيه والقمر الزاهر
وحين مضى واحداً ارخوا ... إلى الخلد صدقاً سما الباقر

سنة ١٣٣٤ هـ

* * *

وعند بدء دخول السوباط[1] من الصحن الطاهر من الجهة الشمالية الغربية تشاهد حجرة، قال لي المشرف عليها أنها مقبرة «قاجاري» وتبين لي أن الذي يرقد فيها هو حاج محمد حسن خان صدري جلال السلطنة.

* * *

(١) الجانب الغربي المسقوف من الصحن الشريف.

كما يلاحظ في بداية السوباط من تلك الجهة على جانب اليسار حجرة صغيرة، وهي مقبرة السيد محمد علي القزويني رحمه الله، فيها لوحة معلقة على الجدار دونت فيها أبيات الرثاء التالية:

أم البنين دهرها أكرم بها | عن طاعة الرحمن أناً ما ونت
شاكرة لأنعم الله ومن | عظائم الارزاء طرّ أ ما شكت
حتى إذا ما غاب عنها واحد | الدهر احتسابا فيه تأريخاً قضت

سنة ١٣٥٦ هـ

وفي وسط السوباط تقريباً دخلت إلى حجرة يرقد فيها العلامة السيد محمود الطباطبائي الحكيم المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ، كتبت إلى الأسفل من صورته الأبيات البليغة الرائعة المؤشرة إلى جلائل فضائله ومؤرخه عام وفاته رحمه الله، هي:

دوى القضاء وجلجل الحدث الذي | فيه تناثر عقدها المنضود
من جوهر الألطاف صيغ فأرخوا | تمثال قدس قائم محمود

ويرقد بنفس الحجرة المرحوم السيد كاظم السيد حسين الطباطبائي المتوفى سنة ١٣٨٢ هـ، والشيخ خضر الدجيلي المتوفى سنة ١٣٨٣ هـ. وقد رثى المرحوم الدجيلي بأبيات دونت إلى الأسفل من صورته، تؤرخ عام وفاته، هي:

نعى التقى والعلم ناعي الردى | لغدر دهرٍ غير مأمونِ
ثكل أهل العلم والدين مذ | أحرق أكباد الملايين
الخضر حي لم يمت ذكره | لكن مضى للخلد والعين
فيا لشهر الصوم أرخ به | «قضى فقيد العلم والدين»

* * *

وفي الحجرة الواقعة ما بين مدخل السوباط، وباب الصحن المؤدية إلى سوق العمارة، يرقد العلامة الشيخ ضياء الدين العراقي طاب ثراه المتوفى سنة ١٣٦١ هـ، وعند قبره دونت على الجدار أبيات شعرية ترثيه وتفصح عن مآثره، هي:

ما مات من آثاره بعده | بين الورى باقية الإسم

لما سروا بنعشه والهدى ظلت أمي عيونه تدمي
بلوعةٍ ارخته قد دجى بعد ضياء أفق العلم

وعلى واجهة قبر ابنته المرحومة زينب المدفونة بنفس الحجرة التي يرقد فيها أبوها ضياء، كتبت أبيات الرثاء المفجعة المؤرخة لعام وفاتها رحمها الله:

يبكي الهدى لزينة ما لها من ثمن فالله أغلاها
ونبعةٍ من دوحة قد زكت صفى بها الدهر فواراها
وفي حمى حامي الحمى ألحدت ترجو غدا ينقذها طه
أم الرضا بنت الهدى تحفة ما مثلها والفضل أغلاها
يا سائلاً عن قبرها باحثاً أرخت عد فالخلد مثواها

وفي نفس الحجرة أيضاً يرقد المرحوم سعد الحاج عباس دوش المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ، وعلى الجدار بالقرب من ضريحه نعته هذه الأبيات وارخت عام وفاته:

يا قبر واروا في الثرا أبا الرضا من اثكل الأصحاب والأحبابا
إن المكارم فيك حجِّب بدرها ارخ وعنها سعدها قد غابا

وليس غرضي هو استقصاء جميع ما كتب على واجهات المقابر في حجرات الصحن، وإنما الغرض انتقاء البعض منها كمثلٍ لهذا النوع من أدب الرثاء الذي يملأ الحجرات.

«مشاهدات وشائعات»

حول بقاء أجساد بعض العلماء والصلحاء كما هي رغم مرور الزمن عليها

وهذا الموضوع يحتاج إلى كثير من الدقة والتأمل، والبتّ فيه صعب إن سلباً أو إيجاباً. لأننا إذا نفينا كذبتنا بعض الشواهد، وإن أثبتنا، فإن ذلك يكون من باب الموجبة الجزئية لا أكثر، وكأنه تكريم من الله عز وجل لقيمة العلم والعلماء.

والذي دفعني للحديث عن هذا الأمر (أجساد العلماء هل تبلى؟) هو ما تردد ويتردد على ألسن الناس في النجف ـ باعتبارها من أكبر المدافن في العالم ـ أن العمّال «الدفانة» وغيرهم من أرباب البناء والتعمير، عثروا أكثر من مرة على جثثٍ لبعض العلماء وهي لا تزال غضةً طريةً، نعم يروي أكثرهم أنهم يجدون الأكفان قد رثت وبليت، وحتى أن بعضهم وصف كفن أحد العلماء ـ وهو السيد بحر العلوم ـ على ما اتخطر، أشبه شيء بورق السيكارة، أو بالرماد المتماسك، إذا لامسه الإنسان تفتت.

وهناك قصص حول هذا الموضوع يرويها «البناؤون» عما صادفوه أثناء قيامهم بترميم بعض المقابر.

بل وجدت في مقدمة كتاب «معاني الأخبار» لابن بابويه القمي الملقب بالشيخ الصدوق رحمه الله المتوفى سنة ٣٨١ هـ والمدفون في الري (طهران) على مقربةٍ من مقام الشاه عبد العظيم الحسيني ما نصه: «على قبره قبة عالية، يزوره الناس ويتبركون به، وقد جدد عمارتها السلطان «فتحعلي شاه قاجار» سنة ١٢٣٨ هـ تقريباً بعد ما ظهرت (له) كرامة شاع ذكرها في الناس، وثبتت للسلطان وأمرائه وأركان دولته، ذكر تفصيلها جمع من الأعاظم . . . إلى أن قال: إنه قد وقع في رباع مدينة الري المخروبة ثلمة وانشقاق من طغيان المطر، فلما فتشوها وتتبعوها بقصد إصلاح ذلك الموضع بلغوا إلى سردابةٍ فيها مدفنه الشريف، فلما دخلوها وجدوا جثته الشريفة هناك مسجاة عارية غير بادية العورة جسيمةً وسميةً، على أظفارها أثر الخضاب، وفي أطرافها إشباه الفتايل من أخياط كفنه البالية على وجه التراب، فشاع هذا الخبر في مدينة طهران، إلى أن وصل إلى سمع الخاقان المبرور، السلطان «فتحعلي شاه قاجار» جدّ والد ملك

زماننا هذا. . . فحضر الخاقان المبرور هناك بنفسه المجللة. . وأرسل جماعةً من أعيان البلدة وعلماءهم إلى داخل تلك السردابة بعدما لم يسروا إمناء دولته العليّة مصلحة الدولة في دخول الحضرة السلطانية ثمة بنفسه، إلى أن انتهى الأمر عنده من كثرة من دخل وأخبر إلى مرحلة عين اليقين، فأمر بسد تلك الثلمة، وتجديد عمارة تلك البقعة. . الخ[1].

وهناك قصة أخرى تناقلتها بعض الكتب تتعلق بالشهيد «الحر بن يزيد الرياحي» رضوان الله عليه،وقد ذكرها السيد نعمة الله الجزائري في كتابه الأنوار النعمانية[2]، قال:

«إنه حدثني جماعة من الثقات أن شاه إسماعيل لما ملك بغداد أتى إلى مشهد الحسين عليه السلام، وسمع من بعض الناس الطعن على الحر، أتى إلى قبره وأمر بنبشه، فنبشوه فرأوه نائماً كهيئته لما قتل ورأى على رأسه عصابة مشدودة فأراد الشاه أخذ تلك العصابة نقل في كتب السير والتواريخ إن تلك العصابة هي دسمال(*) الحسين عليه السلام شد بها رأس الحر لما أصيب في تلك الواقعة ودفن على تلك الهيئة، فلما حلوا تلك العصابة جرى الدم وكلما أرادوا أن يعالجوا قطع الدم بغير تلك العصابة لم يمكنهم فتبين لهم حسن حاله، فأمر فبنى على قبره بناء وعين له خادماً يخدم قبره»[3].

وفي حدود سنة ١٩٦٩ ـ أو بعدها بقليل على ما أتخطر ـ جُدّد المسجد المعروف بمسجد الطوسي في النجف الأشرف، ووصل الترميم إلى قبر العلامة السيد مهدي بحر العلوم حيث ضمته والطوسي تربة واحدة، فكانا متقاربين، وحين كشفوا عنه وجدوا جثته لا تزال سالمة، بينما الكفن قد رث وبلي. هكذا نقل في ذلك الوقت.

---

(١) معاني الأخبار ص ٧٥ نقلاً عن روضات الجنات ٥٣٣.

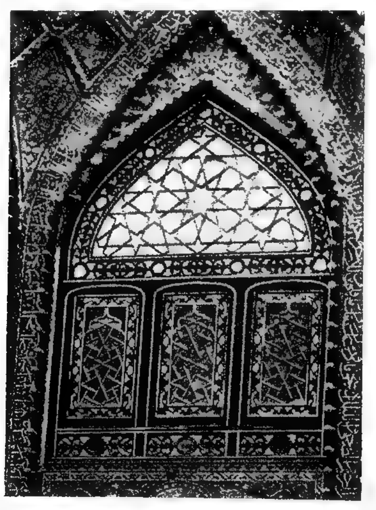
(٢) من كشكول البحراني جـ١ ص ٣٤٤، نقلاً من كتاب الأنوار النعمانية. وسفينة البحار ص ٢٤٠

(٣) بحار الأنوار ج١١ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(*) دسمال لم نجد لها معنىً في كتب اللغة وقال في سفينة البحار: كلمة غريبة. أقول: لعلها كلمة فارسية.

ويحدّث أكثر العمال الذين قاموا بتجديد رصف الصحن الشريف بالرخام، فيقولون: أنهم في عملهم هذا عثروا على قبور لا زالت الجثث فيها سليمةً، وكأن الروح قد فارقتها بالأمس، وكان هؤلاء العمال ينادون المارة من الناس ليروا بأعينهم وليشهدوا على ما رأوا. بينما القبور الأخرى لا يرى فيها إلا رميمٌ أو عظام بالية.

من هنا ساد الاعتقاد لدى الناس أن جثث الأولياء والصالحين والعلماء، تبقى كما هي، وكأن ذلك تكريم من الله سبحانه لتلك الأجساد التي دأبت على طاعته ولتلك الوجوه التي تعفرت لوجهه الكريم، وتلك الأيدي التي جاهدت في سبيله بالسيف أو بالقلم، أبى الله إلا اكرامها وما ذلك على الله بعزيز، والله أعلم.



أحد المساجد في النجف من الداخل حيث بعض قبور العلماء والصالحين

عودة إلى المقبرة

عدت إليها، وكنت قد بلغت هذا المبلغ من الكتاب، أتجدني قد ضاق مني الصدر، لطول أمل في الحياة لا يقنع بقليله الإنسان!! أو تجدني بحاجة إلى عظة وإرشاد أكثر، وعبرة أوفر!

نعم، عدت إليها لأتزود من عظاتها الجمة، ما دمت واعي الفكر متبصراً في الحياة عارفاً بشأنها، وما دمت قد استفدت الفائدة الجلى حين زرتها زيارتي الأولى لإنجاح فكرة رغبت في أدائها هي بين يديك.

ألا، انها خير واعظ وأبلغ مرشد، فقد عزمت على زيارتها مرات لأطيل النظر إلى إطلالها، ودوارسها الباليات، ولأتبصر فيما يجري خلالها من عمل فاصقل نفسي، واطهر قلبي من أدران أخاف سطوتها على كياني، فتفسد مني الروح.

عدت إليها لأستمد منها قوة أرحم بها نفسي على انتزاع الضغينة والبغضاء المهلكة حين تجد لها طريقاً إلى قلبي، فحريٌّ بالإنسان أن يعيش ـ ما قُدّر له أن يعيش ـ وقد ابتعد بنفسه عن الرذيلة.

عدت إليها لأجلو النفس وأزكي القلب ولأدون ما شذ عن الذهن وما شرد عن الخاطر، وها أنذا أكتب ما شاهدت بهذه الجولة الثانية:

مشاهدات...

* ـ كان أول ما لاحظت هو الاهتمام بالقبور وتحسينها من تصميم بناء إلى زخرفة وتلوين، ووجدت نفراً ينتشل الدارس من القبور بترميمها. ففكرت، أنه لو كانت المقبرة مسورة تسويراً جيداً، ومنسقة تنسيقاً منتظماً، وتشرف على إدارتها لجنة من الحكومة تحرسها وتحسن من حالها، لكانت المقبرة تحفة أثرية خالدة.

* ـ وبينما أنا أتجول في أرجائها، وجدت نفسي واقفاً في مقبرة للفُرسْ تأخذ رونقاً منفرداً من حيث بناء القبور وإعداد الصخور الموضوعة على واجهاتها.

* ـ وهذه مشاهدة أخرى أوضحت لي أن هذه المقبرة بوتقة تجمع أجناساً

متباينة من البشر فيها ثوى هنود وباكستانيون وصينيون وفرس وأتراك وأكراد وعرب، إلى غير ذلك.

* ـ وفي طرف قصي من وادي السلام ترى قبوراً بيضاء ناصعة انفردت عن غيرها من القبور، هي للأكراد الذين يجددونها في رأس كل عام بمناسبة (عيد النوروز).

* ـ وشاهدت الناس في حركة دائبة في وادي السلام، هذا يحفر، وهذا ينقل، وهذا يقرأ وهذا يرشد، وهذا يبني وهذا يغسل ويكفن.. فقلت وكأني مخاطبهم: لكم من الموت حياة.

* ـ أتريد قبراً سألني أحد الرجال، وهو حسبما تدل عليه سيماؤه رجل بسيط مكدود، واهن الجسم شاحب الوجه فقلت له الله يستر يا أخي، أنا شاب، هل لي معك سابق ذنب حتى استميحك العذر! قال: لا، وهو يبتسم، إنما الذي أريده، هل أنك تبحث عن قبر لأحدٍ يخصك فأرشدك إليه، قلت: لا، وسألته إن كان يعمل في المقبرة من مدة طويلة، قال لي: أنا من الريف ولا أريد أن أسرد عليك سبب هجرتي له، ولكني أخبرك، وأرجوك أن لا تشك بعد أن اطلعك على حالتي بأني أستجديك شيئاً، أخبرك بأني كنت ولا أزال أعيش في ضيق وشظف من العيش، وحين وجدت أنه لا ينفع مع هذه الفاقة قعود، اندفعت بلهفة لا تقاس، ألهث باحثاً عن العمل كالراكض في آخر الشوط، وفي كل محاولاتي أرجع لا ألوي على شيء، سعيت أبحث عن عمل أكسب منه فأسد رمقي وأقوم به أود أطفالي الذين لا أستطيع المكوث قربهم، نعم، كيف أستطيع ذلك وولولتهم تذهب بصبري، وتقل من عزيمتي، وكلما دنوت منهم تركتهم ساعياً سعياً حثيثاً علني أجد عملاً أملأ من خيره جوفي وجوف أطفالي فوصلت إلى حالٍ جعلني كما تراني أحمل فرشاة وعلبة صبغ، أصبغ به واجهات القبور واحصل على أجر ممن يطلب ذلك فصرت أستطيع إيجاد القوت بالكاد.. ولكن يا عزيزي تعساً لعائلتي يوم يقذفني المرض في الفراش فمتى كان ذلك باتت عائلتي في فقرٍ وجوع.

* ـ وأشرفت بتجوالي على النهاية الغربية من المقبرة ولاحظت أن شارعاً يتصل بشارع السور وينتهي بالمغتسل الغربي ثم يتركه حتى ينتهي بسور المقبرة الشمالي.

* ـ ووصلت إلى النهاية الغربية من المقبرة فوجدتها دون سور عكس الجهات الأخرى، والمقبرة من هذا الجانب تتصل مباشرة «بالطار» أو الحافة التي دونها منخفض واسع يتصل بطرف الصحراء الغربيّة من العراق. ويشاهد من فوق هذه الحافة بحيرة النجف وجدولها الذي تحفه المزارع النظرة المثمرة. وكثيراً ما يبهجك جمال تنسيق تلك اللوحة الرائعة التي خطتها يد الله، وعلى مقربة من الشريط الأخضر الممتد هذا، بحيرة كالمرآة المجلوة تعكس نور الشمس الجانحة إلى المغيب، وانتهت إلي وأنا أشرف من الوادي على تلك الأرجاء نسمات عليلة ملأت صدري، وأبهجت نفسي، فانفرجت أساريري، وكان لي أن أتنفس الصعداء بعد أن أصابني إثرَ تجوالي في أرجاء الوادي بعض الأعيان.

واستدرت شطر المدينة، التي لم أسمع من ساكنيها سوى جلبةٍ وصخب هو أثر صراعهم مع الحياة في سبيل أفضلها، وخلال ذلك الصراع والاحتدام شاهدت افراداً من ساكنيها يقذفون بين الفينة والفينة صوب الوادي ليستقروا فيه.

وما أن أشحت بوجهي إلى الغرب عن المدينة الصاخبة بساكنيها وعن الوادي الخامد الجامد بأهله، حتى بهرني رونق بساتين الجدول، تلك اللوحة الرائعة الفاتنة التي أسلفنا الحديث عنها وقلت وأنا أرسل زفرة تلو زفرة، لله حكمة ما أجلها في خلقه.

المداخل الرئيسية إلى الوادي

المقبرة تلاصق محيط المدينة الشمالي على العموم، غير أن خط اتصالها بالمدينة يبدأ من شمال غرب إلى شرق ولهذا كان مجال الاتصال طويلاً ولأنه لا بد من مداخل كثيرة تفضي إلى الوادي فقد تعددت المداخل إليه من المدينة. فهناك مدخل يقع في الطرف الشرقي وهو أقدم المداخل تمرق منه السيارات لتنتهي بالمغتسل الشرقي. ومدخل آخر يمكن أن أسميه لموقعه بالمدخل الوسطاني أو الباب الوسطاني، وهو موضع اتصال نهاية شارع الطوسي ببداية الشارع الملتوي المتوسط للمقبرة. والمدخل المهم الأخير هو المدخل الغربي المنتهي بالمغتسل الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المقبرة، وهناك منافذ أخرى قليلة ضيقة مؤدية إلى المقبرة أيضاً.

الشارع الملتوي وأثره في ظهور بنايات حديثة على القبور

إن في منتصف المقبرة شارعاً يصل بين المدينة والبر، وكان في السابق يعد المنفذ الرئيسي للاتصال بكربلاء (مدينة الحسين والعباس عليهما السلام المقدسة العامرة) وكان الاهتمام في تعديله وإصلاحه جارياً، إلا أن الطريق الحديث المبلط الذي غدا اليوم المنفذ الرئيسي للاتصال بكربلاء، وجه الأنظار إليه فقلّت أهمية الشارع القديم المار من منتصف المقبرة تقريباً والشارع الملتوي هذا تتصل بدايته بنهاية شارع الطوسي المؤدي إلى مرقد الإمام علي عليه السلام. وبسبب كون هذا الشارع فسحة بين القبور المتزاحمة وبسبب موقعه قريباً من مقام القائم بالحق الحجة المنتظر عليه السلام، أضحى طريقاً للمارة من زوار عمال، ومشيعي ميت وممشى للذين خرجوا لشم نسيم الوادي، وسبيلاً للذين أرادوا أن يبصروا بتأملهم عهد قوم شغلوا الدنيا مثلهم، أين هم؟! والطريق هذا الذي نحن نصفه غداً كذلك ملتقى للذين انتهوا من سيرهم بين المقابر، أي للذين أنهوا زيارتهم للمكان الذي كانوا يبتغون.

ويعرف من هذا سبب ميل الناس إلى بناء البنايات العالية التي هي اليوم أشبه بالدور منها بالقبور والذي يتلخص بمحاولة الناس حفظ قبور موتاهم، من دوس المارة حين يحصل منهم في الشارع ازدحام. وأثر ذلك شيدت البنايات على طول الشارع الملتوي، وإلى جوار قبر البغدادي[1] حتى مقام المهدي(ع).

ولما كان قبر البغدادي ذا شكل منفرد في نوعه بالنسبة إلى قبور وادي السلام، فقد أصبح للمتجولين في مجال المقبرة كالواحة وسط الصحراء لرعاة الجمال. وللسبب عينه كثر ذهاب الناس إليه وإيابهم منه، فأوشكت القبور الواقعة عند الطريق المؤدية إليه لذلك، على الانهيار والخراب. وما كان من المشرفين عليها إلا أن سارعوا في تشييد بنايات عالية عليها.

(١) وهو طبيب شاب وافاه الأجل فانتقل بجوار ربه، فكان لوفاته وقع كبير على والده، فبنى لمرقده بناية كبيرة تعلوها قبة موشاة بالكاشي المزدهي بالنقوش المتنوعة الملونة الجميلة وإلى جانب القبة منارة عالية. ويحيط البناية سياج بينه وبينها حديقة مزدهرة بأنواع الشجر، وسمي قبره (بروضة الوادي) وهي تدار بواسطة خدم يرعونها ويديرون شؤونها.

إن كثرة البنايات العالية واتخاذها كطراز جديد لتشييد القبور على المظهر الذي شهدناه، أمر محذور غير صحيح، لأن المقبرة سوف تغدو غير مكشوفة ولما يصل إليها نور الشمس طول النهار، هذا ويضاف إلى أن المجالات بين البنايات تصبح دون ريب كالضيق من أزقة المدينة، كما أن المشتغل في المقبرة والمتجول فيها، لا يسمع ولا يرى ما يحدث، حتى ولو في جانب قريب منه عكس ما لو ظلت على حالتها مكشوفة، والأمر الذي نراه ممكن إن كف الناس عن البناء.

المشتغلون في المقبرة

إن المشتغلين في المقبرة نفر كبير قد تخصص كل قسم منهم لأداء بعض من أعمال إعداد لوازم الميت وتهيئته للدفن، وهي حسبما يلي: الوكلاء، وما نحو الإجازة، ومستقبلو الجنازة، والمشيعون، والحمالون، والمزورون، والدفانون، والبناؤون، والنحاتون، والملقنون، والمغسلون، وسنحاول تناول الحديث عن كل قسم منهم وباختصار:

أ ـ الوكلاء:

وهم أقلية بين المشتغلين، والظاهر أنهم توارثوا العمل عن بعضهم البعض وليس في عملهم أية كلفة ولا حرج، إنما هو مجرد إشارة للدفان الذي جاء دوره وتعيين المكان الذي يجب أن يدفن فيه. لأن كل عشيرة أو جماعة من الناس رسمت لها مكاناً خاصاً بدفن أفرادها، وكأن نزعة التكتل عندهم تريد البقاء حتى ولو بعد الموت.

وإن للوكلاء مكاناً أو مقراً خاصاً، وغالباً ما يكون هو المقهى ليكونوا فيه دائماً جاهزين عند الطلب. ولهم حق الإشراف على الدفانين والبنائين، وحسم أجورهم المعينة التي كانوا قد تسلموها من الجناز الذي جاء بجنازته ليدفنها في النجف.

ب ـ مانحو الإجازة:

أما ما نحو الإجازة، فهم إما شخص واحد أو اثنان أو ثلاثة يؤدون عملهم بالمناوبة عادة.

وثمة أمرٌ حريٌ بالذكر، وهو أن الجنازة لا تدفن أبداً بدون «باص» أي إجـازة، تمنحُها المستشفى، شبيهة بإجازة الدفن التي يحوزها الوكـلاء بالـدفن أو الإشراف عليه من الدولة، وهذه الخدمة الإنسانية لها موظفون معينون كرسوا جلّ وقتهم لذلك.

ومهمة منح «الإجازة» مستمرة طوال اليوم، وللمسؤول عنها مقرّ خاص معلوم. كل ذلك لأجل الحرص عـلى الإسراع بالـدفن في أقصر وقت ممكن، وفي ذلك تخفيف على الزائر الذي يسمى بعرفنا «الـزاتوت» من المشـاق التي يمكن أن تعترضـه. وبدون منح هذه الإجازة تتأخر الجنازة ساعات وربما يوماً.

وهناك أمر آخر يتعلق بالإجازة له سلبيـات قد تحـدث على المـدى البعيد تسيء لذوي الميت ومتعلقيه فيـا لو دفن بـدونها، فقد يستلزم الأمـر نبش قبره حتى ولـو بعد سنة وهذا الأمر فيه ما فيه من هتك لحرمة الميت كما في القصـة التاليـة التي سأحـدثك بها:

وصلت إلى جهةٍ من جنوبي المقبرة ـ في زيارتي الثانية ـ فـانتهيت إلى جمهرة من الناس اشتملت على رجالٍ ونساءٍ وأطفال ولهم لغطٌ كبير وصيـاح، ونظرت إلى مكـان ليس بالبعيد، فرأيت سيارتين إحداهما للشرطة وأخرى للإسعـاف، ونظرت إلى رجـل واقف يبدو عليه الإمتعاض.. فسألته: ما الخبر؟ وما الذي يجري..؟

قال: إنها مهزلة.. مهزلة من يشيد بالإنسانية ويتحدث عنها وهو أبعد ما يكون عنها، بل مهزلة مجتمعنـا هذا الـذي نعيش فيه، إن بعض النـاس حينما يـرزق طفلةً، يحنو عليها أولاً حتى إذا بلغت سناً معيناً، يقهرها ويسْلمهـا للمقاديـر وكأنـه يريـد أن يتخلص منها، فيقذفها في حيز الإهمال ولا يعود يعنيه من أمرها شيء كأنها لم تكن ابنته ولا فلذة كبده، فقد تقتل، وقد يقتلها هو بنفسه، ويساهم في إخفاء الجريمة.

إنها، يا ولدي محاولة أخراج جثة إمرأةٍ من قبرها مضى على دفنها أكثر من عام!.

وفهمت من وشـوشـة النـاس ولغـطهم إنها دفنت دون إجـازة، والـذي جعـل المسؤولين يهتدون إليهـا هو مـا توصـل إليه حـاكم التحقيق بعد قضيـةٍ عُرضت عليـه فحّصها وقلّبها فـوجد أن هنـاك جريمـة قتل تتعلق بهـذه المرأة، وفعـلاً، فلقد اعـترف الجاني وتم اعتقاله. وأصرت المحكمة اليوم على إخـراج الجثة بـإشراف لجنةٍ طبّيـة كما

ترى، للتأكد بالفحص ما إذا كانت المقتولة قد أصيبت بطلق ناري أو بآلة حادة أو غير ذلك، ومكان الإصابة من جسدها إن أمكن ذلك.

حدثني الرجل بهذا الحديث، ثم انصرف إلى حال سبيله، وانصرفت أنا أيضاً دون أن استقصي النتيجة النهائية لهذه الحادثة المؤلمة.

فالإجازة إذن ضرورية في هذا المجال لما لها من إيجابيات ولما في تركها من سلبيات.

والإجازات الممنوحة مؤرخة ومرقمة، لها صورها في سجلات المستشفى التي بواسطتها يمكن الوقوف على عدد الجنائز الواردة من الخارج ومن الداخل. وتمكن الدولة من معرفة وحصر أعداد سكانها من حيث الزيادة إذا تم تسجيل الوفيات بأضبط صورة وتسجيل المواليد لأن معرفة الزيادة تتم بإيجاد الفرق بين الوفيات والمواليد، فإذا كان عدد المواليد أرفع من عدد الوفيات كان في ذلك إشارة إلى تقدم البلاد الاجتماعي والاقتصادي والصحي، وإذا كان الأمر معكوساً كانت النتيجة معكوسة.

جـ ـ مستقبلو الجنازة:

ما إن تدخل الجنازة إلى النجف الأشرف حتى يستقبلها وهي على ظهر السيارة افراد قلائل ركضاً على الأقدام أو على الدراجات الهوائية، وغايتهم من استقبالها، المبادرة بالسؤال عنها، ومن أي بلدٍ هي، وإلى أي وكيل تعود؟! لأن لكل جماعة في داخل العراق وخارجه وكيل دفن معين يتعاملون معه ومع أبنائه من بعده، ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ وإن شئت فقل: مصائب قوم عند قوم فوائد.

وربما كان هذا الأمر بمحض تقسيم خطط له الوكلاء أنفسهم لأجل دفع ما قد يحصل بينهم من منافسة ومشاكسة.

وهكذا يحمل المستقبل الخبر بسرعة البرق، مبشراً به الوكيل، حاثه على الاستعداد، فإن فلان بن فلان من العشيرة الفلانية من منطقة كذا قد مات ووصل إلى النجف وهو من حصته فيكسب المستقبل المبشر ما يستحقه مقابل إخباره بشارة حددها الوكلاء بـ١٠٠ فلساً. وفي أغلب الأحايين يسعى المستقبل المبشر إلى مراجعة

المستشفى للحصول على إجازة بالدفن، وله من الوكيل ثمن ما سعى.

وفي حيز التقدير والتخمين يمكنني القول أن هناك خمسين شخصاً لعشرين عائلة في النجف، يعتبر هذا العمل بعض مما تعتمد عليه من أعمال في مجرى حياتها.

د ـ المشيعون والتشييع:

أردت بالمشيعين الذين يتلون صائحين أمام الجنازة السائرة إلى حيث أراد لها الله، في موكبها الذي يزيده صياحهم رهبة وجلالاً فالمشيع يعلن بصوته الجهوري، ربما دون أن يفقه ما يعني، هذي الحياة وهذه نهايتها، فزودوا أيها الناس أنفسكم بالتقوى، لأن خير الزاد التقوى، واتبعوا نظام رسالة الإسلام، رسالة الله في أرضه، هكذا فهمت من صياحه حين أصخيت السمع إليه وهو يردد بصوت يمزق السكون إن كان سكون ويعلي الضجة إن كانت ضجة «لا إله إلا الله، كل نفس ذائقة الموت، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

وهؤلاء هم قلة كانوا يسمون «بجل الله» لأن هذا اللفظ «جل جلال الله» كثيراً ما يتردد على ألسنتهم، وقد اتخذوا هذا العمل مهنة لكسب بعض الدريهات التي ما أوفرها إن أعالتهم بحر نهار.

كان ما تقدم في خصوص المنادي، أما الآن فمن الطريف أن أتكلم عن طبيعة التشييع والمشيعين من الصنف الآخر أو الذي يسير خلف الجنازة صامتاً، وطبيعة آدابه وأحكامه، إن التشييع عندنا ينطلق بموكبه المهيب من مراكز معلومة معروفة وأخصها المسجد الحيدري، وإن أول ما يجريه ذوو الفقيد هو فرش الأرض ليجلس عليها من جاء يواسيهم، ومتى ما اجتمع الناس واحتشدوا يؤذن للمنادي فينطلق صوته إيذاناً بالنهوض والسير شطر الحرم الشريف ومنه صوب الوادي، وللتشييع أحكام وآداب حددها الشرع وسأوضح ما استوجب منها وما استحب، ويكفينا في هذا المجال ما ذكره العلامة السيد مهدي بحر العلوم في أرجوزته الطريفة[1]:

قد أكد التشييع للجنائز والأفضل المشي لغير العاجز

(١) الدرة النجفية ـ للسيد مهدي بحر العلوم.

وليتجنب سبقها المشيع فإنها متبوعة لا تتبع
والفضل في ذلك للتأخير ثم اصطحاب جنبي السرير
وليحمل السرير من أطرافه أربعة تقوم في أكنافه
لا يأب من ذلك أهل الشرف فليس أمر الله بالمستنكف
وليس للتشييع حد يعتمد وفي حديث سير ميلين ورد
وسن أن لا يرجع المشيع يصبر حتى الدفن ثم يرجع
وتركه القعود حتى يلحدا إن هيأ القبر وإلا قعدا
والحمل في النعش مغشى بكسا يندب إما مطلقاً أو للنسا
كذاك أن تتبع بالمجامر والنار إلا في الظلام العاكر
وسن للحامل والرائي الدُّعا وقلة الكلام ممن شيَّعا
والامتياز للمصاب باحتفا أو نحوه عن غيره كي يعرفا
لا ينبغي لغيره طرح الردا فالمنع منه قد أتى مشددا
كذاك قول ارفقوا واستغفروا يغفر لكم فإنه محقر
والضحك مكروه وليس عندنا قيام من مرت عليه حسنا
وما على النساء تشييع ولو لامرأة أو عمها ما قد رووا

أما تشييع العلماء فيختلف بمظهره عن المواكب الأخرى، إذ يصنف المشيعون كل حسب طبقته ويرددون قولاً هو الحزن عينه، وإن جثمان العالم أو الإمام يحمل في نعش كبير تسير أمامه مواكب لطم في أغلب الأحايين، فمواكب تشييع العلماء في النجف مهيبة تثير الحزن حقاً، وكأن أركان العالم الإسلامي يوم فقد إمام فيها، تزلزل صدقاً.

وإن آخر موكب لتشييع عالم علم شاهدته، وأنا أدون هذا الكتاب، هو موكب تشييع جثمان عميدنا الراحل محمد رضا المظفر تغمده الله برحمته، فما ان لفَّ الردى تلك الراية الخفاقة فوق سماء النجف، قلعة الإسلام، حتى اكتأب جوها وخرج الناس أفواجاً تسبقها وتتلوها أفواج، ليبكوا فقيدهم المجدد حامي العقيدة المظفر، راجين الله خالقهم أن يقيض لهم حماة يخطون خطاه ويسلكون نهجه.

أما رجال الجيش فقد غدا للمهم منهم طراز من التشييع جديد. فقد حصل

أخيراً، وضع جثمان الشهيد العسكري على سيارة وهو ملفوف بعلم الدولة، وأمام نعشه ثلة من الجند صفوا صفاً جميلاً متناسقاً، وموسيقاهم الحزينة تردد، إلا أنها تنقطع عند وادي السلام. وما أن يشق لحده ويوارى في ثراه، تطلق عدة إطلاقات توديعاً رسمياً نهائياً له، وكأني بهم مبلغيه، أن الحياة ستبقى بعدك صاخبة أيها العزيز، هذا شأنها، لا اطمئنان فيها ولا سلام.

ولنا من الآلة الحدباء عظة

الآلة الحدباء هي النعش أو التابوت يحمل بها جثمان المتوفى وهي قد صممت تصميماً خاصاً يسهل وضع الميت ونقله، فطرفاها الأول عريض للرأس والصدر، والثاني ضيق للأطراف السفلى، والتابوت من الخشب، هذا هو المألوف، ولكني شاهدت بعض الجنائز وصلت النجف وهي ملفوفة بالقصب بدلاً من تابوت الخشب، هي جنائز القرويين على ما يظهر حيث يتوفر القصب ويندر الخشب.

قال الشاعر يذكر الآلة الحدباء ويعظ الناس:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

ما أبلغ تنبيهك أيها الشاعر! وكل الناس يعلمون حتمية ذلك ولكن ليس دائماً، بل كلما خطر لهم الأمر الذي أوضحت استغفروا الله وحمدوه. أو ليست الحياة جديرة بالاهتمام، أجل، يأخذهم جمالها وزهوها فيلهون ويتمتعون متناسين انقطاعها بانقطاعهم بعد ذلك.

إنني في هذه اللحظة أنظر إلى الحياة بنوعيها المادي والمعنوي وما وراءهما، أرى جمال السماء وكواكبها وعذوبة الماء والهواء، وحسن الشجر والطير والنهر والسهل والبحر والجبل، وحلاوة المأكل والملبس وكل مؤنس، وروعة الإيمان وجمال التقوى وحسن الدين صلاح نظامه، وحقيقة الموت وما وراءه، مظاهر لا يعيها ولا يتعقلها سوى فكر الإنسان فهي تدفعه مرة لغروره وجحوده ومرة إلى تقواه وإيمانه، وتارة إلى خوفه وألمه، مظاهر أذن لها أن تحمل الإنسان على التناقض مرة والإزدواجية مرة والوساوس مرة والهواجس والتأمل مرات أخر.

هـ ـ الحمالون:

والحمالون صنف من المشتغلين، مهمتهم حمل الجنائز من المسجد إلى اللحد. ويشاهد الحمال أحياناً يحمل ثلاث أو أربع جنائز مرة واحدة، لكنه لا يحمل هذا العدد من الجنائز إلا إذا كانت مؤمّنة «مودعة» مضى على دفنها زمان فهي تنقل من مدفن إلى آخر، فتكون خفيفة الحمل.

و ـ المزورون:

وهؤلاء هم نفر من السادة، كرسوا حياتهم لخدمة الإمام عليه السلام، فما أن تدخل الجنازة ليطاف بها حول الضريح حتى يتقدم أحدهم ليتلو الزيارة عن الميت عند الباب الأولى أولاً، ثم عند الباب الثانية ثانياً، وعند الضريح أخيراً، ثم تحمل للطواف حول المرقد وعندها يحصل المزور على حقه من نقود جزاء ما تلى.

ز ـ الدفانون:

وهؤلاء الذين يقومون بحفر اللحد وإنزال الميت فيه لدفنه مقراً نهائياً له ولربما تصور القارىء مدى الصعوبة والرهبة التي قد تكتنف المرء وهو يؤدي عمله هذا، والذي رأيته أنه ليس من ذلك في عملهم الذي اعتادوه شيء، إنما شأنهم في عملهم الخفة والمهارة، التي قد اكتسبوها بالممارسة المستمرة.

حـ ـ البناؤون:

وهؤلاء يتولون مهمة تصميم البناء الذي يبقى شاخصاً فوق القبر، وهم يتعهدون بنقل الجص والطابوق والماء الخاص بأداء هذه المهمة، ويتسلمون أجورهم من الوكيل الذي بدوره يكون قد تسلم تلك التكاليف بمجموعها من الجناز أو أهل الفقيد. وقد يقوم البناؤون بمهمة بناء مقبرة كبيرة جداً عالية الأركان واسعة الفناء، وربما كانت لها قبة ومنارة.

ط ـ الملقنون:

وهؤلاء، ليس لهم من عمل غير الجلوس، على شفير القبر، وتلاوة كلام خاص يخاطبون به الميت، وقد أشرنا إليه في بداية الكتاب. وإن أكثر الملقنين الذين

شاهدت، قد مضت من عمرهم سنون، فوهن منهم العظم وركت الأعصاب، وهم يخاطبون الميت ويسألونه عن حاله، وحق لهم هذا السؤال، هل هو على العهد الذي فارقهم فيه؟! مذكرين إياه بأئمته الكرام طالبين له المغفرة من الله والرضوان.

ي ـ المغسلون:

والمغسلون صنفان، نساء ورجال، يعملون في بناية واحدة، النساء لتغسيل النساء، والرجال لتغسيل الرجال، وعملهم يؤدونه طبقاً لنصوص الأحكام الواردة في تغسيل الميت وتكفينه.

ك ـ النحاتون:

وهؤلاء ينحتون الصخور التي توضع على واجهات القبور، وقد أشرنا إلى هذه المهمة في باب «الصخور الموضوعة على واجهات القبور فن رائع أبدعته أيدٍ نجفية». فلا حاجة أن نعيد القول مرة أخرى.

الاسر التي توارثت مهمة إعداد لوازم الموتى

المشتغلون في إعداد لوازم الأموات الرئيسة يتعاونون صبياناً ورجالاً، وهم من عوائل أهم ما يقال عنها أنها توارثت العمل خلفاً عن سلف فاعتادوه. والعوائل النجفية المهتمة به قليلة جداً، ولا حاجة للإشارة إلى أسباب إقبال هذه العوائل وانصرافها لتأديته بعد عرفنا أنه مورد رزقها. وثمة شأن آخر حري بالإشارة إليه ذلك هو توارث فنون العمل واعتياد أحدهم من صغره فما أن يكبر حتى يغدو العمل هيناً سهلاً لديه.

ولا حراجة عندهم في موقفهم إزاء عملهم إذ أنه ليست هناك من عوائل قادرة على امتهان ما امتهنوه. ولأني قد خبرت بعض الرجال حين قلت لهم: لو عرض عليكم نفس العمل، فهل تقومون به؟ فأجابوا بالنفي، وقالوا إنه مهيب رهيب لم يمارسوه من قبل، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن نقول عنهم أنهم احتكروا هذا العمل لأنفسهم دون غيرهم.

وعليه فإن ما تسديه هذه العوائل من عمل في هذا المجال هو خدمة إنسانية جليلة.

نحت الصخور الموجودة على واجهات القبور فن رائع أبدعته أيد نجفية

هناك على الشارع المؤدي إلى الكوفة يطل محل صغير في داخله آلة تدار باليد، وحولها صخور مختلفة الأحجام. وحين دنوت، سألت: هل هو الوحيد في النجف، فأنا لم أر سواه؟ قالوا: لا، بل هناك محلات قليلة غيره تعمل نفس العمل. وتجهز المقبرة بما تحتاجه من صخور منحوتة باسم المتوفى وتأريخ وفاته، وربما نحتت في جانب منها آية أو سورة قصيرة من القرآن الكريم أو بيت شعر حكمي فيه موعظة.

وكأن الذين سألتهم اعتادوا الإطالة في الحديث وهو ما كنت أتمناه كي ألمّ بما ابتغيه، فاستأنفوا القول، وقالوا: إن الصخور العادية التي تراها، تعمل هنا في النجف، أما المرمر الجيد المزخرف المكتوب، فهو معمول في بغداد، أما الكاشي المزخرف والمدون عليه إسم المتوفى وتأريخ وفاته فهو معمول في كربلاء لهذه الغاية، ومن إيران تجلب صخور خاصة لتزيين قبور أناس عظماء أجلاء.

هذا وإن النزاهة لازمة لكل الأعمال، وكذلك الإخلاص، سوى أن النزاهة يجب أن تكون على أتمها لدى الأفراد العاملين في إعداد لوازم الموتى، فالمشتغل في التغسيل والدفن، وبناء القبور ينبغي أن يكون مؤمناً طاهراً صادقاً أميناً، حسن الأخلاق والمعاملة ويجب أن يكون قد أدرك وعرف رداءة الدنيا الفانية. واتخذ من عمله هذا موعظة ترشده للعمل الصالح.

وإلى هذا أشار رشيد سليم الخوري حيث قال:

لو كان يتعظ الورى   بالموت ما ولد الغرور
ولكان أزهد زاهد   في الأرض حفار القبور

ـ احصائيات ـ

إن عدد الجنائز التي ترد النجف يتفاوت بين فصل وآخر ففي الشتاء يبلغ المعدل

اليومي ٤٠ ـ ٥٠ جنازة أما في الصيف فعدد الجنائز الواردة يتراوح ما بين ٣٠ ـ ٤٠ جنازة ويتراوح أخيراً ما يرد النجف خلال سنة ما بين ١٥ ـ ٢٠ ألف جنازة تقريباً، ولا يخفى بأن هذه النسبة تتفاوت تفاوتاً كبيراً بين سنة وأخرى.

ـ أثر المواصلات ـ

المواصلات شبكة من خطوط تربط بين جهات الأرض، بين الحقل والمعمل والقرية والمدينة وبين المعمل والسوق. وهي أنواع تطورت من شكلها البدائي إلى شكلها الحديث. ذلك لأنه حينما تطورت المعرفة وازدهر الإبداع والاختراع، تطورت صور الحياة الإنسانية، ومن صورها المتطورة المواصلات وشمل هذا التطور المواصلات التي تربط مدينة النجف بما يحيطها من مدن، فأصبحت أسرع مما كانت عليه في السابق. فهي اليوم ترتبط بطرق مبلطة مع الكوفة إلى الحلة ـ إلى بغداد ومع كربلاء ـ إلى بغداد، ومع أبي صخير إلى الديوانية. ولا يخفى أن تلك المدن التي ترتبط بها النجف ترتبط بمدن أخرى.

وقد ساعد هذا على زيادة عدد الزائرين وزيادة عدد الجنائز الواردة إلى النجف، وقلل من اتباع عملية التأمين «دفن الجنازة إلى حين، ومن ثم نقلها من مدفنها الأول إلى النجف» حين تسمح الظروف بتلك الطريقة المتبعة في السابق بسبب صعوبة المواصلات التي كانت تكلف وقتاً ونفقات، ولنرجع إلى الوراء لنطلع على ما كان يعانيه الناس في العراق وخارجه فيما يخص نقل موتاهم إلى النجف، وخير ما نذكره في هذا المجال وصف السائحة مدام ديولافوا التي قدمت إلى العراق وتكلمت الكثير عنه فقد قالت: «لقد لفت نظري أشياء مركومة بعضها فوق بعض، فتقدمت منها أتفحصها وما كدت أمد يدي حتى ارتدت إليّ كأنه قد مسها تيار كهربائي، واضطربت أشد الاضطراب. كانت هذه الأشياء المحزمة المركومة جثث موتى بعضها قد لف في بساط أو سجاد، وحزمت بحبال وبعضها في توابيت من خشب، يبدو من بين شقوقها اللحم الجامد المسود لهؤلاء الموتى... واسترسلت في القول إلى أن قالت... والواقع أن دفن الموتى بجوار أضرحة مراقد الأئمة أصبح عادة لفريق من المسلمين منذ أوائل عهد الإسلام أي بعد استشهاد الحسين عليه السلام في

كربلاء. . . واليوم يجلب أكثر الطائفة الشيعية جثث موتاهم من أبعد المناطق كالهند وإيران إلى مدينة النجف وكربلاء بقرب مراقد هؤلاء الأئمة الذين ينزلون من نفوسهم منزلة التقديس. . .».

وكانت تلك الصفحة التي تحدثت فيها على هذا الشأن مزينة بصورة خطيةٍ تمثل قافلة من الحمير تحمل مجموعة من الجنائز، وقد عنونت بعنوان «هذه قافلة نقل الجنائز».

وأذكر أنه في زمان ليس بالبعيد جداً، كان أهل البصرة والعمارة ينقلون أمواتهم بواسطة الزوارق النهرية خلال نهر الفرات صاعدين حتى الكوفة، ومن ثم تنقل الجنائز بواسطة العربات إلى النجف، كانت تستغرق تلك السفرة أسبوعين وربما أكثر.

حكم نقل الموتى المباشر ونقلهم من مدفن إلى آخر

يقال إن أول من فتح باب ترخيص نقل الجنائز هو الشيخ محمد بن بابويه، وقد ذكرت أدلة في عهده ضعيفة ترجح هذا النقل إلى المشاهد المشرفة وإلى المشهد الغروي خاصة لأنه كما دلت الأخبار التأريخية إنه أفضل وأنفع للميت، وقد نوهنا عن ذلك في فصول تقدمت، وإن بحمل الميت إلى بقعة شريفة تستفيد روح الميت من بركاتها فإذا بلغت جنازته مكاناً مباركاً تكون قد نالت المنى.

وإنك لا شك قد استخلصت إثر قراءتك ما مر من فصول الأمور التي يحظى بها المدفون في وادي السلام، ومن الممكن حصرها بالنقاط التالية:

١ ـ إن المدفون يكون في جوار حامي الذمار قسيم الجنة والنار علي عليه السلام.

٢ ـ رجاء الفوز بالقرب من علي(ع) ونيل شفاعته.

٣ ـ التخلص من عذاب البرزخ لأن من يدخل وادي السلام يُحَف بالأمان والسلام.

٤ ـ مجاورة أئمة عظام خدموا الإيمان والإسلام.

٥ ـ المنى بحصول الفوز بالنعيم.

وقد دارت مناقشات طويلة حول جواز نقل الميت مباشرة بعد موته أو دفنه ثم نقله من قبره الأول إلى قبر جديد حتى برز نفر من الناس لا يجوز النقل ويحظره حظراً تاماً، ويرى أنه من المنفعة للميت دفنه في المكان الذي مات فيه أو قريباً منه معتقداً أن في ذلك حفظاً لحرمة المتوفى وأن النقل يستلزم الهتك ـ هتك الميت ـ وهو محرم، قال الأميني في كتاب الغدير[1]: «ولقد كثر اللغط حول هذه المسألة من أناس جاهلين بمواقع الأحكام، ذاهلين عن مصادر الفتيا حسبوا إنها مختصات الشيعة فحسب... فغرب عن هؤلاء المساكين إن للشيعة موافقون من أهل المذاهب الأربعة في جواز نقل الموتى لأغراض صحيحة إلى غير محال موتهم قبل الدفن وبعده مهما أوصى به الميت أو لم يوص به...».

والروايات الواردة التي تجوز النقل كثيرة، جميعها تراه ضرورياً، فيما إذا أريد تكريم الميت بنقله لدفنه إلى جوار رجل صالح، حتى إن بعض الأحاديث والمناقشات قالت بوجوب النقل لأن المنقول لا بد أن يكون عزيزاً على أهله، فلا مندوحة من تكريمه بنقله إلى جوار الإمام ليحوز المكاسب السالفة التي ذكرنا.

وكتب السيد عبد الحسين شرف الدين في مقالة عنوانها نقل الأموات في عدد من مجلات العرفان الصيداوية[2] رد بها، على هبة الدين الشهرستاني الذي حرم النقل بكل صوره قال: «نقل الأموات إما قبل الدفن أو بعده إلى أحد المشاهد المقدسة أو إلى غيرها، فهنا أربع مسائل، الأولى نقلهم قبل الدفن إلى أحد المشاهد المشرفة فإنه مستحب عندنا كما في كشف اللثام وفي مفتاح الكرامة نقلاً عن التذكرة والذكرى وجامع المقاصد والروض كان عليه عمل الإمامية من زمن الأئمة عليهم السلام إلى الآن من غير تذاكر اجماعاً... والمسألة الثانية نقل الأموات قبل دفنهم إلى غير المشاهد المشرفة.... والحكم في هذه المسألة الجواز على كراهة بلا خلاف بين الأصحاب وتراهم يرسلون الكراهة هنا إرسال المسلمات بل في مفتاح الكرامة نقلاً عن التذكرة

(١) كتاب الغدير جـ٥ ص ٦٦ ـ للعلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني.

(٢) مجلة العرفان الصيداوية ـ جـ٣ ـ ص ٨٩٧.

ونهاية الأحكام والذكرى وجامع المقاصد وشرح الجعفرية والمفاتيح والإجماع على كراهة فيها. . . والمسألة الثالثة نقل الأموات بعد دفنها إلى أحد المشاهد المقدسة والمشهور بين أصحابنا فيها الحرمة كما عن المسالك والروض والكفاية والتذكرة والمنتهى والقواعد المختلفة ونهاية الأحكام والتلخيص والسرائر والشرائع والذكرى والبيان. . . والمسألة الرابعة نقل الأموات بعد دفنهم إلى غير المشاهد المشرفة وهذا محرم. . . ».

وإن نقل الموتى مباشرة أو دفنهم ثم نبش قبورهم ونقلهم من مدفنهم الأولى إلى مدفن آخر من بعد حين جائز عند المسلمين. تقره كل المذاهب الإسلامية، وإن لكل مذهب أحكامه الخاصة في هذا الشأن سنذكرها في ختام هذا الفصل وكل المذاهب اتبعت النقل، وكان لنقل رفات أولئك الرجال من المذاهب الأربعة يومٌ مشهود تقام به حفلات مكتظة يحضرها حشد من العلماء والخطباء والقراء. . . كل ذلك ينبئ عن جوازه واتفاق الأمة الإسلامية عليه. وكان ذلك مطرداً منذ عهد المسلمين في القرون الإسلامية. . . ولو لم يكن كذلك لما اختلفت الصحابة في دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة أو بمكة أو عند جده ابراهيم الخليل[1].

أما الآن، فمن الحسن واللطافة، في هذا المضمار ذكر جملة من حوادث النقل التي سجلت في زوايا التأريخ وكلها تؤكد جوازه وهي:

١ ـ أنه لما مات يعقوب حمله يوسف إلى أرض الشام فدفنه في بيت المقدس[2].

٢ ـ وما رواه الراوندي في كتاب قصص الأنبياء، بإسناده إلى الصدوق بسنده الصحيح عن محمد بن مسلم، مثله، وقد رواه أيضاً العالم العيني الحنفي رحمه الله في كتاب كنز الدقائق، والعالم صاحب مرافق الفلاح وغيرها، المروي في البحار: إن

---

(١) راجع الغدير للأميني ص ٦٨، والملل والنحل للشهرستاني جـ١ ص ٢١ هامش الفصل، وراجع شرح الشمائل للقاري جـ٢ ص ٢٠٨، وراجع شرح الشمائل للمناوي جـ٢ ص ٢٠٨، والسيرة الحلبية جـ٣ ص ٣٩٣، والصواعق المحرقة ص ١٩.

(٢) راجع وسائل الشيعة ـ للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ٨٣٥، وراجع حاشية أبي الإخلاص الحنفي جـ١ ص ١٦٨ طبعت الهامش درر الأحكام.

الله أوحى إلى موسى(ع) أن أخرج عظام يوسف(ع) من مصر إلى أن قال فاستخرجه من شاطىء النيل في صندوق مرمر وحمل إلى الشام.

وروي عن الصادق عليه السلام أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران أن أخرج عظام يوسف من مصر إلى أن قال فاستخرجه من شاطىء النيل في صندوق مرمر فحمله إلى بلاد الشام[1].

٣ ـ وما روي في نقل عظام آدم عليه السلام إلى النجف وهو دليل ناصع يؤكد جواز النقل، والحجة في ذلك أن الناقل والمنقول من الأنبياء.

٤ ـ وحري بنا هنا أن نذكر ما سبق أن ذكرناه حيث ناسبه الذكر، وهو ما روي عن أمير المؤمنين(ع) وخروجه إلى الخلوة بنفسه ومجيئه إلى ظهر الكوفة، وما جرى له من حديث مع الرجل اليماني الذي معه جنازة أبيه قادم بها النجف لدفنه فيه[2].

٥ ـ وأوردت الأحاديث بأن جملة من العلماء دفنوا ثم نقلوا إلى النجف، وقد ذكر أن المفيد نقل من مدفنه في منزله إلى جوار الكاظمين عليهما السلام. والبهائي من أصبهان إلى المشهد الرضوي[3].

٦ ـ وروي أن عبد الرحمن بن أبي بكر مات بالشام وحمل منها، واختلف في المكان الذي نقل إليه هو إما إلى المدينة أو إلى الكوفة.

٧ ـ وروي أيضاً أن سعد بن أبي وقاص مات في ضيعة له على أربعة فراسخ عن المدينة وحمل على أعناق الرجال إلى المدينة[4].

٨ ـ وأن علياً عليه السلام نقل من الكوفة إلى الغري وحقق له بهذا النقل اختياره، إلى جوار آدم ونوح عليهما السلام.

---

(١) راجع وسائل الشيعة ص ٨٣٥.

(٢) راجع تحفة العالم، وكامل الزيارة لابن قولويه، وكفاية الطالب للشافعي الكنجي، وفرحة الغري لابن طاوس، وإرشاد القلوب.

(٣) بشارة الزائرين ـ عبد الحسين المبارك.

(٤) راجع الحجة البالغة للشيعة في جواز نقل الموتى في الشريعة للبغدادي ـ ص ٣٢.

٩ ـ ابن إسحاق ابراهيم بن يحيى الكلبي الأشهبي الغزي، مات سنة ٥٢٤هـ، ما بين مرو وبلخ فحمل نعشه إلى بلخ ودفن فيها.

١٠ ـ والملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن شاهنشاه الأيوبي صاحب حماه مات سنة ٥٨٧هـ ونقل إلى حماه ودفن فيها.

١١ ـ والسلطان أبو مضر زيادة الله بن محمد بن الأغلب مات بالرقة سنة ٢٩٦هـ وحمل إلى القدس فدفن بها.

١٢ ـ والقاضي بهاء الدين الشهروزي: مات سنة ٥٣٢هـ بحلب وحمل إلى صفين فدفن بها تبركاً بمجاورة المستشهدين فيها من الصحابة كعمار وخزيمة وابني بديل وغيرهم نص على ذلك جماعة، كابن خلكان.

١٣ ـ والملك الأفضل أبو الحسن علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي مات بسميساط ونقل إلى حلب فدفن بالقرب من مشهد الهروي سنة ٦٢٢هـ.

١٤ ـ وأبو الفضل جعفر المعروف بابن خترابه الوزير الخطير مات سنة ٣١٩هـ بمصر فحمل إلى الحرمين.

١٥ ـ وأبو الحسن علي الملقب جلال الدين بن الجواد الأصفهاني مات سنة ٥٧٤هـ وحمل إلى الموصل ثم إلى المدينة المنورة فدفن بها.

١٦ ـ نقل جنازة إسماعيل بن الإمام أبي عبد الله الصادق(ع) من العريض وقد مات بها إلى المدينة المطيبة.

١٧ ـ وعلي بن سليمان قال كتبت إليه صلوات الله عليه عن الميت يموت بعرفات يدفن بعرفات أو ينقل إلى الحرم، فأيهما أفضل فكتب يحمل إلى الحرم ويدفن أفضل، ومثله خبر سليمان عن أبي الحسن عليه السلام.

١٨ ـ وقد اختلف الصحابة في دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرادوا المهاجرون دفنه في مكة لأنها مسقط رأسه، أي حمله إليها، لكن الأنصار أصروا على دفنه في المدينة لأنها دار هجرته ومحل نصرته فدفن بها.

١٩ ـ والمؤتمن إسحاق لما توفيت زوجته السيدة نفيسة في سنة ٢٠٨هـ في مصر وأراد نقلها من مصر إلى المدينة ليدفنها عند جدها صلى الله عليه وآله وسلم فلما عزم على ذلك سأله المصريون بقاءها عندهم لينالوا الرحمة من الله تعالى بجوارها فأجابهم.

٢٠ ـ وإمام الأشاعرة ومؤسس قواعدهم وأصولهم القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني البصري المتكلم الشهير مات في بغداد بعد أن انتهت إليه الرئاسة في أصول الدين وصلى عليه ولده ودفن بداره ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب.

٢١ ـ والإمام أبو حامد بن محمد بن أحمد الإسفراييني فقيه الشافعية مات سنة ٤٠٦ ببغداد ودفن في داره ثم نقل سنة ٤١٠ إلى مقبرة باب حرب فدفن بها.

٢٢ ـ وأبو الحسين أحمد بن محمد القدوري مات سنة ٤٢٨هـ في بغداد ودفن في داره ثم نقل إلى شارع المنصور فدفن إلى جنب الخوارزمي الفقيه الحنفي.

٢٣ ـ وأبو العباس أحمد بن عبد السيد الأربلي، دفن بظاهر الزُهى سنة ٦٣١هـ ثم نقلوه من هناك إلى الديار المصرية سنة ٦٣٧هـ فدفن بالقرافة الصغرى.

٢٤ ـ والملك مظفر الدين كوكبودي مات سنة ٦٣٠هـ ونقل إلى مدفن آخر.

٢٥ ـ وأبو الحسين محمد بن أحمد المعروف بباب سمعون الواعظ مات سنة ٣٨٧هـ دفن ونقل إلى مدفن آخر.

٢٦ ـ وأبو جعفر محمد بن علي المعروف بالجواد الأصفهاني مات سنة ٥٥٩ ودفن في الموصل، ونقل إلى المدينة ودفن في البقيع.

٢٧ ـ وفي كتاب الحجة البالغة ص ٣٢ ـ ٣٣، جاء أنه قد ذكر العلامة ابن خلكان أن جماعة من العلماء والمسلمين نقلوا قبل الدفن منهم أبو الحسن علي الملقب بجلال الدين توفي بمدينة «دينة» وحمل إلى الموصل ثم نقل إلى المدينة المنورة، ومنهم قطب الدين العبادي الواعظ فإنه خرج من بغداد إلى خوزستان في رسالة فمات في معسكر مكرم وحمل تابوته إلى بغداد ودفن عند الشيخ جنيد بن محمد، ومنهم محمد ابن الحسين الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور توفي بنيشابور، ومنهم محمد بن

الحسن مات بعيداً عن نيشابور ونقل إليها. ومنهم الصاحب بن عباد توفي بالري وحمل إلى أصفهان ودفن في بيته، ومنهم علي بن عبد الله توفي بحلب ونقل إلى «ميافارقين» ودفن في تربة أبيه.

وأن هناك عدداً كبيراً جداً من الناس نقلوا بعد موتهم إلى مكان بعيد ليدفنوا فيه، وعدداً آخر يقربه لأناس ماتوا ودفنوا ثم نقلوا من مدفنهم الأول إلى آخر، بالأخص إلى الأماكن المشرفة. والحديث في ذلك يطول. والذي يريد الاستزادة، ما عليه إلا مطالعة كتاب الغدير للشيخ الأميني جـ٥ (باب نقل الجنائز)، ففيه فصل في ذكر من نقلوا بعد موتهم مباشرة، وآخر في ذكر من نقلوا من مدفن لآخر.

إن كل ما تقدم يسند صحة حكم النقل بشتى أشكاله. أما اليوم فمظهر النقل المباشر وغير المباشر، القادم من كل الجهات الدانية والقصية نحو مرقد الإمام علي(ع) شائع ومستمر.

تسمى الجنائز المدفونة ـ لأجل تحدده الظروف ـ بالجنائز المؤمّنة أو «الودائع»، والأسباب التي ترغم على التأمين أو التوديع كثيرة منها بعد الشقة، ووجود ظروف لا تتيح النقل أبرزها الظروف الاقتصادية لذوي الفقيد.

والنقل للجنائز اليوم أوسع مما كان عليه في السابق، تقره أئمة عصرنا الكرام، مستدلين على جوازه أيما استدلال، كما أقره قبلهم علماء عظماء كانوا في زمانهم قادة أمة ورجال علم ودين.

وورد في كتاب التميمي عن النجف أن هذا المظهر قد دعمته العلماء في أدلة عقلية معقولة قطعية وفلسفية، وقد اقترحوا بأنه مسوغ فذكر: «ومنها أن يكون ذلك لإيصاله إلى محل يرجى فوزه بالثواب أو نجاته من العقاب كالنقل إلى المشاهد المشرفة ومقابر مطلق الأولياء والشهداء، وربما كان ذلك أولى من غيره. فيخرجه كلاً أو بعضاً عظماً أو لحماً أو مجتمعاً ولولا قيام الإجماع والسيرة لقلنا بوجوبه في بعض المحال».

وإن ما ورد في بشارة الزائرين من إشارات معقولة تؤكد جواز ما نحن فيه تتحدث وتثبت أنه لا محذور في نقل الميت إلى المشاهد المقدسة مطلقاً ولا مانع من جواز النبش وخصوصاً إذا كانت الغاية دفنهم إلى جوار حامي الذمار والد الأئمة الأبرار

علي(ع) وليس للتهتك مجال في هذه العملية بل العكس أن في ذلك اهتماماً في الميت وإحساناً إليه.

يقول العلامة الطباطبائي:

والنبش محظور وحدُّه البلا وهو لحقّ آدمي حلّلا
والأقرب الجواز للنقل إلى جوار من بقربهم نيل العلا

وذكر السيد جواد شبر في مخطوطته «الإسلام دين ودولة»[1] بصدد النقل: «وشيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) تنقل موتاها إلى النجف الأشرف، إلى وادي السلام، والطور الأيمن، وأرض البركة والرحمة والرضوان، وإلى بقعة في جنة عدن، إلى جوار ساقي حوض الكوثر يوم القيامة...».

وليس عندي أكثر من القول بأن هذا الكتاب بكل محتوياته دليل ناطق وبرهان ساطع، يسيغ النقل ويحببه، والذي يحيط به يدرك الفوائد الجمة التي تعود على المدفون بعد نقله ودفنه في وادي السلام.

أما فيما يخص المذاهب الأخرى فإنها تسوغ النقل بأحكام لها سنت كالشيعة.

فالمالكية: «تجوز نقل الميت قبل الدفن وبعده من مكان إلى آخر بشروط ثلاثة أولها أن لا ينفجر حال نقله. ثانياً أن لا تنهتك حرمته بأن يُنقل على وجه يكون فيه تحقير له. ثالثاً أن يكون نقله لمصلحة كأن يخشى من طغيان البحر على قبره، أو يراد نقله إلى مكان ترجى بركته أو إلى مكان قريب من أهله، أو لأجل زيارة أهله إياه، فإن فقد شرط من هذه الشروط الثلاثة حرم النقل[2].

وقالت الحنابلة: لا بأس بنقل الميت من الجهة التي مات فيها إلى جهة بعيدة عنها بشرط أن يكون لغرض صحيح أن ينقل إلى بقعة شريفة ليدفن فيها أو ليدفن فيها بجوار رجل صالح ولا فرق في ذلك أن يكون قبل الدفن.

(١) «الإسلام دين ودولة» ص ٢١٢ ـ مخطوط.
(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ص ٤٢١.

وقالت الحنفية: لا بأس بنقله من جهة إلى أخرى عند أمن رائحته.

أما الشافعية: فقد قالت: يحرم نقل الميِّت إلى بلد آخر ليدفن فيه. وقيل: يكره إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة أو بيت المقدس أو بقرب قبر رجل صالح، ولو أوصى بنقله إلى أحد الأماكن المذكورة لزم تنفيذ وصيته عند الأمن من التغيير، والمراد بمكة جميع الحرم، لا نفس البلد[1].

ـ الفواتح وما يتلى في ختامها ـ

يقيم أهل كل فقيد في النجف الفاتحة له بعد موته مباشرة ولمدة ثلاث ليال، يطلبون له فيها من الله الرحمة والرضوان، وأكثرها تقام في الصحن الطاهر، يستعان لهذا الشأن بفراش الصحن أو فراش المصلين فيه، وهي تقام ليلاً بعد الصلاة وتوزع خلالها أجزاء من القرآن معدة لهذا الغرض، على المواسين ليقرؤها ثواباً للفقيد، ويتصدر الفاتحة شيخ يرتل القرآن وفي أغلب الأوقات يقرأ المرتل كلاماً خاصاً كختام للفاتحة وهو بسم الله الرحمن الرحيم.

صدق الله العلي العظيم الذي اختار لنفسه البقاء والدوام وحتم بالموت والفناء على الخاص والعام وساوى في التراب بين الملوك والخدام فقال تعالى ولقوله الإجلال والإعظام﴿كل من عليها فإن ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فسبحانه من ملك لا يرام وعزيز لا يضام وقوي لا يعجزه الانتقام خلق السماوات والأرض في ستة أيام وعنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ذلكم الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام وصدق نبينا محمد ﷺ المفضل على سائر الأنام المخصوص بالحوض والشفاعة والمقام الذي هدانا لدين الإسلام وأوضح لنا مبهمات الأحكام صلى الله عليه وآله الأعلام ما أضاء الليل وما دجى ظلام وصدق علي أمير المؤمنين عليه السلام السقي يوم الزحام وصدقت الأئمة المنزهون عن الخطايا والآثام أيها الناس أيقظوا القلوب عن مراقد الغفلات واعدلوا النفوس عن موارد الهلكات في مواطن الخلوات وبادروا في طاعة رب السموات وإياكم ومظالم العباد فإنها من أعظم

(١) المنهاج المطبوع بهامش شرحه، المغني جـ١ ص ٣٥٧. تأليف محي الدين الشافعي.

الخطيئات واعلموا أن الدنيا ليست بدار ثبات وإنما هي دار الشتات ومحل الرزايا والآفات دار النوائب والمحن دار المصائب والفتن دار لا يدوم نعيمها ولا يعافى سقيمها دار المغتر فيها ذليل والمستكثر بها قليل والمقيم فيها إلى رحيل دار أولها عناء وآخرها فناء دار في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وإقبالها خديعة وإدبارها فجيعة وأمنها على حذر وصفوها على كدر لا تسمح ببقاء إلا صيرته إلى فناء، كم أبادت صروفها من أمة أين الملوك والأرباب أين الأنساب والأحباب أين العلماء والطلاب أين الأقرباء والأصحاب، وصلوا إلى المقابر وطحنتهم الأحجار الصلاب وأكلت نواعم خدودهم الدود والتراب أين الملوك الذين ملكوا الدنيا ونواحيها، ونفذوا أموالهم في أيامها ولياليها، أما والله إنهم قد زعموا أنهم أكثر البرية إعداداً وأكثرهم أموالاً وأولاداً أما علموا أنهم فارقوها وسكنوا الحاداً فرحم الله امرءاً أحسن لنفسه النظر وتفكر فيما مضى من الدهر واعتبر وأطال البكى على قبيح عمله واستغفر ربه بجميع زلله قبل أن تلسعه عقارب المنية وتطرقه طوارق الأذية فيا سلالة الأمة السالفة ويا بقية البرية التالفة استصحبوا زاداً للرحيل فقد قرب أوانه وتأهبوا لطوارق المنون فقد نعق في عرصاتكم غربانه، واستعدوا لملك الموت، فقد صالت على نفوسكم فرسانه، فبينما أحدكم في ميدان هواه خائضاً في بحر خطاياه مشتغلاً عن آخرته بدنياه مسروراً بما ملكت يداه إذ هجم عليه هادم اللذات المفرق بين القبائل والجماعات وانتزع روحه من بدنه وأخرجه من ماله ووطنه ويتم منه العاقبة وأرمل فيه الصاحبة وزود من ماله كفناً وجعله في الأرض بعمله مرتهناً فلو كشفت لكم عن أطباق الثرى بعد ثلاثة أيام لرأيتموه متغير الحال أحداقه سائلة على خديه وأصابعه ساقطة من كفيه وهامته قد انفلقت وأضلاعه قد انطبقت، وجلده قد امتزق وبطنه قد انفتق وظهره من التراب قد انكسر وصديده قد سال على سائر كفنه والدود قد خلص نواعم بدنه فيا أولي الألباب والعقول والسامعون لما أقول أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ما لكم منه لا تشفعون فورب السماء وما نطقت به أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، عباد الله إنكم لهذا المنهل واردون، ولغصصه متجرعون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنّة هم الفائزون.

يا غافلاً والدهر يحطم عمره لا تحسبن الموت عنك غفولا
وإذا رأيت جنازة محمولة فاعلم فإنك مثلها محمولا
أو ما ترى قوماً حدى بهم النوى قد أصبحوا تحت التراب نزولا
وما الليل والأيام إلا منازل يسير بها سار إلى الموت قاصد
ومن أعجب الأشياء تلك عجيبة منازل تسري والمسافر قاعد
ولو انا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا فنسئل بعدها عن كل شيء
يا عامر الدنيا إلى كم وكم أما رأت عيناك قصراً خراب
تعمر يا مسكين دار الفنا ودار عقباك خراب أراب
أفق كأني بك مستصرخاً تدعى فلم تقدر لرد الجواب
خليلك الخالص من بينهم يحثوا بكفيه عليك التراب
أيها الناس والمعزون طراً لكم عظم الآله الأجورا
وحبا ميتكم بجنات عدن ثم لقاه نظرة وسرورا
وجزاكم خير الجزاء إذ أقمتم مأتم الميت جنة وحريرا
واتكأتم فيها على الأرائك فيها لم تروا شمسها ولا الزمهريرا
ولهذا جزيتم بنعيم الخلد فيها وسعيكم مشكورا

... رحم الله من قرأ وتلا وأهدى ثواب ما قرأناه من كتاب الله العزيز إلى روح السعيد المتوفى فلان ابن فلان في هذه الساعة قربة إلى الله تعالى الفاتحة...

ولوالدينا ولوالديه ولكافة المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات بالمغفرة والرضوان اللهم جاف الأرض عن جنوبهم وصعد إليك يا رب أرواحهم ولقهم يا رب منك رحمة ورضواناً وانزل لهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم وتؤمن به وحشتهم إنك على كل شيء قدير وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

تسلى فكم لك من سلوة تفرج عنك هموم الحزن
بموت النبي وقتل الوصي وذبح الحسين وسم الحسن

زيارة القبور وآدابها

إن للشيعة عقيدة متكاملة في زيارة قبور أئمتهم الكرام(ع) عقيدة فيها لهم خير يرجونه وجاه يأملونه يتقربون إلى الله بهم، ويطلبون بحبهم لهم الشفاعة منهم.

وجاء في كتاب عقائد الإمامية[1]، وتحت عنوان «عقيدتنا في زيارة القبور»: (ومما امتاز به الإمامية العناية بزيارة القبور قبور النبي والأئمة عليهم الصلاة والسلام... وتشييدها وإقامة العمارات الضخمة عليها ولأجلها يضحون بكل غال ورخيص عن إيمان وطيب نفس.

ومرد كل ذلك من وصايا الأئمة، وحثهم شيعتهم على الزيارة وترغيبهم فيها لها من الثواب الجزيل عند الله).

وقد بين المجتهد الأكبر الشيخ محمد رضا المظفر رحمه الله من جملة ما بيّن، فوائد زيارة القبور الدينية والاجتماعية، إذ ان بها تقوى رابطة الولاء، للأئمة الأطهار، وتحل الألفة والتعارف بين الناس، وتذكر بها مواقف الأئمة عليهم السلام وتضحياتهم في سبيل نصرة الحق.

وبيّن العلامة فقيه الإسلام المظفر رحمه الله أموراً كثيرة تتعلق بآداب الزيارة، فقد أوجب على الزائر أن يكون طاهراً مؤمناً، ويفضل تصدقه على الفقراء، وإعانته للمنكوبين، وأن يتحلى بأخلاق عالية ومثل عليا.

والناس يأمون النجف زرافات ووحداناً من كل حدب وصوب من داخل العراق وخارجه، وهم يبدون في الأيام المخصصة للزيارات كتلاً متراصة يطلبون من الله الخير والغفران مكررين في ذاكرتهم أخلاق الأئمة وبطولاتهم وتضحيتهم في سبيل الإسلام وإعلاء كلمة الإيمان، لتكون لهم خير مرشد للسعادة في الدنيا ونيل الآخرة، ولا جدال في أن المتمعن في أولئك الناس الذين زاروا النجف يجدهم في غبطة وحبور فهم في زيارتهم يكسبون خيراً عظيماً من الولاء لأئمتهم الكرام، ويضاف إلى ذلك

---

(١) عقائد الإمامية ـ للشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره).

أنهم يؤدون طقوسهم الدينية في المراقد المشرفة يرجون في ذلك نيل الشفاعة والمغفرة من الله ثم بعد ذلك يقومون بزيارة قبور موتاهم طالبين لهم من الله المغفرة والرضوان. أما التعارف والتوادد بين الناس فيحصل في هذه الزيارة بشكل عفوي إضافة لما فيها من استطلاع واستجمام.

ويلتقي الناس بعضهم أيام الزيارة بوجوه بشة وضمائر زكية ونفوس مرحة، كأنما جاؤوا ليغسلوا قلوبهم من أدران وأوضار تفاقمت.

وإن زيارة وادي السلام في الأعياد أمرٌ اتخذ طابعاً خاصاً ورونقاً متميزاً. ففي عيد رأس السنة «عيد الدخول» مثلاً يشاهد جمع كبير من القرويين المزارعين يقصدون النجف من قريب وبعيد، ويعقدون حلقات الأنس والإمتاع معتقدين أن في هذه الأيام يشاركهم موتاهم أفراحهم، وهم يهزجون مؤدين الدبكات العربية العراقية بأبهى ما يكون الإبداع، وينشدون أناشيد الذكرى ذكرى الأيام التي خلت، وكان لموتاهم فيها نصيب.

والأكراد في أيام أعيادهم يزورون قبورهم في النجف ويعملون ما في وسعهم هدية لموتاهم عسى الله أن يغفر لهم ما قد اقترفوه من ذنوب. وتحل أيضاً الألفة والمحبة والتعارف بينهم وبين العرب كما هي الحال بين العرب والإيرانيين القاصدين للزيارة.

وجاءت روايات كثيرة عن الأئمة ومحبيهم ما ذكرنا في أمر الزيارة.

فقد جاء أنه قيل لأبي عبد الله عليه السلام يقوم الرجل على قبر أبيه وقريبه وغير قريبه هل ينفعه ذلك؟ قال نعم، إن ذلك يدخل عليه السرور كما يدخل على أحدكم الهدية يفرح بها. زيارة قبور «الأئمة والمؤمنين مستحبة» وعن الأئمة ألا زوروا القبور فإنها تذكركم بالموت.

وذكر في تحفة العالم أن لزيارة القبور أحكاماً تصقل نفسية الزائر لينعكس شعاعها على أرواح الأموات، ولذا يستحب الوضوء عند الزيارة.

وهذا يشير إلى الملاقاة الروحانية وينتج بذلك نفع جزيل وابتهاج جسيم لروح الزائر والمزور، وربما لهذا السبب شاع المثل الذي فحواه «إذا ضاقت فيكم الصدور عليكم بزيارة القبور» بين سكان النجف.

وقد جاء أن أهل اسطاغيرا إذا تناظروا واختلفوا في شيء من المعارف جاؤوا إلى الموضع الذي فيه عظام أرسطو لأجل تزكية عقولهم وفكرهم(١).

ما يقال عند الزيارة من دعاء وتسليم

كما أن هناك أصولاً وآداباً لهذه الزيارة فهناك كلمات يتفوه بها عند القبور فقد ذكر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال عند أهل القبور: يا أهل التربة، يا أهل الغربة، أما المنازل فقد سكنت وأما المواريث فقد قسمت وأما الأزواج فقد نكحن هذا خبر ما عندنا ثم قال بعد الحلف بالله لو أذن للقوم في الكلام لقالوا إنّا وجدنا خير الزاد التقوى.

وروي أنه قيل لأبي عبد الله عليه السلام كيف أسلم على أهل القبور قال نعم تقول: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين أنتم لنا فرط ونحن إن شاء الله بكم لاحقون.

وجاء أنه إذا أردت زيارة قبر أحد المؤمنين فعليك أن تستقبل القبلة وتضع يدك على القبر وتقول اللهم ارحم غربته وصل وحدته وانس وحشته وآمن روعته واسكن إليه من رحمتك رحمة يستغني بها من رحمة سواك والحقه بمن كان يتولاه.

ورويت روايات كثيرة أن الأموات يعلمون الزيارة ويفرحون بمن يزورهم ويستأنسون، وقد كثر سؤال الناس على ما يقال عند الوقوف على القبور. . . وذكر أنه يفضل القول عند القبور. . اللهم جاف الأرض عن جنوبهم وصعّد إليك أرواحهم ولقهم منك رضواناً واسكن إليهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم وتؤنس وحشتهم إنك على كل شيء قدير.

وسئل أيضاً أبو عبد الله عليه السلام عن كيفية التسليم قال تقول: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين رحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

---

(١) تحفة العالم ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

المغاسل

نطلق على المغتسل في اللغة الدارجة «المغيسل» وهو مكان أعد لتغسيل أجساد الأموات قبل دفنهم ذلك حسب ما نصت الشريعة ويوجد منها في وادي السلام مغتسلان الأول هو المغتسل الشرقي وهو واسع يستقبل العشرات من الجنائز، بنايته حديثة تنتهي إليه وسائط النقل، وقد بنيت أمامه كازينو توفر الشاي والماء للزائرين والعاملين ويوجد مغتسل آخر إلى أقصى جنوب غرب المقبرة أو شمال غرب المدينة تماماً، وهو غير واسع، وقديم وأقرب من الأول إلى المدينة.

وقد صممت المغاسل بحيث يسهل على العاملين تغسيل الميت بسرعة، فقد شيد في داخل غرفة واسعة عالية السقف حوض كبير يملأ بالماء وإلى جانبي الحوض صخرتان طويلتان يوضع على كل واحدة جسد يصب عليه الماء من الحوض ويستخدم في التغسيل الكافور، وأن هناك في كل مغتسل غرفتين الأولى لتغسيل الذكور ويعمل بها الرجال وأخرى لتغسيل الإناث وتعمل بها النساء، وبالطبع إن تصميم الغرفتين وما فيهما من صخور وأحواض واحد.

ذكر المقبرة في كتب الرحلات

قد أوجز محمد ثابت الرحالة المصري عند وصوله النجف عن وادي السلام قولاً، وذكر أنه (بعد أن أدى الزيارة وخرج يطوف حول الحرم، شاهد مقابر تمتد إلى الآفاق من قباب فاخرة إلى أضرحة بسيطة لإيواء الآلاف من الجثث التي كان يراها تنقل على السيارات والأكتاف من الآفاق الإسلامية وبخاصة العراق وفارس وادعى إنه قد ذكر له العلماء أن المدافن عشرة آلاف لا تزيد ولا تنقص، لأن سيدنا علياً يرسل ما زاد من الجثث بعيداً، فلا يعرف أحد مقرها)[1]. أما الذي اعتقده فهو أن محمد ثابت لم يتأمل جيداً ما رواه له العلماء الذين اتصل بهم أو انهم لم يرووا له صحيح الروايات وأود لو أنه قرأ كتابي هذا عن وادي السلام إن كان اليوم حياً يرزق حتى يطلع على كل مزايا شأن الدفن في النجف وتأريخ وادي السلام على حقيقته التي لا يشوبها ريب. فإن المقبرة يا صاحبي تضم كل الجثث التي تدفن بها وأن علياً عليه السلام كفيل بحماية من يجاوره كما أن الروايات الكثيرة المسندة دلت على أن جميع الأرواح المؤمنة الخيرة تنادى للالتحاق بالنجف لتحشر في وادي السلام لأنه محشر جميع الأرواح. واستأنف محمد ثابت القول وذكر (أن المقابر تباع بأثمان هي الموارد الرئيسية للحرم) ألا ترى أن ما يذكره محمد ثابت يثير الدهشة والعجب، لا أدري كيف صاغ هذا الحديث؟ وماذا يأمل مني ـ وأنا عشت في النجف سنين ـ عندما أقرأ عن مدينتي هذه الأمور التي لا تمس إلى الواقع بشيء، سوى أن أحكم على ما جاء في بقية رحلاته التي جابَ فيها ربوع آسيا واستراليا وأوروبا والأمريكتين (العالم الجديد) وربوع أفريقيا بأن ما جاء فيها من أمور تأريخية وجغرافية وما يتبعها بعيدة عن الواقع. إن موارد الحرم الشريف غير مستمدة أبداً من أثمان القبور، بل كما بينا سابقاً إن هذه الموارد تعود إلى المتكلفين بالدفن كمصدرٍ لمعاشهم.

واستمر محمد ثابت على الحديث ذاكراً (أن قيمة الدفن تختلف حسب قدسية الموقع) وقد أشار أيضاً إلى أن المدفن العام وهو وادي السلام، ويبن. . . أن ثمن الدفن أربعون قرشاً وفي المدفن الخاص نحو جنيهين أما قرب الحرم وما يلاصقه من أرض فلا تقل قيمته عن ستين جنيهاً، ومن هذا يستفيد أهل النجف من مستلزمات

الدفن، وكم من جثث كانت تحملها السيارات وافدة من كل فج، وبعد الغسل يطاف بها حول الحرم، وبعد الصلاة عليها تدفن وتظل كذلك حتى يتراءى لسيدنا علي أن يكشف عن مكنونها وتدفن في مكانها... وحري بنا التعليق على عبارة الرحالة محمد ثابت الأخيرة، في كون سيدنا ومولانا علي (ع) ينقل الجثث ويكشف عن مكنونها بأنه كيف ساغ لنفسه أن يتحدث في الناس هذا الحديث، ثم إنه من أي مصدر أتى به؟ فقد بحثت في كتب جمة تكتب عن النجف والإمام والدفن والمحشر فلم أجد ما يشير إلى ما قاله أبداً كما أنه لم يتحدث لي من أولي المعرفة في النجف عن هذا الشأن أبداً... وأخيراً لا أبدي غير الرجاء للأخ الرحالة وغيره من الناس الذين كرسوا حياتهم في جوب أرجاء الأرض وتدوين وتصوير ما بعد عن مرأى ومسمع الناس، في أن يكون همهم انتقاء الحقائق وتدوينها بتيقظ وحذر وليكن هدفهم خدمة المعرفة والمثل.

أما محمد وجدي قنديل موفد مجلة آخر ساعة فقد قال عن المقبرة عندما زار العتبات المقدسة ليظهر إلى الملأ عظمة الإسلام: (هذه هي المقبرة العظمى التي تحيط بالعتبات المقدسة، يدفن فيها أي شيعي يموت في أي مكان في العالم، ومساحتها ٣٥كيلو متراً مربعاً، وتضم ملايين الأحياء وعمرها ألف سنة).

ولم تشر مدام ديولافوا في رحلتها إلى العراق إلى وادي السلام، لكنها كتبت في كتابها عن وسائل نقل الموتى إلى النجف وكربلاء في الوقت الذي جاءت فيه إلى العراق، وأشارت إلى أن نقل الأموات يتم أكثره بواسطة قوافل تعد من الحمير لهذه الغاية وزينت الصفحة التي أوضحت فيها عن هذه الناحية بصورة تمثل قافلة من الحمير تنقل الأموات صوب النجف.

ما قيل في المقبرة من شعر ونثر

لقد فتشت في كتب التأريخ والأدب ملياً باحثاً على نثر حسن رصين وشعر جميل رائع قيل في ذكر وادي السلام وبالغ حكمته، فلم أعثر إلا على قصيدة للأستاذ علي الشرقي، وكلمة طريفة للأستاذ محمد حسين المقرم، وقصيدة للشيخ عبد المنعم الفرطوسي.

ثم تهيأ لي قبل البدء بكتابة هذا الفصل من الكتاب، الاجتماع مع الشاعر الموهوب والأديب الكاتب المنتج محمد الخليلي[١] في مقبرة أجداده، ودار الحديث بيننا، والذي يعرف الخليلي يستطيع أن يقدر مدى ما كان يشوب الحديث من عذوبة وطلاوة ورقة وبهجة ومرح، تلك هي سجيته في التحدث مع الناس حفظه الله. وما كان منه حين علم بموضوعي الذي بين يديك، حتى أتحفني بقصيدة أقرأها، وقل عنها ما شئت من نعوت، وكان عنوانها:

ـ وادي السلام ـ

حي وادي السلام وادي الأمان ... بلغت فيه ساكنوه الأماني
جاور المرقد الشريف فنال ... الفضل من دون سائر الوديان
وانتمى للغري فازداد فخراً ... وتسامى علاً على كيوان
فتراه والقلب يرتاح فيه ... مثل روض بزهره مزْدان
فكأن القبور فيه قصور ... وكأن السموم نفح الجنان
وكأن الحصباء فيه درارٍ ... نثرت فوق تربة الزعفران
ليت شعري وكل قبر سواه ... مكمدٌ للفؤاد بالأحزان
كيف أمسى وادي السلام وأضحى ... يتسلى فيه عن الأشجان
فأجبني عن سر هذا المعمّى ... عن طريق المعقول والوجدان

* * *

وقابلت صديقاً لي صدوقاً هو الأستاذ الأديب حميد نجل العالم التقي الورع الشيخ محمد رضا فرج الله، حفظهما الله، الذي لا يصرفه عني ويصرفني عنه إلا انشغال في واجب لا محيص من أدائه. تطلعت إليه فوجدته هو ذاك الذي عرفته هشاً بشاً بغيته الاستفادة من عوائد المعارف، ليس الدنيا همته بل روحه التي هي مناط شرفه وكرمه والمرء بالروح لا بالجسم إنسان. وما أن تعرّف على الكتاب وتطلع إلى

(١) تأتي ترجمته في فصل (شعراء النجف).

فصوله حتى انبرى قائلاً، سيهدي حميدٌ إلى أخيه المظفر قصيدة، وما مضى على قوله هذا أسبوع، حتى نظم كل ما أراد نظمه، ثم جاء إليَّ قائلاً هذه وقفة على مقبرة وادي السلام وسلمني أوراقاً فتناولتها وإذا هي قصيدة عصماء متينة العبارة ثابتة المعنى، تنبض بالإيمان والحكمة، وفي جوانب منها إشارة إلى ما ينبغي للإنسان حيال أخيه الإنسان في حياة يبهجه زخرفها وهي ليست بدار مقام.

حقاً ليس بالإمكان قياس مدى فتنة الدنيا وغرورها، وإلا كيف نتشبث بآمالها وهي زائلة؟! وكيف نعتز بها ولا نفتر من اقتحام لجتها، وقد اقتحم ذلك ناس قبلنا فباؤوا بفشل منها؟ خرجوا منها كما دخلوا فيها وفارقوها وارتحلوا عنها...

وهذه هي رائعة حميد فرج الله[1]:

وقفة على وادي السلام

وقفت وقد هالني الموقفُ فجفت على شفتي الأحرفُ
أجلت النواظر في بقعةٍ مداها من البعد لا يعرف
تصورت كم ضم هذا الأديم جموعاً من الناس لا توصف
فكم من ملوكٍ أقاموا القصور فعافوا القصورَ وما زخرفوا
وكم عالم ضم هذا الثرى وكم شاعر حسه مرهفُ
وكم من فتى حطّ في رمسه ومن غادة قدها أهيف
وكم من صحيح طواه الفناء يوارى إلى جنبه مدنف
عوالم قد ووريت ها هنا وجيل على آخر يرصف

* * *

تأملت لم كل هذي الحشود إلى مستقر هنا تزحف
وما السر في نقل أجداثها إليه وفي تربه تقذف
فتطوي المسافات عبر الحدود ويأتي الغري بها الموجف
وهذي الملايين مر القرون كأن الغري لها متحف

---

(١) من شعراء النجف، راجع ترجمته في قسم (شعراء النجف) من الموسوعة.

تـأملت حتى كـأني سكـرت ... ومـا لامست شفتي القـرقف
فصـوّت في مسمعي هـاتف ... بـذكـر إمـام الهـدى يهتف!
ولاحت عـلى خاطـري صورة ... وعـنـوانها النـجـف الأشرف
تـشعّ بـآفـاقـهـا قـبـةٌ ... علت شرفـاً دونها الأوطـف
تعـالت لتحضن وادي السـلام ... وتـدرك من جـاء يستعـطفُ
ومدت على الراقدين الضلال ... كـأم عـلى صبيـة تعكـف
سمت بـاسم حيـدرة رفعـة ... وجلت عن الـوصف إذ توصف
فـأضحى الغـري بهـا غـادة ... وكـل مـوالٍ بهـا يـكـلف
تـسـير الجمـوع إلى تـربـة ... لمسجـد حصبـائـه تـرشفُ
فمن جـاور المـرتضى حيـدراً ... بيـوم الجـزاء غـدا ينـصف

* * *

أيـا مـن رحلتـم لـدار البقـاء ... ألا حـدثـوا مـا هـو الموقفُ
وكـيف الحيـاة بـتلك الـدنى ... أجيبـوا ومـاذا رأيتم صفـوا
أبينـكـم سـائـد أو مـسـود ... أفيكم قـوي ومستضعـف
أبـينـكـم مـن يـرى حقـه ... وقـد غـالـه مجـرم مجـحـف
فـإن ضج حـرٌ من الـظالمين ... نـراه بـأقـيـاده يـرسـفُ
وهـل فيكم واحـد يستبـد ... لقـوت الملايـين يستنـزفُ
وهـل بينكـم أسـود تلتـوي ... عليـه السيـاط فـلا ينصفُ
أعـنـدكم مثـل مـا عنـدنـا ... ديـارٌ عـلى أهلهـا تقـصف
أجيبـوا فـإنـا لمـا ينـطوي ... عـليـه جـوابُـكـم نهدف
أيـا من حللتم بـدنيـا الخلود ... أجيبـوا وعـما هنـاك اكشفـوا
وقـولـوا لنـا كيف تلك الحيـاة ... وكـيـف يـعـيش الألى شرّفـوا
وكيف ريـاض الجنـان أزدهت ... كـأن القـصـور بهـا زخـرف
ورضـوان يستقبـل الـوافـدين ... إلـيـهـا ومـرآه يـسـتـوقـفُ
وكـوثـرهـا رائـق عـذبـه ... ومن يـرتـوي منـه لا يـتلفُ
بهـا الحـور تمـرح في زهـوهـا ... خـفـافـاً وولـدانها تهـتـفُ

تقوم بما يأمر الصالحون — على أمرِ أهل التقى تشرف
وكيف الجبابرة الملحدون — تكب بنار الغضا تقذف
وكيف السعير بأهوالها — يساق إليها الألى أرجفوا
ومهما يزيدُ عديد الطغاة — جهنم في هولها تلقف
أزيز لها يستفز النفوس — قلوب الطغاة له تنزف
يدوّي فليس له هدأة — وما انفكت النار تستأنف
ألا حدثوا أيها الراحلون — وقولوا عسى يهتدي مدنف
وعل الذي راح في غيه — يؤوب إلى الحق لا يسرف

* * *

أيا موت أقصر وخل الفخار — فما ضائر الخير ما تلقف
فما الجسم إلا تراب يعود — إلى أصله ثم يستخلف
وإن الحياة حياة النفوس — إذا اتشحت بالهدى تشرف
وإن الأنام بآثارها — وفي ما تخلده تعرف
فما مات من إرثه الطيبات — وإن لفه الجدث الأخوف
وما خاف من ضم جثمانه — تراب بوادي الحمى ألطف
تقدست من بقعةٍ بالغري — وليس سوى أرضها نألف
تباركت مذ كنت مر الدهور — وحتى القيامة إذ تأزفُ
وما قيل في ذكر وادي السلام — هو الآي نتلوه والمصحف
فبورك ما خط في ذكره — وما دونوه وما ألفوا
وبورك ما خطه (محسن) — شفيعاً إذا انعقد الموقفُ

إنك تقرأ في هذه القصيدة الدعوة إلى التجديد والنهوض. وهي تعبّر عن طموح منشئها نحو التطلع إلى الحياة والمطالبة بالإصلاح والحث على الأخذ بوسائل القوة والاتحاد.

لقد تجددت في أدبه وشعره هذا أغراض وفنون أخرى ترمي إلى تصوير المثل العليا للخير والحق والجمال في هذه الحياة وهي غاية الأدب الحقيقي في جميع العصور.

وادي النجف[1]

لمعالي العلامة: الشيخ علي الشرقي

* * *

اللطف غبش سفحة ... الوادي المنور بالشقائق
والرمل مواج السبائك ... بالشذى القدسي عابق
والدار عالية البنا ... قوراء كاملة المرافق
وضح الطريق لها ... وزالت عن شرائعها المزالق
فيها مفاتيح لأبواب ... الرجا وبها مغالق
ولها مجاز ينتهي ... بالسالكين إلى حقائق

* * *

وطني المقدس أي سر ... في ثراك الطهر عالق
أمن الثرى هذي الدمى ... ومن الورى هذي الغرانق
ومن التراب وما التراب ... خلقت أوراد الحدائق
لله فيك عناية ... جعلتك مخلوقاً وخالق
مرت بصخرتك القرون ... سريعة مر الدقائق
مليء بكل طريفة ... من كل معجزة وخارق
زاهي الحدود منيعة ... ببني المدارس والخنادق
ساع لرفعة شعبه ... بلد المنابر والمشانق
ولوائه القومي فوق ... شعاره الوطني خافق
العز وضاء المنارة ... لاهب والعزم صادق
تاج الجزيرة قبة ... سطعت على خير المفارق
الحق تحت رواقها ... والمجد ممدود السرادق

---

(١) الشيخ علي بن الشيخ جعفر الشرقي المتوفى ١٣٨٤ هـ راجع (شعراء النجف) من الموسوعة.

أيـن الـلواحـق يـا غـري فـأنـت أنت أبـو الـسـوابق
يـا لمـعـة الـنـجـف المـعـلى لا تجـهـمـك الـطوارق

* * *

وهذه رائعة الفاضل علي الشرقي في ذكر وادي السلام:

سل الحجر الصوان والأثر العادي خليلي كم جيل قد احتضن الوادي
فيا صيحة الأجيال فيه إذا دعت مـلايـين آبـاء مـلايـين أولاد
ثلاثون جيلاً قد ثوت في قراره تـزاحم في عـرب وفـرس وأكـراد
وكم كومة للترب من حول كومة معلمـة هـذا الـزعيم وذا الهـادي
وما الربوات البيض في أيمن الحمى وقـد خشعت إلا أناضـد أكبـاد
خليلي هجساً واختلاساً بخطوكم فـلم تـطؤا إلا مـراقـد رقـاد
فذوا الزهو خلى الزهو عنه وقد ثو ى وظلت على الغبرا سيادة أسياد
فكم من همـوم في الـتراب وهمـة وكم طويت فيـه شمائل أمجـاد
أعقبـاك يـا دنيـا قميص وطمـرة بحفـرة أرض من خرابـات زهـاد
عبرت على الوادي فسفت عجاجة فكم من بـلاد في الغبار وكم نـاد
وأبقيت لم أنفض على الرأس تربه لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي
ذهبنـا إلى القـلال نسعى كـرامـة أتقبـل أجـدادي زيـارة أحفـاد
وهـل رادع للنـاس عن كسر قلة إذا عـرفـوهـا من ظلوع وأعضـاد
وجئنـا لحي يضربـون قبـابهم على رائح عن حيهم وعلى الغادي
قباب عليها استهزأ الدهر ما بهـا سوى الحجر المدفون والحجر البادي
ألا أيها الركب المجعجع في الحمى إلى أين مسرى ضعنكم ومن الحادي
حـدوج عليهـا روعـة فكـأنها وقـد سجدوا فيهـا محاريب عبـاد
غداً تنبت الأجساد عشباً على الثرى فهـل تطلع الأرواح مطلع أوراد
وهل لعبت في الراقـدين حلومهم بـأطيـاف أفـراح وأطيـاف أنكـاد
محـال عـلى الأرواح دفن بـتربـة ولكنـها هـذي القبـور لأجسـاد
مضت نشأة الأرحـام في ظلماتهـا وأضـوء منها نشـأتي بعد ميـلادي

ولي نشـأة أجلى وأعـلى فـإنني لتهيئـة في النشـأتـين وإعـداد
فما هذه الأجسـاد من بعد نـزعها سوى قفص خال وقد أفلت الشادي
طبـاع الفتى فردوسـه أو جحيمـه وفي طي أخلاقي نشوري وميعادي

ووصف الأستاذ محمد حسين المقرم[1] وادي السلام بأسلوب رقيق مؤثر ونشر ما قـال عنه في مجلة البـذرة قال: «وادي السـلام في النجف وادٍ وسيـع الأرجـاء مـترامي الأطراف، فيه ألوف القبور ما بين قائم الرسم ومندثره، رقدت فيها الدهور والآبـاد، وسكنت في طواياه ملايين من بني الإنسـان. . . وادٍ يبعث الروع والـوجل في الأفئـدة من تلك القبور الماثلة دكاكها تتمثل المنايا مكشرة عن أنيابها، فأي قلب لا ينفـر أو أي صدر لا يخرج من أعماقه تنهداته وحسراته! وما أصدق الشاعر بقوله:

سر إن اسطعت في الهواء رويـداً لا اختيـالاً عـلى رفـات العبـاد

فكم من جناجن صدر طحنت وكم من اشلاء ابليت فكان منها تراب.

هذا الوادي الأثري إذن، فما أطهرها من تربة وأنقـاها!! بـالموت تخضّـد شوكـة الإنسان، فالنفس الصعبة المراس القوية الشكيمـة تخضع ذلاً واستكـانة عنـد جبروت الموت فتساوي تلك النفوس في ملكه وفي ديمقراطية سلطانـه. . . في الأرماس المـزدحمة في هذا الوادي هدأت النفوس في سباتها العميق بعد أن أتعبتها الأيام، فالشاعر الـذي كان ينفح النـاس بعبقاتـه ويشيع في الأمـة روحه الفـذة، والعالم الـذي كانت تـزدحم الأفكار والحقائق في دماغه وأفـاد الأمة بسـديد آرائـه وناضـج أفكاره، والفنـان الذي صـور الحياة ببـأسائهـا وتعسائهـا، والزاهـد الذي عـزف عن متع الحيـاة وصدف عن متعها، فمضى لسبيل ربه نقي السريرة طاهر الضمير ولم يتحمل آثـام المجتمع، هؤلاء كلهم جروا في مضامير الحياة وعند مرحلة كانت هدأتهم الأخيرة:

ضجعـة المـوت رقـدة يستريـح الجسم فيها والعيش مثل السهـاد

رفـرفي يا مـلائكة الـرحمة بـأجنحتك الخفيـة على هـذه الأجساد المتعبـة وحلقي بنفوسها إلى سماء القدس واستقري بها في رياض الجنان الخالدة.

(١) من الأدباء الأفاضل تأتي ترجمته في ضمن ترجمة أبيه العلامة الحجة السيد عبد الرزاق المحترم.

حلّقي بها إلى حيث النعيم الأزلي فإنها حريّة بالنعيم والخلود.

إيه وادي السلام، كم ضممت بين جوانحك من أرواح، استوى في حفرك المظلمة العزيز والذليل والغني والفقير، والعالم والجاهل فكلهم في ثراك سواء، إلا أن الذليل صار عزيزاً بصالح أعماله، والعزيز الشريف في قومه صار ذليلاً بسيىء أعماله كل يذكر بعمله.

فإنما المرء حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن روى.

في ثراك سكن الأبناء والأجداد والآباء، هذا الثرى ربما كان لخدٍ أسيلٍ أو عين شهلاء، أو جسد رشيق: وما أروع ما قال الشاعر النجفي أحمد الصافي:

كـل ذرات هـذه الأرض كـانـت ... أوجهـاً كـالشمـوس ذات بهـاء
أجـلُ عـن وهـك الغبـار بـرفقٍ ... فـهـو خـدٌّ لـكـاعـب حسنـاء

وما قاله المعري أبلغ في المراد:

سر إن استطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد!!

أيها الوادي المبارك، إنما أنت شخص ماثل في عظتك لنا وعبرك ربما احتويت من صور للحزن والخشوع.. تعلو الصيحات من جوانبك فيتبعها الصراخ فتلك تندب وليدها الذي فارقها وهو بعد في ميعة الصبا، وأخرى تبكي أخاً كانت ترتجيه عوناً وذخراً لها في الشدائد، وبين هذي وتلك تُرسلُ دموع المئات من المفجوعين على ثراك لتختفي بعد ذلك بين طيات التراب، ما بين مكبٍّ على قبر حبيب أو زوج أو صديق أو ولد أو عزيز وفي الأحشاء نار يستعر أوارها، لا تخبو حتى تعود من جديد.

وهذه قصيدة الأديب المعروف الفاضل الشيخ عبد المنعم الفرطوسي(١) في ذكر وادي السلام وفضل تربته:

على الذكوات البيض من جانب الوادي ... قفا ساعة واستنطقا الأثرَ البادي

---

(١) الشيخ عبد المنعم بن الشيخ حسن الفرطوسي ١٣٣٤ ـ ١٤٠٤هـ. ترجمته في الموسوعة، قسم (شعراء النجف).

فكم فيه معنى لا يفي ببيانهِ لسان فصيحٍ أو يراعةُ نقّاد
وكم عبرة خرسا بها نطق البلى فأفصح تبياناً على غير معتاد

خليليَّ ما هذا البيان فإنني أرى الصخرة الصماء تعرب كالشادي
وذي صفحة الوادي ينمّ عبيرها بما قد حوته من زهورٍ وأوراد
وكم ربوةٍ للرمل ماج أديمها بلألاء ثغرٍ قد تناثر في الوادي
ولحدٍ على حافاته قد تعطّفت حنايا ضلوعٍ من قوائم أجساد
وقفت عليه والأسى يبعث الأسى فهاجت بنفسي زفرةً ذات إيقاد
وقد جُلّل الوادي الرهيبُ وما به بروعة إجلالٍ لها أثرٌ بادي
هنالك لو شاهدت أروع منظرٍ بروعتهِ شعري تردى وإنشادي
سكون عميقٌ قد تخللَ بينهُ صدى صيحةٍ يعتاد ترديدها الحادي
وقد جثمت تلك التماثيل حوله ومالت أعاليها خشوعاً كأجياد
وكم بعثرت من حول هاتيك كومةٌ تزاحم في طيّاتها أيُّ أضداد
وكم حفرةٍ قد أدرجوا في قرارها مواهب أفذاذٍ وأخلاق أمجاد
فيا صفحة الوادي وأنت سجله أتدرين كم مرت قرونٌ على الوادي
وكم قد تلاشت في ثراه مفارقٌ وكم طُويت فيه أكاليلُ أسياد
وكم صولجان قد تداعى كيانُه به وعروشٍ دكها الزمنُ العادي
ورب لسانٍ مفصح عاد أخرساً وخانته للتعبير قوّةُ إيجاد
وكان محالاً عنده الصمت فاغتدى لسلطانه الجبّارِ أطوع منقاد
فهل طُويت منه الفصاحة في الثرى وهل أخمدت في أثرها روعة النادي
سلامٌ على الوادي على ذكواته ومن حلّ فيه من ضيوف ووفاد
على تربة منها الصبا قد تعطرت فرائحها الفياح يعبق كالغادي
على صفحة الوادي وموجة رملهِ وآمال آباءٍ وأحلام أولاد
وقارورةٍ من أدمعٍ قد تكسرت لامٍ رؤومٍ فوق زهرة أكباد
ويا تربة الوادي السلام قرارها ومن حبها في كل قلب هوىً بادي
سقاك الحيا من تربة قد ترعرعت على حبّها نفسٍ بساعة ميلادي
علقت بها طول الحياة وإنني سأبعث مقروناً بها يوم ميعادي

وأخيراً...
للمقبرة مشاكل لا بد من حلها

إن هذه المقبرة الإسلامية العظيمة، التي تضم رفات ملايين الأجساد من أقاصي العالم الإسلامي وأدانيه، لها علينا حقوق كثيرة، ومن هذه الحقوق أن نستعرض بعض مشاكلها، فلعل المسؤولين يباشرون بحلها، وأهمها:

١ ـ ضيق المقبرة: إذ أنها اليوم أضحت مزدحمة بالقبور أيما ازدحام فلو وُسعت من الجهة الشمالية، حيث لا عائق للتوسيع لتضاءلت هذه المشكلة.

٢ ـ تخصيص الدفن وتعيينه: إذ أن كل ميت يدفن في البقعة التي دفن فيها من مضى من أفراد عائلته حتى ولو كانت تلك البقعة مزدحمة ولا مجال لذلك الدفن. فبدت المقبرة مزدحمة بالأجداث في جوانب، وغير ذلك في جوانب أخرى. ولو حاول الناس دفن موتاهم لا على التعيين، أي يدفنوا حيث يسمح المجال للدفن، لاختفت هذه الظاهرة.

٣ ـ تسوير المقبرة بعد توسيعها: وتحتاج المقبرة إلى تسوير من جميع جوانبها لتكون معزولة على أحسن وجه عما يجاورها.

٤ ـ تشجير بعض أطرافها إن أمكن ذلك...

٥ ـ لا بأس بالاهتمام في أمر حراستها بواسطة أفراد حكوميين.

حقاً إن هذه المقبرة الإسلامية تستحق كل عناية، وقد نصت كتب التأريخ وروت في شرفها ومكانتها ومكانة من ووري فيها.

وكان لنا في ذلك حديث أسهبنا القول فيه.

فلو حقق للمقبرة الأمور التي أسلفنا وأكثر منها لكانت تحفة تأريخية رائعة، وحكمة بالغة لها في النفس تأثير عظيم ـ والحمد لله رب العالمين ـ.

* * *

وجاء في كتاب (النجف الأشرف عاداتها وتقاليدها)(١) ما يلي:

الدفن:

إعتاد الشيعة منذ أقدم العهود على دفن موتاهم في أرض النجف الأشرف، وفيها من رفاة الملوك والعظماء والقادة والوجهاء الأعداد الهائلة. وكثيراً ما ينقل الموتى من أماكن قاصية إلى مقبرتها تبركاً بمجاورة قبر الإمام علي(ع) وتعد مقبرة النجف إحدى أكبر المقابر في العالم إن لم تكن أكبرها جميعاً نظراً لقدم الدفن فيها وقد أشار إلى ذلك الشيخ علي الشرقي في قصيدته (وادي السلام) إذ يقول:

سل الحجر الصوان والأثر العادي ... خليلي كم جيل قد احتضن الوادي
فيا صيحة الأجيال فيه إذا دعت ... ملايين آباء ملايين أولاد
ثلاثون جيلاً قد ثوت في قرارة ... تزاحم في عرب وفرس وأكراد
ففي الخمسة الأشبار دكت مدائن ... وقد طويت في حفرة ألف بغداد
عبرت على الوادي وسفت عجاجة ... فكم من بلاد في الغبار وكم ناد
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربه ... لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي(٢)

وقد وردت تقديرات لعدد الموتى الذين يجلبون إلى هذه المدينة سنوياً. فقال نيبور سنة ١٧٦٥م ـ ١١٧٩هـ عن عدد الجنائز التي كانت تصل إلى النجف من مختلف الأنحاء أنه كان يتجاوز الألفين في السنة(٣).

وذكر لوفتس سنة ١٨٥٣م ـ ١٢٧٠هـ عدد الجنائز فقال: يتراوح بين ٥ ـ ٨ آلاف(٤). وفي تقرير عسكري مكتوم أعدته رئاسة الأركان البريطانية العامة في سنة ١٩١١م ـ ١٣٢٩هـ يرد ذكر النجف. . . وتصل إليها حوالي ستة آلاف جثة في السنة لتدفن في مقابرها(٥).

---

(١) طالب علي الشرقي ـ مطبعة الآداب ١٩٧٧.
(٢) بحث جعفر خياط / موسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ١ ص ٢٢٣.
(٣) علي الشرقي / عواطف وعواصف ص ١٣٩.
(٤) نفس المصدر ص ٢٣٦.
(٥) نفس المصدر ص ٢٤٥.

لا شك أن عدد الموتى الذين يجلبون إلى هذه البلدة يختلف تعدادهم باختلاف الظروف، فيرتفع العدد في حالة تفشي الأوبئة والأمراض والحروب والمنازعات. ويقل العدد في خلاف ذلك، وعند فرض القيود والمنع بين العراق والدول الأخرى. وجدير بالذكر أن أغلب الجنائز الواردة إليها من خارج العراق هي من أهل الوجاهة والثراء والمركز الاجتماعي المرموق. أما فيما يخص العراق فقد كان البعض يدفنون الصغار وبعض النساء والرجال وخاصة الفقراء في أماكن قريبة من بيوتهم. أما الآن وبعد توفر وسائط النقل وتيسر المستلزمات المطلوبة فإن أغلب الموتى إن لم يكن كلهم (وأقصد موتى الشيعة) يجلبون إلى النجف. والجدول التالي يبين عدد الجنائز من الذكور والإناث والجهات الأجنبية والعربية الواردة منها خلال سنة واحدة[1].

التاريخ	عدد الذكور	عدد الإناث	المجموع العام	الجنائز الواردة خارج القطر
تشرين الأول ١٩٧٤	١٠٦٥	٩٩٥	٢٠٦٠	
تشرين الثاني ١٩٧٤	١٢٦٠	٨٧٠	٢١٣٠	كويت ١٧ سورية ٣ السعودية ١
كانون الأول١٩٧٤	١٤١٢	١١٨٩	٢٦٠١	كويت ٤١ إيران٢
كانون الثاني١٩٧٥	١٧٣٣	١١٩٣	٢٩٢٦	كويت٣٦ بريطانيا١ لبنان١ جبهة التحرير الفلسطينية١
شباط ١٩٧٥	١٢٥٠	١١١٠	٢٣٦٠	كويت ١٥ لبنان ١
آذار ١٩٧٥	١٤٧١	١٢٨٢	٢٧٥٣	
نيسان ١٩٧٥	١٤٧٢	١٢١٩	٢٦٩١	كويت ٢٣ مسقط وعمان ١٣ بريطانيا ١ فرنسا ١

(١) مكتب استعلامات الدفن في النجف / التقرير السنوي للجنائز الواردة للمكتب خلال سنة.

التاريخ	عدد الذكور	عدد الإناث	المجموع العام	الجنائز الواردة خارج القطر
مايو ١٩٧٥	١٤٠٠	١٠٠٢	٢٤٠٢	كويت ٢٤ باكستان ١
حزيران ١٩٧٥	١١٤٢	٩١٨	٢٠٦٠	كويت ١٧ البحرين ١ السعودية ١
تموز ١٩٧٥	١١٧٣	١٠٠٥	٢١٧٨	كويت ١٩ الاتحاد السوفياتي١ باكستان ١ اسبانيا١
آب ١٩٧٥	١١٤٨	٨٨٥	٢٠٣٣	كويت ٢٠ السعودية ١ البحرين ١
أيلول ١٩٧٥	١١١٨	٨٥٩	١٩٧٧	كويت ٢٥
		المجموع الكلي	٢٨١٧١	

إن هذه الأعداد الكبيرة من الجنائز الداخلة إلى هذه المدينة تؤثر تـأثيراً كبيـراً في اقتصادها، وفي مستوى معيشة قسم كبير من أبنائهـا. فالجهـات التي تستفيد من هـذا الجانب كثيرة جداً إذا نظرنا إلى كل ما تتطلبه عملية نقل الجنائز وتجهيزهـا ودفنها وبنـاء القبور لها واحتياجات المرافقين لها والتركـات الماديـة التي تصل إلى النجف لتـوزع على طلبة العلم والفقراء، وما إلى ذلك من الأمور الجانبية الأخرى. وأشار الشاعر المرحوم السيد أحمد الصافي النجفي إلى أهمية هذا الجانب في حياة هذه البلدة فقال:

فصادرات بلدتي مشائخ   وواردات بلدتي جنائز



مقبرة النجف

أو وادي السلام

للأستاذ: الحاج إسماعيل الخفاف[1]

من المواضيع التي كانت قد تسلمتها (دار الأضواء) بخصوص النجف الأشرف... مقال كتبه الأستاذ الحاج إسماعيل ابن الحاج رحيم الخفاف النجفي... حول مقبرة النجف أو وادي السلام... وقد تقدم الحديث عنه بصورة مفصلة إلّا أن في مقال الأستاذ الخفاف من الأمور والنقاط التي لم تكن في المواضيع السالفة، لذلك ندرجه هنا لعموم الفائدة، ولتكامل بعض جوانب البحث.

اختار الإمام علي بن أبي طالب(ع) أن يكون مدفنه في مدينة النجف لأمر قد قدر حيث جاء في وصيته: إذا مت فاحملوني وانقلوني إلى الغري عند الذكوات الثلاثة، انزلوا واحفروا ستجدون ثلاثة قبور، واحد لآدم، وآخر لنوح، والثالث لي، وفعلاً عند حفرهم وجدوا صخرة مكتوب عليها: هذا ما أدخره آدم أبو البشر

(١) اسماعيل ابن الحاج عبد الرحيم الخفاف النجفي ولد ١٩٣٩/ ١٣٥٩. أديب فاضل، بكالوريوس في العلوم الإسلامية، مع عدة دورات تربوية. مؤلف متتبع.

لعلي بن أبي طالب(ع) أو لولي من أوليائه، كذلك ورد في الزيارة المخصوصة: السلام عليك يا أمير المؤمنين وعلى ضجيعيك آدم، ونوح، وعلى جاريك هود، وصالح... حيث أخرج مدفنهم السيد محمد المهدي آل بحر العلوم، وهو في (وادي السلام) ولم يزل مدفنهم مزاراً لحد الآن، وعلى ما أعتقد أن المتولي، أو القيم على مزار النبي هود، والنبي صالح(ع) هو الشاعر الشعبي المعروف حسين قسام(١).

والمتداول منذ القدم أن الزائرين والوافدين الذين كانوا ينوون الإقامة أو السكنى عند مرقد الإمام أمير المؤمنين(ع) يقيمون بيوتهم بالقرب من الحرم وحواليه، لذلك إذا نظرنا خارطة النجف الأشرف في العهد العثماني، وجدنا أزقتها وشوارعها لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أمتار، والبيوتات متلاصقة واحدة بالأخرى، لذلك كان المدفن في ذلك العهد (سوق أهل الريحة) أو (سوق أبو الريحة)، السوق الذي كان تُباع فيه. العطور، وبعد التوسع انتقل الدفن للموتى إلى (سوق القصابين) الموجود حالياً، وعلى أثر توسيع البلد انتقل الدفن إلى خلف سور النجف، حيث النجف كان محاطاً بسور عال مرتفع، خوفاً من هجوم الأعراب والأعداء، فلذا كثرت المقابر وانتشرت كأبي كشكول، وبنت الحسن، وامتدت إلى الطارات وبئر عليوي، والجبل.

وبعد هذه المرحلة خصص الدفن في (وادي السلام) حيث الأرض وقف وهي تحت تصرف مديرية الأوقاف، بالإضافة إلى وجود أحاديث كثيرة في باب استحباب الدفن في هذا الوادي، وفيه مقام الإمام المهدي(ع)، ومن خصائص الوادي هذا مع كثرة المحمول لها من أجساد الموتى، وما يحمل إليها من المواد الإنشائية كالطابوق والجص ومواد البناء الأخرى، فلا زال هو وادي والالو كان حسب القاعدة للمدة الطويلة الذي يحمل لها لأصبحت شبيهة بالتل، ولكن الأخبار المتواترة تقول: إن أرض الوادي بكر، وكل يوم تصبح بكرا، هكذا يصفون هذا الوادي، فلهذا كان ولا يزال يستقبل

---

(١) حسين بن عبود القسام الخفاجي النجفي ١٣١٦ ـ ١٣٧٨ هـ، من كبار الشعراء الشعبيين، فكه سريع البديهة والنظم، له دواوين شعرية مطبوعة منها: قيطان الكلام. الأفكار المطلسمة. سنجاف الكلام. إلى غيره من الدواوين المخطوطة. وقد كتب عنه دراسة مفصلة الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، ونشرت في مجلة (التراث الشعبي) العدد الأول، السنة الأولى ص ٩٧ الصادر ١١ أيلول ١٩٦٣ م وستوافيك ترجمته مفصلة في الموسوعة، قسم (الأدب الشعبي).

الموتى من داخل العراق وخارجه بصورة متواصلة، وأصبح في عداد المقابر المهمة والكبيرة والمعروفة في العالم.

المغتسل:

وكان المغتسل الأول في الجدول[1] وبعده انتقل إلى قرب مركز الشرطة القديم، ثم قام الحاج مخيف... أحد الوجهاء الأخيار ببناء مغتسل (لبعد المغتسل عن البلد) وأسماه باسم الغاسل عليوي، وسمي المغتسل باسم بشر عليوي[2] وهو مجهز بأحواض، وبالسدر، والكافور، والقميص (الكفن) والحبرة، فالميت عند ما يحمل من الجامع أو البيت أو المستشفى يؤتى إلى هذا المغتسل، وبعد غسله يذهب به إلى مرقد الإمام أمير المؤمنين(ع) للزيارة، ثم الصلاة عليه، وأخيراً إلى مثواه الأخير، في وادي السلام،أو المكان الذي أوصى بالدفن فيه.

وكان الدفن متداولاً بالصحن الشريف، ولكن الأوقاف منعت ذلك في الوقت الحاضر، وكان في العهد العثماني أجور الدفن (مجيدي) فلذا ظهر التنافس بين المتولين أو كما يعبرون عنها بأصحاب اللزمات، وهم كثرة أمثال: بيت آل أبو صبيع ،بيت المؤذن، بيت الحمامي، بيت مال الله، بيت الملك، بيت شموس، بيت الشيخ أبو القاسم، بيت سميسم، بيت الجيلاوي، بيت النصار، بيت فياض، بيت الرفيعي، وآخرين.فوزع التولية النائب العثماني وسماها باللزمات أو التناوب، ويقال: أن صافي صفا أحد ملوك اليمن قديماً كان قد أوصى ولده عند موته أن ينقل إلى الغري، ويدفن هناك، وفعلاً مدفنه عند درعية الحاج عطية البوكَلل...

---

(١) قبل الجدول كان الناس يغسلون موتاهم في الدور سيما في عهد الحصار، ويقبرون كذلك الميت في البيت سواء أوصى الميت بذلك أم لا إذ لم يكن هناك طريق إلى خارج البلد.

(٢) قال مؤلف كتاب (ماضي النجف وحاضرها) ٢/ ٣١٣ في ترجمة الشيخ هادي بن الشيخ عباس آل كاشف الغطاء: له أعمال خالدة ومساعي مشكورة منها... إشرافه على بناء المغتسل الموجود الآن قرب بشرعليوي الذي بذل مصارفه المغفور له الحاج مخيف بن شخير تغمده الله برحمته...

الفهرس

